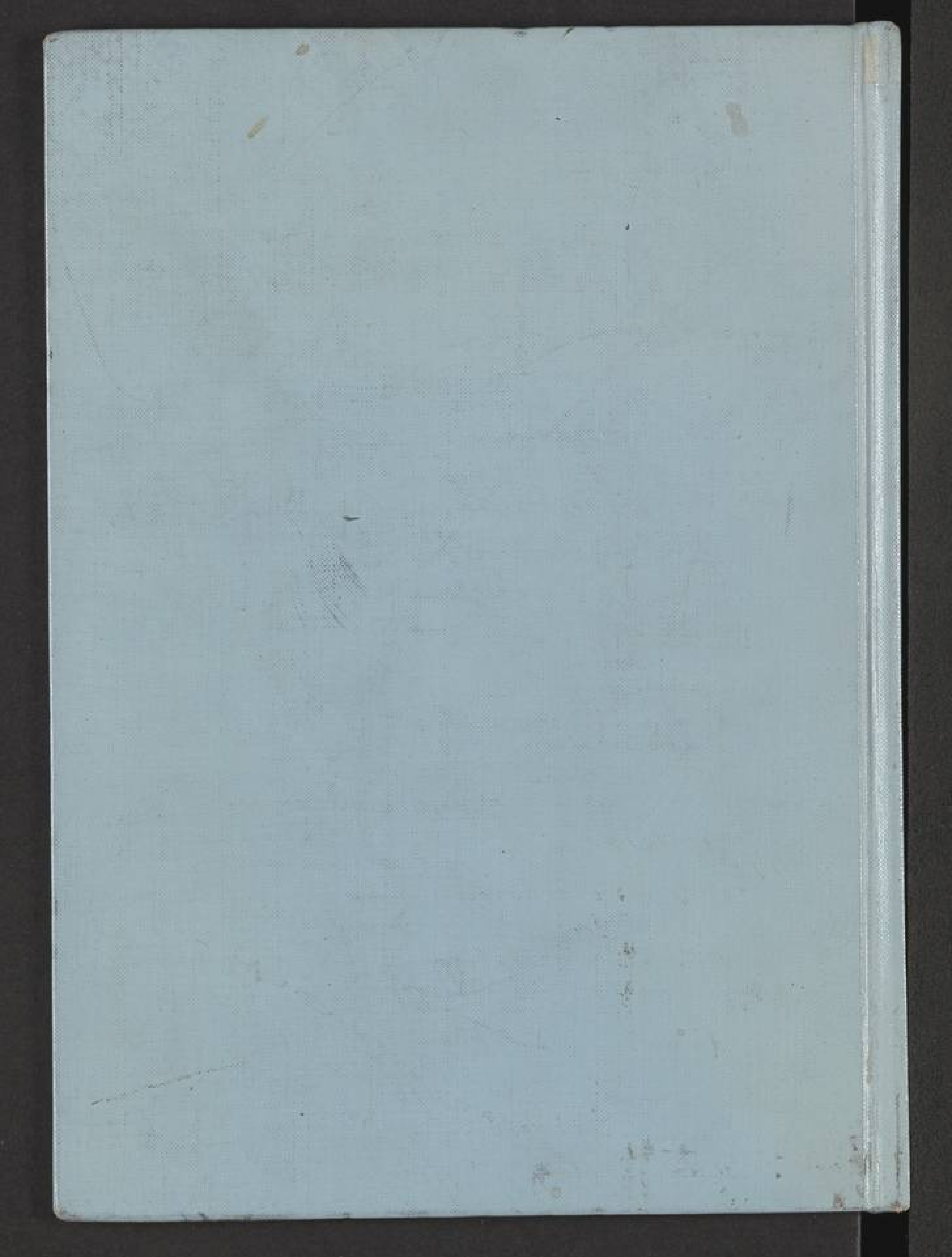
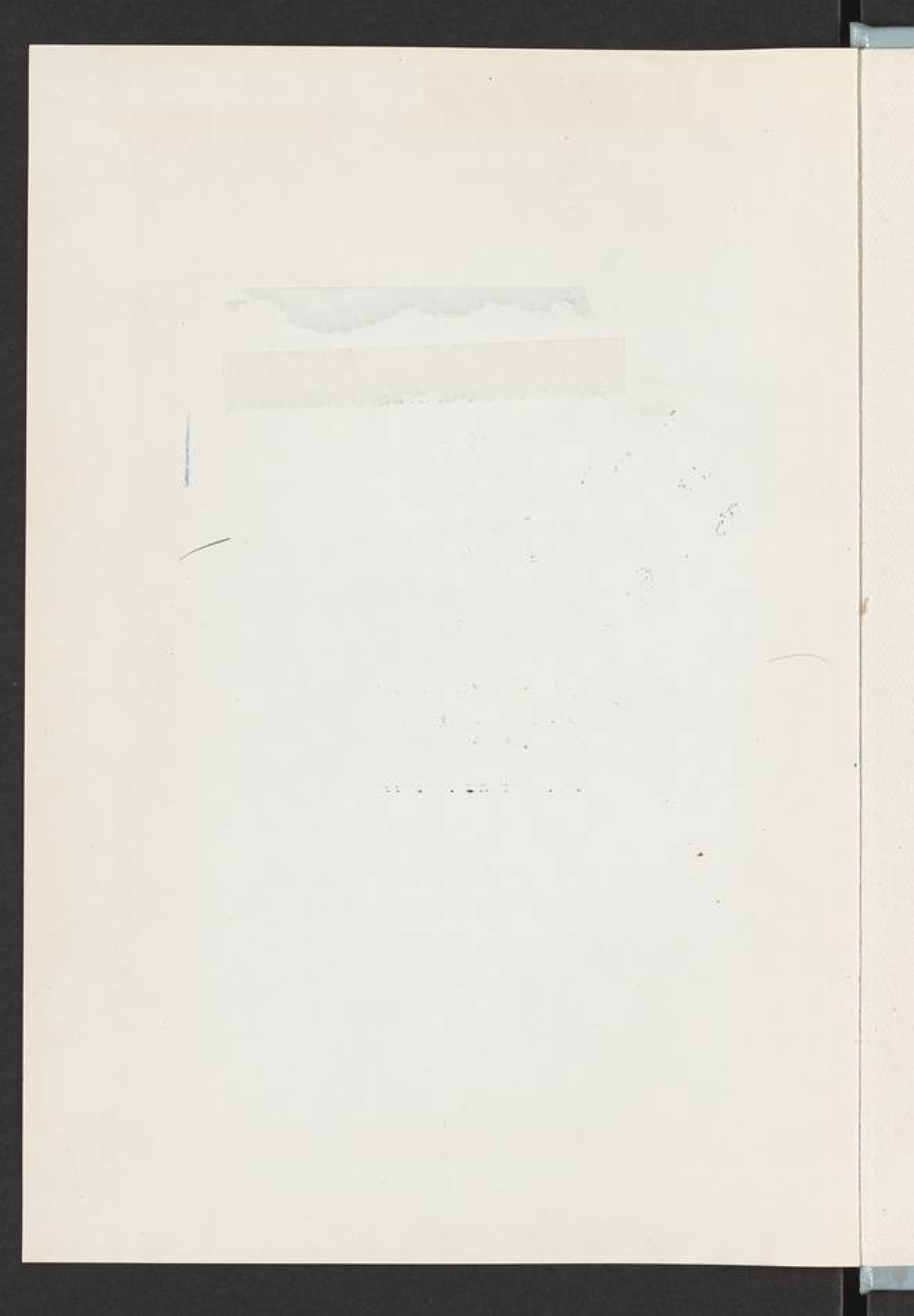
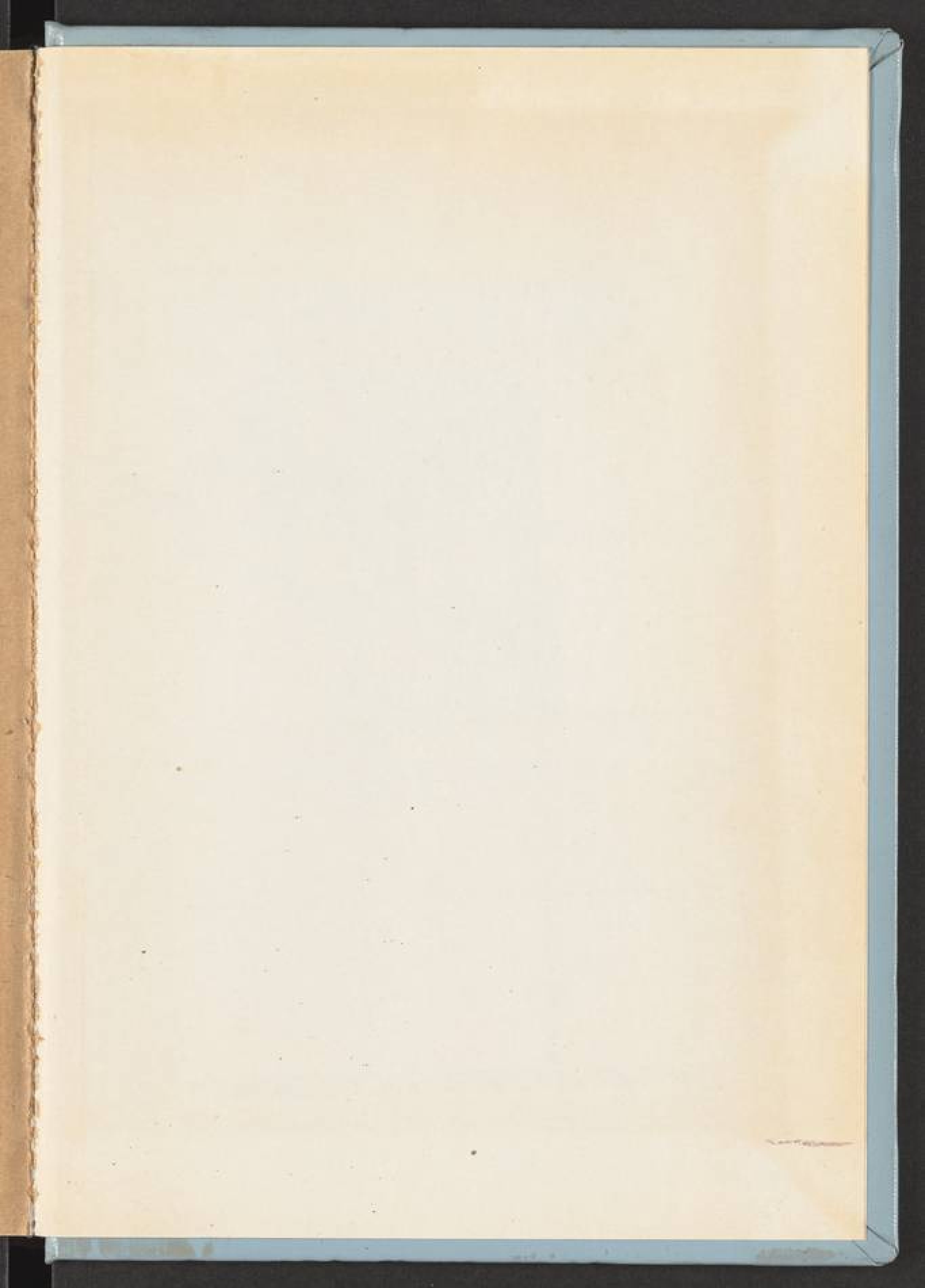










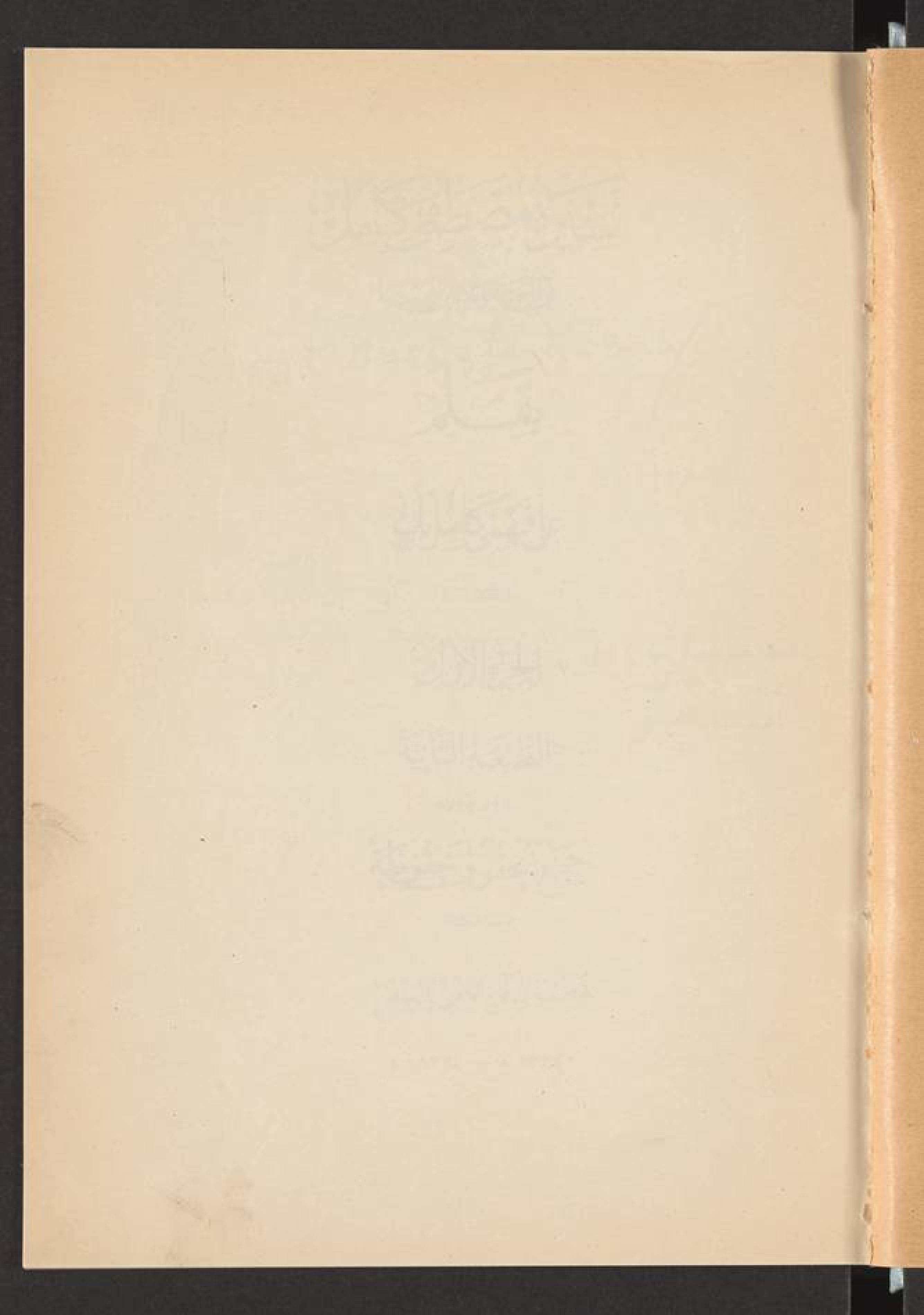
بلادي ! بلادي !

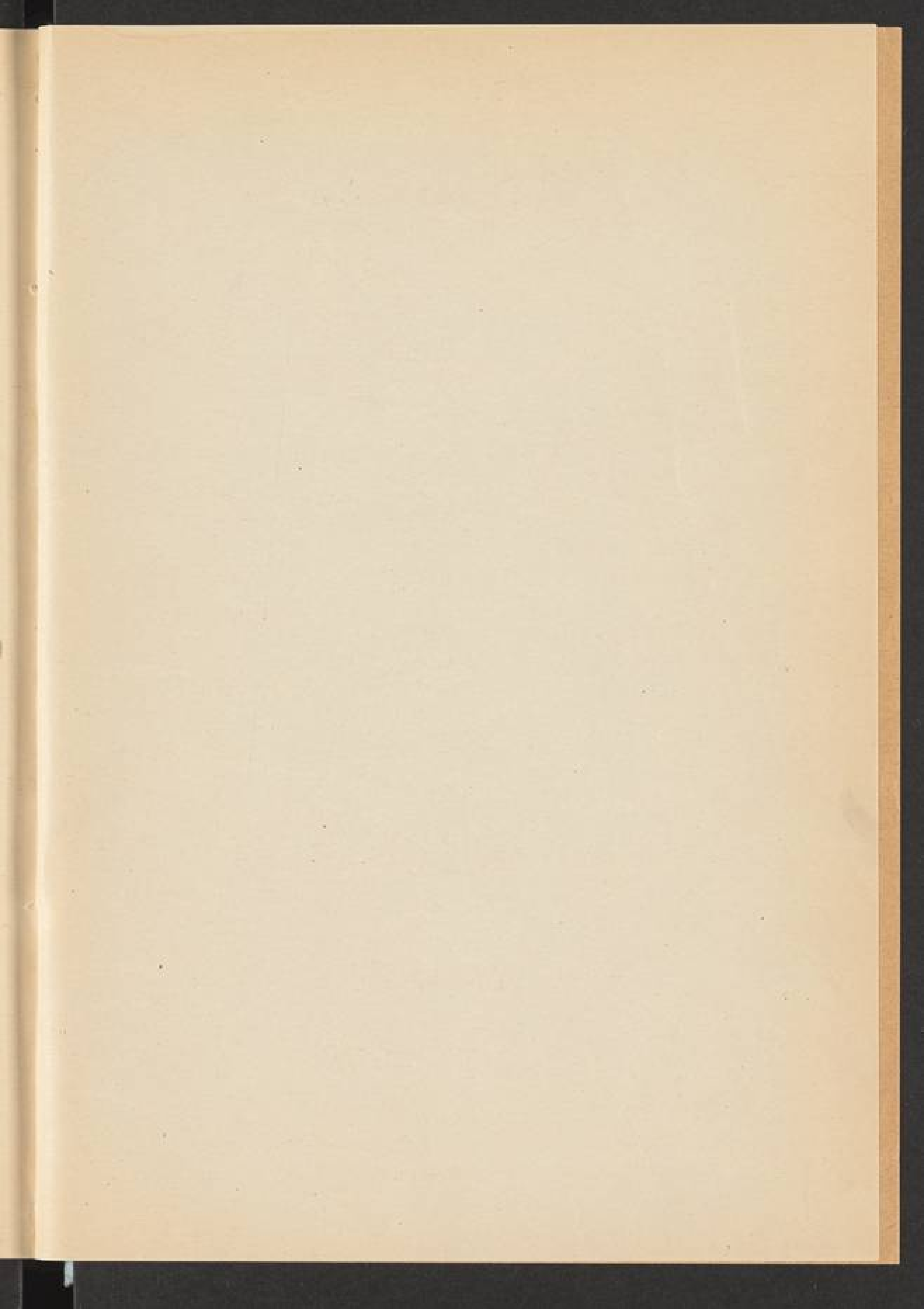


« أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا
مصطفى كامل »

الجزء الأول

91





سيرة مصطفى كامل

في أربعة وثلاثين ربيعاً

بقلم

علي فهمي كامل بك

الجزء الأول

الطبعة الثانية

مطبعة الدفاع الوطني بالقاهرة

١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م

إهداء الكتاب

إلى الوطن العزيز

منك استمد المرحوم « مصطفى كامل » قوة الذود عن حقك المسلوب ، وفى سبيلك ضحى بحياته الغالية ذلك المصري المحبوب وبين ربوعك نشأ وظهر ، فرفع ذكراك بما أدهش وبهر .

خلفه أبوان صالحان ، إليك ينتسبان ، وعلاه الدفاع عن حقوق الاوطان ، بما وهباه من دم كله عزم وولاء وإيمان ، عملا لنصرتك ، وتفانيا فى خدمتك .

فأليك أقدم صحف أعماله ، لينسج أبناؤك على منواله . وما أنا والحمد لله إلا أحدهم ، وجندي من صفوفهم ، قد علمنى ذلك الذي هز نعيه القلوب فسالت بحباتهن العبرات ، أنك فوق الرؤوس والهامات ، وأن لواءك يفدي بالارواح والبنين والبنات ، لانك حي ونحن مائتون ، متبوع ونحن تابعون ، وليس أحب إلينا من خدمتك وأنت سيد الاوطان ، ورفعة أمتنا وهي خير أمة أخرجت للناس من قديم الزمان .

أجل ، إليك وحدك أهدي سيرة من عطفت عليه واستخلصته لنفسك فكان من الوطنيين الاخيار ، والمصطفين الابرار . ومنك أرجو رجاء ابن جم الامل فى حلم أبيه ، سائلا العفو فأنت خير من يسديه ، إذا لم أكن قد قمت نحوك بكل ما يجب علي من واجبي الخدمة والتعظيم ، إن الله غفور رحيم . . . .

على فهمي كامل


شخصيته وعلاقاته
وأحاديثه السياسية

بسم الله الرحمن الرحيم

ألحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين

أما بعد فهذه سيرة المرحوم « مصطفى كامل باشا » التى كنا أصدرنا منها على أثر وفاته تسعة أجزاء صغيرة الحجم ثم حالت موانع إستبدادية وسياسية بيننا وبين المضي فى إتمامها ، حتى إذا ما صدر الدستور ، وعدنا إلى البلاد من المنفى ، ألح علينا الكثيرون فى نشرها ، فصحت عزيمتنا على أن نعيد طبع ما نشر منها ونتابعها إلى نهايتها .

وقد رأينا أن نتبدل من الأسلوب الذى توخيناه فى الأجزاء التى ظهرت بادئا أسلوبا آخر ظنناه أقرب إلى الفائدة المرجوة من تدوين هذه السيرة القيمة .

ذلك أن نشرحها شرحاً موجزاً منذ ولد « مصطفى كامل » إلى أن جاور ربه مع نشر أحاديثه السياسية ، ثم نردفها بخطاباته فى السياسة وفى الأجتماع فرسائله السياسية والأدبية ، فمؤلفاته صغيرة كانت أو كبيرة فالرثاء فالتأبين

« هذا وقد طلبت إلينا الكاتبة الفرنسية المبجلة ، أمنا الأدبية « مدام جوليت آدم » ، أن ندمج فى هذه السيرة ما كان يكتبه إليها زعيم مصر العظيم من الخطابات الخاصة ، كما رأينا أن ننشر كذلك بعض خطابات الذين كاتبوه فى حياته من أشهر الساسة الأجانب ، ومن كبراء المصريين وغيرهم . . . . .

وأنا لا نشك فى أن هذا الاسلوب يستوى والغرض من نشر هذه السيرة العظيمة حتى يسهل البحث فيها على الباحثين فى أي معنى من معانيها

نسأل الله أن ينفع بأعمال صاحب الترجمة الأمة المصرية الكريمة المحتد الجليلة الأثر ، فى حاضرها وفي مستقبلها ، وأن يهبنا من لدنه قوة ورشدا . . .

على فهمى كامل

عظماء الرجال

درس لرجال الغد

حدثنا التاريخ أن عظماء الرجال الذين بعثهم الله فى كل أمة ليرفعوا في العالمين مجد ذكرها ، ويقيموا بجهادهم الشريف بناء فخرها ، ويهبوها السيادة فى ديارها بدفاعهم عنها والنضال عن حياضها ، هم أولئك الذين خلقوا وبين جنوبهم قلوب لا يرهبها التهديد ولا تعوقها عن خدمة الحق المقدس حق الوطن وبنيه إلا وقفة الموت — وهم مصابيح تستضىء الامم بنورهم وتهتدي بهديهم وتنسج على منوالهم لان ما عملوه فى حياتهم يبقى عهدا بينهم وبين من يأتي بعدهم .

وقد اتخذ رجال النهضة الوطنية والحياة القومية تاريخ عظماء الرجال مصباح هدى يسيرون فى سناه ، ونبراسا يضىء لهم طريق العمل والحياة والنجاة .

وليس الرجل العظيم إلا من قام بعمل يعجز عنه معاصروه لقوة ثباته وشدة جنانه ، فهو مجموعة فضائل فى فرد أو جماعة مثلت فى شخص ، فأولئك الذين دوخوا الاقطار وفتحوا الامصار ، وأولئك الذين وهبهم الله الذكاء وآتاهم من لدنه حكما وعلما وأولئك الذين أيقظوا الشعوب من سباتها وردوا إليها ما فقدت من حياتها ، وأولئك الذين وقفوا على أسباب الداء ومواضعه من أممهم فقدموا لها دواء كان رحمة وشفاء ، وأولئك الذين دفنوا المنافقين أحياء وشهروا بالخائنين تشهيرا : هم الذين كانوا عظماء وما زالوا كذلك يذكرهم التاريخ إلى يوم الدين . لانهم بعملهم المجيد وإخلاصهم المتين لبلادهم العزيزة وأممهم المحبوبة قد علموا الاعقاب فرض الدفاع عن الحرية واستقلال الاوطان ، ليشيدوا على قمة المجد الخالد صروحا من الاخاء والمساواة لن تغيرها صروف الزمان ، ولن تبيدها يد الحدثان . فاذا تحرك أي فرد من أبناء مصر إلى أي مكان ، فى أي زمان ، شعر بأنه يمثل أمة كريمة عالية الرأس عظيمة الجاه

مجيدة الاسم ذات شمم وإباء : أولئك هم عظماء الرجال الذين لو سردنا تاريخهم لضاق بنا المقام.

«وليست عظمة الرجال مقصورة على فتح المدائن وتحرير الاوطان بالسيف والنار ، فأن هناك رجلا أعظم من كل الرجال ، ذلك هو الذي يفتح القلوب ويرسم عليها ما شاء من ضروب الوطنية . ذلك هو الرجل العظيم بالمعنى الصحيح . لان الوطنية شعور سام إذا لم تكن الافئدة متشبعة به كان الاحتيال على إدخاله إليها من أدق الصناعات والوصول إلى طبعه عليها مستلزما بذل أقوى الجهود .

«فالرجل الذي يستطيع بقلمه ولسانه وما بينهما من همة لا تعرف الملل وعزيمة أمضى من السيف ، أن يكون قلوبا حساسة تدرك ماهية حب البلاد وتضحى بكل نفيس فى نصرتها لهو فى مرتبة أجل وأسمي من مراتب الفاتحين بالسيف والسنان ، بل هو الخليق ولا نكران لفضل أولئك أن تسير بعظمته الامثال .

« لان من يعتمد على النار والحديد فى تحرير بلاده إنما اعتمد على القوة الساحقة بصواعقها المبيدة ، على ما تستدعي من إراقة دماء بريئة ربما ذهبت دون الوصول إلى الاستقلال المحبوب والحرية المنشودة والحق المغصوب وربما التوى عليه الامر وانعكست النتيجة فكانت مصيبة لا تحتمل بل جريمة لا تغتفر!

«أما ذاك الذي يعتمد على القلم واللسان فيملي عليهما ما وهبه الله من علم وبيان يسحر بهما القلوب فيجمعها فى قبضته ليصوغ منها أمة حية راقية ، فهو أعظم مشيد للمجد فوق أمتن أساس

«وكيف لا يكون عظيما من ملك القلوب ؟ وهذه القلوب هي الحياة مجتمعة وقوة البلاد محتشدة ، بل هي التى إذا هاجت سمعنا لحامليها زئيراً أشد دوياً من زئير الآساد . هي القلوب مصدر كل حركة ومركز قيادة الاعمال ، بل هي باعثة النور للحواس فلا إرادة إلا بها ، ولا عمل إلا منها ، وبالجملة لا حركة تبدو إلا بتأثيرها فمثل النجوم التي تكتسب ضوءها من القمر كمثل قلوب إنسانية اجتمعت حول رجل عظيم .

«وعلى ذلك وجب أن يكون العظيم حاملا قلباً كبيراً وفؤاداً حساساً ذا شعور

عديم المثال ، حتى يكون ذا سلطان فعال وسطوة نافذة على مواطنيه . ولما كانت الفضائل هي أساس الوطنية الصحيحة كان قلب الرجل العظيم فى أشد الحاجة إلى التحلي بها حتى تهش إليه سرائر مواطنيه .

«وهذه الفضائل كثيرة نذكر منها قوة الارادة ، والتعويل على النفس ، مع الصدق والشجاعة والامانة ، والسعي فى الخير ، والنشاط النادر ، وسرعة الخاطر ، مع العلم الصحيح ، وقوة الخطابة مع الصراحة التامة ، والافصاح بلغة صحيحة سهلة مؤثرة .

«هذه هي الفضائل التي إذا اجتمعت فى شخص فر اليأس من وجهه ولازمه الرجاء ملازمة الروح للحياة . وهي ليست لمن يكون قائداً سلمياً فى ميدان العمل لرقي أمته وفك قيود استعبادها وإحلالها المكان الاول بين الامم والشعوب إلا عدة كالتي يحملها محرر أمته بأراقة الدماء . لان كليهما جندي ولكل ميدان عدته . فالبندقية ورصاصها ، والسيف وحده ، والرمح وسنانه ، والمدفع وقذيفته ، وغيرها من القوى المدمرة المبيدة للامم ليست فى الحقيقة إلا أسلحة بين يدي القائد الغازي كما أن تلك الفضائل ليست إلا معدات أقوى من الاسلحة في نفس قائد الشعور . ذلك لان المعدن بائد والشعور باق . والعرض زائل والجوهر ثابت . وفى الاول — ولو أنه أصدق من الثاني فى سرعة الانجاز — خطر كبير من خشية رد الفعل . أما الرقي من طريق إحياء الشعور فلم يقل قائل إنه خطر متى كانت عدة محييه ما ذكرناه من الفضائل .

«وليس عظماء الرجال من طينة تخالف طينة البشر ، ولكن روحهم تمتاز عن غيرها نورا وطهرا ، وليس مثل روح الرجل العظيم بين أرواح إخوانه إلا كمثل مصباح فى وسط قوم يستضيئون بضوئه فيبصرون به ما حولهم من طيب وخبيث ، فاذا اختفى حلت بينهم الظلمة محل النور ، والسكون محل الحركة ، وأصبحوا لا يقوى أحدهم على أن يبرح مكانه أو ينقل قدمه حتى يأتيهم مصباح هدى يهديهم الصراط المستقيم .

« نعم هذا شأن عظماء الرجال الذين وهبهم الله ما ذكرناه من الفضائل ..

« لان الارادة رأس العمل فلا حياة إلا بها وقد اتفق العالم الحكيم قديمه

وحديثه على أن الارادة هي القدرة ، فان أردت قدرت ، وليس الغرض من الارادة أن يأتي المرء بالمستحيلات، بل الارادة فيما يكون من قدرة الانسان عمله والقيام به. والدافع إلى الارادة الرغبة فى العمل والاخلاص فى محبة الاوطان ، فالذي يشعر بأن عليه لبلاده واجبات يحتم على همته وشممه ووفائه بالحقوق وبره بوطنه أن يقضيها ، يرى على الدوام في نفسه ميلا إلى معاونتها والوقوف فى وجه الطامع فيها ، الهادم كيانها ، الضارب بين أرجائها بمعاول الظلم والجهل والدمار .

«فهذه الارادة الحديدية التى تظهر على محيا عظماء الرجال ، وتدفعهم إلى العمل لسمو الاوطان ، فتنزلهم الامم منزلة شماء وتسكنهم مكانة علياء ، هي الصفة التي يجب أن تكون أمامنا فى كل وقت ، والتى يجب أن نحتال على إيجادها لتكون أول نعت من نعوتنا، بل قوام دمائنا، حتى نبنى عليها ما فاتنا ونعز أبناءنا بوطن عالي الذرا سامي المقام .

«هذه الارادة هي التى لو سكنت جسم فرد لاصبح عدة أجسام ، ومهما صادف فى طريقه من عقبات ترجعه إلى الخلف مرة فان الارادة تدفعه إلى الامام مرات ، فلا يجد في طريقه صعبا ، بل يصير شجاعا غيورا ومقداما عاملا ، ويكون مثله كمثل الماء لابد أن يفتح له مع الايام طريقا مهما كانت شدة ما فيه من صخر وقوة ما فيه من مادة .

« وكذلك التعويل على النفس من أكبر صفات العظيم وهو يلازم الارادة بل هما توأمان ، وإذا كانت الارادة ما ذكرنا فان التعويل على النفس هو أن يضع المرء أنموذج عمله بنفسه غير معتمد إلا على عضد الله ، وعليه أن يراقب هذا العمل مراقبة الساهر عليه . وإلا فانه لو وضع الاساس وترك البناء لغيره بلا مراقبة منه تتعهد إصلاحه لاصابه من حيث لا يدري خسار كبير . فمن يضع يده فى الماء ليس كمن يضع يده في النار

ماحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

«التعويل على النفس دليل الشعور الدقيق وعنوان الفخر الدائم لمن اتصف به لانه يدفع الانسان إلى البحث فيقف على دقائق الامور وأسرار الكون ويرشده إلى وجوب السعي فيكون سيد نفسه عزيزاً فى قومه لافضل لاحد عليه ، وكفى

أن يكون التعويل على النفس قوة من قوى الخالق التي ينفخها من روحه في نفوس عظماء الرجال .

« والصدق من أجل الصفات،لانه ميزة الرسل والانبياء ، وخلة الاتقياء، ومهابة العظماء ، ومجلبة النجاة ، ودليل الحق، ورسول الحب والتآلف بين عباد الله . فبه تتم الثقه بين الناس ، وتسهل المعاملة ، وتقل الجرائم. والرجل الصادق يتحاشى ارتكاب مايشين خوفا من إقراره بالحق إذاهو وقع في الأثم يوما . فالصادق في قوله لايشرب الخمر ولا يلعب الميسر ولا يأتي فاحشة لئلا يسأل عما أتى من المنكرات فيهتك ستر سمعته ويؤذي سيرته . بل الصادق هو خادم أمين من خدام الانسانية .

«هذا قليل من كثير من أمر من يصدق في عمله وقوله . وأما الكذب فهو العار الاكبر والسوء الامر ، وقد ذكره الله في كتابه الحكيم مقرونا باللعنة الى يوم الدين . فالكاذب لايكذب فقط على من حوله من الناس بل يكذب على الله وأنبيائه وملائكته ورسله.

«إن الكاذب يكذب أيضاً على الوطن وبنيه وليس بأوقح من رجل حشر نفسه في زمرة العظماء ليخدم وطناً ويرقى أمة ويكسر قيود أسر وسلاحه الكذب . لان الكذب خيال وخدمة الوطن حقيقة وهما ضدان لايجتمعان وخصمان لايتفقان .

«والامانة من صفات الرسل والانبياء وقد حتم الله أن تكون فيهم لانها فضيلة كبرى . وما بعث الرسول إلا ليكون ملقن فضائل ، ومبدد رذائل ، وقد وجب أن يتحلى بها كل امرىء وخصوصا العظماء .

«والامانة صفة كلها نور وجلال ، من اتصف بها كان قلبه نقيا لانه إذا اوتمن على سر أسر اليه فلا يفشيه ولا يذيعه وإذا اوتمن على مال حافظ عليه ولم يمسه بسوء وإذا اوتمن على عرض كان عليه حارساً أميناً. وما كرامة الامة إلا عرضها العام.

«وقد سمي النبي عليه الصلاة والسلام بالامين تنويها بفضل تلك الفضيلة وسمو الموصوف بها فقد ائتمنه العرب على أموالهم وأولادهم وأرواحهم قبل أن ينزل عليه الوحي فكان نعم الامين إذ حفظ الاموال في تجارتهم وزادها وأنماها ، ورد إليهم أولادهم، وأمنهم على أرواحهم بروحه، فكان أعظم مثال للناس جميعا.

« هذه الصفة التي نعت بها سيد البشر ورسول الخير حبيب الله لم لاتتصف بها

جميعا لتقرب بيننا وبين أسلافنا مسافة الخلف ونكون أحب أمة إلى الله ، ونحن أحق بهذا الحب. لان النعم التي وهبنا إياها من جمال السماء ونعيم الارض وعذوبة اللغة وطهارة الدين الذي هو دينه عز وجل تنادي بأنه تعالى فضلنا على العالمين وأننا أمناء في الارض على أثمن وأنفس خزائنه المليئة عدلا وإحسانا .

« إن الذي لا يكون أمينا يكون بالطبع خائنا . وهو وصف سوء يهز الجسم إذ اتصل بالاذن هزا . لان الخيانة أم الغدر وحيلة الشيطان. ولن يهب الشيطان الناس حلالا . فهي تمزق الاعراض وتأكل أموال اليتامى وتبيح الاسرار. وإذا كان الامين يحسن إلى الناس بامانته مرة فالخائن يسيء إليهم ألوف المرات حتى إذا كانت أسرار الوطن فى قبضة يده سلمها وأصبحت الاجيال المقبلة بلا ذنب جنته ولا جرم أتته فى ذل دائم وأسر مقيم ! فالخيانة شيطان الفساد ولا يكره الله مخلوقاً أكثر مما يكره خائنا خلق من طين وطهر وهو يقول أنه خلق من نار وعار .

« إن الخائن الذي يدعى أنه من عظماء الرجال فى خدمة الاوطان لا يلبث أن ينفضح سره بسلاحه ، لان خدمة الاوطان تتطلب الامانة ولا يحمل جوف قلبين ولا يعي قلب نقيضين فتبا للخيانة وتعسا للخائنين !

« والسعى فى الخير أول نعت من نعوت العظماء الذين يخدمون بلادهم . وليس هناك خير أغزر مورداً وأعظم قدراً من محبة الوطن . لانه الميدان الذى يلقى فيه العظيم بذره فينمو وتكون منه شجرة مباركة تهدى إلى الناس أحلى الثمرات ذوقا فمنها يأكلون ، وتنشر ظلها الوارف فبها يستظلون ، هذه الارض المقدسة التى لو حللت أجزاؤها لكان له فى كل ذرة منها ميراث كبير هو عظام آبائه وأجداده الاولين .

« هذه الارض التي لو ضحكت لاضحكت الوطني ، ولو بكت لابكته فخيرها خيره وشرها شره . فهي أمه وأبوه وبنوه ، بل أنه قطعة منها قامت لتدفع عنها الضر حتى إذا ماأدت لها واجباً وأحسنت عملا عادت إلى مكانها منها لتلقى من ربها الجزاء الاوفى « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم . »

« وإذا كان السعي فى خدمة الوطن من أول وجوه الخير فكذلك يجب على الرجل العظيم أن يكون باراً بأهله وعشيرته مؤلفاً بين قلوبهم خاطباً ود جامعتهم ،

فقلبه الذى امتلا بالتفاني فى إعزاز البلاد ورفع قدر الامة يجب أن يكون شفيقاً بالفقراء واليتامى داعيا الاغنياء والموسرين إلى الانفاق فى سبيل تعليمهم وتثقيف عقولهم وتذليل مرافق الحياة أمامهم ، لان الفقراء هم حملة الاغنياء إن أخلوا بهم يوما سقطوا من أعلى نعيمهم إلى حضيض الفاقة .

« وعلى العظيم مع هذا القلب الرحيم بالمساكين وأبناء السبيل أن يكون شديد البطش بالخائنين والمنافقين ، حتى لايتسرب فعلهم إلى القلوب فيكسرها والشعور الحي فيضعفه .

« أما النشاط في العمل فهو أول الضروريات للرجل العظيم لانه يلازم الارادة والتعويل على النفس ، ولان وازع حب البلاد الذي سكن فؤاده وانطبع على حواسه يدفعه إلى مواصلة العمل لنيل أمنيته . فهو لايدع عملا لغد ولا يترك فرصة تمر حتى يستفيد منها ليكون مثال الجد فى كل حركاته أمام من هم حوله ممن يعدونه فى عمله حتى إذا أصابه مرض قوى على احتماله وثابر على الكفاح لئلا يستولى اليأس على قلوب من يستمدون نور روحه في سبيل خير جهاد إذا غلب سقمه عزيمته.

« أما سرعة الخاطر والعلم الصحيح فكلاهما مرتبط بالآخر غالبا . والاول هبة يهبها الله من أعده لعظائم الامور ، والثانى مكتسب لايناله المرء إلا إذا كد ليل نهار للحصول عليه ، وارتشف من منهله العذب ، فأخذ باللباب دون القشور واتصف بالكمال الذي هو شارة العظماء ورداء الكبراء .

« وسرعة الخاطر هبة إذا وهبها الله امرأ ربح منها ربحا كبيرا ، لان السعادة وليدة التوفيق وليست هذه إلا توفيقا يناله المرء من سرعة الخاطر . فالسعادة بكل معانيها لا بد أن تزور المرء ولو مرة واحدة فى العمر ، فأن وجدته أهلا لها بأن أكرم مثواها وأحسن لقياها سكنت إليه وكانت طوع يمينه مادام حيا ، حتى يمتد ظلها من بعده على أهله ومن اشترك معه فى العمل من بنى وطنه ، وإن لم تجده أهلا لها دخلت من الباب اليوم وخرجت من النافذة غداً .

« فسرعة الخاطر هى التي تميز في الغالب عمل زيد عن عمل عمرو ، لان من الناس من تمر أمامه حادثات لو عرف كيف يستخدمها لاصبح من كبار الاغنياء ، ومنهم من يلهمه الله فكرة لو عمل على تحقيقها ونشرها لسطع عبير اسمه فى الآفاق ، كاختراع

مفيد أو اكتشاف جليل ، ومنهم من يتوقف نصره على عدوه في ميدان الضرب والنضال أو المناقشه والجدال على خاطر صغير يمر بمخيلته فيضم بتنفيذه أملاكا واسعة إلى خريطة بلاده ، فضلا عن صيانتها من تهديد الاعداء .

« نعم إن سرعة الخاطر هي أس السعادة لمن وهبه الله إياها ، ولو اطلع المشتغلون بأية مسألة عمرانية كانت أو مالية أو سياسية على أسرار التوفيق الذي يهبه الله من يختصهم به لسرعة خاطرهم وتصيدهم الفرص في حينها، لعرف أن انتصار دولة على دولة وتفوق سوق على سوق ليس الا من هذه الهبة الكبيرة هبة سرعة الخاطر .

« وأما الصراحة في القول فهي ألزم للعظيم الذي وقف وقفة الاسد أمام خصمه دفاعا عن حق اغتصب أو ميراث سلب أو أموال نهبت أو ضياع اغتالها مغتال ، لانها أقوى حجة من حجج الحق .

« ورب قائل يقول إن السياسة تقضى بالمداراة وما كل حقيقة يصح أن تقال ، نعم إن هذا رأي صحيح يجب العمل به في بعض الاحوال التي يدبر فيها عمل للانتقام من خصم بحيث لو افتضح أضر ضررا بليغا بما يحدثه من رد الفعل وسوء العقبى ، ولكنه من الضروري عند اقامة الحجة على سالب الحق المقدس أن تكون الصراحة على رأسها وأول ما يجب في تأييدها . لان المراوغة والخداع والمكر التي تتطلب عدم الصراحة لا تكون من صفات عظيم يدرأ تهمة أو يشرح جريمة شاهد وقوعها العالم بأسره ولها نص صريح بين المتعاقدين ، وحكم عدل بين تضاعيف القوانين . كذلك الذي يدافع عن قضية لشعب بأسره أغتال محتله اغتيالا مرافق حياته وحرمه من السيادة في بلده بما حنث فيه من يمين أو نقض من عهد ، في حاجة إلى هذه الصراحة لان خدمة الاوطان ليست الا أحد مظاهرها . وإذا كان هذا حالها فكيف إذاً لا نعترف بأنها من أكبر صفات عظماء الرجال ؟؟

« وأما قوة الخطابة ففضلها واضح وضوح الشمس في رائعة النهار ، لان هذه الهبة الالهية الكبرى ليست مما يطمع فيه كل أمرىء ، وهي عون من أعوان التأثير في القلوب ، وغذاء من أقوى أغذية النفوس . فالخطيب القوي بلسانه وبيانه ، العالى بصوته وبرهانه ، المحق بحجته ، الجريء بقلبه ، المحبوب بنعوته ، الفصيح بلغته ، يبلغ من قلوب سامعيه في ساعة مالا يبلغه قلم سيال في أشهر وأعوام .

« بل أن خطابا واحدا مؤثرا يفعل فى العقول مايفعله الغيث فى الحقول، فهذا على أثر مفعوله تترعرع الاغصان وتزهر وتثمر ، وذلك يقوي سيال القلوب الطاهرة فيقربها بعضها من بعض ويخرج منها ، قوة تكون أقرب إلى نصرة الحق منها إلى الباطل فيظهر الحق لكل مغرور أو مستضعف فى الارض، وتضىء معالم الحقيقة كما تضىء الشمس فى كبد السماء.

« لان اجتماع آلاف من القوم فى صعيد واحد ليس فى الواقع إلا احتشاد قلوب إنسانية حساسة ساقها إليه حب الوقوف على دقائق القضية المطروحة، ومابالك بقضية هي أم القضايا، بل أول وآخر أمنية إنسانية لاوجود لمخلوق الا بسببها ولا شرف إلا منها ولا حياة الا بربحها وهي قضية الوطن .

« فآذان هذا الجمع تسمع بكل تشوف وشغف ،وعيونه تبصر بسرور وارتياح وقلوبه تجد فى قول الخطيب دواء لجروحها وشفاء من آلامها وتأمينا على شكواها فرأس مال قائد الشعور هو قوة الخطابة التى لايختلف اثنان في مضائها

« وأنه إذا كان لتأثير قوة الخطابة هذا المكان الجليل من الارواح فقوة اللغة لاتقل عنها بل هي مغزاها وقوامها . فالخطيب الذى يخدم مبدأ تميل إليه القلوب وتصبو نحوه النفوس إذا كانت لغته عزبة فصحى سهلة على سامعيه كان له على الافئدة من الفعل ماللشمس فى الحياة أو للقمر فى تبديد الظلمات .

« كل هذه الفضائل إذا تحلى بها رجل لايدخل اليأس على فؤاده بل يعتصم بالصبر والثبات ،غير ،ملتفت إلى ما يقف فى طريقه من تهديد العدو أو نفاق المنافق أو خيانة الخائن، إستطاع لامحالة أن يذلل كل صعب ويصل إلى بغيته ويؤدي لامته أكبر خدمة .

« وهذه الفضائل منها ماهو وهبي يهبه الله من يشاء من عباده فلا قدرة لمخلوق أن يبلغه بمحض إرادته ، ومنها ماهو كسبي وهو مايستطيع كل امرىء أن يناله بجده واجتهاده.

«من هذا ترى أن عظماء الرجال أفراد يعدون على الاصابع، يوجدهم الله من حين إلى حين في الامم ليأخذوا بيدها ويدفعوا بها إلى طريق الحق، طريق الحرية والاخاء والمساواة .

« ولما كانت مصر أحد الاقطار التى وهبها الله مزايا قل أن يجـدها الانسان فى قطر آخر من جودة التربة واعتدال الاقليم كان خروج أبنائها منها نادرا لتوافر أسباب الراحـة فيها ولذلك حافظ أفراد الامة المصرية العزيزة على وجه الشبه بين بعضهم و بعض ، كما نزح إليها الكثيرون من كل طرف من أطراف المعمور ليسعوا فى منا كبها ويأكلوا من خيراتها . ولكن هذا التزاحم كان مقصورا على ميدان العمل خارج هيئة الحكومة فلما نزل الاحتلال بأرضنا باسم نشر لواء الامن بعد الثورة العرابية المشؤومة تمادي فى تدخله وأكثر من إغاراته وغزواته حتى جار على مرافقها الحيوية وبدل المصرى بكل جنس في حكومة بلاده وقلد الرئاسة فى كل فج للدم الانكليزي واستعان على سلب حقوق مصر الطبعية والشرعية بما هداه إليه دهاء القوة وخبث السياسة من الوسائل والاساليب وأغرى من أغري بالتعاون على انتهاب موارد الرزق ومرافق الحياة التي كان المصريون أحق بها وأهلها وشن على هذا الوطن العزيز الغارة أثر الغارة تارة فى شكل الصديق الذى يغار وتارات فى صورة العدو الذى يجاهر بالعداء وما يكنه أعظم. وحارب الذكاء المصري الفطرى فى دوائر التعليم المصوغ من معدن المآرب السياسية ، وضيق النطاق على اللغة الاهلية ليقطع بين السلف والخلف تلك الوصلة المكينة والجامعة المتينة جامعة اللغة، وضرب على المدارس نطاقا من غلاء الاجور ونقص العلم والاستهانة بالتربية ، وأخلى منصات المناصب الاميرية والوظائف الرسمية فى حكم البلاد من النوابغ المصريين الذين يستطيعون أن يشرفوا قدر أمتهم ويدلوا على ما للامة المصرية من عظيم الاهلية والاستعداد الباهر لحكم أنفسهم بأنفسهم ، وأثقل عاتق خزانة الحكومة بما تدفعه من المرتب الباهظ لجيش الاحتلال الذي بدأ مئين مئين وعاد آلافا آلافا، ولم يذر وسيلة للنكاية بالامة إلا تذرع بها واتخذ للكيد لها ما شاء الاستبداد والاستئثار. وجمع لها من سيطرته الغاشمة ومزاجه الثقيل خصما يبتز من أيدى أبناء البلاد مالهم فيها من الحيثية والاولوية وسلط عليها جندا آخر من مركزه المريب وسلطانه الموهوم رجاء أن يضربها الضربة الاخيرة فيتوارى الحق ويظهر عليه الباطل ! وكان الله لطيفا خبيرا.

« فكان المصريون يهمسون بالشكوى ويتواصون بالحذر والصبر ولا يستطيعون

الجهر بالتألم من سوء ذلك التصرف لانهم فوجئوا مفاجأة بالاحتلال ، ولم يغن عنهم شيئاً ذلك الاعتقاد الصحيح ، إعتقاد أنهم أصحاب الشأن في بلادهم وأنهم أمة مستقلة استقلالا إداريا ،خاضعة للدولة العثمانية العلية صاحبة السلطة الشرعية على البلاد . كما أن العلم بأن ذلك الاستقلال مضمون بالمعاهدات والفرمانات لم يكن ليلطف شيئا من حزنهم لما جرته الثورة العرابية التى كانت بلاء محضا وشرا صرفا على البلاد . فضرب اليأس على ضفاف النيل، ولم يكن غيره حرا من قبل ،وكاد ينقطع عرق الرجاء من كل صدر وضعف الامل فى الخلاص من ذلك البلاء المخيم فى طول البلاد وعرضها تحت اسم الاحتلال الانكليزى . فتضايقت النفوس ووجلت القلوب وانعقدت الالسن حتى عن تبادل الشكوى وخفتت الاصوات حتى لم يكن يكاد يسمع لمصر أنين من بلاء حاضر ، ولاحنين إلى مجد غابر ، ولمصر هذه فى كتاب الدهر التاريخ الذى يدعوها إلى الكر على الآثار دون الوقوف لتشييعه بالابصار !

« فلما بلغت الروح الحلقوم ، وغلب اليأس الامل ، وأوشك ألا يبقى فى قوس الرجاء منزع ، تلفت المصريون يفتقدون النصير ويلتمسون المجير وينذرون للرحمن النذر إن فرج عنهم الكرب وبعث فيهم رجلا عظيما منهم يقاتل الخصم واليأس فى آن ، ويقاوم أعاصير الحوادث مهما جرى على خطته الزمان ، ليكون وراءه صفا صفا وهم مسرعون إلى تلبية ندائه كلما نادى ، مؤمنون على دعائه كلما دعا وللعناية نور فى مرائيها .

« وفيما هم يودعون الحياة ويصافحون الموت ويوطنون النفس على احتمال المكروه إلى النهاية حتى يأتيهم أمر الله وتحق عليهم الكلمة بما فرط أولئك الذين قاموا بالثورة فأذكوا نارها وشبوا أوارها أو من عليهم المقادير باجلاء ذلك البلاء حين تشاء ، أراد تبارك وتعالى أن يعلم الناس وله المثل الاعلى أن نعمته لا تخص أمة معينة فى وقت دون وقت ، وأن رحمته التى وسعت كل شىء ، لاتضيق بشعب دون شعب ، فبعث فى المصريين رجلا عظيما اصطفته عنايته الصمدانية من القدم لينفض عن أعطاف هذه الامة الكريمة غبار اليأس ، ويمسح عن عيونها قذى الاستسلام ، ويضن بها على المهانة وذل المقام ، ويهيب فيها بصوته الذي يقطر حماسة ، وبيانه الذي يتدفق غيرة وسحرا : « أن جاهدوا أيها المصريون فى سبيل الحرية والحياة فقد جاءكم بكلتيهما البشير » .

« فأفاق المصريون من ذلك السبات العميق ، ونهضوا مشتبكة أحداقهم ، ملتفة قلوبهم حول هذا الداعي البشير ، وتأملوا فاذا مصري من لب الامة وصميمها نهض بهذه الدعوة المباركة ، ونور الحق يتلألأ على جبينه كما تلألأ من قبل على جبين الهداة الابطال ، ولعنايته تعالى مغدى ومراح حول ذاته الكريمة وله من الحق ظهير ونصير .

« نهض أحسن الله إليه وعلى وجهه سيما الهداية ، وفى معارفه قبس التوفيق فأرسل من صدره المملوء حكمة وأملا ويقينا صوتا أول ما هز بناء اليأس فتداعى وانقضت حجارته تباعا ثم استمال إلى حياة القوة القومية أبناء وادي النيل الاعزاء وما جهلتهم ولكن جهلوها ، ولا أنكرتهم بيد أنهم أنكروها ، وأغرى بالخلاص من ربقة الاحتلال هذا الشعب المحبب الوديع ، وما زال ذلك الصوت العالي يرن تحت الافق رنينا متتابعا حتى اخترق الحجب ، وهتك السجوف واستقر فى القلوب لا فى الاسماع ، ثم جاوز منطقة النيل وحملت البرد صداه إلى أنحاء العالم كافة فتسمع دهاة الرجال وأساطين السياسة يريدون أن يعرفوا ما هنا لك .

« فلم يمض إلا القليل حتى رأوا ماهالهم . رأوا رجلا عظيما من المصريين بعث فيهم على حين فترة ، وبعد أن ذهبت الظنون فى هذا الوطن العزيز كل مذهب . ثم نهض بهمته نهوضاً أذل أعراف العوائق واستدعى الاعجاب والاكبار حتى من أشد الخصوم السياسيين وطأة على مصر .

« رأوا رجلا عظيما من المصريين قام يقلب دولة اليأس الذي كان إذ ذاك مستحكم الحلقات رأسا على عقب ويقيم من الامل الذي كان ضئيلا مستضعفا دولة وطيدة الاركان متماسكة البنيان .

« رأوا رجلا عظيما من المصريين قام يبث صدر الامة من عبق العناية الالهية التى تولته فى كل أدوار جهاده الشريف روحا جديدة ، ويذكي فى نفوسهم عزائم توارت وراء الصبر على المقدور زمانا طويلا ، ويعلمهم كيف يقاومون ذلك التيار تيار الاحتلال الذي كان يأخذ كل سفينة من سفن الآمال غصبا ، وكيف يحبون الاوطان إلى درجة الفناء فى نصرتها بلا من ولا تأخر ، وكيف أن صاحب الحق منتصر على مغتصبه منه أيا كان المغتصب وأيا كان المطالب .

« رأوا رجلا عظيما من المصريين أبى لامته ذات السيرة المجيدة في السير والصفحة المذهبة فى التاريخ الصبر على ذل الاحتلال ولو كان المحتلون من حملة العرش ويرفض السكون إلى ظله ولو أنه مستعار من ظلال أشجار الجنة . فكيف به والمحتلون ألد أعداء مصر علي وجه البسيطة . وظله أشد جمودا من مزاجه الثقيل ؟؟ فقام يحيي موات الهمم ، ويعيد المشاعر سيرتها الاولى، وهو خير من تمثل قول القائل :

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل فوق مافعلوا

ونهض يستجيش العزائم ويستنفر الانفس الحساسة مثابا منصورا .

« رأوا رجلا عظيما من المصريين قام يوقظ الامة بعد أن طال إغفاؤها واستوى صبحها ومساؤها ويقول لها : « أيتها الامة الكريمة فى الامم، إن لك حقوقا سلبها الغاصب فطالبيه ولا يؤنسك المطل فهو سجية كل غاصب إلى حين » .

« وأخيرا رأوا رجلا عظيما من المصريين وهو فى حركته وسكونه وقعوده وقيامه وغدوه ورواحه يضرب علي الاوتار الحساسة من القلوب، ويفيض ماجمد من الارادات فى النفوس، ويستثير ما كمن من القوي فى الصدور، حتى جند من الميل إليه والعطف عليه عسكرا جرارا وقف فى مقدمته يناقش الطامع الغاصب الحساب وكل شيء عنده فى كتاب .

« رفع صوته وانتضى قلمه وجاهر بمبدئه حين كان الجبن مستوليا على ألسن عقدت من الخوف ، وأقلام أغمدت من الرهبة ، ومبادىء توارت من الخشية ، وفى المصريين إذ ذاك كما فيهم الآن وفى كل أمة شبيه شأنها بشأننا الماضى، رجال كثيرون من ناس جاوزوا طور الكهولة وناس فى طور الشباب ، وربما كانت وسائل العمل متوافرا بعضها فيهم ، ولكن الاحتلال الذي رهبوا جانبه واتقوا مغبة الجهر بانتقاد تصرفه والالحاح فى طلب جلائه أقام من سلطانه المغتصب وسطوته الموهومة حاجزا حصينا يحول بين الاصوات ومنافذ الغرف . فكان ذلك الفقيد العظيم الذى لاأسميه إجلالا، ومن كان طيفه نورا في الاجفان وآثاره الكريمة خالدة على الزمان فى غنى عن التسمية : أول مصري استطاع بلا كلفة ولا تهيب أن يرفع صوته العالى مطالبا بالجلاء ، ويجرد من قلمه حساما ماضى الحدين يثبت به أحقية هذا الطلب العدل، ويذيع في الناس مبادئه الشريفة المنطوية على كل ما يكفل لهذا البلد الامين عود ماضى مجده .

وهذه المبادىء التي فطم نفسه عن لذائذ الدنيا ليؤيدها ويشرب القلوب حبها والعمل بها، هي الآساس المتينة التى بني عليها وترك لمن بعده إكمال البناء ، ومضى كريم المآثر والهمم والانباء ، متحملا فى سبيل ذلك الجهاد العنيف الشريف أصعب وأثقل ما يمكن أن تتحمله كواهل الالوف المؤلفة غير شاك من ذلك نصبا ولا تعبا .

« نهض فى الوقت الذى تحامى فيه كل مصري أن يناقش المسألة المصرية ولو فيما بينه وبين نفسه لتسلط الرعب على القلوب إذ ذاك ، فعرض نفسه لمخاطر السياسة ودسائس الافاكين وهو يرى جيش الاحتلال ذاهبا آيبا ووراءه الاساطيل الضخمة والجنود المعبأة على شواطىء بريطانيا العظمى فلم يحفل بشىء من هذا . ولا أضعف يقينه ولا أثلم حد حميته ما كان يحس به من خطورة أعظم مهمة لا يأخذها على عاتقه إلا أعظم عظيم ، ومن وعورة السبيل التى يسلكها لرد تلك الغارة الشعواء وإلقاء مقاليد الحكم بين أيدى المصريين بعد استخلاصها من أيدى الغاصبين السالبين . وما كانت تزيده تلك العقبات والمصاعب القائمة فى العمل لتحرير رقبة الامة من ربقة الاحتلال إلا عزيمة ومضاء وثباتا على اليقين ، واستبسالا فى الذود عن كرامة الامة العزيزة وشرف الوطن الاقدس الاعز . بل كان الدساسون والمحتلون يخدمونه من حيث لا يتوقع بما يضعون فى سبيله من العراقيل . لان كل عقبة وضعت أمامه كان يهيىء لاجتيازها قوة يفوق طور العقل تصويرها فيدهش المحتلون لتلك النفس التي لا تني من التربص للعظائم . وبتلك العزيمة التي لا تعد لها العزائم . ولا عجب فما كان فقيد مصر والاسلام والشرق إلا جيلا شريفاً ظهر فى نفس ، وأمة عظيمة تمثلت فى ذات ، وعالما قوياً اجتمع في إنسان ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

« ظهر في مصر « مصطفى كامل » وشمل المصريين أجزاء ولكل جزء لواء ، فلم يرعه الامر ولم يلتو عليه القصد فسعي ماسعى، وعمل ما عمل،وجاهد ما جاهد، حتى تماسك كيان الامة وتعارفت الوجوه وزال ذلك التناكر، ثم اقتحم المجال تقدمه مهابة الحق وحوله نطاق من الانفس والقلوب فكان قلب الوطن الخافق، ولسانه الناطق ، وعزمه الصادق، بل كان في يد الحق السيف البتار، وعلى متون المصاعب الفارس المغوار وفى النزال البطل الشجاع الكرار .

« بل كان كل أثر من آثاره العظيمة فكرا ماثلا رأس الوجود ، وكان ذلك

الهيكل النوراني الشريف هيكل المجد الوثاب ، وكانت تلك النفس العظيمة أشرف نفس استنشقت هواء وادي النيل . ولاعجب بعدئذ إذا كان من ألقابه بحق وجدارة أنه باني أركان هذه الحركة الشريفة، وموقظ الوطنية في صدور المصريين ، ومنشىء الجيل الجديد ومكون مصر الفتاة .

« وتلك المزايا التى أحصى النجوم ولا أحصيها هى التى أتاحت له أن يتصرف فى ملك القلوب التى انطبع عليها بطابع صورته فى صميمها أشرف وأقدس المبادىء والفضائل وأرقى الصفات التى تمكن المصطفين فى الامم وهم قلال أن يجمعوا بينها فتظهر بهم ويظهرون بها في المظهر الاسنى الاسمى .

« لا ريب أن ذلك البطل الخالد أقدر فاتح استطاع أن يفتح أقفال القلوب ليضع فى صميم كل قلب نفسا من أنفاسه الطاهرة وسراً من أسرار الحياة الباهرة، فعرف كل مصري من معاني الوجود ما كان يجهل من قبل ، وتعلم بالعيان والحس أن وراء هذا الشأن شأناً أسعد حالا ومآلا ، وفوق هذه الحال حالا أجل جلالا وأجمل جمالا .

« ولا أغالى إذا قلت فى وصف تلك العظمة التي رفعت صاحبها وهو غض الشباب إلى مافوق مصاف الشيب من المختارين فى الامم قديماً وحديثاً ، إني لم أعرف رجلا عظيما أعزته الحمية ، وسودته النفس ، وامتلأت روحه السامية الطاهرة بكيان الآمال ونظام الامانى ، وبلغ مالم يبلغ إليه شرقي فى دوائر السياسة العالية فى أوربا من النفوذ والاعتبار وجعل لمصر العزيزة مكانة محترمة ومنزلة رفيعة فى المشارق والمغارب . فلا يذكرون هناك الحياة الوطنيـة إلا ذكروه ولا يمجدون كرامة الوطن المصري إلا مجدوه . ولم أعرف رجلا عظيما كان إذا أرسل نفسه هادئا تحركت سواكن القلوب وحييت الآمال فى الصدور ، وإذا أرسله عاليا أقام وأقعد ووعد وتوعد حتى بلغ من شأنه أنه كافح الاقدار ، وواصل فى خدمة أمته بالنزاهة النادرة والصدق المكين والاخلاص الكامل آناء الليل بأطراف النهار . فكان علما تستظل بظله الوطنية و يحتمى به الوطنيون ساعة الخطب المروع وهو أثبت من الاطواد رأياً وقلباً إذا عز النصير وخيف الزيغ وأرهبت القوة . بل أني لم أعرف رجلا عظيما كانت الحمية الوطنية تشتعل فى بعض الصدور نارا وفى البعض الآخر نورا إذا أجرى على القرطاس قلمه الحر الكريم الهوي أو صعد على المنبر داعياً إلى الحياة والمجد والاستقلال ، وقد

لطفت شمائله حتى عادت نسيما يكاد ينشر موتى الآمال ، ويوشك أن يطيل آجال اليائسين، وكان شيطان اليأس وخصومه السياسيون الذين أخملهم حيا وميتا يفرون من بين يديه خوفا من قوة حجته وثبات عقيدته وسمو عزيمته وطهارة نفسه وسليقته ولم أكن أعرف أن فى مصر رجلا عظيما صادق الكرم بنفسه ونفيسه وجهوده على كل مايرقى شأن الامة المصرية ، ذائدا بشباة قلمه وأسلة لسانه وخطرات قلبه عن حوض الوطن العزيز المقدس ، مضحيا بأشرف حياة وأكرم عمر فى سبيل الاستقلال — أقول لم أكن أعرف أن رجلا عظيما فى مصر جمع إلى هذه المناقب التى يعز أن يجتمع بعضها عند القياصرة والا كاسرة أضعاف أضعافها إن كان للمزيد فوق ماتقدم من مكان : قبل أن أعرف ذلك الذي جاور ربه كريم الآمال والاخلاق والمواهب ، ومضى إلى رضوانه سامي الهمة والنفس والمراتب ، حميد المآثر والمزايا والمناقب المغفور له « مصطفى كامل » . وما قلت فيه والله على ماأقول شهيد الا بعض ما أعتقد أنه صحيح ليس فيه من غلو ولاريب .

« نعم ما كنت قبل أن أعرفه أعتقد أن في صفوة بنى الانسان من تسمو به فطرته ويؤهله استعداده الطبعى ومقاصده التى هي من صنع النفوس التى ليس لها طراز إلا بين جنوب المصطفين للقيادة العامة، إلى تلك المرتبة التى هي أرفع وأسمى مافى طوق غير الانبياء والمرسلين الوصول إليه .

« ولقد أثمر جهاده الشريف ورأى قبل أن يختاره الله لجواره ثمار غرسه المبرور يانعة فى كل مكان . أو ما ترى أني ألتفت وجوها لم تنبسط بعد انقباض الاسى المعاود إلا وفي أساريرها إشراق الرجاء ، وعزائم وقفت على خدمة الوطن عملا بارشاد ذلك الفاتح المجاهد بالقلم واللسان لابالسيف والسنان ، وصدورا ملئت بالرجاء في قرب تحقيق ذلك الوعد الذي بشر به ذلك الفقيد العظيم ؟ ؟

« جس خلال الاندية ناديا ناديا ، وطف ماشئت من المجامع مجمعا مجمعا ، وتفقد المدارس على اختلاف نوعيها وتفاضل درجاتها تجد الناشئة المصرية وقد توزع عليها بعض صفات ذلك الفقيد العظيم فنقلتهم من حال إلى حال وعلمتهم أن جلال الوطن فوق كل جلال ، وأنه المفدي بالارواح والاموال ، فأصبحوا بسمو تلك الصفات التى قامت بها نفوسهم يعرفون كيف يحبون الوطن المصري وكيف يقابلون ذكرى منشئهم

بالاجلال والتكريم . ثم طف بعد ذلك على ماشئت من المجتمعات فى أي مكان من أصغر قرية الى أكبر عاصمة تجد أن روح الوطنية المرفرفة حول تلك الصورة المرفوعة من صدور المجالس فى المكان الاشرف ، دائما تنفح صدور الناظرين والذاكرين بعبير الوطنية الخالصة التي لم يكن أحـد من شمال القطر إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه يعرف عنها أثرا يؤثر قبل أن تبشر مصر بميلاد ذلك الفقيد ، وتشهد بعض آثار عمله الشريف المجيد.

« بل سل من شئت من أساطين السياسة ودهاة الرجال فى العالم عن رأيه في مصر أمس ورأيه فيها اليوم ، بحيث أنها انتقلت من ظلمة اليأس إلى نور الامل ، ونفضت عن رأسها غبار الموت ، واستقبلت بشائر الحيـاة ، وودعت ليل الخمول والجمود ، لتلقي فجر النباهة والحركة ! وليس هذا كله إلا مظهرا من مظاهر تلك الروح السامية التي بثها ذلك المختار فى أمته ، فخلقوا خلقاً جديداً وأصبح المصري الذي كان ساهياً خافت الصوت ضعيف الامـل مطرق الرأس ساكناً صابراً على اهتضام حقه وإمحاء ماله تحت ظل الاحتلال ، يقظاً عالي الصوت عظيم الرجاء رافعاً رأسـه يجاهد بشجاعة وجرأة فى طلب الجلاء وعود مصر إلى حالتها الاولى قبل أن تبلى بعصاب الاحتلال ! وذلك ولا جرم أحـد آثار الفقيد وآية من بعض آياته التي هي أبقى على الزمن الباقي من الزمن .

« وهذا هو الواقع المحسوس فأن المصري اليوم غيره أمس . قد كان يجزع من حفيف أثوابه في رابعة النهار ، ولا يتصور أنه سيقوم من بينهم ذلك القائد الروحي الكريم والقائد العظيم ، فيقودهم إلى مواقف الدفاع ومواطن النضح عن مصر ، ويكون لهم الصوت المحكى وكل صوت آخر صدى له ، والمحامي الطلق اللسـان القوي الحجة والبيان ، والعصمة التي يعتصمون بها كلـما حدثت المطامع أهلها بسوء أو زين لهم الغرور أنهم باقون فى مصر زمنا طويلا .

« فـكل روح فى مصر سكنت جسما جاء من أبوين مصريين أصليين لا تأبى أن تسيل فناء في نصرة الوطن المصري العزيز والجامعة الوطنية المقدسة .

« فليت شعري إلى أي حـد بلغت تلك العظمة التي هى إحـدى مميزات فقيدنا العزيز ؟ ؟ .

« بلغت ولا مراء إلى الحد الذي قدر للنفوس السامية أن تصل إليه من مراتب العظمة والسمو والكمال . فلم يكن وراء غايتها غاية ولا خلف نهايتها نهاية . ولو كشف الله عن بصيرة ناظر فرأي تلك الروح العظيمة وقد أفرغت عليها حلل الرضوان والجلال ولقيت فى نعيم الجوار مالم يلقه كثير مثلها من القبول والاقبال جزاء ما قدمت من المآثر الخالدة العظيمة التى لا يحصيها عد والآثار الباقية الكريمة التى لا يعدها احصاء ،لعلم كيف يجازي الاصفياء الابرون وكيف يكافأ الاوفياء الاكرمون .

« وتالله لكأني أنظر إليه وقد تمثل فى عليين طيفاً نورانياً . لا كما كنا نبصره من قبل بشراً سوياً . ورفعه الله تبارك وتعالى فى حظيرة الرضوان الاعلى إلى أريكة لا تظل غير المجاهدين فملأها جلاله وكماله وقد حفت من حول أريكته أرواح الشهداء والفاتحين يتنسمون من روحه الكريمة عبير الكمال . وينظرون إلى الجلال يمثل فى نفس والنفس تتمثل فى الجلال ، وما كان عطاء ربك محدودا .

« وحاشا لله أن أتوخى الغلو فيما أقول، فتلك سنة الشعراء لا المؤرخين وإنما أنا أصف تلك العظمة التي امتزجت بتلك النفس السامية الكريمة كما يمتزج الهواء بالعطر، وأسأله تعالى أن يهبني قوة التصوير لاستطيع أن أمثل فى هذا الدرس الذي ألقيه عن عظماء الرجال ، وأمامي منهم هذا المثال ، على نابغة مصر الذين غنوا بشهود الحقيقة عن تمثيل الخيال . بيد أنهم في حاجة إلى أنموذج من العظمة حاضر ينسجون على منواله ومثال من الكمال باق يتحلون بآساله .

« لا أقول إن تلك العظمة التى أعيى وصفها الشاعر والكاتب على السواء جلت عن أن يكون لها شبيه فى من رأينا وإنما أقول إنها بنزولها فى أخصب منبت وفي أسمى نفس من نفوس المعاصرين زكت ونمت فكانت إماراتها أظهر وأبهر. نعم ان صفات الكمال متى تساوت فى درجة الرسوخ تفاوتت فى قدر المنزلة ولكن التوفيق كله في جمع أشتات تلك الصفات التى لا نجد لها علما تنضوي تحته أشرف من العظمة وهذه قل أن تتضام أجزاؤها فى أكثر أعلام الزمان وإن تضامت وتجمعت فلن يكون ذلك الا فى آحاد قلال صافية جواهرهم ،صادقة بواطنهم وظواهرهم ، نزيهة مساعيهم وسرائرهم .

« وهؤلاء الآحاد الذين ينبغ منهم فى أمم الشرق فى كل حين واحد على الغالب هم الذين يكونون الوطنية تكويناً ويطبعون النفوس على غرار حبها طبعاً وهذه سيماهم التى بها يعرفون .

« والتفاضل فى أفراد الجنس الواحد بدهى لتفاوت الاقدار والمنازل وما شاكل من الاعتبارات . وإذا كان الاثر دالا على المؤثر كل الدلالة بل هو مظهر من مظاهره وشكل من أشكاله ، فان العظمة الحقيقية تقاس وتقدر بما ينبعث عنها من الآثار وما تتجلى فيها من الاشكال والمظاهر ، ونحن إذا أردنا أن نقضى حق التاريخ وننزل عظمة ذلك الرجل العظيم منزلتها من الصحة منصفين لا مغالين ولا مقصرين ، وجب علينا أن نرجع في ذلك الى تلك الآثار لنعرف إن كان قد قام فى وادى النيل بطل من أبطال تاريخه الحديث تماثل عظمته عظمة الفقيد أم أنه كان الواحد فى أولئك الآحاد بجدارة واستحقاق .

« أعرض سير عظماء الرجال ثم اعتبر فى الظروف التى أحاطت بهم فان للظروف علاقة بالناس ، تجد أن آفاق هذه البلاد قد أظلت كثيرين من عظماء الرجال والمصرى ذكي بفطرته وما زالت مصر مقر العظمة والنبوغ . ونعوذ بالله أن نجحد فضل أسلافنا فهم الذين علموا الاغيار الحياة كيف تكون وما زالوا أحياء فى التاريخ وإن تقادمت على وفاتهم السنون .

« ثم أعد نظراً فى آثار أولئك العظماء تجدها إما قائمة على ظهر البسيطة وإما قائمة فى بطون الاسفار وإما قائمة على كليهما معا وليس من العسير أن يقيم ملك من أضخم الابنية دلائل على ضخامة دولته فى عهده ، وأن يأمر أمير بتدوين سيرته فى كتاب بل ليست قيادة الجيوش المدربة على الظفر والانتصار وفتح المعاقل والامصار بالحديد والنار نهاية مظاهر العظمة بل أن ثمة عظمة أعظم من تلك وأشرف العظم وشرف آثارها الخالدة التى لا يهدمها معول ولا تذهب بذهاب صاحبها علي مر الزمان

« ومن هذا الطراز الاخير كانت عظمة ذلك الرجل الكبير « مصطفى كامل » التي تألفت مادتها من عناصر الفضائل الكاملة وصيغ معدنها الكريم من جواهر الخلائق الفاضلة وقامت من المبادىء الشريفة التى هي مرايا القلب الشريف على أمتن أساس .

« تبيد الدول ويفنى الزمان وتخلف الاجيال الاجيال وتبلى الشؤون شؤون ولكن عظمة « مصطفى كامل » لا تبيد وذكراه لاتفنى وآثاره المنقوشة فى صدور الجيل الحالى ستنتقل بالوراثة الي الجيل الذي يخلفه فلا تبلى وإن بلي الجديدان .

« ومما ذكرت فيما تقدم أنه كان يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا خفاقا بالآمال الكبيرة والاماني الفخمة وأن ذلك القلب الكبير مستقر الفضائل التي من أخصها قوة الارادة وصدق اليقين، والاعتماد على النفس ، والصدق والشجاعة والامانة، والسعى في الخير مستطاع الجهد، والنشاط النادر وسرعة الخاطر مع العلم الصحيح ، وقوة الخطابة مع الصراحة التامة والافصاح عن المقاصد بلغة صحيحة سهلة مؤثرة الى مئين من أمثال هذه الاوصاف سترد فى تضاعيف أجزاء هذا الكتاب — إلا لاستدل بامتياز تلك الروح السامية التى كانت تشع نورا وطهرا على أن تلك العظمة النادرة المثال، الوافية فى الكمال ، إنما كانت عظمة ممتازة وأن ذلك الذي كان واحد الآحاد أعظم عظيم قام تحت سماء هذه البلاد .

« وكيف لاتكون عظمته كذلك؟ أليس لها هذا الأثر الخالد فى كل نفس، المطبوع على كل قلب ، الظاهر فى كل مكان ، المركب فى كل صورة ؟؟

« ألا إن نور الشمس لاتحجبه الاكف، وجمال الحقيقة الساطع لايتوارى خلف ستار ، وتلك العظمة الخالدة آثاراً ومآثر أجل من أن يصورها قلم يضطرب من لوعة الاسى بين أنامل لاتقوي على إمساكه فليمهد لنا القراء العذر متفضلين .

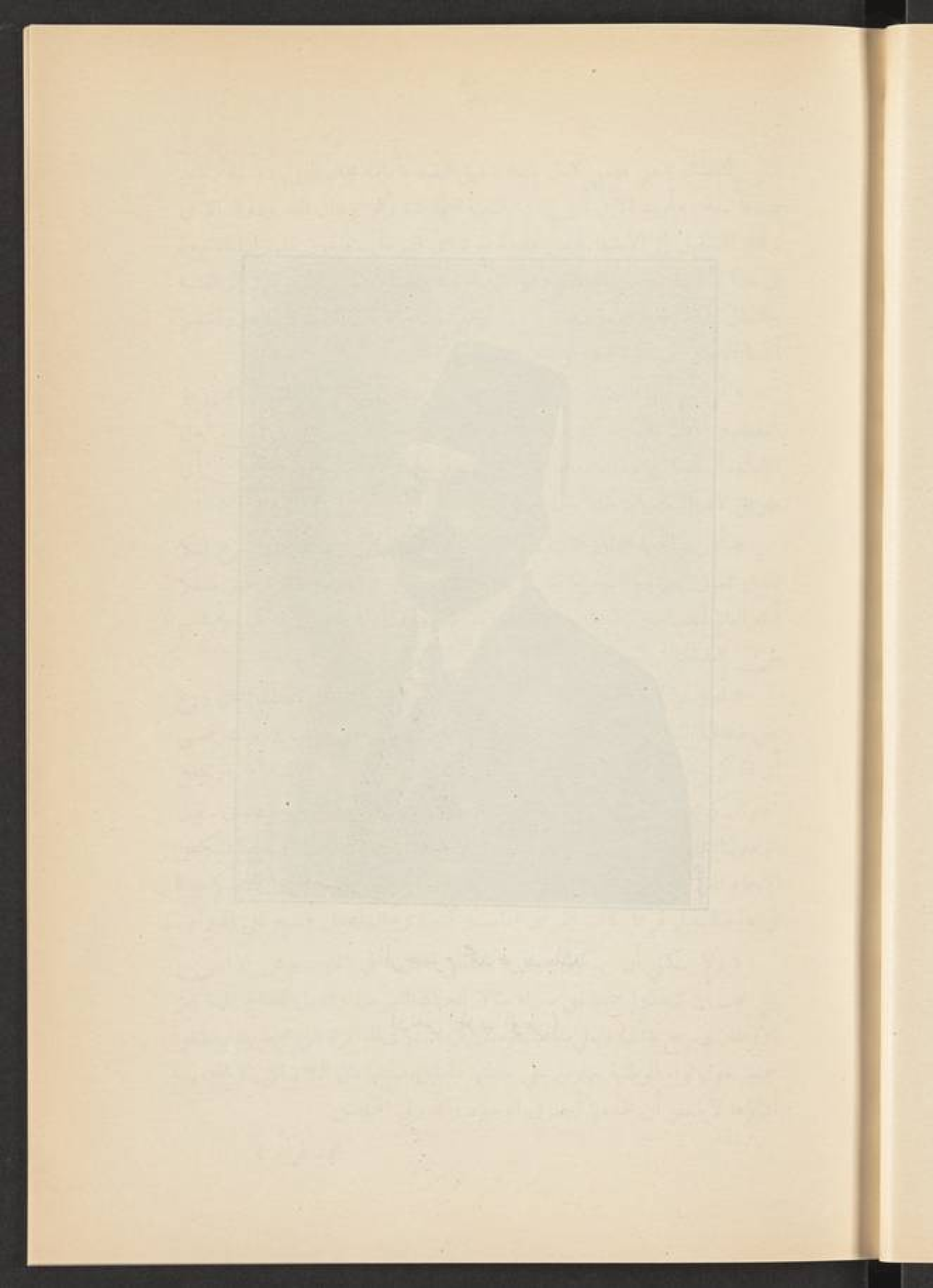
« لا أقول إني فيما كتبت وفيما سأكتب سأقضى واجب التنويه بهذه العظمة الممتازة كبعض ما يجب وإنما أنا قائل فى القليل من آثارها القليل من القول ليستدل به الناظر فى هذا الكتاب على الكثير من العمل .

« إجتمعت فى المغفور له « مصطفى كامل » كل الصفات الواجب أن تتوافر فى ذوات قادة الامم، وإلا كان السعي بغيرها عقيما : فهو أول مصري رن صدى صوته فى الشرق والغرب ، وأول مصري ثبت على المطالبة بجلاء الاحتلال ، وأول مصري بعث فى المصريين هاديا الى طريق النجاة والحياة ، وأول مصري رفع رأسه مفاخراً بالانتساب إلى الوطن المصري والدعوة العامة الى الدفاع عن سمعته وكرامته ، وأول مصري أقام الاعياد الوطنية والمواسم الاهلية مذكراً ومحذراً وبشيراً ونذيراً ... وبطول

معنا تكرير قولنا أول من وأول من فلنتجاوز هاتين اللفظتين ونقل إنه المصري الذي قاد في حداثة سنه الامة جمعاء وفيها الشيب والشبان الى مواقف النضال ومواقع النزال ليذب عن الوطن المصري . وهز صوته الرنان وقلمه السيال عروش الامراء وتيجان الملوك ، وناصب الظالمين المتصبين العداء بصبر وثبات عظيمين، وكشف سيئات حكومة الفرد الواحد أمام العالم المتمدين ، وأحسن السفارة بين أبناء البلاد وأنصار الحرية في الامم الراقية ، وجذب قلوب الجماعات من هؤلاء الكرماء الى نصرة مصر بتأثيره وإرشاده ، بل هو المصري المتفرد فى تاريخ مصر القديم والحديث الذى استطاع أن يجهر بقطع الصلة الذاتية بينه وبين سمو الخديو المعظم بلا تردد ولا وجل ، لما رأى أن مصلحة الامة تقتضى ذلك ، وكان قدوة حسنة للشعب المصري فى إنشاء المدارس الحرة الوطنية ، كما كان فى صباه التلميذ الوحيد الذى أنشأ مجلة علمية وألقى خطبة وطنية ، وكاتب كبار ساسة الانكليز مطالبا إنكلترا بالبر بوعودها والوفاء بعهودها فاغتبط فضلاء المصريين من كل الطبقات وأعجبوا به فكانوا يحببون إليه الانتظام فى صفوفهم إعجاباً به وإكباراً لقدره وهم يتمنون على الله أن يكون « مصطفى كامل » ذلك الرجل العظيم الذي بعث فى الامة المصرية على رأس هذا القرن ليخرجها من الظلمات إلى النور ويوقظ منها نائم العزيمة ويحيي فيها ضعيف الشعور فكان ما تمنوا ورأوا أولا وآخراً من تلك العظمة الممتازة الفارس الحامي الذمار والبطل المدافع عن الاوطان .

« أو ليس هو ذا اليد البيضاء في الدعوة الى دفع شرور السلطة المغيرة عن السلطة الشرعية فى البلاد ؟ أليس هو الذي دعا منذ زمان طويل إلى الجامعة المصرية وإلى تقوية الاسطول ونصرة مشروع السكة الحجازية الحديدية وحث المصريين على مؤازرة الدولة العلية العثمانية فى مواقفها المشهورة وكسر بيديه القويتين أبواب السجن فأطلق أسرى دنشواي بعد أن جاهد ماجاهد فى إسقاط اللورد كرومر عن عرش استبداده وكبريائه ، وكان له فى مواطن النزاع بين الانكليز والعثمانيين تلك الحملات الشديدة والصيحات المسموعة ؟ وكم له فى خدمة الامة المصرية والعالم الاسلامى من صنع مشرق الجمان وأثر ظاهر الجلال ؟ ؟

« إنه خير لي أن أترك تفصيل ما حاولت إجماله الآن إلى حضرة صديقي





المرحوم محمد فريد بك

(رئيس الحزب الوطني)

العزيز المفضال «علي فهمي كامل بك» شقيق الفقيد فأمامه مجال القول ذو سعة ليس بعدها سعة ، وأريد الآن أن أنبه الناشئة الجديدة وهم رجال الغد ودولة الآتي وعماد المستقبل إلى الاستفادة من هذه السيرة على قدر ما يستطيعون لعلهم إذا اعتبروا في هذا التاريخ الحفيل بالعظائم وهو تاريخ رجل مصر العظيم تاقت نفوسهم إلى التشبه والتمثل ما استطاعوا اليهما سبيلا عمن نهض بأعباء الآمال ناشط الكاهل وانتصر أيما انتصار على كثرة الصديق المداجي والعدو الخاذل .

« أدرسوا أيها الشبان لتستفيدوا من سيرة ذلك الرجل العظيم الذي علم العصاميين كيف يحيون وكيف يموتون . ثم ادرسوا لعل فيكم كثيرين من أهل الاستعداد الفطري والاستعداد الكسبي للقيام بعظائم الامور متى عرفوا من أي طريق لادراك الغايات والآمال يسيرون .

« أدرسوا أيها الشبان لتستفيدوا من سيرة ذلك الرجل العظيم الذى شرع لكم سبيل العمل الصريح الصحيح لعلكم إذا جاوزتم طور التأهب والنظر ظهر منكم أمام العالم أجمع خدام للوطن أوفياء لايبالون بالصعوبات ولا يحفلون بما يقوم أمامهم من العقبات .

« أدرسوا أيها الشبان لتستفيدوا من سيرة ذلك الرجل العظيم الذي زرع على ضفاف النيل شجرة الحياة المباركة وتعهدها بالسقى حتى قويت وأثمرت فعسى أن تذكى حرارة الدرس فى تلك القلوب الطيبة نار الشجاعة والاقدام فترتفع أصواتكم مجتمعة وتلتقى أعمالكم متوحدة حول ذلك الغرض الذي جاهد فى سبيل الوصول اليه فقيدنا الكريم «مصطفى كامل» غرض الحرية والاستقلال ولا يصرفنكم عن اقتحام المعترك انتظار أن يبدأ منكم بادىء ، بل تقدموا جميعاً وليكن كل واحد منكم بادئا في هذه السبيل فربما كانت الفرص أمامكم كثيرة ومجال العمل فسيح على الدوام .

« ولا يكفي أن يكون هوى « مصطفى كامل » في القلوب وعلى الالسن بلي يجب أن تتخذوا جميعا من سيرته مثالا للجهاد الشريف والعمل الصالح لما يعز الاوطان ويرفع شأنها ويعلي مقامها ، فليعمل كل منكم فى الدائرة التي تحيط به ولتلتفوا جميعا حول لواء الوطنية جارين علي خطتها عاملين بسنتها فان البلاد التي لا يخدمها أبناؤها لاينتظر أن يخدمها أحد فى الوجود والله ولى المخلصين

محمد فريد »

سيرة والده

« هو «على محمد» ولد فى غرة رمضان سنة ١٢٣١ هجرية فى بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا حاضرة مديرية الغربية . وتلك البلدة كان يسكنها المرحوم والده السيد محمد بن على بن سليمان بن حسين بن مصطفى ابن أحمد بن يوسف بن حسن . . . . . .

كان والده يتجر بالحاصلات وكان جده السيد على هو صاحب الثروة التى كانت بين أيديهم . وقد رزق السيد محمد والد المرحوم ثلاثة أبناء أحدهم صاحب الترجمة والآخران وهما سليمان وحسين توفيا إلى رحمة الله وبقى المرحوم وحيداً وكان أصغرهم سنا .

فعلمه والده القراءة والكتابة على أحد الفقهاء وحفظ قسما من القرآن الشريف وكان فى عزمه أن يهبه لدراسة الدين الحنيف، ولكنه لما ترعرع وبلغ العاشرة من عمره وظهرت نجابته أخذه «محمد على باشا الكبير» مؤسس العائلة الملكية وأدخله فيمن أدخل من أبناء التجار مدرسة طره في سنة ١٢٤١ هجرية وكان من أقرانه الذين دخلوا معه المدرسة المرحوم المبرور إسماعيل محمد باشا رئيس مجلس شورى القوانين .

حضرت معه إلى طره المرحومة والدته وقد كان اشترى لها المرحوم والده بيتاً فيها لا يبعد كثيرا عن المدرسة لتقيم به حتى يتسنى لولدها أن يراها متى شاء . وقد أخذ والده وصية لناظر المدرسة الذى كان يدعى «سليم أغا»

من على بك مدير الغربية إذ ذاك ليأذن لابنه بالخروج من المدرسة فى أي وقت أراد.

بعد أن انتظم المرحوم الوالد فى سلك المدرسة ظهرت عليه مخائل الفصاحة والذكاء ولاحت عليه سيما التقوى والصلاح اللذين لم ينفك عنهما حتى مماته. فمكث فى المدرسة المذكورة خمس سنين ثم انتقل إلى مدرسة الخانقاه وفى تلك الاثناء توفى والده وعين ناظر مدرسته «راسم أغا» وصياً عليه بحفظ ماتركه له أبوه من ثروة.

مكث رحمه الله بهذه المدرسة أربع سنين كان فيها مثال الجد والاستقامة وكان أول أقرانه. ترقى فى سنة ١٢٥٠ هـ لرتبة الملازم الثانى مهندسا طوبجيا وعين معيدا فى المدرسة ثم نقل إلى بلوكات المهندسين التى كانت تعمل فى إقامة الكباري وبناء الشكنات. ثم رقى إلى رتبة اليوزباشي الثانى فى عهد المغفور له والي مصر «محمد على باشا الكبير». وإلى رتبة اليوز باشى الاول فى عهد والي مصر عباس باشا الاول حيث عين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين. ولما تولى المغفور له سعيد باشا ولاية مصر عينه ضمن أركان حرب معيته.

عرف القارىء أن المرحوم كان قد تخرج من المدرسة وهو فى التاسعة عشرة من عمره فلم تمهله والدته حتى زوجته فى الحال ليكون له خلف يخلفه ولكن لم يرزق أحداً من البنين إلا وهو فى الثانية والاربعين من سنى حياته وقد خلف رحمه الله من الابناء سبعة ومن البنات اثنتين، كلهم ولدوا فى منزله الذى كان شيده فى سنة ١٢٥٩ هجرية بدرب الميضأة بشارع الصليبة بقسم

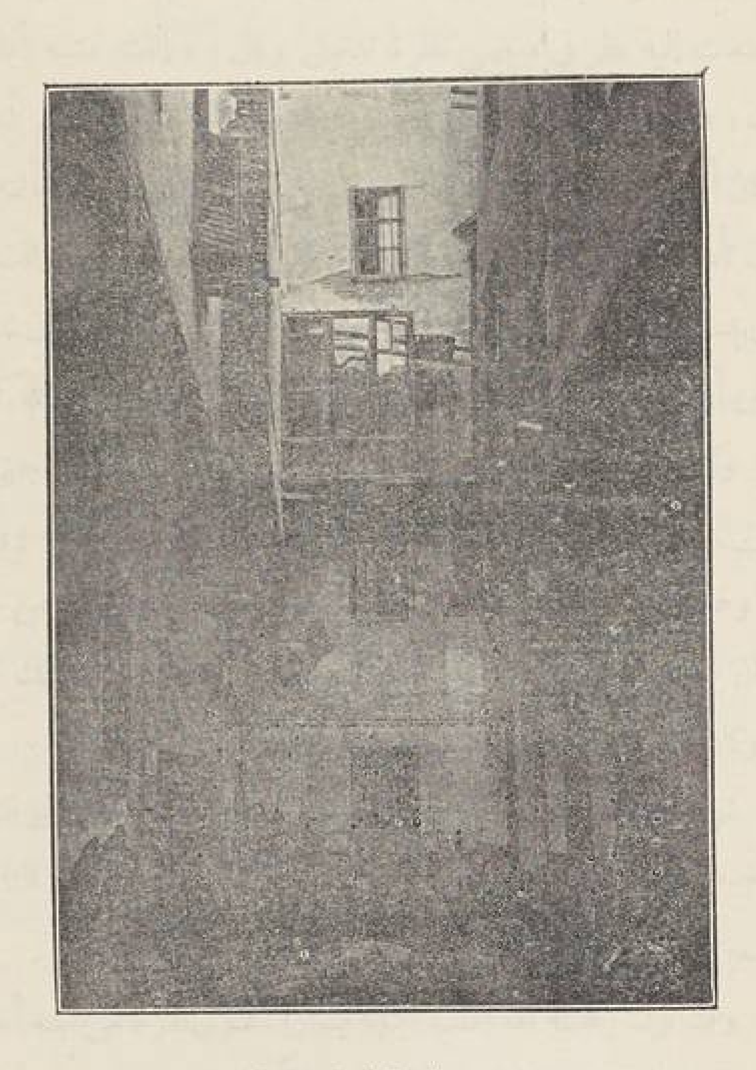
قيسون (الذى هو قسم الخليفة الآن) .

« إستمر المرحوم فى خدمة المغفور له والي مصر سعيد باشا إلى أن جاء حكم إسماعيل باشا فأحيل على الاستيداع ولكن لم يقم فيه طويلا حتى عين مهندساً ملكياً بنظارة الاشغال ثم أحيل على المعاش فى سنة ١٢٩٤ هجرية .

ومن هذا يتضح للقارىء أنه خدم الحكومة ٤٤ سنة كان فيها مثال الهمة والنشاط والذمة حيث قام فى خلالها ببناء الشكنات مع البانبن وتشييد محطات السكك الحديدية عند بنائها بالوجه البحرى وقد استدعته الحكومة المصرية فى عهد المغفور له عباس باشا الاول ليفتش على قلاع سواحل البحر الاحمر ويقرر حالتها وقدقدم تقريراً ضافيا عملت الحكومة بمشورته فيه ووكلت إليه أمر إصلاحها فتعهدها ولذلك كوفىء بالترقي إلى رتبة اليوزباشى الأول .

وقد عني رحمه الله بتربية أولاده تربية حسنة فكان إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء إلى المنزل لتلقينه مبادىء القراءة والكتابة حتى إذا شب أرسله إلى الكتاب ليحفظ مايستطيع حفظه من القرآن الشريف ثم يدخله المدرسة بعد ذلك .

وكان رحمه الله يجمع فى كل ليلة أولاده حوله بعد تناول العشاء وتأدية الصلاة ليقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة ويعلمهم الصدق والاخلاص ويدلهم على طريق الفلاح والعمل كما كان يتفقد أحوالهم فى مدارسهم مرة فى كل يومين أو ثلاثة ليقف بنفسه علي سيرهم من علم ومواظبة وطاعة ، وكان يستوصى النظار والمعلمين بهم خيراً .



جزء من واجهة منزل ميلاد الفقيد

قصدت مرة مع أخي « مصطفى كامل » منزل المرحوم المبرور « على مبارك باشا ناظر المعارف المصرية ، لانه كان كعبة الاساتذة والطلاب، وبعد أن قدمت إليه نظر في وجهي نظرة تدقيق وقال : « إنك تشبه أباك » فقلت : « ومن يشابه أبه فما ظلم » أتعرفه ياسعادة الوزير ؟ قال نعم أعرفه إنه كان أستاذى فى المدرسة لأنه أكبر مني سنا وأقدم عهداً. فسألته عن سبب تأخره فى الرقي فقال ما معناه : إنه كان من جهة وحيد والدته فلم يرض بسفره إلي أوروبا مع أول بعثة مصرية، ومن جهة أخرى كان شديد المراس أبي النفس بعيدا عن الملق والنفاق وقد كنا جميعا نحبه ونجله كثيراً

وكان المرحوم دقيقا فى أعماله خصوصية كانت أو عمومية حتى أنه كان يدون كل شيء فى أوراقه وقد ترك بعد وفاته ضمن كتبه وورقه خمسا وخمسين نتيجة زمانية لخمسة وخمسين عاما ولقد قل فى مصر من جيله من كان يعرف تاريخ ميلاده بالضبط كما عرفه إلى أبنائه لانه قيد ذلك بخط يده وكان لايغفل التوقيت بالساعة مبالغة فى التدقيق .

توفى الوالد المرحوم فى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٠٣ فى البيت البادى الذكر على أثر سكتة قلبية وهو في الثانية والسبعين من عمره .

وقد ترك رحمه الله أغلب أبنائه صغارا ، فتولى أمرنا من بعده أخونا البار حسين واصف باشا (وزير الاشغال سابقاً) .

صاحب الترجمة

وقد استبشرت الاسرة كلها بمقدمه السعيد . فقدزيد مرتب والده فى اليوم الثالث زيادة سارة . ولولا أنى أكتب الآن كتابا تاريخيا لتتداوله الايدى وتتدارسه الاجيال لذكرت من تلك البشائر كثيرا ولكن المسألة لاتخص الابيت واحد .
وقد سهرت عليه العيون وانفتحت له القلوب وكان كل من في البيت ومن بيننا و بينهم صلة قرابة أو صداقة مكينة لايملك نفسه من الجذل والحبور واستشعار الارتياح والسرور كلما وقعت عيناه على «مصطفى كامل» فى أبان طفولته أيام كان ساهيا لاهيا لايحمل أثقل عبء فى الوجود.

وكان الناظر اليه وهو فى سكينة الاطمئنان وطفرة المسرة يقرأ علي جبينه المشرق ومعارف وجهه الميمون ما أكنه الغيب فى قلبه من تلك العظمة الوطنية التى امتزجت بروحه أيما امتزاج.

و بعد أن مضى على ميلاده خمسة أشهر سافرت الاسرة إلى نبروه التى كانت مقر الوالد حيث كان مهندساً لذلك المركز . ومكث بها الى أن بلغ أربعة عشر هلالا ثم سافرنا الى القاهرة بعد أن أحيل الوالد على المعاش وما حاز « مصطفى كامل » من مرحلة العمر عامين حتى فطم عن الرضاع فكان بعد فطامه قليل الاكل لامن سقم، جم النشاط لا من خفة ، كثير الحركة لا فى مكدر ، نحيل الجسم لا من إعياء يظهر لمن يعتبر في سير عظماء الرجال قديما وحديثا أن هذه الصفات الاربع تكاد تكون فى الطفولة وقفاً علي قلائل من الناس يدهش نبوغهم العالم بعد تجاوز هذه السن.

وذلك لان الاقلال من الطعام يلزم عنه صفاء جوهر النفس ونقاؤه . وجم النشاط فى الوليد مظهر من مظاهر القوة التى تنبعث من روحه ، ومظاهر الشيء فى العادة تكون بحسبه . وكثرة الحركة من الوليد دليل علي رسوخ عرق الحياة فيه وبرهان علي استعداده الفطري للظهور . ونجد هذا الوصف فى مئين من الاطفال ولكن يظهر من تتبع سيرتهم فيما بعد الطفولة أن الاوساط التى يقيمون فيها لاتجيد إنهاض هذه الملكة إن لم يكن لها يد فى قتلها . ويقيننا أنه لو عني أبوا كل طفل

كثير الحركة فى الطفولة بتهذيبه وتثقيفه لكان لنا فى كل عام من خفاف الحركة في طفولتهم أبناء متهيئون للنبوغ متى توافرت لهم الاسباب ، وفي نحول الجسم مع ماتقدم من الاوصاف شيء من الانذار كان والده يتقي جانبه بما كان له رحمه الله من سداد النظر وصدق الفراسة . وذلك أن نحول الجسم على شرط تلازم الصفات آنفة الذكر ينذر بوشك حلول اليوم الذي تثقل فيه آمال النفس علي بناء الجسم بفقدان التكافؤ بين قوته وقوة النفس المنبعثة منها تلك الآمال . ومتى بدأت الاماني تنمو ومادة الهمم تكون أخذت قوي الجسم تنقص شيئا فشيئا تبعاً لتلك الزيادة التي تجيء قليلا فقليلا ولله در المتنبي إذ يقول:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

وإذ ذاك يقعد الجسم عن مشايعة آمال النفس ويجد ذاك فى التخلف وتجد تلك فى التقدم فاذا انفرجت مسافة الخلف واشتد التباين بين القوة الادبية والقوة المادية حيث كبر تلك وصغر هذه خيف علي الانسان أن يسقط فى الميدان بعد أن ينتصر أو يتوقع النصر علي الاقران .

« وقد ظهرت عليه مخائل الذكاء الفطرى وبدت على جبينه أمارات الاستعداد الطبعى الذي يخلق مع النفوس المرموقة بعنايته تعالى .

وكان المترجم بعد أن بلغ الثالثة من عمره كثير السؤال فى كل مايمكن أن يخطر على بال الطفل السؤال عنه فيما يحيط به من الاشياء أو يمكن أن يعرض له من الشؤون فاذا رأيت طفلا يسأل أباه بعد الفراغ من الصلاة مثلا بما يفيد رغبته فى الوقوف علي سبب القيام والقعود علي شكل مخصوص وبطريقة منظمة فى وقت معين وتولية الوجه شطر جهة لايحاد عنها ، أو رأيت طفلا يسأل أباه وهو خارج من بيته فى الصباح بما يفيد رغبته فى الوقوف علي سبب الخروج فى ميعاد محدود يعرفه الطفل بالتكرار أمامه مثلا : فأيقن أنك لست أمام طفل فقط بل أمام بحاثة فى المستقبل.

كثيرون من الاطفال يبصرون كل شيء ولكن قلالا منهم من يسأل للوقوف على سبب الشيء وهذا مظهر من مظاهر الفطنة . إنك تجد بين رجال النيابة موظفاً تقع فى دائرة عمله الرسمى جنايات كثيرة فلا يعرف من أسبابها الموجبة لوجود الجانين أو الجانين الموجودين لاسبابها إلا قليلا وتجد من هذا الطراز موظفاً لاينتهى معه

دور التحقيق حتى يقع علي الجاني بعينه . ويرجع هذا التباين بالطبع إلى الفطنة فالاول يري ولا يبحث والثاني يشاهد ويستنتج وقس على ذلك .

وقد كانت كثرة أسئلة « مصطفى كامل » شاغلا لذهن المرحوم الوالد فيما عسى أن يكون الباعث عليها وأخيراً ألقى في روعه ما تحقق بعد قليل أنه الصحيح إذ اعتقد أن السؤال صادر عن رغبة حقيقية فى فهم الكليات عن حقائق الموجودات فى الوسط الذي يشغله .

ويؤثر عنه أنه قال بعد أن سمع من كثرة الاسئلة ما سمع وتوارد عليه منها ما توارد :

« إن ابني هذا سيكون له شأن كبير لان عقله أكبر من جسمه » ، قال هذه الجملة التى حفظها عنه من سمعها منه ثم ترك للمستقبل تحقيق تلك الاماني التى تندرج تحت هذا التنبؤ وكان الله بتحقيقهن كفيلا .

فى تلك السن التى تكون عادة مجال السهو واللهو للاطفال كان « مصطفى كامل » مشغولا بغير ذلك . في تلك السن التى اعتاد فيها الابناء فى عامة أقطار المشرق أن تنصرف أذهانهم إلى الالاعيب ويتعلقوا بالاضاحيك تعلقا جما ولا ينقطعوا عن البكاء إذا حرموا من شيء رغبوا فيه كان المرحوم قد خالف تلك السنة وجرى وهو لا يعلم على غير تلك الخطة .

لانه لم يكن فى طبعه الميل إلى اللعب كثيرا وربما كان مرجع ذلك الانصراف عن اللهو واللعب إلى ضعف بنيته وعدم قوته . فالاولاد يميلون إلى اللعب عادة متى كانت أجسامهم أكبر من رؤوسهم ولكن المرحوم خلق ورأسه أكبر من جسمه فكان لا يخرج من البيت إلا ليستنشق الهواء مع خادم أو يقضى وقته بين أهله ولذلك لم يسمع له صوت بين أصوات أبناء أهل الجوار مما يجري عادة للصغار فى كل بلد من البلدان .

وكان الوقت فيما بين الثالثة والخامسة من عمره مجالا لاضيقا ولا فسيحا لظهور مبادىء النبوغ . تلك المبادىء التى كانت فى أول أمرها شيئاً معنوياً ، ثم عادت قوى محسوسة بتوالي الزمن . فكان مهيبا بين أبناء الاقرباء والاصدقاء الذين كانوا يزوروننا وكنا نزورهم محبوبا منهم مخصوصا بمشايعتهم له .

« ولما أوشك أن يجاوز الخامسة من سنى حياته كان يدرك كل شيء يقع تحت حواسه الادراك الذى يقدر أن يتحمله من جاوز ضعفي سنه من الاذكياء . وكان يميل إلى استماع أحاديث الوالد فى كل غرض من الاغراض . وأذكر أنا كنا جميعا بعد غروب الشمس فى كل يوم نجتمع فى قاعة كان يطلق عليها فيما بيننا إسم « القصر » وهي قاعة فى الدور العلوي من المنزل . وكان المرحوم الوالد يجلس ونحن ملتفون حوله ويلقي علينا بعض أناشيد حماسية ويشفعها بتلاوة كثير من سير الابطال قديما وحديثا مستخلصا لنا من كل قصة عبرا وعظات وراسما على قلوبنا من كل توقيع نبرات الشجاعة والاقدام وقد كان لتلك السير ألطف مرور على أسماعنا .

ولا أستطيع أن أصور ما كان للمترجم من الشغف بفهم تلك القصص فقد كان يقبل عليها بحواسه كلها وكانت العبارات سريعة الارتسام فى مخيلته . وأذكر من الدلائل على ذلك أن الوالد كان يتلو علينا مرة سيرة أحد أبطال الوطنية وقد سها أثناء الحكاية عن ذكر نقطة مهمة في القصة ثم ذكرها بعد أن تمت ولفت نظرنا إلى موضعها ، ثم أراد أن يستعيدنا ما سمعناه منه فما هو إلا كلمح البصر حتى بدأ المترجم يعيد ما سمع حرفا بحرف . وقد ذكر تلك النقطه فى موضعها الخليقة به من سيرة ذلك البطل . ولما فرغ احتضنه الوالد وقبله .

وكانت رغبة المترجم فى استماع هذه القصص تزداد يوماً فيوماً . والظاهر أنها كانت تحدث فى نفسه تأثيرا مخصوصا . ولم نكن ندري لماذا يلح على الوالد إذا جاء موعد الاجتماع فى « القصر » فى الحديث إذا لم يكن قد بدء به أو كان قد فرغ منه كأنما هو كان يجده حلو المذاق بديع الطرب عنده موقظا همامة نفس ومذكيا نار عزيمة .

وقد أخذت أمارات النجابة وعلائم الذكاء تزداد ظهوراً فى المترجم ، ولاحظنا ذلك منه يوما يوما ، فعين له والده فقيها صالحا هو المرحوم الشيخ أحمد السيد ليعلمه مبادىء القراءة والكتابة ويحفظه القرآن الكريم .

وذلك لان نية المرحوم الوالد كانت متجهة إلى حمل المترجم متى ترعرع وكبر على طلب العلم والدين فى الازهر الشريف والتوسع فيهما حتى يكون منقطعا لهما . ولكن كان لله فيه إرادة غير إرادة أبينا . وقد أخذ الميثاق على معلمه أن يجتهد معه

في إتقان قراءة القرآن الشريف وحفظه حفظاً يدور به على لسانه. وكان الفقيه يلحظ من المترجم ميلا إلى التوسع فى العلم كبيراً وإرادة قوية وذكاء نادرا ورغبة شديدة فى الاستزادة ، حتى قال للمرحوم الوالد ذات يوم : إن ولدك هـذا سيكون عالما كبيرا لانه يحفظ فى اليوم مالا يحفظه غـيره فى اليومين فضلا عن طلاقة لسانه وقوة ذاكرته ولا أعلم أن فى المتعلمين على من هو أذكى منه قلباً وأقوى ذاكرة.

وكان أخواه الكبيران سليمان وحسين إذا عادا من المدرسة أحضراه بينهما وأخـذا يلقيان عليه من الاسئلة الكثيرة ما يدور حـول محور ما يحيط بهم من الاشياء ويقع تحت الحواس من الموجودات والاعراض ، وكان ينهض فى الفجر ليقرأ ما تيسر من القرآن الشريف بصوت جهير بعد أن يصلى معنا خلف الوالد المرحوم.

ومن هذه النقطة يتبين لمن لم يعرف معني القدوة أنها كل شيء في التربية إن حسنة وإن سيئة بل إن لها تأثيرا فى نفس الطفل دونه كل تأثير . ونجد كثيرا من الشبان المهذبين قد تلقوا تلك التربية بالاسوة الحسنة فهى فيهم إلى أن تكون طبيعة أقرب من أن تكون صناعة على حد قول أبي العلاء

حسن البداوة مجلوب بتطرية   وفى البداوة حسن غير مجلوب

وعبثاً يتعب الاستاذ فى المدرسة إذا لم يكن له على تربية الطفل عون من القدوة بمن هم فى بيته ، فعلى الذين يشكون اعوجاج سير الابناء أن يعرفوا جنايتهم عليهم ، فلو ترعرع الصبي وكبر وهو يري أباه مقيما الصلاة في أوقاتها مؤديا الزكاة فى حينها قائما بسائر الفرائض الدينية المفروضة عليه شرعا لكان منه فى كبره رجل ورع عن الشبهات محافظ على آداء ماعليه من الواجبات . فاذا شئت أن تطبع عقل ابنك على غرار مخصوص وتفرغه فى قالب معين فكن أمامه الشخص الذي تريده منه تكن ماتحب، وأما الذين يتمنون ولا يعملون فلا تقع جريمتهم إلا على رؤوسهم وهم وحدهم المؤاخذون.

وقد حفظ رحمه الله بلا معلم وهو فى السادسة من عمرة ورد السحر الذي كان يتلوه والده مع رفقائه فى مسجد « شيخون » وكان يتغنى به في ذهابه إلى المسجد وإيابه منه، وله قبل أن يقطع هذه الرحلة آيات فى الذكاء بينات ومرام فى الادب صالحات

ونخشى إذا نحن ذكرنا طرفا من الادلة على توقد جنانه وصدق إيمانه وهو مشرف على العام السابع من سني حياته المباركة قبل أن يزداد جنانه توقداً وإيمانه صدقا أن ينفسح أمامنا المجال.

وقد انقضى بانقضاء عامه السادس دور التعليم في البيت وحل بحلول العام السابع دور التعليم في المدرسة.



وجهة مدرسة والدة عباس الاول

التعليم الابتدائى

أدخله الوالد مدرسة والدة المرحوم عباس الأول وهى المدرسة الكبيرة الطائرة الصيت الشهيرة بمن تخرج منها من كبراء الوطنيين الذين يشغلون فى البلاد أسمي المناصب الادبية الجليلة ذات الاثر البين فى الخدمة الوطنية . أسستها المرحومة المبرورة والدة المرحوم المبرور عباس باشا الاول في سنة ١٢٦٤ هـ فنالت شهرة ذائعة فى الآفاق بتلقين المباديء العالية والعلم الصحيح ، ولذلك كان من حظها أن نبغ فيها كثيرون من أهل المعارف الواسعة وقد أنتجت للوطن فوائد جمة وأصبحت فى طليعة المدارس المصرية كافة وكذلك كل عمل يؤسس على الاخلاص ويقوم على الصدق يثبت ويثمر الثمار المطلوبة ويبارك الله حوله (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض)

ومكث فى هذه المدرسة سنتين كاملتين كان أثناءهما متعلقا بعلم الحساب أكثر من كل علم آخر . ومن ذكر أن والدنا المرحوم كان من المهندسين وقف على سر من أسرار الوراثة الثابتة سنتها ، فقد تعلق صاحب الترجمة بهذا العلم تعلقا شديدا أعانه على النبوغ فيه ما كان يتعهده به أبوه من المناقشة والمذاكرة فى آخر كل نهار . ويقول الخبيرون بالتعليم أن التعلق بهذا العلم وكثرة الاشتغال به يكسبان العقل نقاء وسعة . ويعينان على سرعة الخاطر فى حل المشكلات.

ومن النوادر التى تدل بشكلها وموضوعها على الشمم الذى اتصف

به المترجم هذه الحكاية التي نرويها كما وقعت شأننا في كل ماسنورده في هذا الكتاب، وهي :

« جاء المترجم وهو في التاسعة من عمره إلي أبيه يوماً بعد الانصراف من المدرسة في صورة تشعر بأن نفسه تضطرب اضطراباً وجنانه يغلي غلياناً . ولما سلم سأله الوالد عما به وكان رحمه الله شفيقا في حزم، لينا في قوة فقطب المترجم جبينه وجالت الحماسة في صدره وانطلق لسانه يرسم على سمع أبيه هذه النبرات :

قالوا لنا في المدرسة إنكم ستذهبون غدا إلي سراي الحلمية لتأخذوا من الاميرة نقوداً إحسانا، وأنا لا أقبل أن آخذ شيئاً من هذه النقود لانك أمرتني أن لا آخذ شيئا من أحد.

ولما انتهى من إلقاء هذه الكلمات ظهرت عليه الحدة والشدة لكن بأدب وكمال . وكان مع المرحوم الوالد جماعة من الاصدقاء . فلما رأوا هذا الشمم العالي وتلك النزاهة النادرة أكبروهما أيما إكبار . وأراد الوالد أن يعرف ماتنتهي إليه حالة الطفل النجيب وينزل الي أعماق نفسه ليعرف درجة الثبات فيها فنظر إليه مظهرا العناية والاهتمام الفائقين وقال له : « وعلام أنت عازم وماذا تصنع بأمر ناظر المدرسة ؟ » فأجابه من فوره بما معناه : « إذا أنا لم أذهب في مقدمة إخواني أعاقب . وإذا ذهبت ولم أقبل ما أعطاه أسوة بمن هم معي كان ذلك بروزاً عن ظل الذوق . وإذا قبلت اعتبرت نفسي فيما بيني و بينها آثما لانني أكون قد خالفت أمرك الذى لا يمكنني مخالفته » . وأراد أن يمضي في القول فأشفق أبوه أن يقيمه في موقف بين

الحيرة والتعرض لاذى العيون فقال له : إذهب معهم لترى ماسيكون ولا تأخذ النقود إلا إذا أكرهت على أخذها ، وحينئذ تصدق بها على عاجز مقعد أو عجوز ضرير ، فلما سمع ذلك من أبيه أبرقت أسرته وانشرح صدره لهذا الحل المرضى وأحس كأنما ألقي عن كاهله حمل ثقيل وفعل ما أمر به .

وكان إذا عاد من المدرسة يخلع ملابسه ويرتبها ترتيبا حسناً . فاذا فرغ من ذلك جلس فى جوار والده ليقص عليه ماشاهده فى يومه ويشكو إليه ما كان يراه من عناد التلاميذ الاشقياء لمشيئة أساتذتهم الصالحة أو مشاكسة بعضهم بعضا مبديا على أثر كل قصة ما يناسبها .

جاء أباه يوما عابسا وطلب منه أن يخرجه من هذه المدرسة ويدخله مدرسة أخرى ، ثم ألح وتشدد ظاهرة عليه سيما الجد ، فراعت والده هذه الجرأة وقال له وهو غاضب : « إن الولد الذى يدخل مدارس عديدة قبل أن يقوم عقله فى إحداها قل أن ينجح » وكأنما كان المترجم معداً جواب هذا الكلام . ولهذا لم يكد المرحوم الوالد يأتي على آخره حتى قال له : « صدقت ياولدى وكذا الولد الذي يتحمل الذل لا يكون شجاعا أبداً » . فعلم أبوه أن وراء هذا القول سراً . ثم أراد أن يعرفه كما هو لينظر فيما يجب أن يتخذ . فسأله عن السبب .

فقص عليه أن تلميذا إسمه . . . لم يسرع فى الاجابة لما سأله الاستاذ . . . فأجبت بدلا منه فسبنى الاستاذ وحبسنى ساعتين وهذا ظلم لا أرضاه لنفسى ولاشك أنك لن ترضاه لى كذلك »

فقال له الوالد : ألم أقل لك : إن من دخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه :
فأجابه « نعم . إني أعقل هـذا النصح . ولـكنى خشيت أن يفوت
الوقت بين اعتذار التلميذ الـكسول وحساب الاستاذ العسير وفى هذا
غبن لحقوق التلاميذ جميعا . ثم أن هذا الاستاذ قد عاقبنى عقابين على ما يعتقد
أنه ذنب واحد . وهما السب والحبس ولذلك لا أري إلا أنه تعدي حده .
ولا أستطيع أبدا أن أصبر على هذه الأهانة فانى لا أحب أن أكون
تلميذا في مدرسة أحد أساتذتها على ما ترى يا والدى من الجور والاستبداد»
فابتسم الوالد وقال له : « سأذهب غدا إلي المدرسة « وفعلا ذهب إليها فى اليوم
التالى وحقق المسألة أمام ناظرها فشهد من سئل من التلاميذ بصحة ما قاله
المرحوم فأخرجه من تلك المدرسة وأدخله مدرسة السيده زينب التى كانت
تابعة لوزارة الاوقاف .

وجاء يوما إلي أبيه وقال له : متى يا والدى نتلقى فى المدرسة مثل هذه
السير التى تقصها علينا ؟ فقال له : إن هذه القصص موضوعة لتشجيع
الناس و بث روح الهمة والاقدام فيهم ومنها ما هو صحيح لا ينـكر وقوعه
على أنها ليست علما ذا نظريات تدرس فى المدارس ، ولـكنهم سيلقون
عليك يا بني دروس التاريخ التى هي حقائق ثابتة لا جدال فيها. ومنها تعرف
عزة أقدار أولى النفوس العالية الـكبيرة وذل مقام الخائنين ذوى النفوس
الصغيرة الوضيعة ، وكيف كان الحكام من المـلوك والأمراء يسوسون
بلادهم وينتصر العدل على الظلم إلى آخر ما لا يحصي من الفوائد العائدة
بالنفع على دارس التاريخ .

« وخشي المترجم ألا يكون بين ما سيدرس من التاريخ تاريخ مصر فسأل والده: « وهل ندرس تاريخ بلادنا وبلاد آبائنا وأجدادنا مصر »؟ فقال له : نعم فسكن واطمأن خاطره.

« وفى اليوم التالى قصد المدرسة وكانت الحصة الاولى حصة اللغة العربية وأستاذه فيها إذ ذاك العلامة السيد بك الحسنى فابتدره بقوله : «لماذا لا ندرس التاريخ ياحضرة الاستاذ لنستفيد من دراسته مالا يستفاد من غيره ، ؟ فأجابه : إنكم الآن مبتدئون ولكل سن تعليم . والتاريخ يحتاج إلى إدراك كبير وعقل راجح لانه مجموعة وقائع متشابهة الاسباب والنتائج وميدان فسيح لصور عدة . وستلقونه بمشيئة الله فى المدرسة التجهيزية (الثانوية): ولم يرق المترجم هذا الجواب لأنه شعر بأن فيه مايدل على ضعف إدراك التلاميذ ونزوله عن الحد المناسب لتلقى مبادىء هذا العلم النفيس فقال له : يظهر ياحضرة الاستاذ أن هذه المدرسة صغيرة أكثر مما كنا نتصور . لان عقولنا تعى كل شيء فيها وقد تعلمت قصصاً كثيرة ألقاها علي والدى وكنت أفهم ما فيها من المغازى النافعة : وهنا احتد شأن من يثق من نفسه أنه محق فيما يقول وما يفعل .

« فأمره الاستاذ بالصمت ، ثم أشار له بالخروج من الفصل ، ثم أنهى المسألة إلى الناظر . ولم يقو المترجم على احتمال هذه الاهانة لأنه كان أول فرقته فخرج من المدرسة فى الحال ولم يرده عن ذلك أنه قريب العهد بمزايلة مدرسة أخرى . وقد كان آنئذ فى العاشرة من عمره ، ثم قصد المرحوم الوالد الذي ما رآه فى غير موعد الخروج من المدرسة حتى دهش وتوقع شيئاً

جديداً فلقيه باشاً هاشاً . وبعد أن قبل يده سأله : لم أتيت ؟ فأسر له المسألة فى أذنه . فأخذه من يده وسار به إلى المدرسة ولما وصل إليها قابل الناظر وسأله عن سبب خروجه من المدرسة ، فقص عليه الأمر كما وقع . ثم انتظر الأستاذ ريثما فرغ من الحصة وسأله الصفح عما جرى وأفهمه أن ابنه لا يقصد أن يهوش عليه بحال من الاحوال ، بل هو مدفوع بغرامه بعلم التاريخ .

« ولبث المترجم صارفا كل جهده إلى الدرس مقبلا عليه بكل حواسه ضنيناً على نفسه بالراحة والتمهل مستعينا بالذكاء والذاكرة على استيعاب كل ما يلقي عليه وفهمه بأكثر مما يطلب ممن كان فى ضعف سنه إذ ذاك . وكان ذا شغف بالقياس والاستنتاج فى مسائل الدروس التى كان يطلب منه حلها غير مستعين فى ذلك أحدا ، خلا ما كان يرتسم فى ذهنه من تفاسير المعلم ولو كان يبذل من الجهد فى عمل ما يطلب منه عمله القدر اللازم لا أكثر لاستطاع أن يدفع عن جسمه النحيل ثقل وطأة الامراض . ولكن النفس الكبيرة مهما كانت الدائرة التى تحيط بها صغيرة ، دائمة الطموح إلى ما وراء الحد المرسوم غير مقيدة بقيد اللزوم .

وقد خاف الاهل والاصدقاء إذا مضى المترجم فى هذه الخطة خطة تحميل الجسم ما فوق طاقتــه وإلزامه بمسايرة هوى النفس فى الاستزادة والطموح أن يضعف لما تقدم من الاسباب .

وكان ما خيف قريب الوقوع . فلم تمض شهور على هذا الجد المتواصل والسير الحثيث حتي مرض شهرين متواليين مرضا شديداً فكاد يجهله بعد أن أبل من كان يعرفه من قبل . وكان أثناء هذين الشهرين ينتهز فرصة

خروج الطبيب وخلو المكان فيتداول كراساته وكتبه ويعيد فيها النظر غير حاسب للانتكاس حساباً على ما كان من تشديد المرحوم الوالد عليه فى تلك الفترة ألا يتصفح كراسة ولا ينظر في كتاب شفقة على ذلك الجسم النحيل .

وقد اقتضت مشيئته تعالى أن يتعافى من ذلك السقم بعد أن قاومه ستين يوما ومن عليه وله الحمد بالقوة ، وكذلك تدخر عناية الله جلت حكمته من تختارهم إبان الطفولة ليكونوا فى الشبيبة والكهولة رجالا نافعين.

وكان من الواجب برا بجسمه ألا يهاجم الدرس بعد إبلاله مباشرة مهاجمة متواصلة ولكنه استأنف الدراسة بعزيمة أشد وإقبال أوفى وجهد أوفر وتعوض ما فاته تحصيله وهو فى فراش السقم فى أيام معدودات حتى كان بعض العارفين بشأنه من رفقائه فى المدرسة ينصح له ألا يسرف فى قوته .

وفى هذه المدرسة ظهر ذكاؤه الفائق وتجلت مواهبه العالية وظهرت أمارات استعداده التام فأصبح أول أقرانه ، ولم يكن منهم أحد يجحد ميزة سبقه، وحبب فيه رفقاءه الذين كانوا يخالطونه لما عرف به بينهم من حسن المعاشرة ولين الجانب وتوقد الجنان والصبر على نصب الدراسة ليل نهار

وأدركت المنية المرحوم الوالد وصاحب الترجمة بعد منتظم فى تلك المدرسة . ولما انتهي إليه نبأ تلك الفجيعة لم يكن مصدقاً بوقوعها لهول الخطب وعظم المصاب عليه، ثم مالبث أن تحقق صدق الناعى حتى أقبل على والده يبكيه مر البكاء ويكبر على القضاء مصابه ويحتسب عند الله ما أصابه وقد أثر فيه الحزن تأثيراً سيئاً، وبقي على ذلك أسابيع وشهوراً لا يهدأ له جنب

ولا ينعم له بال، ثم وجد من التشجيع والترغيب فى الصبر ما ألهم قلبه السكون والعزاء وصرفه بعض الشيء عن النحيب والبكاء.

وقد سأل أخاه وولي أمره أن يبعثه إلي مدرسة القربية لأنها أقرب إلى منزل جدنا الاموي الذي كنا نقيم فيه من تلك المدرسة فأجابه إلي ماطلب وأرسله إليها وهو فى الحادية عشرة إذ ذاك.

وكان فى هذه المدرسة طائفة صلحة من خيار الاساتذة وقد اتصفوا جميعا بصدق الخدمة والاخلاص فى تربية التلاميذ ولهم فضل كبير على كثير من العاملين.

وكان قد عرف فى المدارس الاولى ميزة السبق على الاقران، ومايكون قسط السابق من الاجلال والاكرام، ووجد من نفسه العزيمة المطاوعة والهمة الفائقة، وما هي إلا أسابيع حتى طفر إلى الكرسى الاول وأصبح فى مدرسة القربية كما كان فى كل مدرسة انتظم فى سلكها من قبل أول التلاميذ وأوفرهم نصيبا من احترام ذلك الوسط الصغير.

وحدث فى تلك الاثناء حادث للقاريء بعد الوقوف على بيانه أن يستنتج منه ما يعطيه بالبداهة ليعرف أن الصفات التي يعرف بها كبار الرجال وهم فى أدوار أعمالهم هى عين الصفات التي يعرفون بسيماها قبل أن يشبوا عن الطوق، وإنما الفرق بين الحالين أن التدرج فى الظهور والكبر كلما قطع الانسان مرحلة من العمر سنة من سنن الطبيعة لاتتغير ولا تتبدل.

وذلك أن وزارة المعارف أقامت فى تلك السنة إحتفالا مهيبا لتوزيع المكافآت على السابقين النابغين فى العلوم التي يتلقونها. وكان مركز هذا

الاحتفال فى « مدرج » الوزارة، فكان المترجم التلميذ الذى كوفىء من مدرسة القربية .

ولم يمض إلا القليل حتى وافى مكان الاحتفال سمو الخديوى المرحوم توفيق باشا فى موكب حافل، وفى معيته وزراء حكومته، وأقبل صاحب الدولة الغازي مختار باشا، وأخذوا فى امتحان التلاميذ واحداً واحداً. وكان الخديوى هو الذى يتفضل باعطاء الناجحين الجوائز بيده الكريمة .

فلما أن جاء دور المترجم وألقيت عليه الأسئلة رفع صوته وحيا الخديوى والحاضرين بخطاب أنيق يناسب المقام . وألقاه بما شاء الثبات من الشجاعة والاقدام . فصفق له الحاضرون استحساناً، وتفضل سمو الخديوى فعطف عليه ودعاه إليه باسم الثغر وسلمه الجائزة . ثم قال له : إنى سررت منك كثيراً .

فأجابه : عفواً فالفضل لتشجيع سمو المليك المعظم.

فسأله ما اسمك يابني ؟

قال : إسمي « مصطفى كامل » . وإذ ذاك همس فى أذنه الضابط أن قل : عبد سموكم « مصطفى كامل » : فأعرض عنه.

ثم قال له — كم سنك ؟

قال : إثنتا عشرة سنة . فأبرقت أسرة الجناب العالى، ثم عاود السؤال فقال له — ما اسم والدك ؟

قال : المرحوم «على محمد» . ولما نطق بهذا الجواب لمح ذلك الضابط بعينه ينبهه باشارة خفيفة أن قل: «عبدكم » فلم يعبأ به.

ثم قال له : — فتح الله لك.

قال : شكراً للامير المعظم .

ثم حيا وانصرف من حضرته . وقصد إلي الضابط بعد انتهاء الحفلة وقال له : « ما كان أبي عبداً وما كنت كذلك. وإذا أنا أجبت بغير الواقع كما كنت تريد أن أجيب، كنت كاذباً » فدهش الضابط لهذه الجرأة التي تدل على عظمة النفس وتحول ما كان فى نفسه من الحنق إعجاباً ودعاء

من هذه المحادثة البسيطة يعرف القراء من هو صاحب الترجمة ويستدلون على عظمة تلك النفس التى كانت بين جنبيه وهو إذ ذاك صبى لم يترعرع . بل من هذه المحادثة التى جرت بين الامير المعظم وذلك الصبى المتوقد الجنان المملوء صدره بالشجاعة والحمية والاقدام يدرك كل مطلع ما انطوت عليه تلك النفس العظيمة من الصفات الفاضلة .

ولم يكن مثل ذلك الموقف بين يدي أمير البلاد بالأمر الهين المقدور عليه . وأن مجرد المثول فى حضرة الخديوى ولا سيما إذا كان الماثل صبياً لم يسبق له عهد برؤية مجالس الأمراء والملوك كاف فى اعتقال اللسان ووقوع الهيبه والرعب فى القلب بحيث لا يحير المسئول جوابا ولا يهدأ باله خوفاً واضطرابا. ولكن « مصطفى كامل » لم يكن من هذا الطراز . بل لم يكن ذلك الذى يتلعثم لسانه أو يضطرب جنانه أو يخونه بيانه فقد كان يعطي الجواب على قدر السؤال ، وبدهى أنه لو كان الواقف أمام ملك البلاد صبيا آخر أتيح له أن يتكلم بمثل هذا الثبات النادر وهذه الجرأة المظيمة ثم لمح ضابطاً فى معية الجناب العالي يهمس فى أذنه أن : قل عبدكم : وهو يسأل عن اسمه واسم أبيه لتأثر من هيبة المقام وامتثل لمشيئة الهامس وتلق إشارته كما هي وأجراها على لسانه فى الحال، ولكن «مصطفى كامل»

لم يكن إلا النفس العالية والقلب الثابت.

« تلك لمع من حياة الفقيد الكريم وهو فى الثانية عشرة من عمره تلك السن التى يلحظ فيها من عينيه المشرق فيهما نور الذكاء وابتسام الأمل، ويرى على جبينه الظاهرة فى أسرته مجالي العظمة والتوفيق، ويشهد فى معارف محياه الضاحكة اللألاء بلمحات العناية والهداية : ما يبعث على توقع كبار الآمال، لذلك الذى أدهش العالم فى شبابه وكان آية الكون الناطقة فى كتابه.

« وقد دخل المدرسة التجهيزية (الخديوية الآن) في سنة ١٨٨٧ ميلادية.

التعليم الثانوي

وكان سكننا منزل جدنا الاروي بقسم الخليفه بشارع السكرى وفيه قد بدأت حياة المترجم فى الظهور. وكان ميالا الى العلوم الرياضية والطبيعية وعلى الاخص التاريخ الطبعي.

وقد بلغ من قوة ميله أن أستاذ التاريخ الطبعي وهو المرحوم الاستاذ الدكتور محمود بك فوزي الحكيم كان يملي الدرس فى كلمتين ثم يشرحه فى صفحتين وليس أسرع من يد المترجم في تدوين تلك الشروح إلا ذهنه فى تصور ما يكتب. فاشتهر فى هذا العلم شهرة فائقة ونبغ في فروعه لاسيما النباتات نبوغا مدهشا. حتى أن تلاميذ السنين الثلاث المتقدمة عليه كانوا يقصدون اليه فى أوقات الفراغ ليشرح لهم الدرس باوضح أسلوب فكانوا يجدون فيه من القدرة على الافهام والتبسط فى مناحى البيان مايغريهم بالعودة اليه كلما استعصى عليهم فهم مسألة.

وكان أستاذه كثير الاعجاب به كما كان أساتذته فى العلوم وهم حضرات أحمد بك كمال وأحمد بك حمدى وعثمان بك أنور ومحمد بك ادريس يعجبون به الاعجاب كله وينظرون منه فى النجابة الى مثال ويقابلونه بالتكريم والاجلال وخصوصاً أستاذ علمى الكيمياء والطبيعة حضرة العالم الفاضل الدكتور محمد بك كامل الكفراوي فانه كان يعجب به كثيراً.

ولقد وصل به اعجاب الاساتذة الى أحد أن بعضهم اذا ألقى امتحاناً لايكلفه الجواب أسوة بأقرانه.

ومن أوصافه التى لازمته فى دورى التعليم الابتدائي والثانوي أنه ماكان يميل إلى اللعب أو المزح الذي يجاوز التلطف والابتسام حتى ظن فيه إخوانه الكبرياء خلا أربعة منهم توثقت بينه وبينهم عرا الصداقة وتوطدت دعائم الوداد لان ذكاءهم كان حاداً وطبعهم شريفاً وهم، مع حفظ الالقاب، عبد القادر حلمى ومحمد خالد ومحمد زكي محمد (رحمه الله) وأحمد الصواف.

ومما هو جدير بالذكر أن التلاميذ فى أوقات الفراغ التي تجيء عادة بين الحصة والحصة كانوا يقصدون إلى المكان البعيد عن أعين الضباط في المدرسة ليدخنوا التبغ بحيث لايراهم من ينقل عنهم أو يذهبون إلى الطرقات للمدارسة والمذاكرة . ولكن المترجم لم يكن يجرى على هذه الخطة بل كان يقصد غرفة تحضير دروس الكيمياء والطبيعة حيث كان يجلس معيد هذين العلمين حضرة الاستاذ المجيد إسماعيل افندي فهمي ويلقى عليه المترجم من الاسئلة العديدة فى دقائق هذين العلمين ماكان معه لذلك الاستاذ العذر فى ظنه أن المرحوم يحب أن يكون كيمائياً كشافاً . ومما أثر عنه الميل إلى الاستكثار من المحفوظات بل كان يعتمد على الذكاء فى الاغلب ولهذا ظهر ميله وهو فى دور الدراسة الابتدائية إلى الحساب والمسائل العقلية .

لما أتم دروس السنة الاولى وانتقل إلى السنة الثانية حدثت له حادثة جديرة أن تكتب بالتبر.

ذلك أن وزارة المعارف العمومية أصدرت قراراً بأن المتوسط الذي ينقل به التلميذ من سنة إلى سنة أعلى يجب ألا يقل عن ١٦ درجة . ولما انتهى الامتحان ظهر أنه السابع فى ترتيب فرقته التي كان عدد تلاميذها خمسة وسبعين تلميذا . ولكنه لم ينل هذا المتوسط بل لم ينله قبله إلا اثنان فقط فوجم لذلك وتكدر كثيراً ولكنه لم يستسلم إلى الحزن ويتشبه باخوانه فى الرضا بهذه الحالة وكان له ذلك لو أراد ، بيد أنه وفق إلى ابتكار حل لطيف لهذا الاشكال أذهب الحزن عن نفسه ونفوس إخوانه جميعاً ونفس كرب الحزن عن الفرقة باسرها ، إذ أنه ذهب توا إلى وزارة المعارف وقصد إلى غرفة ناظرها المرحوم على مبارك باشا، فأراد الحاجب أن يمنعه لانه لم يؤثر قبل مقابلته لذلك الوزير أن تلميذاً فى تلك السن استطاع أن يمثل بين يديه . فقال له : « ويحك إني أنا ابن الباشا فكيف تمنعني أن أدخل » وحسب الحاجب أن ظاهر هذا الجواب كباطنه وأن الواقف أمامه ابن سعادة الوزير حقيقة ، ففسح له فى الطريق وأذن له بالدخول فلما توسط فى التقدم بين الحاجب والوزير قال بحيث يسمع صوته: «إني ابنه في العلم » وكان المرحوم الوزير مطرقا يشتغل بالنظر فى أوراق بين يديه ، فلما سمع الصوت رفع رأسه وابتسم للمترجم فحيا ثم قال له :

ما جاء بك إلي هنا يابني ؟

فقال — لاشكو للناظر العادل .

قال — ومم تشكو ؟

قد أمرتم ياسعادة الوزير بمالا يطاق ولا يطاع . وذلك أن القرار القاضى بنقل التلميذ من سنة إلى سنة أعلى بمتوسط لايقل عن ست عشرة درجة فى كل علم من العلوم قد حرم فرقتى خلا تلميذين اثنين من الانتقال إلى فرقة أعلى وأنا مع المتأخرين

فضحك الباشا وقال لحضرة الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ هارون عبدالرازق الذي كان جالسا معه إذ ذاك : « أسمعت ياأستاذ أن تلميذاً يعارض وزيراً فى قراره وابتسم . فقال له الاستاذ ، « لعل فى الامر شيئاً » فالتفت المترجم إلى الشيخ وقال له نعم . إن الامر غير عادل لاننا جميعاً مجدون في دروسنا ولا يصح تأخيرنا سنة كاملة . فقد سألنا معلمي اللغة الاجنبية ألا ينقل التلميذ في بلادهم من سنة إلى سنة أعلى إلا إذا نال هذا القدر من الدرجات فأجابونا بالسلب جميعا .

فأراد المرحوم الوزير أن يحول الحديث عن مجراه ويختبر قوة المترجم في علم تقويم البلدان ، فأشار إلى خريطة من الخرائط المعلقة فى غرفته وسأله عن جزيرة في جهة الشرق من تلك الخريطة . فلم يعرفها المترجم لبعد موقفه عن مكان الخريطة المرتفعة . فأراد أن يقرب منها قليلا حتى إذا عرف اسمها تكلم عنها فضحك الوزير وقال له : يظهر لى أنك غير مجتهد فى هـذا العلم ، فما تلعثم المترجم وما اضطرب بل قال : « ليسمح لى سعادة الوزير أن ألقي عليه سؤالا واحدا ! » فأذن له فى ذلك فقال : « كم مرة ألقيت إلى سعادتكم مقاليد هذه النظارة وكم سنة لبثت فى كل مرة » فقال له الباشا أربع مرات ولم تقل مدتي فى كل مرة عن سنة ولم تزد إلى هذه الساعة عن ثلاث سنين .- فقال له يستنتج من ذلك أنك دخلت هذه القاعة نحو ألفي مرة فهل لسعادتك أن تتفضل بأخباري عن عدد درجات سلم النظارة التي وطئتها قدماك كل هذا العدد من المرات ؟؟

ألقي هذا السؤال بسكينة لايشوبها خوف ولا تطاول . فحسب الاستاذ آنف الذكر أن الوزير يقابل هذا السؤال بالاعراض لبعد الجواب عن أن يحيط به الذهن لانه ليس مما يشغل كثيراً ولكن الوزير هش له وبش وقال :

« يظهر أن هذا القرار آلمك كما آلم إخوانك كثيراً » .

قال : نعم .

فقال : هبني أصررت على تنفيذه ولم أرجع عنه فماذا أنت صانع ؟

قال : «أعوذ برجوعك إلى الحق من أصرارك على الخطأ . وإلى عدلك نفزع من جورك ، ومثل سعادة الوزير جدير ألا يسيء في معاليه ظنون أبنائه المتمسكين بأهداب ولائه » والظاهر أن هذا الجواب أطرب الباشا فأراد أن يستزيد من مثله ، فأخفى ابتسامة جميلة كانت مرتسمة على شفتيه ونظر إليه لاعابسا ولاباسما ليتقصى مافى نفسه.

فقال : دعك من الاستعاذة بالعدل الذى أعزه من الجور الذي أكرهه . فربما خفيت الحكمة فى وضع ذلك القرار على مثلك ومثل إخوانك . واقتضت مشيئتى ألا أعدل عنه فماذا يكون منك ؟ ؟

فتغيرت لهجة المترجم وارتفع صوته أكثر من ذي قبل ثم قال : تسألنى ماذا يكون مني ياسعادة الوزير بعد أن تبين لسعادتك صدق حجتى فيما أقول ؟ أنصرف من حضرتك وأذهب إلى إخواني فأقول لهم إن الجالس على كرسي نظارة المعارف نسى الابوة ولم تكف سعة علمه ونزاهة نفسه وطهر أخلاقه فى تحويله عن شيء اتضح له الخطأ فيه، فهل تعد إعتقاد جماهير التلاميذ في سعادتك صحة ما أقول لهم شيئاً قليلا ؟ ؟ إنه غير قليل ! قال هذا بلهجة الجد وتحول غاضباً يريد الانصراف

وكان سعادة الوزير وهو يسمع من المترجم هذا الحديث يشعر فى نفسه بهزة إنشراح وافر وقد أعجبته طلاقة هذا اللسان وثبات ذلك الجنان ، فأمر فى الحال بتغيير القرار وإعادة نظام الامتحان إلى ما كان عليه من قبل وقال له : « إذهب إلي اخوانك وقل لهم إن أباكم الذي لايحب إساءة الظنون به ويحرص على نفعكم كل الحرص قد اقتنع بأنكم مظلومون وقدأعيد النظام إلى ما كان عليه وألغى ذلك القرار

فتقدم المترجم باسما وسلم على سعادة الباشا سلام الفرح الظافر وانصرف يجد السير حتي إذا ماوصل إلى المدرسة انتهز فرصة الفسحة فاقتحم غمار التلاميذ باسما مستبشراً ، فالتفوا حواليه إذ عرفوا أنه عائد من حضرة الوزير . فألقى عليهم كلمات ضمنها خلاصة الرجاء والتظلم وخلاصة القبول ؟ ؟ فضج التلاميذ بالاستحسان وأقبلوا عليه يشكرون له إحسانه السفارة بينهم وبين الوزير ويهنئونه بذلك الظفر

الكبير معجبين بجرأته وشجاعته التي نفست عنهم الكرب وردت إليهم من سني حياتهم سنة كانت تضيع عليهم هباء .

وقد نبهت تلك الضجة ضجة الاستحسان والشكران التي قوبل بها المترجم وهو ينهي إلى إخوانه تلك البشرى حضرات الاساتذة فتطلع بعضهم يستكشف الخبر فلما انتهى إليهم استدعوا المترجم فاعاد عليهم ماقال وماقيل له فزادوا به إعجابا وله حباً .

وكانت هذه الحادثة ونحن لانعلق عليها شيئاً إعتماداً على ذكاء القارىء كافية في تعريف طلاب المدارس جميعاً بهمة المترجم ونشاطه وشجاعته الادبية الفائقة وفرط حرصه على مافيه خدمة المنفعة العامة وغيرته على الحق والعدل . وقد أذاعت له اسما عطراً بين الذين سمعوا بها، وكانت ترجماناً فصيحا يعرب للناس عن عظم هذه النفس التي لاتصدها عن سبيل الحق المصاعب ، بل كانت الحادثة مجالا لظهور تلك الهمة الشائقة، وميدانا لتجلي تلك العظمة الفائقة ، وإنما الامم الاخلاق . . . .

ثم انتقل إلى الفرقة الثانية (السنة الثالثة الآن) وهو في الرابعة عشرة من عمره وقد استهل فيها طالعه السعيد بتأسيس جمعية أدبية وطنية سماها « جمعية الصلبية الادبية » وقد اختار لها الاعضاء من بين أصدقائه الذين توسم فيهم المقدرة والذكاء والفضل وكانت « جمعية الاعتدال » حينئذ تعقد جلساتها الاسبوعية في مدرسة الامريكان فكان المترجم يزورها ليقع التعارف بينه وبين من فيها من الافاضل والشعراء وأهل العلم وذوى الحيثيات ليحبب إليهم زيارة جمعيته . ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضواً ليس منهم إلا التلميذ النبيه أو العالم الفاضل أو الشاعر المجيد أو المنشىء البارع .

ومنذ ذلك الحين تعلق جنانه بالشعر وأحب الشعراء وصبا إلى الادبيات فكان يقف في الجمعية خطيباً في مساء كل جمعة مرتجلا مما تملي عليه البديهة الحاضرة والباصرة الذاكرة ما يملك الاسماع والقلوب . وأول خطابة ألقاها كانت في « فضل الجمعيات في العالم » وكان إذ ذاك في الخامسة عشرة من سني حياته المباركة .

« وقد أحس في هذه السنة بأنه إنسان كامل ذو كرامة وسمعة يتضوع عبيرهما على أفواه الناس وفي صدور الاسفار فكان يتكلم بتؤدة ويكتب بتؤدة ويعطي من يستشيره الرأي الثاقب بلا مداجاة ولا إخفاء ، وصدره يفيض بآيات الغيرة والحماسة

حتى لم يكن يستطيع أن يتصور أن فى الناس من يصبر على المهانة والضيم وكأنما كان ينظر من وراء حجاب الغيب إلى قول شاعر الشرق أحمد شوقي بك :

أأقبل أن يستعبد الضيم مهجتى   وما خلقت إلا لتقضى على الضيم

لولا أن العزة كانت فيه طبعا.

ومما يذكر بهذه المناسبة أنه كان مرة واقفا فى الصف الخلفي فى طابور الظهر والضابط ينادي أسماء الكسالى الذين توانوا فى حفظ دروسهم أو ارتكبوا مخالفات مدرسية كما هو المتبع ، فصدرت كلمة من أحد التلاميذ حسبها الضابط تهكما عليه واستخفافا به ، وحسب أن قائلها هو المترجم فجال فى الطابور وضرب صاحب الترجمة بعصا في يده على ذراعه اليسرى ضربة مؤلمة ، وشتمه شتما قارصا ، فاشمأز التلاميذ جميعا من هذه المعاملة القاسية التي اختص بها الفقيد العزيز من بين الجميع ولم يرتكب إثما ولم يبد منه من قبل ما يؤاخذ عليه . واقتضى هذا الاشمئزاز أن يقع فى الطابور هرج ومرج وخرج أكثر التلاميذ من صفوفهم وأحاطوا بالضابط وهموا أن يهينوه فنهاهم صاحب الترجمة ، وأبدي رغبته في الكف عنه فأذعنوا له فتركهم بعد أن أخذ عليهم الميثاق ألا يبدو منهم ما يدل على الحنق والانتقام . وقصد من فوره نظارة المعارف العمومية ليقابل ناظرها المرحوم علي مبارك باشا ولكنه لم يجده هناك فولى وجهه شطر بيته فى الحال ولما بلغه تلقاه الوزير بالبشر والابتسام وسأله عما جاء به فأنهى إليه المسألة ، ولما سمعها الوزير غضب وتغير خاطره ، ثم كشف موضع الالم من ذراعه اليسري فاشتد حنقه من سوء ما فعل ذلك الضابط ، فترك ما كان بين يديه من الاعمال وركب العربة والمترجم إلى يساره وما زالت تنهب الارض نهباً حتى وقفت أمام باب المدرسة . فصعد الوزير إلى غرفة الناظر ويد صاحب الترجمة فى يده والناظر إذ ذاك المرحوم المبرور (احمد نظيم بك) ثم أمر فدق الجرس واصطف التلاميذ طابورا فى ساحة المدرسة ثم مر به صفا صفا وسأل التلاميذ واحدا واحدا عن حقيقة ما وقع لانه كان قد رابه أن المترجم فى هذه المرة لم يتكلم كثيراً وإنما قد اكتفى ببسط الشكوى وعززها بأن حسر عن ذراعه فتبين موضع الالم منها . فبعد أن شهدوا جميعا بكل ما وقع مثبتين براءة المترجم من أي ذنب يمكن أن يؤاخذ به ، سأل الناظر عن سيره وخلقه مع المعلمين جميعا فزكت شهادته

ما كان يعتقده الوزير فى حسن خلق المترجم وشرف تربيته وجده ولين جانبه وأدبه مع الجميع .

فلما سمع ذلك استشاط من الغيظ على الضابط وأمر بفصله من المدرسة لسوء طريقته فى معاملة الطلبة وتهوره ومخالفته للعدل والقانون . وما زال ذلك العالم الفاضل المرحوم ناظر المدرسة يستعطف الوزير المغفور له على الضابط المذكور ويطلب من سعادته الصفح عما وقع منه ، حتى رضى وغير أمره على شرط أن يطلب الصفح من الطالب الذي أساء اليه اساءة كبيرة على غير ذنب ولا جريرة . وأن يكون طلب الصفح والاعتذار على مسمع ومرأى من جميع التلاميذ فكان ذلك ، ولم يضن المترجم على الضابط بالعفو وقبول العذر حبا فى بقاء عيشه متصل السبب بالمدرسة . وإلى هذا الصنع ينتهي العفو وهو من مكارم الاخلاق .

كان الاساتذة قبل هذه الحادثة يرون فيه تلميذا باهر الذكاء متوقد الجنان كريم الاخلاق عظيم النفس مقبلا على طلب العلم بكل حواسه حتى كان نجاحه الباهر مدعاة الاعجاب به والاكبار له ولكنهم بعد ذلك رأوا فيه فوق ما تقدم شخصاً محترماً وإنساناً موقراً وكذلك من يضع نفسه فى المركز الذى يحس فيه بأنه ذو كرامة عالية وأن له عقلا مفكراً وذهناً مدبراً وأخلاقاً فاضلة وإرادة قوية عاملة

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الغير أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن   عليك بها فاختر لنفسك مسكنا

وكذلك جاز امتحان هذه السنة وانتقل الى السنة الرابعة . وهي السنه التي يكمل فيها التعليم الثانوى فأصبح ذا شأن عظيم بين أعضاء جمعيتى « الاعتدال » و « العلم المصري » وأجلوه إجلالا كبيراً وأكبروا مقامه فى العيون والصدور وكان يحضر اجتماعاتهما ويخطب فيها فيدهش السامعين لاقتداره على التأثير وبلاغة قوله وصدق نظراته فيما كان يتناول الكلام فيه من الشؤن والموضوعات ولا يقطع عليه سبيل الفصاحة المنهمر من لسانه إلا التصفيق الحاد الذى تدوى به أنحاء كل من الجمعيتين كلما ارتجل البيان .

أما «جمعية الصليبة الادبية » فقد انحلت لان أغلب أعضائها كانوا من أسرات تسكن الريف وجاءت عطلة الصيف فسافر كل من لم يكن متوطنا فى القاهرة إلى بلده

وبقى قليل من الاعضاء فاستولى عليها الفتور وخامرها الضعف وازدادت تانكم الجمعيتان الاخريان ثباتا ورسوخا فضلا عن قدم عهدهما وعدم انقطاع أعضائهما وتضلعهم من العلوم والمعارف . زد على ماتقدم من أسباب فتور تلك الجمعية وضعفها اشتغال من بقى من أعضائها بالاستعداد لآداء الامتحان لنيل شهادة الدراسة الثانوية

وفى هذه الاثناء زار المرحوم علي مبارك باشا المدرسة التجهيزية واختبر فى اللغة العربية تلاميذ الفصل الذي كان فيه المترجم اختبارا دقيقا فى القواعد والمطالعة فسر من إجابتهم كثيرا ثم سأل المرحوم الاستاذ العلامة التقي الشيخ هارون عبد الرازق أن يقدم له أقدر تلاميذ الفصل على إجادة الانشاء فأشار الى المترجم مبينا لسعادة الوزير مالم يكن يجهل من براعته فى هذا المطلب لميله إليه بفطرته فابتسم له الباشا وطلب منه أن يرتجل خطبة فيما يريد أن يصنع بعد نيله شهادة الدراسة الثانوية.

فوقف ثابت الجنان والايمان قوى الحجة والبيان ثم نثر على الاسماع بين يدي سعادة الوزير هذه الكلمة :

«سألتنى ياسعادة الوزير الخطير ، سألت الله لك الرفعة والارتقاء ، أن أقول كلمة فيما أريد أن أصنع بعد نيل شهادة الدراسة الثانوية ، فأنا أكل هذا الامر الى إرادة الخالق عز وجل . فلتكن مشيئته تعالى ، بيد أني استنتجت مما كان يرويه لى المرحوم والدى من أحاديث كبار الرجال وما درسته علي أستاذى العلامة المفضال (أحمد بك نجيب) معلم التاريخ من سير الفاتحين الابطال ما أيقنت معه أن أعظم الرجال شأنا من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربقة الذل والاسترقاق ، وأنا سأكون ذلك المحرر الذي يكتب ويخطب ، وأضرب الامثال للناس كما كان يصنع أستاذى مبشرا بما في الحرية من العزة والحياة منذرا بما فى الذل من الموت والصغار ، والله تعالت حكمته وجلت قدرته يوفقنى الى ذلك» ـ (ثم قال) وحبذا لو أذنت لنا نظارة المعارف بالاجتماع كل أسبوع مرة بالمدرج لنتباحث ونتناقش فيما يجب التكلم فيه وتعود علينا نتائجه بالنفع العميم »

فأكبر الباشا ماسمع وكان يبتسم ويهش لكل فقرة من هذه الفقر ويومىء برأسه مؤمناً على مايقول المترجم . ثم تقدم منه قليلا وقال له :

هل كان أبوك خطيبا ؟

— فأجابه: بل كان طلق اللسان بيد أنه لم يخطب فى الجموع .

قال : ماذا كانت وظيفته ؟

فأجابه — إنه كان مهندسا مثل سعادة الوزير .

قال — ما اسمه رحمه الله لقد أعجب حقيقة؟

فأجابه — المرحوم على محمد.

فلما أن سمع سعادة الوزير هـذا الاسم تذكر المسمى ثم ترحم عليه وقال له على مسمع من الجميع ما معناه :

« إن رجلا كأبيك المرحوم كان استاذى فى مدرسة المهندسخانة كما كان أول مدرسته فى عهد المغفور له « محمد على باشا الكبير » ليس كثيرا عليه أن يكون ابنه مثلك. إني كنت مرتاحا لاجابتك إلى طلبك أولا عند ما حضرت إلي في النظارة وشكوت من مسألة النقل من سنة الى سنة أعلى بمتوسط ست عشرة درجة ، وثانيا عند ما قدمت إلي منها مسألة ذلك الضابط الذى آلمك بلاحق . واليوم يسرنى كثيرا أن أمنحك لقب « امرىء القيس » ايذانا بنجابتك وبلاغتك ».

ثم خرج الوزير واللقب المذكور علم على المترجم بين إخـوانه . وحل فى صميم فؤاده من ذلك الوقت الاحترام التام والاعجاب العظيم بالمرحـوم عـلى مبارك باشا لأنه ظهر أمامه مظهر الاب العادل الذي لا يريد الا إصلاح أمر أبنائه فضلا عن هذا اللقب الكبير الذي وجهه اليه . فكان فى أنديته ومجالسه وفى كل مجتمع علمى أو أدبي لا يطيب له الا ذكر المرحوم علي مبارك باشا .

حـدثنا المرحوم يوسف بك عرفي قال : « كنت فى مجلس المرحوم الوزير يوما وإذا بالمترجم دخل وهو تلميذ فى المدرسة الثانوية فبعد أن سلم بصوت جهير علينا جميعا وبيده على الباشا ، جلس بجانبه وأخذ يناقشه فى مسائل عدة وبعد زمن قليل جاءت جريدة المؤيد فأخذ المرحوم يقرأها بطلاقه حتى أتم ما فيها فشكره الباشا شكراً متواصلا وأوصاه ان يحرص على صحته » .

« كل هذا حصل وأنا مندهش من جراءة هـذا الصغير وقد لاحظ ذلك على المرحوم مبارك باشا فقال لي : « لاتدهش فأن من يقرأ أمامـك هو ابن المهندس الكبير المرحوم « على أفندى محمد » الذى كان أستاذى فى المدرسة وأنت تعرفه جيداً

واسم هذا الابن « مصطفى كامل » فشكرت الباشا وترحمت على والده المرحوم وخفت على صحته من شدة ذكائه »

بعد ذلك استأنف العزيمة وضاعف الهمة مع إخوانه وحرم على نفسه الكرى والراحة أو يظفر بطلبته تلك ، حتى إذا آن أوان الامتحان تقدم ليجوزه ، ضعيفا من أثر الكد والتعب فأخذ من الدرجات العلمية ما سمح له بنيلها ، فنالها فائزا باعجاب ممتحنيه وإكبار اخوانه وعارفيه

و بعدئذ سافر إلى الاسكندرية للاستراحة بعد ذلك الجهاد الشاق والتعب المتواصل ، وكتب إلى وأنا اذذاك ضابط فى مدينة طوكر بالسودان الشرقى كتابا هذه صورته :

الاسكندرية في ١٠ [illegible] ١٨٩١

الى حضرة عزيزي [illegible]

[illegible] ايها الاخ الحبيب [illegible] امام [illegible]

الدراسة الثانوية [illegible] بعد ان [illegible]

[illegible] ولكني اؤمل ان اعود الى القاهرة لادخل مدرسة الحقوق الخديوية فقد

عزمت على الانتظام في صفوف [illegible] لادرس [illegible]

[illegible] والاوامر

وانت تعلم [illegible] وعرفت [illegible]

جمعية احباء الوطن" وربما [illegible] هذا [illegible] الذي [illegible]

بلغة الفرنساوية [illegible]

والله الموفق الى اقوم السبيل

[illegible] ([illegible]) والاشقاء [illegible]

الاخ [illegible] افندي [illegible]

[illegible]

[illegible] وانت خير [illegible] الناس [illegible]

[illegible]

مصطفى كامل

التعليم العالى

إنتظم رحمه الله فى سلك الطلب بمدرسة الحقوق الاميرية وهو فى السادسة عشرة من عمره بعد أن أدي الامتحان، وبذلك نال أمنية من أفخم أمانيه الممهدة له الطريق، وظفر بأمل من كبار آماله يدني منه منال الفوز الاخير .

دخل هذه المدرسة وهو أقوى فى اللغة العربية منه فى اللغة الفرنسية ولكنه قوى فى هذه كذلك بقوة عزيمته وأخذ يفرغ وسعه ويبذل جهده لسد هذه الثلمة فلم يكن يترك لحظة من وقته ولا ساعة من ساعات فراغه إلا أنفقها على اتقان هذه اللغة ودراستها دراسة محكمة للاحاطة بدقائقها وأسرارها إحاطة تمكنه من فهم كل مايقرأه بها فهما جيداً وكتابة مايريد أن يكتبه بها كما يكتبه البارعون من صفوة أبنائها .

وكان رفيقه الذى يخالطه كثيراً فى المنزل والمدرسة والغدو منهما والرواح اليهما حضرة صاحب السعادة العالم الجليل فؤاد بك سليم ، وقد لقيه لاول مرة عند تأدية الامتحان للالتحاق بالمدرسة المذكورة فتعارفا وتآلفا وتآخيا، وقد زاد ذلك الاخاء مكانة ومتانة اقتراب البيتين أحدهما من الآخر فكانا يخرجان معا ويذهبان الى المدرسة كذلك ويعودان منها متأبطا كل منهما ذراع صاحبه . واشتدت أواصر هذه الصداقة المكينة وتوثقت عراها الى حد أنه لم يكن يطيق واحد منهما البعد لحظة عن أخيه، ثم وقعت بينهما مناقشة فى يوم من الايام فى شأن ما ختمت بما كانا يتحاشيانه .

ختمت تلك المناقشة بشجار تسبب عنه أن أصدرت المدرسة أمرها بحرمان كليهما من دخولها أسبوعا كاملا، فاستاء كل منهما من هذه النتيجة التى أفضت إليها برغم منهما كيفية تلك المناقشة شديد الاستياء، ولم يرد فؤاد بك أن يرجع الى المدرسة بل ألحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التى كانت تأسست فى ذلك العهد . أما المترجم فقد عاد اليها بعد أن انقطع عنها سبعة أيام واستمر في الدراسة بمدرسة الحقوق الخديوية إلى آخر السنة وهو لايخاطب صديقه الحميم وصديقه الحميم لايخاطبه

عمل المترجم كثيرا فى تلك السنة بجمعيات «الاعتدال» و « الهدى » و « العلم المصري» وهذه الجمعيات هى التى أسسها جماعة من صفوة فضلاء المصريين أدبا وعلما وجاها ومكانة وأ كثرهم من خريجى المدارس العالية ، لاسيما مدرسة دار العلوم كما ذكرنا.

وكان للمترجم عند المناظرة جولات صادقات فى الجدل والمناقشة حتى ظهر على إخوانه كافة من أعضاء هذه الجمعيات بما أوتيه من طلاقة اللسان ، ومتانة البرهان وخلابة البيان ، وثبات الجنان ، فأخذت شهرته فى عالم الادب تبعد شيئا فشيئا وأخذ عبير سمعته الطيبة يضوع فى الآفاق قليلا قليلا ، وكان جم الميل الى شهود مجالس خاصة الادباء كما كانوا هم كذلك شديدى الميل الى وجوده بينهم يستجلون فيه عوالى الهمم وغوالى المكرمات والشيم.

وقد تعرف فى تلك السنة بأديب زمانه العلامة الكبير الشيخ على الليثى الذي أحبه حب الوالد الشفيق لولده البار فقربه منه ورفع مكانته عنده . لان المرحوم الشيخ الليثى كان من آحاد أهل الادب المشهورين وقد عاش رحمه الله مائة عام قضاها وهو يحضر مجالس الامراء ويتصدر محاضر الفضلاء وتشد إليه من أنحاء مصر مطايا الشعراء والكبراء ، وله من النوادر المأثورة فى الادب مازرى بالكنوز ، ومن الشعر العربى المحكم النسج البليغ الاسلوب مايحقر فى جانبه الدر الثمين ، والفضل يعرفه ذووه . فلاجرم إذا كان هذا الفاضل من أعرف الناس بقدر الفقيد وأحرصهم على إذاعة فضله عند من لم يكن قد عرفه بعد . ولهذا قدمه لسمو الخديوي السابق عباس حلمي باشا فى يوم الجمعة ١٨ مارس سنة ١٨٩٢ ، كما عرفه إلى كثيرين من أهل الجلال والكمال والوطنية الصادقة والفضل الغزير ، أمثال المرحومين أمين فكري باشا مدير الدائرة السنية ، وإسماعيل صبري باشا وكيل وزارة الحقانية ومحمد مجدى باشا أحد مستشاري محكمة الاستئناف الاهلية — والسيد محمود بك سالم وإسماعيل بك شيمى القاضيين بالمحاكم المختلطة ، إلى كرماء في الوطنية آخرين ورجال من صفوة أهل البلاد غابت عن الذاكرة أسماؤهم وما غابت عن الوطن أياديهم وآلاؤهم . ولاتنس أنه كان يجتمع فوق اجتماعه بهؤلاء النابغين الفضلاء بالمرحوم على مبارك باشا الذي كان مجلسه كعبة يحج إليها ألالباء وساحة لاتضيق بأهل العلم والادب بل كان مجلسه السامي نجعة لرواد الآمال وشرعة لوراد الفضل والجلال . وقد كان رحمه الله يعز المترجم

ويحبه حباً جما ويحيل عليه قراءة مايريد أن يسمع فى المجلس سواء من الجرائد أو من الكتب كما ذكرنا.

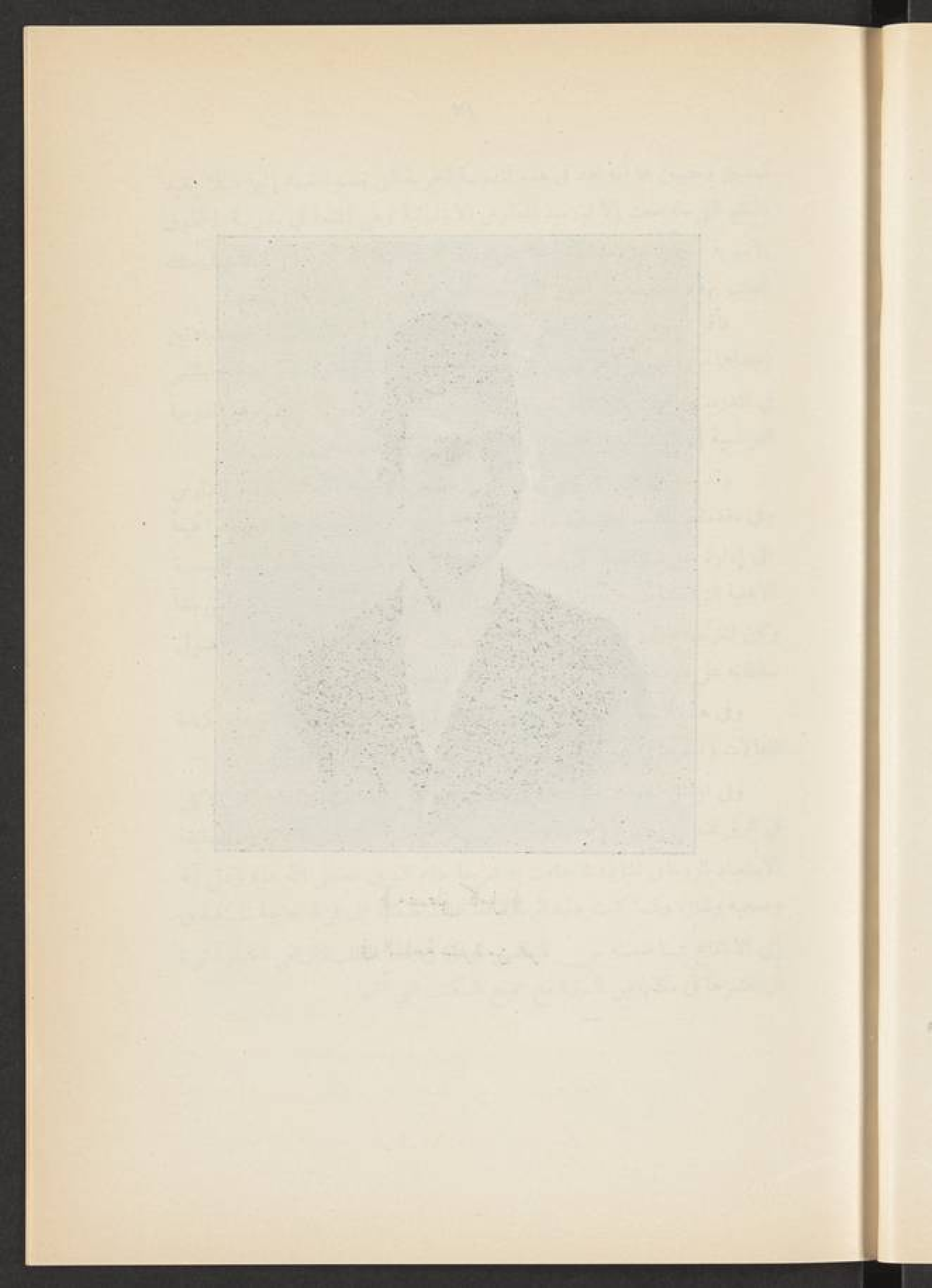
على هذا المثال ، وفى هذا الوسط كان المترجم يقضى أوقات الفراغ . فجمع إلى الرقى العلمي الرقي الادبي وأضاف إلى معارفه الغالية معارف من أولئك الاوفياء الابرين بأمتهم وبلادهم . ولقد انتقل من السنة الاولى إلى السنة الثانية بنجاح باهر . وفي صيف ذلك العام (عام ١٨٩٢) قصد إلى مدينة الاسكندرية لتبديل الهواء فاجتمع بالمأسوف عليه الطيب الذكر بشاره تقلا باشا صاحب الاهرام، وقد عرفه إليه صديقه الحميم شاعر القطرين خليل مطران بك، فأجله وأكبره وفتح له صدر جريدته لنشر مايبعث إليه به من الرسائل الوطنية الحكيمة والمقالات العمرانية الرشيدة والفصول العمرانية الرائقة .

وشعر المترجم بأن فى رأسه فكراً يتمثل له فى اليقظة والمنام ، بل كان ذلك الفكر يغشى عنده دائرة الخيال ويملأ فضاء التصور ، وأن فى يده قلماً سيالا ينفث السحر وفى عزيمته مضاء لاتستهين به المصاعب ، وعلى الجملة شعر أن لديه من الادوات مايستطيع به أن يخدم البلاد خدمة صادقة عظيمة فأخذ ينظر في الوسائل ويحبر الرسائل ويبعث بها إلى جريدة الاهرام منتحلا فى كل رسالة إمضاءة يستتر وراءها ويقف ازاءها فتارة كان يمضى « مصري صادق » وتارة « مصرى أمين » وأخرى « مصرى » (١)

وقد أجهد نفسه فى هذا العمل فوق الطاقة فبدت عليه علائم التعب ومرض مرضاً شديداً خيف منه على حياته . وكان العذل لايزيده إلا تعلقاً بالكتابة وصبراً على مشاقها ولكن الطبيب نهاه عنها بعد أن وصف له العلاج وشدد في وجوب تناوله فى الاوقات المعينة . فامتثل مكرهاً، وبعد أن أبل من مرضه وافي ميعاد الابتداء فى الدراسة للسنة الثانية . وفى شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ لقى مصادفة صديقه القديم فؤاد بك سليم بعد ذلك التقاطع الذى طال أمده . فعاد الود إلى أمكن وأمتن مما كان وعادت الصداقة سيرتها الاولى . وقد بذل هذا الصديق من المساعى مابذل ليحمل المترجم بالترغيب والتشويق على تتميم دراسته فى مدرسة الحقوق الفرنسية ليكونا معاً فاستشار المترجم أخاه وسأله أن يأذن له بالانتقال إلى هذه المدرسة

---

(١) سننشر هذه الرسائل فى مكانها من السيرة





﴿ مصطفى كامل ﴾

فى السابعة عشرة من عمره

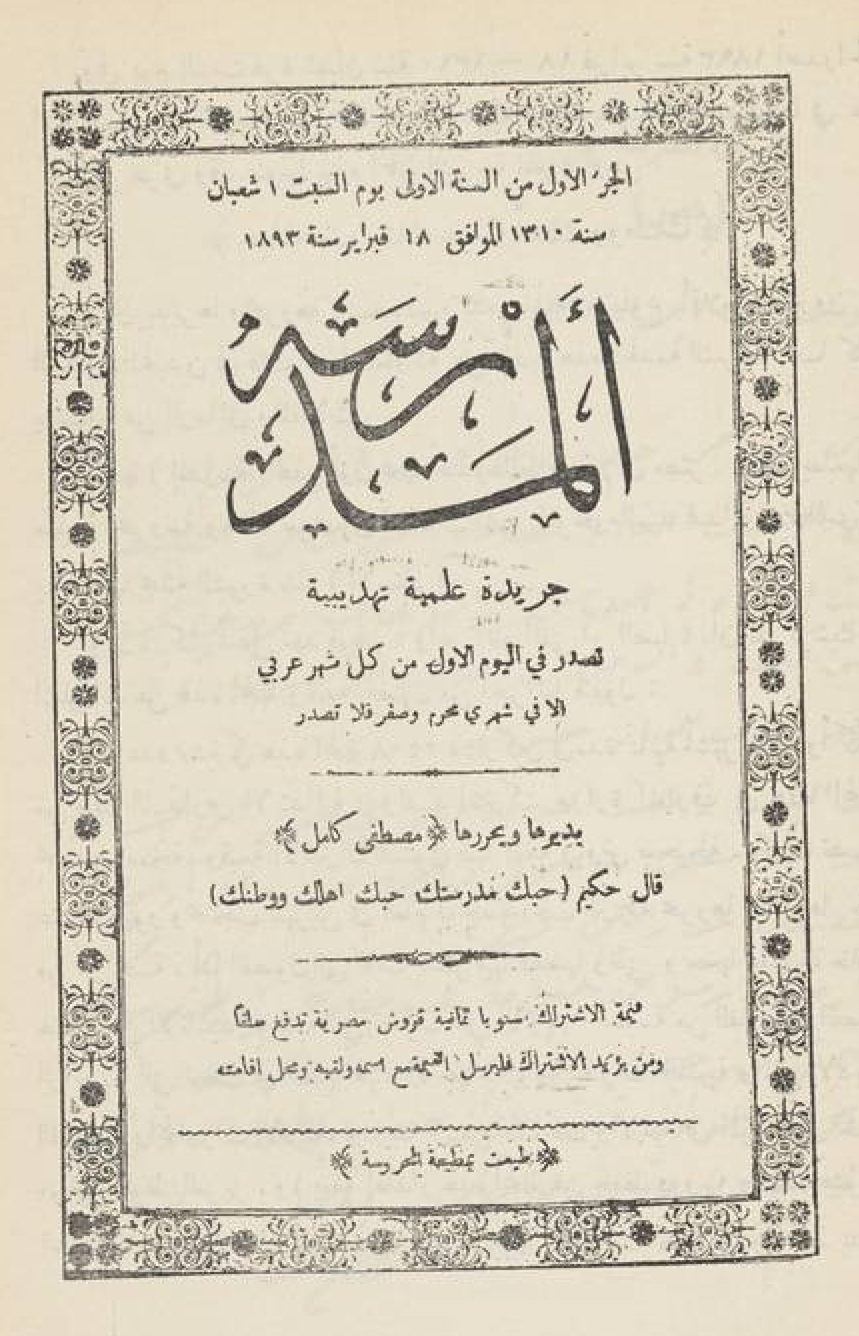
لسببين وجيهين هما أنه يجد فى هذه المدرسة الحرية التى تصبوا نفسه إليها فـلا يتقيد بالنظم التى ماوضعت إلا لتلاميذ المدارس الابتدائية وهى المتبعة في مدرسة الحقوق الاميرية . وأن يميل عدا ذلك للاستزاده من العلم باللغة الفرنسية ، وانتظامه فى سلك الطلب بهذه المدرسة من أعون الذرائع وأنجح الوسائل لادراك هذا القصد .

فأقر أخوه ما طلب ليحصل فى الحقوق عنـد إنتهاء الدراسـة على شهادتين إحداهما من مصر والاخري من فرنسا . التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية واستمر في المدرستين بحيث كان يقضى سحابة النهار في المدرسة الاميرية والمساء فى المدرسة الفرنسية إذ كانت الدراسة تبدأ فيها قبيل الغروب يومياً بساعتين .

وقد حدثت فى ٢٠ يناير سنة ١٨٩٣ مظاهرة وطنية ،قام بها تلاميذ المدارس وفى مقدمتهم طلاب الحقوق، وقد كان فى طليعة هؤلاء صاحب الترجمة إذهجموا جميعاً على إدارة جريدة المقطم لانها أظهرت عداء غريباً للوطنية المصرية وروح النهضـة الاهلية التى انتشرت بين طبقات الامة علي أثر تولية الخديوى السابق عباس حلمى باشا وكان المترجم يخطب فى التلاميذ فيثـير فى الصدور حماسة ، ومن تلك الساعة استولى سلطانه على قلوب إخوانه وأصبح يشار إلى الوطنية فى شخصه المحبوب.

وفى هذه السنة المكتبية الداخلة فى سنتى ١٨٩٢ — ١٨٩٣ أكثر من كتابة المقالات ونشرها فى جريدة الاهرام .

وفى أوائل تلك السنة وقد بلغ السابعة عشرة من عمره ألف رسالة « أعجب ما كان في الرق عند الرومان » وهذه الرسالة على صغر حجمها كفلت لقارئها بيان حقيقة الاستعباد الروماني المباينه لما جاءت به شريعة خاتم النبيين صـلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . ولمـا كانت هذه الرسالة قد نفدت طبعتها على فرط حاجة المستفيدين إلى الانتفاع بمـا ضمنته من التحقيق الوافى فى هذا المطلب التاريخي الخطير آثرنا أن ننشرها فى مكانها من السيرة مع جميع الـكتب التى ألفها.



الجزء الاول من السنة الاولى يوم السبت ١ شعبان
سنة ١٣١٠ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣

المدرسة

جريدة علمية تهذيبية

تصدر في اليوم الاول من كل شهر عربي
الا في شهري محرم وصفر فلا تصدر

يديرها ويحررها «مصطفى كامل»
قال حكيم (حبك مدرستك حبك اهلك ووطنك)

قيمة الاشتراك سنويا ثمانية قروش مصرية تدفع سلفا
ومن يريد الاشتراك فليرسل القيمة مع اسمه ولقبه ومحل اقامته

«طبعت بمطبعة المحروسة»

وفي يوم السبت غرة شعبان سنة ١٣١٠ — ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ أصدر الجزء الاول من مجلة المدرسة وهي مجلة أدبية تهذيبية وطنية علمية كان يصدرها في غرة كل شهر عربي وقد عنونها بهذه الجملة الشريفة المغزى وهى :

﴿ حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك ﴾

وكان يديرها ويحررها كلها بادىء بدء بقلمه ثم تطوع بأقلامهم كثيرون من الكتاب المجيدين فى ذلك العهد لمعاونته على تأدية هذه الخدمة الشريفة بما كانوا يدبجونه من الرسائل والمقالات .

ومجلة (المدرسة) هذه أول مجلة أصدرها طالب علم فى مصر . وكان يطبعها فى مطبعة المحروسة وهناك تعرف إلى الكاتب الشهير المرحوم السيد عبدالله نديم الذي كان يطابع فيها مجلته الشهيرة باسم (الاستاذ) .

ويلذنا كثيراً على حد قولهم « وأعز آثار الفتى أثر الصبا » أن نذكر شيئا من المعلومات عن هذه المجلة ونتبعه بفصول من أجزائها فنقول :

بلغ عدد مشتركي هذه المجلة ٢٤٠٨ مشتركين فى مدة ثمانية أشهر فقط وأكثرهم من طلبة المدارس الابتدائية ، ولقد اشتركت وزارة المعارف في هذه المجلة بخمسين نسخة ، وقيمة الاشتراك السنوي فيها ثمانية قروش صحيحة . وكانت تصدر عشرة شهور وتحتجب شهرين فى العام ليأخذ صاحب الترجمة محررها ومديرها حظه من الراحة . أما الفصول التى كانت تنشر فيها فبعضها وطني وبعضها علمى ، خلا ما هنالك من الاناشيد الوطنية التي تضرب علي الاوتار الحساسة من القلوب ، والفصول الرائقة التى تبحث في نظام الهيئة الاجتماعية ، والشذرات العلمية والملح الادبية الفكاهية والمحاورات الادبية ، وما شاكل من المباحث والاغراض المؤدية إلى خدمة ،رافق الوطن العزيز . ولم يعقه إصدار هذه المجلة عن حفظ دروسه والعناية بشؤونه الخاصة . وقد كتب الى عند ما أنشأ هذه المجلة كتابا هذا نصه بصورته بخط يده :

﴿ مجلة المدرسة ﴾

﴿ بمصر ﴾

الأحد في ١٩ فبراير ٩٣

أخي وروحي حضرة علي أفندي فهمي ويسلم

أقبل وجنتيك ألفا وأهديك أجمل تحياتي القلبية

بمناسبة المولد في أجمل صحة وأتم عافية وأهديك تحيات

أشوق قلبي في الوجود . بلغ الأشقاء وخ

شقيقتي والأب البار حسين أفندي

أرسلت إليك في هذا البريد نمرة المدرسة التي أنشأتها

لتهذيب الناشئة ... وانشرها وإني أرجوك

أن تفيدني عن رأيك فيها

وأرجوك أن ترسل لي تلغرافا عند سماعك أو رؤيتك سواء أكانت

صحتي حسنة ولا ينقص الوقت هذا

حركة الوطنية هنا عظيمة جدا يا بطل . وفي الختام

أقبل وجنتيك وأترك لأخيك المخلص

مصطفى كامل

هذا ولما كان ما صدر من أعداد هذه المجلة لا يتجاوز التسعة أعداد بسبب ما انتابه من المرض بعد صدورها ، رأينا أن نقدم للقراء منتخبات منها لتكون مثالا لأعماله فى صباه

(منتخبات مجلة المدرسة)

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله مدير الاعمال ، في مدارس الكمال ، على محور الاعتدال . وواهب الانسان ، القلم واللسان ، المعبرين عما فى الجنان . والصلاة والسلام على نبيه محمد روح مدرسة المعجزات الباهرة ، وصاحب الاخلاق الطاهرة ، مدينة العلم والكرم ، ومصدر الفضل والحكم . « وبعد » فلما كانت جميع الجرائد على اختلاف مشاربها . وتنوع مذاهبها ، لا تفيد إلا الآباء ، دون الابناء ، من تثقيف عقولهم . وتنمية أفكارهم . وذلك أمر من أهم الامور الشريفة . وغاية نيلها من أكبر المزايا المنيفة ، لانهم عماد دولة مستقبل الزمان ، ومتى صلح المبدأ صلحت الغاية فى كل آن . (من يزرع الشوك لا يجنى به عنبا) ـ رأيت أن أهدى إلى أبناء جلدتي . وصغار بلدتي . مجلة تهذيبية لما فى ذلك من النفع والسداد . والهداية إلى سبيل الرشاد . تصدر فى كل شهر مرة واحدة إلا فى شهري محرم وصفر (زمن الصيف فى هذا العام) فلا تصدر طلبا للراحة وتبديل الهواء . بعد طول العناء . وقد جعلت قيمة الاشتراك فيها سنويا ابتغاء وجه النفع العام (والله على ما أقول شهيد) ثمانية قروش صحيحة حتى يسهل على الجميع تناولها وتعم بذلك فوائدها ، ولنا الامل الوطيد فى مساعدة حضرات نظار المدارس الابتدائية فى هذا المشروع لانهم جميعاً رجال همم عالية . وغاياتهم شريفة سامية . لا يبتغون إلا رفعة أمتهم . وعلو شأن وطنهم .

« وما أنشأت المدرسة إلا لتكون مركزا لجمع درر فرائد الاستاذ ومنهلا غزيرا لاتحاف التلميذ بأثمن الفوائد وأسماها . وأبهج اللطائف وأسناها . فيهدى الاول من محاسن معارفه ما يجود به علينا . ويهدى الثاني من حلل العلم والادب ما نورده وما يرد الينا . وما عليه إلا استقبال تلك الجريدة العصماء . والمجلة العذراء . بالترحيب والاجلال . والتردي بما تهديه له من أثواب التهذيب وطيب الاعمال والتقاط ما تتحفه به من المسائل السنية الثمينة . والنفائس النفيسة المكينة . وإن تعسر عليه الوقوف على أصل كلمة أو معنى جملة أو حسن خريدة فما عليه إلا الرجوع بها الى محل تقتبه

وسنده القديم صانع جواهر فكره أستاذه العليم فيستفسر منه عما أعيته معرفته وما تعذر عليه نيله وإياه إياه أن يقصر فى السعى وراء التعليم والتهذيب وقد سهل الله عليه كل أمر مريب ، فاهدى اليه جريدة بثمن بخس ما أخاله إلا حقيرا وأمره عند الاباء يسير غير عسير .

«فعليك أيها الناشيء المجد أن تستطلع أسرار تلك الجريدة التى لم تسطر الا لمنفعتك وخيرك وسعادتك وبرك ، وتعني كل العناية بامرها ، فسوف يأتى يوم تسلم اليك فيه مقاليدها وتعطي من مديرها زمام أعمالها فترشد إذ ذاك بالاتفاق مع رفقائك الصغار إخوانك وضعاف أبناء بجدتك . فتصفحها الان وقف على حقيقتها وأنت صغير حتى تهدي غيرك فيما بعد وأنت كبير ، والله يهدينا جميعا الى طريق الرشاد وما فيه خير البلاد إنه سميع يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . «مصطفى كامل»

(فيما يجب أن يتبع فى مطالعة الدروس)

«كثيرا مانرى بعضكم معشر التلاميذ يطالع الدروس لا لقصد الوقوف على حقائق الاشياء بل لتحصيل نمرة أو لنيل درجة يفخر بها على إخوانه فيجتهد كل الاجتهاد فى حفظ ما بالكتاب علي قلبه دون أن يبحث فى معناه أو يدقق في مبناه فيصير بذلك كالببغاء بل أضل سبيلا . فلو لاحظنا أغلب التلاميذ فى مطالعة علم التاريخ مثلا لرأيناهم تجنبوا المنهج القويم وعدلوا عن الصراط المستقيم ، ذلك لكونهم يحفظون مدة حكم الملوك ويعرفون أعمالهم ووقوع الحوادث حفظا قلبيا بلا روية ولا تدقيق فيه ، ولو سألت أحدهم سؤالا رأيته إما أن يجاوبك بسرعة بحيث لو وقفته فى طريقه لوقف عن الاجابة أو أجابك بجواب آخر غير الجواب الحقيقي ، فيصير بذلك شبيها برجل مرضت رجله فلقنه الحكيم أن يضع عليها لبخة ، فاعتقد أن اللبخة هى الدواء الوحيد لكل الامراض فكان فى كل مرض يصيبه يضع اللبخة التى ربما أتت بمصيبة أكبر من الداء .

«ليس الغرض من دراسة التاريخ مثلا حفظ مدة حكم الملوك وتاريخهم بل التبصر فى سياستهم وفى حقيقة أعمالهم ، فنرى مثلا أن هذا كان محبا لوطنه غيورا ، وذاك خائنا لئيما ، فنقتدى بالاول ونبغض من شاكل الثانى . هكذا تكون الدراسة الحقيقة والا فليس فى قدرة أحد منكم معشر الابناء إن خالف هذه الخطة أن يطبق العلم على العمل ويكون تعبه بلا فائدة إن لم نقل قد ضيع حياته دون أن يجني شيئا .

فعليكم جميعا أن تطالعوا علومكم مطالعة الباحث المدقق وإن تعسر عليكم فهم شيء فاسئلوا معلميكم عنه فهم يرشدونكم الى سواء السبيل ٠

(قياس ارتفاع الاشجار)

لقياس ارتفاع أي شجرة ظلها فى مستو من الارض يغرز بجوارها مع التوازي عصا ثم يقاس ظل الشجرة . وطول العصا وظلها، وبمعرفة هذه الثلاثة المعلومات يعلم طول الشجرة. بمعني اننا لوفرضنا ان طول العصا ٧٥ سنتيمترا وطول ظلها متر واحد وطول ظل الشجرة عشرون مترا نقول : إذا كان متر واحد ظل ٨٥ سنتيمترا يكون العشرون مترا ظلا لعددمن الامتار يساوى ٢٠ فى ٧٥ ر ٠ أي ١٥ مترا بمعني أن ارتفاع الشجرة خمسة عشر مترا (أي ان المسئلة تسير قاعدة ثلاثية بسيطة)

(نتائج التدخين)

«قد ظهر بالبحث الدقيق فى إحدي مدارس أمريكا الكلية فرق عظيم بين نموصحة من يشرب الدخان ومن لا يشربه من التلاميذ ، فقد شوهد بين تلميذين فى الاصل متساويين في الطول والحجم متحدين في المزاج والطبيعة، تعود أولهما التدخين والآخر بقي على حالته الاصلية (أي أنه لا يدخن) ـ أن نمو صدر ثانيهما أعظم من نمو صدر الاول (أي شارب الدخان) بمقدار الربع تقريبا وكذلك نمو القامة وثقل الجسم أكثر بنحو الخمس ٠ فتجنبوا التدخين لعلكم بكمال الصحة تتمتعون ٠

﴿ محاسن الاقتصاد ﴾

حسب علماء الاقتصاد بالتقريب أنه لو وضع من يوم منشأ العالم الى الآن صلدي واحد (مليمان تقريبا) فى تجارة تربح سنويا عشرة فى المائة (أي بفرض ان المائة غرش تربح عشرة) وأضيفت الارباح السنوية إلى رأس المال ، لحصلنا اليوم على مبلغ من الجنيهات يكفى لعمل طبقة رقيقة من الذهب تغطى سطح الكرة الارضية بأكملها فتأمل.

(مستعمرات أوربا فى أفريقيا)

«إن مساحة قارة أفريقيا التى تبلغ تقريبا أحد عشر مليوناً من الاميال المربعة (الميل المربع يساوى ١٦٠٩ أمتار) لم يبق منها ملكا لاصحابها إلا ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ ميلا مربعاً والباقى منه ٣٤٠ر٣٠٠ر٢ لفرنسا و٤٤٠ر٩٠٠ر١ لانكلترا و٦٢٠ر٠٣٥ر١ لالمانيا

و ۰۰۰ر۰۰۰ر۱ لممالك الكنغو الحرة و۹۹۳ر۷۷٤ر للبرتغال و ۰۰۰ر۳٦۰ر لايطاليا و ۰۰۰ر۲۱۰ لاسبانيا .

(أغرب الجرائد)

« يوجد بأمريكا بعض جرائد تبطع على قماش بحيث أنها تصلح بعد القراءة لان تكون منديلا ، ونوع آخر تعهدت إدارته أن ترسل الطبيب والدواء لمن يمرض من مشتركيها كما أنها تدفع مصاريف دفنه إن مات ، وأخرى تأدب لعموم مشتركيها مأدبة سنوية فاخرة .

(أبسط وسيلة لقطع الثلج)

« إن أبسط وسيلة لقطع الثلج هي أن يوضع سن إبرة على النقطة التى يراد قطع الثلج منها . ثم يضرب بيدمدية على رأس الابرة فتنقسم قطعة الثلج قسمين متساويين بغاية الانتظام .

(زهر مثلث الالوان)

« استكشف من عهد سنة تقريباً بجوار برزخ تيهو أنتيبيك زهر لونه في الصباح أبيض وفى الظهر أحمر وفى المساء أزرق ولا تشم له رائحة إلا وقت الظهر أي عند ما يكون أحمر .

(أسئلة منوعة)

(۱) فى أي بلد وفى أي سنة اخترع السكر من البنجر وما سبب اختراعه ؟
(۲) أي الخلفاء تولى يوم مات والده الخليفة وولده (ولي العهد من بعده)
(۳) ما اسم مستكشف بلاد اليابان وفى أي سنة استكشفها ؟
(٤) أي القارات يخترقها من الشمال إلى الجنوب سلك واحد تلغرافي ؟
(٥) كيف يستخرج الملح ؟
(٦) من المستكشف لجزائر كناريا وفى أي سنة استكشفت ؟
(۷) يوجد بقفص عدد من الديكة والارانب معا غير أنه معلوم أن بالقفص خمسة وثلاثين رأساً وأربعة وتسعين قدما ، فما عدد الديكة وماعدد الارانب ؟

(ألوان الازهار)

« لقد شاهد أحد العلماء بالتجربة أن فى كل ألف زهرة تقريبا يوجد ٢٨٤

بيضاء و ٢٢٦ صفراء و ٢٢٠ حمراء و ١٤١ زرقاء و ٧٣ بنفسجية و ٣٦ خضراء و ١٢ برتقالية و ٤ سمراء و ٢ سوداوان · وشاهد عالمان آخران أن فى كل ٤٠٠٠ زهرة يوجد ٣٨٠ فقط ذات رائحة. منها ١٨٧ بيضاء و ٨٥ حمراء و ٧٧ صفراء و ٣٠ زرقاء وواحدة سمراء .

(الرسم على الفواكه)

« لاجل الرسم على الفواكه يكفى أن يلصق بالصمغ ورق مكون لذلك الرسم على فاكهة خضراء كتفاحة مثلا . فبتأثير الضوء والشمس تستوى الاجزاء الظاهرة من الفاكهة، أي الخالية عن الورق، والاخرى تبقى خضراء فيظهر الرسم بعد النضج مكوناً للاجزاء الخضراء على الفاكهة الناضجة · ويلزم أن يكون الورق معتماً غير موصل للضوء .

(سكان المعمورة وأمواتها)

« على حسب أدق الاحصائيات علم أن سكان الدنيا يبلغ عددهم ١،٤٦٩،٢٧٩،٠٠٠ نقسامنها في آسيا ٨٢٦،٠٠٠،٠٠٠ وفى أوربا ٣٥٧،٣٧٩،٠٠٠ وفي أفريقيا ١٦٤ مليوناً وفى أمريكا وأستراليا ١٢٢ مليوناً

« وعلم أيضا أنه يموت سنويا فى العالم بأسره ٣٣ مليوناً من بني الانسان، أي ٩١،٥٥٤ يومياً و ٣٧،٣٠ كل ساعة و ٦٢ كل دقيقة

﴿ أدوار الحياة ﴾

« للحياة البشرية أدوار مختلفة يقضيها الانسان بأشكال منوعة وأعمال متميزة يمكن حصرها تحت أربع ، وهي الطفولة والشبيبة والرجولة والكهولة ·

« فدور الطفولة هو الدور الاول الذى يبتدىء من يوم ولادة الانسان وينتهى فى السنة الرابعة عشرة من عمره ، فيكون فيه صبياً ثم غلاما ثم يانعا حتى إذا صار حزوراً إنتقل من هذا الدور إلى تاليه .

« ودور الطفولة هذا هو الدور الذى عليه تدور سعادة المرء أو شقاؤه ففيه التهذيب المبدئي والتعليم الاولى الذى متى أتقن وأحسن نشأ الطفل وقد تأهل لتلقى العلوم السامية ودرس الاخلاق الكاملة . وهو دور ليس على الطفل فيه واجب ، بل كل الواجبات على والديه، فهما المنوط بهما تربيته أكمل التربية ، الجسمية والعقلية ، فالجسمية بمراعاة الصحة والنظام فى الغذاء ، والعقلية بعدم مخالطته الاوباش الذين

يعودونه النقائص والقبائح كأن يوحوا إليه أن سب هذا ولاحرج عليك اليوم فانت صغير، فينشأ الطفل قليل الادب عديم التربية يسب كل من لقيه ويفوه بأسفل الاقوال وأهله ضاحكون مرتاحون . حتى إذا ماحان وقت إدخاله المدرسة تهاملوا فى الامر تحت حجة صغر سنه فيشب ويشيب جاهلا قليل الحظ سيىء الحال لايجد من نفسه رادعا ويسرى الداء منه لاولاده فيكون رئيساً لعائلة أعضاؤها فى الجهل يرتعون .

« هذا إذا تهامل الاهل فى تربية الولد . ذلك الامر الذى هو قوام سعادته ودعامة حسن مستقبله . وأما إن اهتموا به وأعاروه جانب الالتفات فقد أعدوا لنسلهم بذلك مستقبلا حسناً وحظاً وافراً بل ولنسل نسلهم وسائر الذرية .

« وغاية القول إن هذا الدور هو أهم الادوار وأجلها لما له من عظيم الاهمية وجليل المزية .

«ودور الشبيبة يبتدىء من غاية الدور الاول وينتهى فى ما بين الثلاثين والاربعين وهو الدور الذي فيه يتعلم ماأعد له من فن أو صناعة أو حرفة تخدمه لمعاشه ولمنفعة أهله وبلاده . والشاب منوط به فيه الطاعة والامتثال لاوامر أولياء أمره الذين عليهم نجاحه وفلاحه، كما أنه يجب عليه أن لا يقصد إلا العلم والعمل والكد والجد فى تحصيل نفائس المعارف وذخائر العلوم والآداب . وقد يتم التلميذ فى الغالب دراسته فى منتصف هذا الدور المزهر ويقضى النصف الآخر في تحصيل معاشه بنفسه فيعمل بما تعلم فى مدارس التهذيب . وأغلب الشبان يتمون هذا الدور بالزواج . ولايفوتك ماذكرناه فى العدد الماضى من وجوب الاعتناء بذلك الامر وحسن إنتقاء الزوجة .

«أما دور الرجولة فيبتدىء من غاية الدور السالف وينتهى بين الخمسين والستين، وهو دور الشغل والعمل الذي يعيش فيه الانسان إما هنيئاً إن كان قضى الدورين الاولين خير قضاء ، وإما شقياً إن كان قد قام بضد مايجب . وفي هذا الدور يوهب الانسان غالباً النسل والذرية ونقصد بذكر ذلك أنه ملزم فيه بمزيد تربيتهم كما قدمنا .

«وهذا الدور هو الذي يتسنى للانسان أن يقدم فيه أجل الخدم لوطنه العزيز ولانقصد بذلك أن غيره من الادوار خال من هذه الغاية، بل أنه دون غيره أكثر استعداداً لتأدية هذه الخدم .

« وآخر الادوار دور الكهولة وهو الدور الذي يبلغ فيه المرء من الكبر عتيا فيستريح فيه من الاعمال ويقضيه في معالجة أمراض الشيخوخة حتى تأتيه المنية فينتقل إلى الدار الآخرة هنيئاً بما فعل إن كان خيراً ، وعليه غضب من الرحمن إن كان شراً والسلام .

مصطفى كامل »

﴿ محاورة بين صديقين ﴾

(صغير وكبير)

« حسن — (بعد السلام) مضت مدة طويلة لم أتمتع فيها بمشاهدة سيدي وصديقي الاجل .

عبد الفتاح — لقد كنت مسافراً بالبلد لقضاء بعض صوالح خصوصية .

حسن — الحمد لله على سلامتك يا أخي . أيسمح لك الزمن أن تتحادث معي قليلا .

عبد الفتاح — إني فى خدمتك مدي الايام .

حسن — حفظك الله وحرسك . لقد سمعت بالامس بعض الناس يقول (لقد فتح معرض شيكاغو يوم الاثنين أول شهر مايو الجاري ولا بد أنه سيكون فى غاية الحسن والجلال مزدحماً بالافاضل من كل جانب) فدهشت من سماع هذه الجملة لشدة غرابتها على سمعي فقل لى رعاك الله ماهي شيكاغو وما هو المعرض ولماذا سيكون مزدحماً بالناس . إني غاية ما أظن أنه مولد كمولد بلدتنا .

عبد الفتاح — إن المعرض محل تعرض فيه الاشياء . فمعرض شيكاغو هذا هو معرض أقامته الحكومة هناك فى هذا العام لتعرض فيه أغلب مصنوعات الدنيا وتشاهد فيه عجائبها ولذلك ذهب الالوف من الامراء والكبراء لمشاهدته .

حسن — إذاً هو سوق عظيمة تعرض فيها الاشياء .

عبد الفتاح — نعم أنها سوق عظيمة كثيرة الشوارع والنواحي تعرض فى كل ناحية من نواحيها مصنوعات مملكة وفيها مندوبون من كل حكومة تنوب عنها .

حسن — وما هى شيكاغو .

عبد الفتاح — إن شيكاغو هي إحدى مدائن أمريكا الشمالية .

حسن — إني لاأعرف أمريكا الشمالية ، أيوجد غير مصر وبلاد العرب وتركية تلك البلاد التى درسناها فى المدرسة) بلاد أخرى .

عبد الفتاح — نعم يا أخي يوجد بلاد أخرى كثيرة .

حسن — إذا كان الامر كذلك فأرجوك أن تعرفني بماهية هذه البلاد .

عبد الفتاح — إعلم أن الدنيا خمسة أقسام (أي خمس قارات) .

أفريقيا التى منها وطننا العزيز (مصر) وبلاد تونس وطرابلس والجزائر ومراكش

وأوربا التى منها الدولة العلية والروسيا وفرنسا .

وأسيا التى منها بلاد العرب (وهى مسقط رأس سيد الامم ومصدر الفضل والكرم سيدنا ونبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام) والهند والصين واليابان .

وأمريكا وهي قسمان (شمالية) ومن ضمن حكوماتها حكومة الولايات المتحدة التى فيها شيكاغو و (جنوبية) .

والجزائر الاوقيانوسية التي منها أستراليا .

حسن — الآن علمت الدنيا وأقسامها ولكن هل كل هذه الاقسام متصلة بعضها ببعض .

عبد الفتاح — إن بعض هذه القارات متصل بالآخر من نقطة واحدة إنما ليست متلاصقة والبعض الآخر منفصل وبين كل قارة والثانية بحر عظيم .

حسن — وما مساحة هذه القارات والبحار .

عبد الفتاح — إن مساحة الكرة الارضية بما فيها من القارات والبحار يبلغ ٥١ بليون هكتار (أي ٥١٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ أمتار مربعة) تشغل البحار ثلاثة أرباعها والقارات الربع الآخر .

حسن — ولكن في كم يوم خلقت الدنيا بأكملها ؟

عبد الفتاح — فى ستة أيام .

حسن — فى ستة أيام . . . إن ذلك زمن يسير ، ولكن لم يخلقها الله في لحظة واحدة مع أنه يقول للشيء كن فيكون .

عبد الفتاح — خلقها فى ستة أيام ليعلم الانسان أن التأنى في الامور محمود وأن العجلة عاقبتها وخيمة .

حسن — لله هذه الحكمة البالغة . ولكن قل لى يا أخى لماذا تقيم حكومة الولايات المتحدة معرضا مثل هذا يكلفها أموالا جسيمة .

عبد الفتاح — إنه ان كلفها أموالا جسيمة لابد تكسب أكثر منها لانها بسببه تروج تجارتها وتربح فنادقها وأسواقها بالنزلاء المتفرجين والاجانب المدعوين فضلا عن أنها تظهر للعالم بأسره تقدمها وعلو شأنها فيسمو قدرها بين الدول وترتفع كلمتها ثم تدخل فى بلادها صناعات جديدة ٠

حسن — لله ماأقدرك على خدمة إخوانك وما أحبك لنفعهم ٠

عبد الفتاح — إنى رهين إشارتك لاأتأخر متى دعوتني لاي أمرمهم

حسن — جزاك الله عنى الجزاء الحسن ٠

(الانشاء والتحرير)

«لا يقصد بالانشاء تمنيق العبارة وتحليتها بالنثر والنظم، بل القصد الاصلى هو وضع عبارة عربية صحيحة سليمة يفهمها القارىء ويقف بها على قصد الكاتب. ولما كانت موضوعات الكتابة شتي كان من الواجب علي الكاتب أن يستعمل في كل موضوع طريقة مخصوصة ففى الموضوعات العلمية يجب عليه أن يراعي سلامة العبارة من التعقيد وفاسد التركيب لا السجع والتنميق . وفى الرسائل والخطابات لا بأس من استعمال السجع وغيره من المحسنات بشرط أن يكون بدون تكلف فى العبارة . نقول ذلك لاننا طالما شاهدنا الكثير من التلاميذ وغيرهم من حاملي القلم يدعون أن الاجادة في استعمال السجع ورص ألفاظ لا لزوم ولا معني لها ، وبذلك تصير عباراتهم ساقطة خلوا من الذوق السليم، وعلى كل الاحوال فالكتابة الطبعية أي الخالية من التكلف أعظم الكتابات مقاما عند أرباب الاقلام .

«وللكتابة آداب يجب على الكاتب مراعاتها بمعنى أنه لو كتب لامير يلزمه استعمال العبارات اللازمة لذوى المقامات العالية، وإن كتب لصديق يلزمه إستعمال عبارات النظير ،وان كتب لمن هو أقل منه مقاما فان كان الكتابة على صورة أمر وجب عليه أن يستعمل ما يلزم من كتابات الرؤساء للمرؤوسين، وإن كانت بصورة ودية لزمه ان يكتب له ما يكتبه إلي صديقه .

«ومن أعظم مايلزم مراعاته فى التحرير الاجابة على خطاب المرسل إذا دعت الحالة لذلك أي أنه لو خاطبك شخص « ولو كان أقل منك مقاما » في أمر يدعو

للاجابة أو طلب منك ذلك المرسل الاجابة لزمك أن تجيبه فى كل الاحوال وألا تعد قليل الادب خارجا عن دائرة المدنية وأهلها. فان المرء الذى يظن في نفسه أنه عظيم وماعداه حقير يكون في الحقيقة جاهلا لئيما قليل التربية وإن كان في أعلى المناصب وأجلها لان الادب والتواضع يجعلان الانسان يعتقد في نفسه أنه أقل الناس مقاما وأصغرهم قدرا . ومما يلزمنا أن ننبه إليه هنا إفادة لاخواننا التلاميذ أن بعضهم (وإن كان نزرا يسيرا) يستعين على الكتابة غيره، وهو أمر قبيح وفعل ردىء يحط من قدر الانسان وينقص معلوماته ويسبب له التقهقر على حين تقدم غيره وما أحسن قول القائل :

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل ... مصطفى كامل»

﴿ أجوبة الاسئلة المتقدمة ﴾

(١) إن السبب فى اختراع السكر من البنجر هو أنه لما اشتعلت الحرب بين فرنسا وانكلترا أيام حكم نابليون الاول إنقطعت المواصلات بين فرنسا ومستعمراتها وكانت تستمد منها معظم سكرها فلما اشتدت الحاجة اليه أصدر نابليون الاول أمره بان كل من يستكشف طريقة لاستخراج السكر من النبات يكافأ ، فتوصل العلامة شابتال إلى إستخراجه من البنجر في سنة ١٨٠٧ ميلادية. ومن ذلك نري أن السبب فى الاختراع هو الاحتياج غالبا.

(٢) تولى أمير المؤمنين هارون الرشيد يوم مات أخوه الهادى وولد ابنه المأمون

(٣) إن جماعة من النورمانديين البحريين تحت رئاسة رجل ماهر إسمه جان دي بيتنكور استكشفوا جزائر كناريا سنة ١٤٠٢ وأسسوا بها مملكة وولوا رئيسهم عليها حيث استمر حاكما مدة أربع سنوات وبعد ثلاثين سنة من افتتاحها دخلها البرتغاليون

(٤) لم يتكلم لنا تاريخ العرب فى تفصيلات تجول تجارهم البحريين مما يجعلنا فى شك من زيارتهم لبلاد اليابان. وأن مانعلمه هو أن أحد مشهورى السواحل المدعو ماركو بولو إخترق في القرن الثالث عشر آسيا حتى وصل إلى بكنغ ثم أقام بالصين عشرين سنة وبعد ذلك استكشف بلاد اليابان وكان اسمها وقتئذ (زيبانجو)

(٥) إن أستراليا يخترقها من الشمال الي الجنوب سلك واحد تلغرافى واصل بين مدينتى بورداردين وأديلايد، وقد مد في سنة ١٨١٧ ميلادية .

(٦) يستخرج الملح إما بتبخير المياه في الاحواض الملحية وإما من الصخور الملحية
(٧) يوجد بالقفص ١٢ أرنبا و ٢٣ ديكا.

وقد وردت الاجوبة عن أغلب هذه الاسئلة من بعض تلاميذ المدارس الابتدائية ولم يفز من بين المجيبين الا حضرة خليل افندي عفت التلميذ بمدرسة السويس الاميرية

(العدد ٣٧)

إن لعدد ٣٧ خاصية عجيبة وهو أنه لو ضرب فى التسعة المضعفات الاولى لعدد ٣ (أى فى ٣ و ٦ و ٩ و ١٢ و ١٥ و ١٨ و ٢١ و ٢٤ و ٢٧) لنتج من كل حاصل ضرب عدد أرقامه واحدة.

وبهذه الخاصية يمكننا أن نكلف أي شخص بان يكتب أي رقم من الارقام التسعه البسيطة وأن يكرره ثلاث مرات بمعنى أنه يكتب عددا مكونا من ثلاثة أرقام متساوية ثم يقسم هذا العدد على مجموع أرقامه فيكون الناتج ٣٧ دائما، وتحققنا من معرفته يجعلنا نحكم به في كل الاحوال.

(اليابانيون فى التشخيص)

ليس من عادة اليابانيين إذا حضروا تشخيصا ولم يعجبهم ما رأوه أن يهللوا كما يفعل الاوربيون، بل أنهم يديرون ظهورهم إلى المسرح فينزل الستر.

(أعظم كلب فى الدنيا)

إشترى أحد الامريكانيين بمبلغ ١٩٠٠٠ دولار (يساوي الدولار مبلغ عشرين قرشاً مصريا تقريبا) كلبا طوله متر و ١٠ سنتمترات وثقله ٢٤٧ رطلا واسمه اللورد بوت!

***

(باى كتاب نقتدي)

«نقتدى بكتاب مجيد ودستور فريد شرعه لنا فاطر السموات والارض وما فرط فيه من شيء. كتاب شريف وقرآن منيف، الحق يقدمه والنور يحيط به من كل جانب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. كتاب يكفل لنا السعادتين الدنيوية والاخروية ويحقق لنا إن اتبعناه رضاء الخالق والناس والسريرة الانسانية عنا. كتاب آياته بينات وبالحق ناطقات، تنشرح لقراءتها الصدور وينتقل بتلاوتها من فى الظلمات إلى النور. كتاب أنواره ساطعة وأحكامه باهرة، تأخذ بلب من يدركها حتى أن أعداءه من الكافرين وحساده الخاسرين أقروا أنه الدستور الجدير أن يتبع والقانون الكافل

للمعاش والمعاد . «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين .»

« ألا ترى أيها القارىء النبيل كيف أن فئة قليلة من العرب تحت قدوة الطاهر الشريف سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام غلبت فئات قوية وأدخلتها فى ذلك الدين الحنيف القويم .

«ألا ترى كيف أن المسلمين في صدر الاسلام ملكوا الارض من مشارقها إلى مغاربها وتفردوا بالكلمة وتوحدوا بالسلطة حتى علا مجدهم الفرقدين وغدت أنوار الشمس لاتغيب عن أملاكهم ، تلك الاملاك الشاسعة والاراضى الواسعة والقصور الشاهقة والمباني العالية والحصون القوية والقلاع الحصينة مما لم تستطع أية دولة من أعظم الدول قوة واقتداراً أن تجاري دولة الاسلام فيه .

« كل ذلك تم باتباع القرآن الشريف الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . فما بالنا معشر المسلمين لانتبعه وقد علمنا أنه عنوان سعادتنا وقائدنا إلى طريق مجدنا . فلنجعله نبراساً فى أعمالنا وسراجا وهاجا فى حركاتنا وسكناتنا ولا نكن كمن غره السراب فهو يغتر باقوال الخسرة المموهين والكفرة الخاسرين الذين يقولون إن القرآن أنزل لعصر لا لكل العصور، ولقوم لا لكل الاقوام . بل لنعلم حق العلم أن فى اتباع القرآن الوصول إلى أعلى منائر الحضارة والمدنية . كيف لا ونحن لو نظرنا لاى أمر من أوامره أو نهى من نواهيه لرأينا منه حكماً جليلة وفوائد جمة عظيمة ولو أمعنا النظر في تحريم الخمر مثلا لرأينا فى ذلك من المنافع مالا ينكره إلا كل عدو للحق عنيد .فالخمر تسلب الشرف والصحة والمال، تلك العوامل التي بها تدور رحى حياة الانسان وعليها يقوم ناموسه وشرفه .

« وكذلك الزنا فان فى تحريمه حفظاً للشرف والعرض والآداب العمومية ومحافظة على عدم اختلاط الانساب وفساد الاخلاق إلى غير ذلك من المساوىء .

« وفى جانب هذا لو نظرنا إلى الفرائض لشاهدنا فيها من المنافع الدنيوية والاخروية مايعجز اليراع عن حصره . ففى الصلاة مثلا - التى طالما يتأخر الكثيرون عن القيام بها - فوائد كثيرة دنيوية وأخروية، فهى التى تجعل الانسان مخلصاً فى محبة الخالق ومتواضعاً لكل إخوانه يفرح لفرحهم ويتكدر لكدرهم، طاهر الجسد والثياب فضلا عن أنها تنشط الجسم وتقوى العضلات مما يعلمه كل من واظب عليها . هذا ما أردنا

ذكره اليوم فى هذه النبذة الصغيرة حتى لا يفتر الناس عن عبادة الله واتباع كتابه الكريم وسنة نبيه الهادي . والله يهدي من يشاء إلي ما يشاء ... مصطفى كامل»

﴿ المحاورات التهذيبية ﴾

إن المحاورات التهذيبية فضلا عن كونها شديدة التأثير فى النفس قوية المفعول يشرح الفؤاد لقراءتها ، إذ أنه يميل إليها أكثر من ميله إلى غيرها، لذلك كانت طريقاً سهلا يسلكه أغلب الواعظين والنصحاء حباً فى الوصول إلى بث الفضائل في النفوس ورغبة فى نشر الحقائق بين الامم . وقد علمنا ذلك حق العلم فاتبعنا طريقة هؤلاء القوم الافاضل وتشبهنا بهم طمعاً في الحصول على ضالتنا المنشودة فملانا أعداد جريدتنا بالمحاورات التهذيبية المختلفة وقد رأينا بأنفسنا شدة ميل القراء اليها وانكبابهم على مطالعتها . فبذلنا الجهد في الاعتناء بها أكثر من سواها. واليوم نهديهم محاورة جليلة عثرنا عليها في بعض الكتب النفيسة العربية فنقلناها مع بعض التصرف حتى غدت ملائمة لمشربنا المصري الوطني، وهي :

﴿ محاورة بين الجد والحفيد ﴾

وقعت هذه المحاورة فى يوم جمعة عقب الصلاة بقاعة الجد حيث كان فى راحة وقد رأى حفيده لوحا جديدا مكتوبا عليه (حب الوطن من الايمان) فابتدأ بالقول :

الحفيد ـ ما معنى كلمة الوطن ياجدي الجليل ؟

الجد ـ هل تريد أن أفهمك معنى الوطن ؟

الحفيد ـ نعم أريد ذلك

الجد ـ إذا كنت تريد ذلك فقل لى أولا من ذا الذى خدشك في وجهك؟

الحفيد ـ هو هر

الجد ـ قل الحق .... إني لا أظن ذلك

الحفيد ـ إني تشاجرت بالامس مع حسن

الجد ـ لماذا ؟

الحفيد ـ لانه سب والدى

الجد ـ إذاً أنت تحب والدك وتدافع عنه

الحفيد ـ لاشك فى ذلك

الجد ـ أظنك لاتحب غيره

الحفيد ـ كلا بل أحب أيضاً والدتي وجدتي وأنت ياجدي العزيز وشقيقي الاكبر على

الجد ـ أنت تحبنا حينئذ

الحفيد ـ كيف لا وأنتم أهلي

الجد ـ إذا كان الامر كذلك فأظنك كنت مسروراً عند ما تعينت قاضياً

الحفيد ـ أجل وقد كنت بك معجباً ومن شدة فرحي في هذا اليوم حفظت دروسي جيداً وأديت ما على من الواجبات بكل همة ونشاط

الجد ـ ولما تعين أخوك ضابطاً هل نالك من الحبور ما نالك يوم تعييني قاضياً

الحفيد ـ نعم إني كنت مشروح الخاطر يوم رقي ووددت أن أكون مثله لالبس تلك الملابس البهجة .

الجد ـ قد ظهر ياولدي العزيز من أجوبتك أنك تفرح لفرحنا ولكن هل لو ألمت بنا مصيبة تشاطرنا الكدر .

الحفيد ـ أما نظرت ياوالدي الاكبر ما كنت عليه من الكدر وسوء الحال يوم مرضت والدتي

الجد ـ إذاً أنت تحبنا وتفضل أن تعيش معنا عن أن تعيش مع غيرنا

الحفيد ـ لاشك في ذلك

الجد ـ إعلم ياولدي العزيز أن اجتماع أناس متحابين يفرح الواحد منهم لفرح الآخرين ويتكدر لكدرهم ويدافع عنهم إذا هاجمهم العدو ويفضل أن يعيش سيء الحظ عن أن يراهم يتألمون من مصاب ومتحداً معهم قلباً وقالباً يكون ما يسمى بالعائلة

الحفيد ـ نعم ياجدي الاعز ولكنك لم تعرفني الآن معنى كلمة الوطن .

الجد ـ أصبر قليلا لاتعجل ولنقرأ قبل كل شيء خطاباً أتى من أخيك

« سيدي وجدي الاجل

إني أتأسف كثيرا لمفارقة عائلتي التي نشأت فيها ولكني لحسن الحظ وجدت مع زمرة من الاوفياء الذين لاقصد لهم إلا خدمة الوطن العزيز، تلك الام الشفيقة التي ربتنا وعلمتنا صغاراً وهذبتنا حتى صرنا أهلا لخدمتها كباراً . وإنا الآن في موضع نهاجم

منه الاعداء وندافع عن الوطن والاهل والاحباء . والضباط رفقائي هم كاخوتي، وقائد الجيش كوالدي، وخدمة أوطاني نبراسي، واخلاصي لعرش بلادي قدوتي، فقل معي لتعش مصر »

الحفيد ـ لتعش مصر ... لتعش مصر ..

الجد ـ إن رؤيتي ياولدي العزيز مصريا نبيلا تبهج ناظري . ورؤيتي وطنيا نشيطا تأخذ بمجامع القلب والفؤاد ، كما أن مشاهدتي آثار آبائي وأجدادي العظماء تجعل في قلبي محلا للفرح وآخر للترح . أفرح لان تلك الاعمال أعظم من أن يأتي المعاصرون بمثلها وأتكدر لما أرى أننا معشر المصريين الحاليين لم نتبع خطتهم ولم نجر على منوالهم . إنا والحق يقال قد قصرنا في واجباتنا فيجب عليكم معشر الناشئين أن تقوموا بأجل الخدم لبلادكم التي ربيتم أنتم وآباؤكم وأسلافكم فيها وتمتعتم بخيراتها

الحفيد ـ حق ما تقول ياسيدي المكرم

الجد ـ الآن بما أنك فهمت قولي وعلمت أنك مدين لبلادك بأشياء كثيرة ينبغي أن تكون التلميذ الاول من فرقتك

الحفيد ـ لا يمكنني ذلك لانه يوجد من هو أعلم مني

الجد ـ ومن أسبوع إلى أسبوع تصير التلميذ الاخير متى ثبت في ذهنك أنه يوجد من هو أعلم منك! أما تدري أن لا شيء على الانسان بعسير ؟

الحفيد ـ ولكني لو اجتهدت وصرت الاول أخاف أن المتقدمين علي الآن يعادونني ويكرهونني

الجد ـ لم ذلك أأنت تكره من يتقدم عليك؟

الحفيد ـ نعم

الجد ـ إن هذه صفة قبيحة يجب عليك أن تتركها وأن تحب للناس ماتحب لنفسك وإذا تقدم عليك أحد فكن مسروراً مادام مصريا واجعل محبة الوطن نصب عينيك آناء الليل وأطراف النهار وثبتها في فكر من لم يعلمها ، حتى تنجح على أيدى أمثالك البلاد ، وتعيش في هناوة وإسعاد .

مصطفى كامل »

(أطول نهر فى الدنيا)

نهر مسيسيبى الموجود بأمريكا الشمالية هو أطول أنهار الدنيا فان طوله يبلغ ٤١٠٠ ميل ويليه نهر النيل السعيد الذي يبلغ طوله ٣٧٠٠ ميل .

(فراق الوطن لاول مرة) (١)

« ما ابتعدنا عن ميناء الاسكندرية حتي خيل لنا أنا فصلنا من الوجود وفارقنا الحياة لما استشعرنا به من احساسات الاسف وشدة التعلق بالوطن وعظم الحنين إليه . فما أشبه المبتعد عن وطنه بطفل فصل من أمه . وقد كادت شدة الحنين ترسل الدموع مدراراً رغماً منا ، ولكننا تجلدنا خشية أن يضحك الافرنج منا وهم الذين يترقبون صغيرة لنا فيعظموها رغبة فى نيل مآربهم . وما ابتدأت احساسات الاسف تقل بارشاد العقل بان الغاية حميدة والقصد شريف والعود سريع حتى ابتدأت الباخرة تلعب ذات اليمين وذات الشمال واحشاؤنا تلعب معها بالتبع كما يتحرك الرضيع فى أرجوحة اهتزازية . ولم نزل كذلك مدة عانينا فيها مرضين كلاهما عظيم : مرض فراق الوطن ومرض البحر . الا أن الاول منهما أقوى وأعظم إذ أن آلامه فى القلب وحده ، وأما الثاني ففي الاحشاء .

« وقد بقي البحر على هذه الحال مدة ست ساعات حتي وصلت الشمس الى الربع من دائرة الافق فعدنا الى الوجود بعد أن قاسينا أهوالا لم نر لها مثيلا من قبل . ولما استشعرت برجوع القوة والنشاط إلي علوت سطح المركب لا تنفس الصعداء واستنشق الهواء فرأيت من الركاب عدداً عديداً بين فرنسيين وانكليز وايطاليين وسوريين وغيرهم . ولم أر بينهم الا ستة من المصريين الذين لاقصد لهم الا تمضية الامتحان بفرنسا والعود ثانية . وهنا ظهرت لى حكمة النيل العجيبة وخاصيته التى ليست فى غيره وهى أن جودة أرضه تمنع أهله من التغرب عن الاوطان ولذلك ترى أكثرهم لايغيز مقره وان ضرب عليهم الذل وخيمت على منازلهم المسكنة . ولعمر الحق تلك مسئلة كادت تكون وراثية على أن كثيراً من سكان المعمور يتنقل ليرى أحوال غيره فيتعلم حيل التعيش ومختلف الامزجة .

« ولقد رأيت أن فى وجودي مع هذه الاجناس المختلفة فرصة عظمى للوقوف على

---

(١) كتب رحمه الله هذا المقال لمناسبة سفره الى فرنسا لتمضية امتحان الحقوق بكلية باريس

بعض أخلاقهم . وماخالطتهم حتى علمت أن الفرنسى منهم رقيق الطبع لين المعاشرة حسن المنطق يراعى فى خطابه كل الادب الا أنه قليل الثبات فتراه إذا مررنا بجزيرة كان يكثر من الاشارات والانتقال والتكلم فى تاريخ هذه الجزيرة كانه يلقى درساً ما . وأما الانكليزى فهو غليظ الطبع مبتعد عن الناس كثير العزلة ولذلك كنا لا نرى للانكليز وجهاً فى أغلب الاحيان الا وقت الاكل . وأما الطليان فهم قوم يوافقهم مرض البحر كل الموافقة .

«وأما السوريون فاغلبهم كان من ركاب الدرجة الرابعة التى ينام أهلها فى قاع المركب وهم يتكبدون المصاعب ويتجشمون المشاق لنيل المعاش منهم . وأما أخلاقهم فعنوانها الشدة والتحمس وأغلب الذين كانوا معنا كانت غايتهم الذهاب الى معرض شيكاغو وهم أهل جد ونشاط .

«قلنا إن البحر سكن روعه بعد الغضب وقد استمر كذلك ليلته ونهاره ثم أخذ يرينا بطشه وقوته تارة ولطفه وترحيبه بنا تارة أخرى ولا غرو اذا كانت تنطق أمواجه بانه رب البطش والقوة وصاحب العظمة . فهو ذلك البحر الذي وهب العالم بأسره التمدن وتقلبت السعادة على سواحله ، وهو هو البحر الابيض المتوسط . ولم نزل كذلك بين عناء وهناء مدة أربعة أيام حتى وصلنا مساء الخميس ٢٢ يونيه الماضى ميناء مرسيليا ولا تسل عما لحق العموم من السرور وخصوصاً الفرنسيين منهم فانهم كادوا يطيرون فرحاً . وبعد وصولنا بساعتين ركبنا قطار الاكسبريس الى باريس مباشرة حيث وصلناها مساء اليوم التالى وقد يرى المسافر من المناظر الجميلة وحسن الترتيب وكمال النظام فى جميع الاعمال ما يسره كثيراً .

«أما ما كنا نستشعر به فى باريس فاحساسات مختلفة ، فتارة نسر لوجود قبائح لم توجد فى وطننا العزيز ، وتارة نأسف على بلدنا عند ما نرى شدة نشاط القوم وجدهم وسعادة الامة والحكومة وشرف الصناع وغير ذلك من الامور التى امتازوا بها .

«ولا تسل عما كان يحيط بنا من السرور عند ما نقرأ فى الجرائد الفرنسية ذكر الاجلال الذي قوبل به أميرنا المحبوب عند مولانا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين

« بل ولا تسل عن فرحنا (بالمؤيد الاغر) عند ما تأتى أعداده كل يوم جمعة متحلية بحقائق الزيارة العباسية

«ولا تسل أخيرا عن كبير حبورنا عند ماغادرنا فرنسا وايطاليا وركبنا البحر عائدين الى الوطن العزيز إذ سالمتنا أمواجه وحيانا النسيم وأهدي إلينا القمر ساطع ضوئه في ليال كان فيها مستكملا ثم جئنا الاسكندرية فجرا فرأينا أمامنا زينة العباس ونورها بل رأينا ضوءه فى البحر أسطع من ضوء القمر حيث لبثنا هنيهة نتمتع بمنظر المدينة وهى تتلألأ كأنها عروس الحي كل ذلك والباخرة لايهدأ لها قرار فتراها تذهب حينا للامام وآونة تتخلف كأنها تظهر علامات اشتياقها لدخول البوغاز

«ولم تلبث هذه الحالة الاقليلا حتى جاء رئيس البوغاز وقاد الباخرة بمهارة حيث وصلنا الميناء ودخلنا المدينة فرأينا مجامع الزينة الباهرة فكان الفرح فرحين والسرور سرورين اللهم احفظ لنا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ناصر الدين والاوطان ... ومتع اللهم مصر بالعباس أميرها المحبوب إنك على ماتشاء قدير مصطفى كامل»

(تلميذ مقدام)

«نعني بذلك « جول وا كبير » ابن أحد الصناع الفرنسين المولود فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ بمدينة لنداس وأحد تلامذة مدرستها العمومية الآن .

نشأ هذا التلميذ على الشهامة والاقدام وحب النفع العام فانه قد خاطر بنفسه مرتين متواليتين لنجاة شخصين كادت المنية تغتال حياتهما ولذلك قد أتت إحدى الجرائد الفرنسية الفخور بشهامة أبناء جلدتها على صورته متقلدا الوسامين اللذين أهدتهما إليه حكومته جزاء طيب أعماله محيطة تلك الصورة بذكر هاته الافعال الحسان وإليك ملخص ما جاء بها بعد الترجمة :

« منذ كان وا كبير فى العاشرة من عمره « أي منذ سنتين » ذهب مع أربعة من أقرانه إلى محل مكتظ بالثلج وأنهم حينما كانوا فى بحر اللعب غارقين إذ ذابت قطعة عظيمة من الثلج تحت قدم أحدهم ولم يلبث الشاب ان هوى معها حيث كان يهدده الموت من كل جانب لولا أن وا كبير المقدام ألقى نفسه بسرعة عجيبة فى الحفرة وأخرج رأس خليله من الماء حتى أتت جماعة من المارة وانتشلتهما معا من هاوية الهلاك .

«وفى الثالث من شهر مايو الماضى رأى عند خروجه من المدرسة عربة سريعة العدو كادت تدهس أحد أقرانه الذي كان يسرع السير للقاء قريب له فأنجاه من الموت

بخفة لا مثيل لها بعد أن اعتقد الجمهور كل الاعتقاد أن تلك اللحظة هي آخر لحظة فى حياة الاثنين »

« هذان العملان الجليلان تدهيأتهما نفس تلميذ ما برح يشتغل بالدراسة الابتدائية ولم يتجاوز السنة الثانية عشرة من عمره فهو جدير بان يكون قدوة حسنة لامثاله . إنه يرى فى عمله هذا خيرا كبيرا فان نجح فيه فقد حفظ حياة وان خاب فقد مات شهيد الشفقة والرحمة والانسانية . ولذلك كافأته الحكومة الفرنسية باهدائه : وسامى الانقاذ الخطيرين .

(الأناشيد الوطنية والتهذيبية)

« لقد أصبح من الامور البدهية المسلم بها عند جميع العقلاء انه لابد أن يكون التعليم مشوبا بالتهذيب . بل يجب تفضيل هذا عن ذاك إذ أن عليه قوام الامور واصلاح الاحوال . والتاريخ أعظم شاهد على ذلك فان العالم إذا كان غير مهذب يكون ضرره عظيما جدا على الامة التى يشغل بين أفرادها محلا فى إدارة الامور ولذلك اتفق جميع الحكماء والفلاسفة على أن ضرر الجاهل أقل بكثير من ضرر العالم العديم التهذيب . ولما كان أسمى غرض لنا هو تهذيب الاحداث فقد عزمنا على أن ندرج فى كل عدد من أعداد جريدتنا نشيدا أو نشيدين حتى إذا ما مضت خمسة أو ستة أشهر يمكننا أن نجمعها في كتاب نضم إليه بعض الشذرات والمحاورات المفيدة ليكون دليلا لتهذيب الابناء وإنا لانعدم فى ذلك العمل مساعدة الفضلاء والادباء والشعراء

وإلى القراء نشيداً جادت به القريحة نعده باكورة لهذا العمل :

هلمو يابني الاوطان طراً	لترجع مجدنا ونعز مصرا
هلمو كي نوفى القطر حقاً	نسيناه فضاع بذاك قدرا
هلمو أدركوا العلياء حتى	تنال بلادنا عزاً وفخرا
هلمو أنزعوا الشحناء عنكم	وكونوا أوفياء فذاك أحرى
أليس يشيننا ترك المعالي	تباع بغير وادينا وتشرى
ونحن رجالها وبما لديها	من الاسعاد والخيرات أدرى

نسينا البر بالنيل المفدى ... وخلنا أننا سنذال خيرا
فعار أن نسمى الذل عزاً ... عار أن نسمى الشح برا
وعار أن نعيش بغير مجد ... ونبصر في السما شمسا وبدرا
وعار أن يكون لنا وجود ... ويجني غيرنا فوزاً ونصرا
فقوموا واطلبوا للنيل حقا ... ولا تبقوا بذل كي يسرا
وسيروا نحو هذا القصد حتى ... تنادي أجمعين بعز مصرا

« إتحاد الوطنيين فى الاغتراب »

« أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب

« ما كان أشدنا تمثلا وتمسكا بهذا البيت مذ كنا فى بلاد الغربة فاننا كنا جميعا كاعضاء عائلة واحدة تم بين افرادها الاخلاص والوفاء فكل فرد منا كان لا يدع ساعة من زمنه دون أن يقابل إخوانه فيها ولو ألم باحدنا شيء مكدر وإن يكن خفيفا كنت ترى الجميع قائمين فى خدمته لا يألون جهدا في تأدية كل ما يحتاج إليه. إلا أنه مهما تقوت عرا الائتلاف والاتحاد بيننا ومهما اشتدت روابط الاخلاص فلا يعد ذلك فى تلك البلاد أمرا مستغربا ولا شيئا مدهشا كما يقع فى بلادنا إذ ان اتحاد الغرباء هنا أمر ظاهر مجسم لانه واقع فى وسط التنافر فيه متغلب على الاتحاد. أما فى البلاد الاجنبية فما كنا نرى فى الاتحاد فرقا بيننا وبين ما يحيط بنا من الاجانب فانهم أجمعون كرجل واحد. ومهما اختلفت مشاربهم وتباينت آراؤهم فانهم فى خدمة الوطن متحدون قلبا وقالبا ولا يختلف فى ذلك اثنان.

«ومن ينظر إلى هذا الامر لابد أن يستشعر باستغراب عظيم وبدهشة كبيرة إذ أن الوطنيين هنا لك والاجانب لا يختلفون فى اتحادهم وأما هنا فالفرق ظاهر والبون بعيد

«ولا شك أن من يبحث فى سبب التغاير بين البلاد الشرقية والبلاد الغربية في هذا الامر يدخل فى دائرة الحيرة من حيث إنه يعلم أن الاتحاد لازم ضروري فكل جماعة يقيمون فى بلد إما أن يكونوا وطنيين أو أجانب فان كانوا وطنيين وجب عليهم كل الوجوب الاتحاد والائتلاف فى خدمة بلادهم وإن كانو أجانب لزمهم ذلك الوجوب أيضا عملا بقول الشاعر .

أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب

«وعليه فكل شخص أهمل خدمة وطنه الذي أنشقه طيب هوائه ، وغذاه لذيذ غذائه ، وسقاه حلو مائه ، يعد عديم الوطنية بعيدا عن أن يسمى وطنيا أو أجنبيا ومثله يعيش كئيبا حزينا عليه غضب من الرحمن ولعنة . مصطفى كامل»

« الصناعة والصناع »

«كل من له اطلاع على تواريخ الامم وسيرهم وما جريات الاحوال في البلاد يعلم أن الصناعة والزراعة والتجارة هي أهم عناصر التقدم وأول أسباب السعادة، وأن كل أمة قطعت سبيل الحضارة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بهذه العناصر الشريفة فهي من أهم الاسباب التي بلغت بالامة الاسلامية فى الازمان السالفة إلى التقدم وعلو الشأن. فقد كان لها بين افرادها أعظم مقام وأسمى احترام وتلك آثارهم قائمة فى كل البلاد التى سكنوها تدل على ما كان لهم من عظيم الاعتناء بالصناعة. والتاريخ على على مطالعيه تقدم الامة الاسلامية فيها وفى الزراعة والتجارة .

«ولم يزل للآن هذا الناموس عاما وشاهدنا على ذلك تقدم هذه العناصر الثلاثة فى البلاد المتقدمة، فلها بين أهالي تلك البلاد اهتمام عظيم وعناية كبرى ولم يضع الناس قدرها إلا فى البلاد الشرقية على أنها أولى من غيرها بالاعتناء بها .

«يظهر مما سبق أن مجد الصناعة والزراعة والتجارة ملازم لتقدم الامة متعلق بارتقائها وعلو شأنها .

«أما الزراعة فمعتني بها فى بلادنا اعتناء شديدا نظرا لان القيام بها أقل تعبا من القيام بأحد العنصرين الآخرين ولان البلاد زراعية بطبيعتها .

«أما الصناعة والتجارة فغير معتني بهما وإن كنا نرى لهما وجودا فهو ضعيف جدا فى جانب الواجب .

« ولما كانت الصناعة فى مقدمة هذه العناصر أحببنا ان نخصص للكلام فيها بعض السطور فنقول :

«الصناعة لها فى الوجود فضل ظاهر، ومجد واضح، لا ينكره الا كل غر جاهل فضروريات الحياة التى هي المأكل والمشرب والملبس والمسكن قد صاغت أكثرها يد الصناعة، فلها إذاً على كل موجود فضل بين يحمله على إعلاء شأنها واحترامها واحترام كل من قام بها وإلا فكل من خالف ذلك يكون قد نسى واجبا نعده سامي القدر

خطير المقام . وحقيقة فان الصناع الذين هم رافعو لواء الصناعة جديرون بالاحترام حقيقون بالتجلة والاعتبار وقد علم ذاك أهل البلاد المتقدمة علما تاما فاحترموا الصناع وأعلوا من شأنهم حتى أصبحوا فى مقدمة المبجلين وطليعة المحترمين. وأما سكان البلاد المتأخرة فقد طرحوا احترام الصانع خلف ظهورهم ولم يكفهم ذلك بل إنهم أهانوه واحتقروه وعدوه أقل الناس شرفا وأحطهم مجدا وقدرا . والسبب فى ذلك ظاهر كما قدمنا وهو أن احترام العناصر الشريفة ملازم للتقدم والتمدن.

« فى البلاد المتقدمة وعلى الخصوص في الولايات المتحدة للصناع شرف باذخ ومقام خطير . فقد بلغ الاعتناء بهم ان أسست هناك جمعية مؤلفة من أعضاء عديدين الغرض الاصلى منها وضع الحوادث اليومية المهمة الواقعة فى العالم فى قالب روايات صغيرة تباع بأبخس الأثمان حتى تكفى الصناع مؤنة البحث والمطالعة في الجرائد . وكيفية ذلك أن أعضاء الجمعية ينقسمون الى جملة أقسام : قسم ينتقي الحوادث الواقعة أمس يوم العمل التى يمكن وضعها في قالب روايات، وقسم ثان يختار الاهم ويترك المهم منها، وثالث يضع الحوادث فى قالب روايات، ورابع ينقحها ، وخامس يجمعها، وسادس يصحح مسوداتها، وسابع يطبعها، وثامن يجلدها، وتاسع يفرقها على المكتبات والباعة و . . . الخ

«ولا يزيد ثمن الرواية الواحدة عن سان واحد أي مليمين وبذلك يشتريها الصانع بثمن بخس وبتلاوتها يقف على ما وقع أمس يومه فى بلاده وفي غيرها من الحوادث المهمة

« هذا مثل من أمثال الاعتناء بالصناع يدلنا على غيره ومن يتأمل فى هذا الاعتناء يرى ان احترام الصناع واجب على كل فرد صغيراً كان أو كبيراً .

﴿ المطالعة في الطريق ﴾

«قد رأينا الكثيرين من تلاميذ المدارس الابتدائية يطالعون دروسهم فى الطريق وقت ذهابهم صباحا للمدارس : ولما كان هذا العمل مضرا بهم رأينا أن نسوق النصح لهم عسى أن يرجعوا عنه :

تعلمون جميعا معشر التلاميذ أن ساعة ذهابكم إلى المدرسة صباحاً هي الساعة التى

يزدحم فيها أغلب الناس بحثاً على معاشهم ويكثر فيها سير العربات والمارين زيادة عن غيرها ولذلك وجب على كل مار أن ينتبه فى سيره خوفاً من لحاق الضرر به.

«وكلكم تعلمون أن العقل هو سلطان الجسم ورئيس الحركة ومدبر الافعال الانسانية التى لا يمكنه القيام بها كلها مرة واحدة، بل يدبر الامور أمراً أمراً ، لذلك كان عاجزا عن أن يفهم الدروس ويتنبه للطريق مرة واحدة، فينتج عن ذلك أن الاشتغال بالمطالعة فى الطريق أمر يضر كثيراً ويلزم تجنبه.

«وزيادة على ما ذكرنا لو نظرنا الى السبب الذي يحمل التلميذ منكم معشر الابناء على المطالعة فى الطريق لعلمنا انه عدم مذاكرته ليلا وكسله واشتغاله باللهو واللعب وهذا مالا يصح وقوعه من امرىء رغب فى المعالى وطلب شرفاً رفيعاً. وقصارى القول إنه يجب عليكم أن ترجعوا عن هذه العادة وأن تعملوا بقول الشاعر:

بقدر الكد تكتسب المعالى ... ومن طلب العلا سهر الليالى
يغوص البحر من قصد اللآلي ... ويحظى بالسيادة والنوال
ومن طلب العلا من غير جد ... أضاع العمر فى طلب المحال

(النشيد الثاني)

أهل المودة والسنن ... هيا لكي نعلى الوطن
ونعيد مجداً قد دفن ... ونفوز بالنصر المبين
هيا بجد واجتهاد ... نسعى لنظفر بالمراد
هيا ولا تبغوا العناد ... فالوقت حان ولا معين
أنتم بنو النيل السعيد ... ذي العز والخير المديد
فاحموه بالجد المزيد ... فبكم بنيه يستعين

إلى أن قال:

فالحر لا يرضى المقام ... بمكانة فيها يضام
والذل يأباه الكرام ... والعز للعليا رهين
فاسموا بمصر إلى العلا ... لتنال ما قد أملا
ولسود من بين الملا ... ونفوز بالنصر المبين

(منابع النيل)

إطلعنا فى العدد الثامن من جريدة « المهندس » الغراء بهذا العنوان على نبـذة للعلامة المفضال سعادة على باشا ابراهيم ناظر المعارف العمومية سابقا نأتي بها هنـا إفادة للقراء الكرام واثباتاً لمايقوله كل وطنى صادق من أن مصر والسودان توأمان حقيقيان فى انفصالها ضياع لمصرنا العزيزة، قال حفظة الله :

« إن نهر النيل يتكون من نهرين آتيين من أقصى بلاد السودان و بلاد الحبشة وهما النيل الابيض والنيل الازرق ويجتمعان عند مدينة الخرطوم ويصيران نهراً واحداً يجرى من الخرطوم في بلاد النوبة إلى مصر فالبحر الا بيض المتوسط ويصب فيه

« وينقسم نهر النيل ثلاثة أقسام ، أحـدها يسمى بالنيل الاعلى أو نيـل السودان والحبشة وهو من منبعه إلى الخرطوم. ثانيها يسمى بالنيل الاوسط أو نيل بلاد النوبة وهو من الخرطوم إلى جزيرة (بلاق) المسماة جزيرة (فيله) وقصر أنس الوجود وهي جزيرة فى النيل قبلي شلال أسوان بنحو عشر دقائق . ثالثها يسمى بالنيل الادنى أو نيل مصر وهو من الجزيرة المذكورة إلى البحر الابيض المتوسط . أما النيل الاعلى فيتكون من نهرين كبيرين يجتمعان عنـد الخرطوم ويقال لاحدهما النهر الابيض وثانيهما النهر الازرق ويسمى كلامنهما بحراً عند أهل الجهات المارين بهـا . فالنهر الابيض يعتبر كانه الاصل الحقيقى للنيل وهو يخرج من بحيرة كبيرة فى جنوبى بلاد السودان تسمي بحيرة (أوكيريفى) على حسب ماتحقق من الاستكشافات الحديثة وهذه البحيرة تسمى (نيانزا) أيضاً أى الماء العظيم عند أهالى البلاد المارة بها وسميت فيكتوريا نيانزا باسم ملكة الانكليز عند استكشافها بمعرفة القبودان سبيك الانكليزي سنة ١٨٥٨ ب . م وحدها الجنوبي فى ٣١ درجة من الطول الشرقي و٧ درجات من العرض الجنوبي ويصب منها فى هذا الحد فرع متكون من السيول كثير الاوحال وعرضها فى الجزء الجنوبى منها من ١٢٠ إلى ١٤٠ كيلو متراً وطولها عند إلى شمال خط الاستواء .

« ويتضح من الاستكشافات الحديثة أن النهر الابيض يخرج من البحيرة المذكورة بثلاثة فروع ثم تجتمع فى فرع واحد يتجه نحو الشمال الغربي ويكون شلال (جاربو) ويروى بلاد « بارى » ويمر بعد ذلك بغابات وأجمات يتفرع فيها

جملة فروع ويصب فيه جملة فروع أخر متكونة فيها السيول وأهمها (كيلاك) الآتى من غربي السودان الوسطى بعد إنصباب بحر الغزال فيه و (صوبات) الآتى من شرقى بلاد الحبشة . وطول مجرى النهر الابيض من منبعه إلى الخرطوم حيث يجتمع مع النهر الازرق يبلغ أكثر من ٢٣٠٠ كيلو متر .

« وأما النهر الازرق فنبعه بين الثلوج المحيطة بجبال القمر ببلاد الحبشة ويتجه نحو الشمال الشرقى ويختلط بجملة نهيرات متكونة من السيول فيزيد حجمه ثم يدخل بحيرة دنبعة من جنوبها ويخترقها ولسرعة جريانه لاتختلط مياهه بها ، وبعد خروجه منها يكون شلال (الاطه) ويمر غربي بلاد (سنغالا) ويقطع ثلاثة شلالات حتى يصل إلى جهة سنار فيروى بها سهولا واسعة وهناك تصب فيه عدة مجاري . وهذا النهر مع ماينصب فيه من المياه لو لم يتصل به النهر الابيض لكان ضعيفاً وربما كان لايصل إلى أرض مصر بل يضيع فى الرمال . فأن مياه النهر الابيض تبلغ ثلاثة أضعاف مياه الازرق .

« وأما النيل الاوسط فيجري مستقيما من الخرطوم مخترقا معظم بلاد النوبة الى قرية (جيرى) ثم يرسم قوس دائرة وينتهي الى جزيرة (مقراط)، وفى شاطئه الشرقى بالقرب من قرية (ضامر) أو (دامر) ينصب فيه نهر (اطبرة) أو (عطبرة) ثم يجرى من جزيرة (مقراط) الي الجنوب ثم ينعطف الى الشمال الشرقي راسما قوس دائرة الى جزيرة (بلاق) أو (فيله) المتقدم ذكرها مخترقا بلاد دنقلة .

«وبلاد النوبة تكثر فيها الشلالات المعطلة لسير السفن الجارية فى النيل المتوسط . فمن (رشيدي) الى (أم دراس) ثلاثة شلالات ومن (أم دراس) الى ناحية (ضال) سبعة شلالات ومن (ضال) الى (وادى حلفا) تسعة شلالات . وأكبر هذه الشلالات شلال (وادى حلفا) .

« وأما النيل الادني أونيل مصر فيبتديء من جزيرة (فيله) المذكورة سابقا حيث مبدأ مصر الاصلية . وعلى بعد ثلاثة آلاف متر تقريبا من هذه الجزيرة جهة الشمال شلال أسوان وهو آخر الشلالات . ومن أسوان يجرى النيل عموديا تقريبا على مجراه الاصلي حتى يصل الى دندرة ثم منها الي القاهرة . وينعطف انعطافات كثيرة وعلى مدن متعددة وقرى جمة ويروي جميع أراضى مديريات الوجه القبلى الى نهاية

مديرية الجيزة مباشرة أو بواسطة الترع الخارجية منه ويتفرع عند القناطر الخيرية الواقعة فى شمال القاهرة على بعد خمسة فراسخ الى فرعين أحدهما وهو الغربي يصب فى البحر المتوسط تحت مدينة رشيد، والآخر الشرقى وهو الاكبر يصب فى البحر المتوسط تحت مدينة دمياط ، ويخرج من هذين الفرعين ترع كثيرة لري جميع أراضى الوجه البحرى .

« ويتكون بين الفرعين المذكورين مع ساحل البحر الابيض المتوسط بين رشيد ودمياط ،مثلث متسع قاعدته ستون فرسخا وارتفاعا خمسون فرسخا . وهذا المثلث يسمي باسم (دلتا) عند الاوربيين . وأول من سماه بهذا الاسم اليونان لمشابهة شكله لحرف دلتا اليوناني وهو حرف الدال . وهو مكون من مديريتى المنوفية والغربية الآن .

« وأماسبب فيضان النيل وزيادته فنزول أمطار دورية ببلاد الحبشة والسودان فاذا لم تنزل الامطار فى سنة من السنين بكثرة نقص فيضان النيل فيها بالنسبة لما نقص من الامطار . وتبتدىء الامطار الدورية المذكورة من شهر مارس، لكن لايظهر أثرها فى نيل مصر الا فى شهر يونيه الافرنكى وهو شهر بؤنه القبطى، ومنشأ هذا التأخر طول المسافة التي يقطعها الماء وما تبتلعه الرمال بحافته التي يمر فيها الى أن يصل مصر . ويري المصريون ان النيل يأخذ فى الزيادة عند نزول النقطة (ليلة ١١ من شهر بؤنه القبطى) . ويبلغ النيل بحسب العادة الى نصف زيادته في نحو ١٥ من أغسطس و ١٠ مسرى ، ويستمر فى الزيادة الى نحو ٢٠ سبتمبر و ١١ توت وتنتهى الزيادة عادة في يوم ١٧ توت وهو يوم الصليب ويستقر على ذلك نحو سبعة عشر يوما تقريبا ثم ينقص بالتدريج وينحصر فى مجراه الاصلي مدة شهر نوفمبر الموافق بابه ثم يستمر فى النقص الى شهر مايو من السنة التالية ثم يبقي على الحالة التي هو عليها تقريبا الى الانقلاب الصيفى .

«وأحسن زيادة للنيل في العادة نحو ٧ أمتار و ٥٥ سنتيمترا تقريبا فوق عادة انحطاط الماء . فاذا كانت الزيادة كثيرة جداً تسبب عنها الغرق واذا كانت ضعيفة جداً حصل منها الشرق. وقد نتج من تحليل ماء النيل بالطرق الكيماوية فى وقت نقصانه أنه يشتمل على مقدار يسير من موريات الصودا وهو خفيف جداً وطعمه

لذيذ ولذلك فهو أنقى من ماء نهر السين بباريز خمس مرات .

﴿ النشيد الثالث ﴾

مظهر الاوطان مجد — وعلاء وفخار
وزمان النيل سعد — ورخاء ويسار
رفعت مصر محلا — هو للشرق منار
وتحلت وتجلى — لمعاليها نهار
قامت الآثار فينا — بعد أن طال السرار
كشفت مجداً دفينا — ليس يعلوه غبار
يابني الاوطان فخراً — فمعاليكم كبار
وتلقوا العصر حرا — لكم فى اشتهار

⁂

وكان المرحوم عدا تحريره مجلة المدرسة واشتغاله بالتأليف وقيامه خير قيام بتأدية واجبه المدرسى ينشر رسائله الفائضة غيرة ، المملوءة حكمة ، فى جريدتي الاهرام والمؤيد ، تلك الرسائل التي سننشرها فى مكانها من هذه السيرة على الترتيب الذي بيناه فى الفاتحه .

وفى مساء يوم الاربعاء ٢٩ مارس سنة ١٨٩٣ ورد إليه تلغراف منى حيث وصلت من سواكن مع الاورطة الاولى البيادة إلى مدينة السويس فلم ينم ليلته لشدة فرحه وفرط سروره بلقيا أخيه وزميله الذي غاب عنه سنتين كاملتين كانت فيهما تتمثل صورة كل منا أمام الآخر فى كل حال .

وما وصل بنا القطار فى فجر يوم الخميس ٣٠ مارس إلى محطة القاهرة حتى سمعت من يناديني فتركت الواجب العسكري لاضمه إلي ضمة الذي يستقبل روحه العزيزة وأمنيته المرجوة ، ولم يشأ أن يتركني وسار معي إلى سكنة الجنود حتى إذا ما نفضت عن كاهلي ذلك الواجب المقدس عدت معه إلى البيت وقضينا يوما من أحسن أيام الحياة حيث أخذ يسألني عن طقس السودان وحالة أهله وشهامتهم وعاداتهم وما لقيته من الاتعاب فى مناوشات الثائرين . ثم عرض علي أعماله من مؤلف ومجلة وآماله فى المستقبل واهتمامه بالكتابة والخطابة ، حتي تخيلت أني لست أمام أخي الصغير الذى

أعرفه من قبل، بل أمام نجابة كبير وعلامة خطير. وقد قلت له يومئذ على ما أتذكر « إني أود أن أكون معك فى عملك هـذا حتى لا أحرم من رؤيتك، وحتى أكون عضداً لك فى هذه الخدمة الوطنية الكبيرة فقال لي إنه سيأتي يوم يكون فيه كلانا بجوار الآخر نعمل باتحاد لخير هذه البلاد العزيزة وهذه الامة الكريمة »

وكان المرحوم يزورني كل يوم بثكنة عابدين لقربها من مدرسة الحقوق لنتناول الغداء معا حيث كان يرد إلينا من المنزل . وكان يناقش الضباط كثيرا في موضوعات شتى من سياسية وعمرانية ووطنية ويضرب لهم أحسن الامثال عن حالة الجندى المصرى وما حازه من الفخر فى جميع العصور وعلى الاخص فى الحروب الاخيرة منذ تولى أمر مصر « محمد علي الكبير » تلك الحروب التي توجت تاريخ المصرى بالمجد الدائم وكان يذكر منها حرب الوهابيين وكريت وعكة وغيرها .

أعد أيها التاريخ على الذاكرة عهد تلك المقدرة النادرة والاحاديث العطرة فان نابتة اليوم تحب أن تستفيد من آياتك الصادقة وعظاتك الناطقة. وكرر على السمع أيها اليراع ذكرى عظمة أصبحت تتناقل سيرتها الركبان ويضوع عبيرها فى كل آن .

أعد أيها التاريخ على الذاكرة حديثاً لا يزال عندى جديداً وإن مضت عليه السنون، وكرر أيها اليراع على السمع أعذب ما يروى وأحسن ما يسمع وألطف ما يقال وأفضل ما يكتب وكن فيما تكتب كما عهدت أولا وآخرا ذلك الناقل الامين فالاحاديث أمانات .

رأى القارىء مما مر به كيف أن مصريا فتياً استطاع فى آن واحد أن يجمع بين أعمال كثيرة كل منها جدير أن يتعاون على اظهاره وينقطع له أكثر من رجل نعم إن في معاصرينا من شيب وشبان كثيرين يستطيع كل منهم بما أتاه الله من قوة العزيمة وقوة النشاط أن يؤلف ويخطب أو يدرس ويكتب أو ينشىء مجلة ويؤسس خطة ويكون جمعية ، ولكن أين من يجمع بين هـذه الاعمال كافة فى ظروف مثل تلك الظروف التى كان فيها كل عمل منها خليقا أن يعاون عليه صاحبه بضروب التشجيع والاقبال ؟؟

إنا نذكر ذلك كله فيضطرب القلم بين الانامل من لوعة الحزن والاسى

وأخيرا نلجأ إلى الصبر الذى هو الدواء الشافي والملجأ الاخير ٠

وليت شعرى ماهذه الهمة التى كانت تملأ ذلك الصدر الرحب! وما ذلك العزم الذي كان مستقراً فى تلك النفس التى كانت لاتكل ولاتمل ولاتستكبر كبيراً ولاتستبعد بعيداً! ثم ما هذه المزايا السامية التى رفعت صاحبها إلى مصاف كبار رجال التاريخ ؟؟

ألا إن نفساً تعين صاحبها على إظهار ماتقدم بيانه من الاعمال فى مثل تلك السن التى يكون الشاب فيها أقرب إلى الهزل منه إلى الجد وإلى السأم من العمل أقرب منه إلى الرغبة فيه، لنفس ممتازة لا كسائر النفوس. وإذا لم يتفاضل الناس بالاعمال التى هي مزايا النفوس وبالهمم التى هي مزايا القلوب فلم يبق مما يتفاضلون به غير المحتد والمال وما شاكل .

قد يخطر لانسان أن يقوم بعمل ويمني نفسه بقرب إنجازه ويتعلل بالزمان والمكان والسعة والضيق وماأشبه وينتحل لنفسه ألف عذر وعذر فيرضيها ويرضيه ولكن الوطن العزيز ليس فى حاجة إلى من يقولون قولا لايتبعه فعل بل نحن كما قال الامام علي كرم الله وجهه : « أحوج إلى رجل فعال منا إلى رجل قوال » وما بالتعلات والاماني تخدم البلاد ولكن تخدم بالروية والاقدام والنهوض بأعباء الاعمال الجسام .

وماكان فى مقدرة مصرى أن يصنع فى تلك السن أكثر مما تقدم ذكره بل حسب العامل وقصاراه أن يؤدي صنفاً واحداً من أصناف هذه الاعمال إذ لكل سن دائرة من العمل قل أن يتخطاها وإنما الموفق من يجوز حدودها ويجوز معها حدود سواها .

إيه ياأعداء مصر وسمعا ياحساد جلالها هذا فتى منها نهض بالامس والالسن معقودة عن التحرك، والاقلام مضروب عليها أن لاتسطر، والخواطر فى أسر من الرعب، ولكنه أطلق لسانه فكان كما قال المتنبي :

ودع كل صوت غير صوتي فأننى   أنا الصادح المحكي والآخر الصدي

واخترط قلمه من غمده فكان كما قال القائل :

أيصيبني ضرف الزمان وفى يدى   قلم كناب الليث حين يضام

وأرسل وهو غض الشباب صوته بين سطور مجلته ورفعه حتى اخترق نوافذ غرف جمعيته ولم يترك شيئاً كان ينتظر من مثله إلا نهض به ناشط الكاهل وكذلك القوى الامل . فلا جرم بعد هذا أن كان حجة بالغة على من يتهمون طبيعة المصري بالكسل والجمود والانصراف عن الجد إلى الهزل وما شاكل ذلك من النقائص. ولقد قام بين ظهرانينا من قبل ولايزال يقوم من بعد من يدلون العالم أجمع على أن قول اللورد كرومر الذى كان أخبث عدو وألد خصم للامة المصرية « فطر المصرى ذكى الفؤاد » هو لاغيره فى كلامه القول الصحيح الصريح حتى ولو كان إيراده منه فى صورة تشعر بالتهكم وقلب الكلام .

سائلوا تاريخ النابغين في الامم الشرقية هل كان حقيقة عقيماً فلم يرد فيه من أسماء الكبراء وعظماء النفوس من يكادون يبلغون ما بلغ إليه المترجم من العظمة والهمة والدعوة إلى الحياة وبث معانيها فى صدور اليائسين ؟ ؟

لقد حاولوا أنصفنا الله منهم أن يلصقوا بنا كل تهمة بل هم لم يعفوا من تهمهم شيئاً فى مصر حتى طقسها وطبيعة أرضها وقد حسبوا أن النيل المبارك لايظهر تحت سمائه من يدهش نبوغه الفائق وجلاله المصدوق كل حسود مكابر . فليقولوا فينا مايقولون وليكتبوا عنا مايكتبون فأن أمامنا من تاريخ المترجم وشدة تعلق المصريين بحبه ماينطق بأصرح عبارة وأظهر قول إن المصريين أهل لكل تكريم .

ثم إيه يامصر لقد نشأ بين ربوعك وظهر وسط جموعك من كنت حديثه العذب فى الغدو والرواح وشغله الدائم فى القيام والقعود وموضع تكريمه كلما كتب مناضلا أو خطب مفاخراً فمجدى ذكراه إلى آخر الزمان .

أكثر المرحوم بعد ذلك من القاء الاسئلة الكثيرة على من يعرفهم من الذين سافروا إلي فرنسا أو درسوا بها ليقف قبل سفره إليها على أحوالها حتى يكون مزوداً ببعض ما يساعده على المعيشة فيها والوقوف على أسرارها إذ كان موعد سفره إليها قاب قوسين أو أدنى .

وقد سافر لاول مرة إلي أروبا وهو فى الثامنة عشرة من عمره على احدى بواخر الشركة الفرنسية البحرية يوم الجمعة ٢٣ يونيوسنة ١٨٩٣ ليؤدى الامتحان

الاول بكلية الحقوق في مدينة باريس وسافر معه شقيقه حسين واصف باشا . وقد كنت وقتئذ فى جبل الطور وكان أخونا المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحي مريضاً إذ ذاك . ولما وصل إلى باريس استقبله على المحطة هناك الكثيرون من أصدقائه وفي مقدمتهم صاحبا العزة محمد على دولار بك وكامل فيضى بك وقد رافقاه إلى شارع مالبرانش حيث نزل فى فندق شهير مع اخوانه الطلاب ، وهذا الشارع من الشوارع التي يسكنها الطلاب عادة . وقد بعث إلى من باريس بكتاب تسلمته فى الطور (وكنت أود أن أنشره برمته لولا أنه بلى ولم يبق منه إلا القليل) وهذه صورته :

« لم أكتب إليك قبل تأدية الامتحان لانى اكتفيت بما كتبته اسيدى العزيز وأخى البار الرحيم، ولأنى رأيت أن أبلغك نتيجة امتحاني فكتبت هذا لأبشرك بنجاح باهر وبجودة صحتي. وكنت أود أن تكون معى فى هذه الديار ديار العلم لترى نشاط القوم ومعدات حياتهم مما أسأل الله أن يهيىء قومنا وبلادنا إلى مثله .

« إنك تعلم أيها الشقيق العزيز أن تعداد الأمة الفرنسية كتعداد أمتنا العزيزة خمس مرات ولكن لو علمت أن عدد طلاب الحقوق هنا فى هذا العام بلغ سبعة آلاف طالب فرنسى وعندنا مائة وأربعة وثلاثون فقط لعرفت سر ارتقائهم وندبت سوء حظنا .والسبب راجع إلى اهمال حكومتنا أمر نشر العلم الذى هو ميزة الانسان عن كل المخلوقات ، بينما تحتم الحكومة الفرنسية أن يكون التعليم الابتدائي إجباريا .

« لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين فرأيتهم جميعاً منكبين على العلم، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقوامهم عارضة وأعلاهم ذكاء ولا ينقصه إلا الارادة التى هي أس النجاح .

« سأعود بمشيئة الله على الباخرة الفرنسية فى ١٧ أغسطس المقبل

لأكون عندكم فى ٢٣ أو ٢٤ منه

باريس فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٩٣ »

عاد رحمه الله من أروبا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٩٣ مع الكثيرين من الذين سافروا معه لتأدية امتحان الحقوق فى باريس وقد حدثنا أكثرهم أنه كان هناك فى حياته الاجتماعية مثال النزاهة والكمال منصرفا عن اللهو غير ماد طرفه إلى مستنكر ضنيناً بقوته العقلية وقوته الجسمية أن ينفق أقل جزء منهما في غير التحصيل . ولم يكن همه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم إلا أن يزور مكتبة أو يتفقد معهداً أو يحادث ذا رأى فيما يتعلق بأمور بلاده وما هو قائم بنفسه نحوها من الاماني العظيمة والآمال الكبيرة وهو فى كل حركة وسكنة ناظر بمنتهى الاعجاب إلى تقدم القوم فى فنون الحضارة ورقيهم في المعارف والعلوم ، متمن لمصر العزيزة ما يتمناه لها كل وطني صادق الحب مخلص الولاء ، مقتبس فى غدواته وروحاته ما كان يأمل أن يفيد به أمته ووطنه فائدة كبيرة . وكان فى أثناء هذه المهاجرة فى طلب العلم لا يفتأ يذكر مصر ويمجدها ويدل على شرفها وهو إليها جم الحنين موفور القسط من الشوق ، يتعجل الايام ليفرغ من التحصيل بسرعة ويعود إلى وطنه المحبوب فيخدمه بما أوتي من عزم متين ورجاء مكين .

وقد زار على أثر عودته المرحوم علي مبارك باشا وكان بيت هذا الوزير الكبير كما سلفت لنا الاشارة إليه منتجعاً لرواد الفضل وشرعة لوراد الادب . فلما دخل عليه هنأه بنجاحه الذى اتصلت به أنباؤه ثم سأله فى ذلك الجمع المكون من خيرة رجال العصر قائلا :

« ماذا رأيت يامصطفى فى أوربا ؟ أرأيت الناس هناك يسيرون على رؤسهم وأرجلهم فى السماء وهل أرضهم تبر وأرضنا ترب أم هم خلق آخر غير هؤلاء الخلق ؟ ؟

فأجابه المترجم جادا لاهازلا : كلا ياسعادة الوزير - فانني رأيت الناس هناك يسيرون كما نسير ولعل أرضنا أزكى من أرضهم تربا وأوفر خصبا وهم من حيث التكوين خلق مثلنا . . وإنما (وأراد أن يسترسل فى بيان

ما هناك (فقال له الوزير :

أتعرف إذاً لماذا تقدموا هم وتأخرنا نحن ؟؟

ألقى هذا السؤال وقد غمز بطرفه بعض القريبين منه كأنما هو كان يبغي أن يسمعهم من حيث لا يتوقعون صوت المترجم وهو يرتجل القول ارتجالا ويرسله على البديهة إرسالا : فنهض من مجلسه وقال ما معناه :

« تسألني ياسعادة الوزير لماذا تقدموا هم وتأخرنا نحن وأنت العليم بسبب التأخر عندنا وأسباب التقدم عندهم ؟؟

«إنهم تقدموا لان الحكومات هناك تشعر بما على عاتقها من التبعات أمام الامم، فلا تهضم لهم حقاً، ولا تخلف معهم عهداً، ولا تضن عليهم بمعونة ولا تستهين بما عليها من الواجبات، وسعادة الوزير يعلم أن الهيئة الحاكمة في كل مملكة من ممالك أوربا قطعة من الهيئة المحكومة بينهما تأثر مشترك وثقة متبادلة . والحكومة خادمة للشعب لا سيدة له وكفى . فالكل هناك يعملون لمنفعة الوطن، ووسائل التشجيع والتنشيط عندهم موفورة، فالصانع المخترع يجازى والزارع المجتهد يجازى كذلك كما يجازى المؤلف المبتكر والعامل المبتدع وكل من يقوم بعمل عام . والمكافأة كما لا يخفى على أحد رأس مال التشجيع عند العامل من أي طبقة كان، ولذلك ترى كلا منهم مجداً في عمله فلا تشرق الشمس في صباح كل يوم إلا أنضجت القرائح اختراعاً أو أقامت الايدي عملا جليلا أو وضعت العقول نهجا صالحا. أما نحن وصبراً جميلا يا مصر فكما تعلم إذا طلب أحدنا من الحكومة طلبا نبذت طالبه وإذا رأت فكرة حميدة تشتغل بتحقيقها الامة خلقت العراقيل وأوجدت الموانع، حتى لتكاد هذه الامة العزيزة تختنق بغاز هذه

السيطرة الغاشمة . ومن شأن السلطة الاستبدادية أن تقتل المواهب والملكات وتخنق روح النبوغ فى الطبقات المستنيرة حتى تحكم خشبا مسندة لا أشخاصا يعقلون: وقد انفرجت مسافة الخلف بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة بهذا السبب وصارت أمتنا فى ناحية والحكومة فى ناحية . ولكن هذه الحالة لن تستمر طويلا وأن لكل باغ مصرعا »

قال هذه الجملة الاخيرة وقد ظهرت الغيرة والحمية على وجهه فى صورة تدل على ماقام بنفسه اذذاك من الحماسة والتوقد .

وقد سر الوزير سرورا كبيرا وأكبر الحاضرون — وفيهم من لم يكن يعرف المترجم بعد — تلك الفصاحة التى كانت تجرى على لسانه وتلك الغيرة التى كانت تفيض من قلبه فقال له الوزير :

« أصبت يامصطفى فيما قلت ولا تنس أيضا أن أمما من أمم أوربا لم تصل الى ماوصلت اليه اليوم الابعد أن أهرقت دماؤهم فى سبيل الحرية فسرت فى الحقول ومنها تغذت النباتات التى يأكلونها وبها تضمخت الارض التى يسكنونها . فذلك الدم الذى يجرى فى عروقهم سواء كان من النباتات أو من أصولهم انما هو دم الحرية المشتراة بالانفس ودم المجد المفدى بالارواح . وانى يابنى أتمنى من صميم فؤادى أن يكون كل الذين يسافرون الى أوربا من أبناء مصر مثلك يغوصون على الحقائق ليعودوا الى وطنهم المحبوب مزودين بها ويطالبون بحقوق البلاد لا يخشون مستبدا غاشما ولا يخافون مغتصبا ظالما » .

« ثم قال له هل كان فى جيبك نقود كثيرة عند ماسافرت ؟

« فأجابه : نعم . فقد أعطانى أخى الذى يحبنى حبا جما فوق حاجتى من المال حتى أنى عدت ومعى الشىء الكثير مما أخذت مع أنى قضيت مدة إقامتى هناك فى أحسن الفنادق وركبت فى ذهابى وإيابى أحسن البواخر فضلا عن أنى اقتنيت كثيرا من نفائس الكتب التى تعيننى على ما

أنا فى صدده ولم أنفق فى غير ذلك درهما لانني طالب علم وأدب لاعاشق لهو وطرب».

فارتاح ضمير ذلك الوزير الكبير لهذا الكلام العذب وقص على الحاضرين حكاية تشبه ماسمعوه فقال:

« أرسلتنى الحكومة المصرية فى عهد المغفور له « محمد على باشا » رأس الاسرة الخديوية مع من أرسلت الى أوربا لأ درس فنون أركان الحرب وجعلت لى مرتبا شهريا قدره أربعمائة فرنك فكنت أحمل فى جيبى مئتين وأبعث الي أهلى بالمئتين الاخريين ولما وجدت النقود كثيرة فى جيبي ملت الي رؤية محلات اللهو وكاد الشيطان يوقعنى فى شركها فقصدت مدير الارسالية فى الحال وسألته أن ينقص مرتبي لان كثرة النقود ربما أفسدت علي أمرى فضحك المدير وقال: « إن العاقل يغلب الشيطان » فاذا كان جيبك مملوءاً بالنقود وارادتك قوية بحيث تعتصم بها نفسك من الزلل الذى يتعرض له من كان مثلك كنت مثال الكمال. أما إذا كنت مستقيما وأنت صفر اليد من المال فالفضل فى هذه الاستقامة لجيبك لا لرأسك.

ثم لم يكد يمضى على ذلك شهر إلا زيد مرتبي مائة فرنك فى الشهر فأصبح خمسمائة فرنك وقد أدركت أن الاستقامة أكبر رأس مال. وما أعظم رجلا تملك مالا وعفة فى آن » ثم التفت الباشا إلى المترجم وقال له: إنصح لمن تقابله باتباع ما أنت عامل به من هذه النصائح الحكيمة وقص على إخوانك حكايتى هذه فانما الحسن من القصص ما كان محييا للفضيلة مميتا للرذيلة: ثم أمر وكيله أن يرافق المترجم الى مكتبته الخاصة ليختار منها أي كتاب شاء. فسار إليها واختار كتاب (نفح الطيب) وانصرف مثنيا

شاكراً مثنياً بنظرات الاكبار ... »

***

والى الفقيد زياراته لصديقه فؤاد بك سليم بمنزل المرحوم والده لطيف سليم باشا الذى كان من ذوي النفوس الكبيرة العالية فضلا عن تضلعه من العلوم والمعارف على اختلاف أصنافها ونظره البعيد في عواقب الامور ، إلى ماتحلى به من الصفات الكريمة والمزايا السامية العظيمة ولأنه (أي المغفور له لطيف باشا سليم) كان يرى أنه لابد من تأليف حزب منظم يعمل لمنفعة البلاد ويدافع عن سمعتها وكرامتها أمام أوربا عامة وفرنسا خاصة . وفعلا تألف هذا الحزب العظيم وكان يضم بين أعضائه الصحفى الماهر والخطيب المفوه والقاضى العادل والقانوني البارع والضابط الوفي وكلهم كانوا من خيرة رجال مصر .

فانضم المرحوم إلى هـذا المجتمع العظيم وهو فى الثامنة عشرة فرحاً مسروراً لانه كان لايزال من طلاب العلم وأولئك علماء مشهورون فأخذ يكتب فى الجرائد المقالات وينشر الاحاديث وكانت هذه وتلك شغله الشاغل .

وتعرف إلى بعض أفاضل المصريين كالمرحوم إسماعيل صبري باشا الذى كان وكيلا لوزارة الحقانية والمرحوم حسن عاصم باشا رئيس الديوان الخديوي ومحمود سالم بك الذى كان قاضياً بالمحاكم المختلطة والمرحوم السيد إسماعيل شيمي بك الذي كان قاضياً بها والمرحوم محمد مجدى باشا الذى كان مستشارا بمحكمة الاستئناف الاهلية والمرحوم محمد فريد بك أحد وكلاء النائب العمومى (رئيس الحزب الوطنى فيما بعد) والمرحوم محمود أنيس بك وحضرة محمد بك خلوصى وكيل مدرسة الزراعة وغيرهم من كبار رجال الحكومة وصفوة رجال الامة . وتعرف كذلك إلى بعض أعضاء الشوري كالمرحوم أحمد بك الصوفاني الذى كان وكيلا لمجلس الشورى وقد عرفه المصريون جميعاً كما عرفه الفقيد وعرفناه رجلا كبير القلب عالي الهمة كريم السجايا جليل المناقب فاضلا غيوراً ووطنياً مخلصاً وقد حفظ له التاريخ سيرة عطرة وصفحة مذهبة وله من المناضلات لمنفعة الوطن فى المجلس مايشهد له بصدق الغيرة وبعد النظر . وتعرف كذلك إلى نجله الوطني الماجد والسرى الامثل المرحوم المبرور أخينا عبد اللطيف الصوفاني بك الذى كان يشبه أباه الشبه كله فى غيرته على الوطن

ودفاعه المجيد عن حقوقه إلى آخر لحظه من حياته . كما عرف غير من تقدم ذكرهم المرحوم حسن عبد الرازق باشا عضو الشورى عن مديرية المنيا معرفة وثيقة العرا وطيدة الدعائم واختلط به اختلاطاً كبيراً وكان يحترمه كثيراً . وكذلك المرحوم المبرور محمود أبو حسين باشا عضو مجلس الشوري ذلك الوطني الصميم والمصرى الحر العظيم

كان يجتمع بهؤلاء الرجال كلهم أو بعضهم كل يوم ويناقشهم فى مسائل عديدة ولسان حال الجميع إذ ذاك جريدة (المؤيد) التى كانت الجريدة الاسلامية الوحيدة كما كانت على جانب عظيم من الوطنية وصدق الجهاد والاخلاص فى الخدمة مدافعة عن صوالح الامة لا بأحرف من مداد بل بأحرف من نار تارة وبأحرف من نور تارة أخرى .

وقد أحبه كل الذين عرفوه وعرفهم على حداثة سنه وكان يقول له أديب وقته المرحوم الشيخ علي الليثى : « إنك أوتيت ذكاء يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفى وحجة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلك » وكان الشيخ رحمه الله يقص عليه أحاديث الصبا وسير الملوك من عدلهم فى صفائهم وجورهم فى غضبهم ونحو هذا مما حبب إليه التعلق بكبار الاعمال وجسام الآمال .

وعرف أيضاً فى تلك الاثناء المرحوم محمود شكرى باشا ذلك الرجل الكريم الخلق البعيد النظر فالتقت نفساهما وتبادل الاثنان الاحترام : فهذا يكبر فى ذاك وقار الابوة وذاك يكبر فى هذا نجابة البنوة .

وقد رسم المترجم لنفسه أثناء اختلافه إلى من تقدمت أسماؤهم خطة من يسمع ليتعلم فكان يسمع أحاديثهم طويلا ، حتى إذا درس الامور ومارس ماهناك أصبح هو المتكلم وغيره السامع . وقد استفاد فوائد جليلة من هذه المخالة لان ساعة واحدة فى مجلس من أمثال تلك المجالس تفيد المستفيد مالا يصل إليه في سنين .

ومن دلائل ما كان يلقاه منهم جميعاً من الاحترام والاجلال أنه كان إذا غاب عنهم أياماً ثلائل قصدوا بيته لزيارته .

ومما قصه علي رحمه الله أنه كان يأخذ الجرائد معه في المدرسة وينتهز لقراءتها فرصة الفسحة وبعض الحصص حين يحتدم الجدل بين التلميذ والاستاذ ، وقد ناداه مرة حضرة استاذه العلامة الكبير المرحوم الشيخ حسونه النواوي (أحد

مشايخ الجامع الازهر) ليفسر قضية من قضايا الشريعة الاسلامية فاعتذر من عدم الجواب لاشتغاله بما بين يديه من الجرائد اشتغالا عاقه عن الاصغاء لصوت حضرته فمشى الاستاذ إلى حيث كان جالسا ورآه منكبا على مطالعة ما معه فقال له أراك تشتغل بالجرائد كثيراً يامصطفى، فهل تريد أن تكون بعد الدراسة صحفياً ؟ فسأله المرحوم المعذرة ولم ينثن عن متابعة القراءة بعد .

***

ثم قصد السفر إلى فرنسا فرافقه إلى الاسكندرية يوم الاحد أول يوليو سنة ١٨٩٤ أشقاءه حسين باشا والمرحوم الدكتور عبد الفتاح وكاتب هذه السطور وكان يرافقنا الكثيرون من الاقربين والاصدقاء . وقد أمضينا ليلة فى الثغر، وفي يوم الاثنين ٢ يوليو ركب المترجم إحدى بواخر الشركة الفرنسية قاصداً بلاد الحرية فودعناه وودعنا داعين له بالنجاح والسعادة . وبعد أن أتم امتحان السنة الثانية بنجاح باهر أخذ يرسل إلى جريدة الاهرام رسائله القيمة. وهي ست رسائل فى معارض ليون وأنفرس .

وفى هذه الاثناء أرسل إلي كتابا جاء فيه بعد التحية والتسليم وذكر مسائل عائلية خاصة ما نصه :

« رأيت فى مدينة بروكسل « لمناسبة معرضها العام » وهي المدينة الزاهية الباهرة (ولكنها على كل حال لم تكن فى نظري أحسن من مصر إلا أن حكومة هذه أهلية تعمل بقلب أهلي . وحكومتنا مختلطة تعمل بقلب الانكليزي) كل ما تصبو إليه النفوس الكبيرة من عز وسؤدد لبلادها ووطن آبائها وأجدادها . وقد علمت بعد الخبرة أن رقي القوم هنا مسبب عن صفتين لازمتين لكل أمة تريد أن تنهض بنفسها إلى سلم الرقى . وهما حب الاطلاع . والاعتماد على النفس . فان الناس هنا وعلى العموم فى كل أوربا يبحثون ليل نهار عن أسرار الطبيعة معتمدين على أنفسهم « ومن جد وجد » . فسل الله معي أيها الأخ المحبوب أن نصبح سادة فى بلادنا

لتعود مصر إلى ما كانت عليه من رفاهية ومجد، حتى نقدم للعالم معارض أفخر مما رأيته وتنظم مدائننا نظاما فوق ماشاهدته . إن الله على كل شيء قدير .

وفى الختام أرجوك أن تقرأ جريدة الاهرام فقد بعثت اليها برسالة عن بلجيكا وعاصمتها . حفظك الله لأخيك المخلص

مصطفى كامل »

***

وما جاء شهر أغسطس سنة ١٨٩٤ حتى كان شقيقنا المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحى طريح الفراش أثر إصابته بالحمى التيفوسية ولما كان شديد التعلق بالمترجم، كثير الحب له، كان يكرر علي كثيراً أن أكتب إليه طويلا وألا أخبره بمرضه حتى لايتكدر في غربته ولا يجزع . وكان صاحب السيرة يسألنى كذلك في خطاباته العديدة عن صحة شقيقه فكنت أتحايل فى كل خطاب على إخفاء مرضه حتي إذا ما جاء يوم الثلاثاء ٢١ أغسطس وقرأت للمرحوم الدكتور القسم الاول من الرسالة الرابعة التي كان بعث بها المترجم لجريدة الاهرام عن معرض أنفرس - كلفني أن أكتب اليه شكراً من قبله وأنبئه بأنه مريض قليلا . فكتبت إليه كتابا وقد جاء منه رد كله تعطف أخوى وحنان نادر .

وما نشر المؤيد فى يوم السبت ٨ سبتمبر إحدى رسائله حتي أخذتها وقصدت إلى أخي المرحوم الدكتور لاقرأها عليه وأشرح صدره بعمل أخينا الصغير. ولما قرأتها عليه كان كلما وصلت إلى نقطة من نقط الوطنية يظهر لى إرتياحاً كأن في كلمات المترجم بلسما لمرضه .

وكأن الله أراد أن تكون هذه الرسالة آخر ما يسمعه من أعمال أخيه « مصطفى كامل » حيث فاضت روحه الكريمة في الساعة الثامنة مساء ذلك اليوم (يوم السبت ٨ سبتمبر سنة ١٨٩٤)

وقد جاءنى الناعي بالخبر فكدت أفارق الحياة لولا لطف الله وفكرت في الحال فى أخى صاحب الترجمة كيف يكون وقع هذا المصاب عليه وما حسبته قد وقع فانه

ما وصل المؤيد إلى باريس وقرأ نعى أخيه حتى أغمى عليه ، ولولا عناية إخوانه به وفى مقدمتهم المرحوم عمر لطفي بك وأحمد زكى باشا (سكرتير مجلس الوزراء سابقاً) لساءت العقبى .

وأرسل المترجم في الحال تلغرافا لشقيقه الاكبر هذا تعريبه :

« أصحيح ما نشر عن أخينا عبد الفتاح كامل »

فأرسلنا إليه الرد

« عليك بالصبر »

فجاء منه تلغراف آخر هذا تعريبه :

« أني مريض للغاية وفى حالة خطرة وسأبرح مرسيليا يوم السبت على الباخرة كليوباتره فأصل الاسكندرية يوم الخميس صباحا وليكن أخى علي فى انتظارى كامل »

فسافرت ليلة الخميس إلى الاسكندرية ونزلت بأحد فنادقها وفى الصباح قصدت شاطيء البحر وسألت عن الباخرة كليوباتره فقيل لى إنها وصلت فى الفجر ونزل منها كل الركاب فقصدت إلى مكتب سكرتيرها وسألته هل بين أسماء الراكبين كان « مصطفي كامل » فقال نعم ، فسألته عن صحته فقال إنه ضعيف جداً . فاشتغل بالى به وعدت إلى مصر فلم أجده وصل إليها ولكنى تسلمت منه تلغرافاً بقدومه فى المساء فانتظرته على المحطة وكدت لاأعرفه من التغير الذي طرأ عليه بسبب حزنه على أخيه . فأخذ يقبلنى وأقبله وكل منا يبكي بكاء مرا حتى استبكينا الرائين من هذا المنظر الاليم .

تركنا المحطة وركبنا إلى البيت فلم أستطع أن أهدئه في شيء بل قضينا المدة حزناً وأنينا وبكاء ونحيباً .

ولما وصلنا إلى البيت استطعنا أن نخفف عنه ألم المصاب قليلا وقصصنا عليه تاريخ مرض المرحوم ووفاته .

أخبرني المترجم بعد ذلك أنه كان أخذ على نفسه عهداً أمام أخيه بأن يمضى الامتحان الاخير فى شهر نوفبر ولكنه لم يحضر منه شيئا إلى الآن وأنه بين عاملين يتجاذبانه ومؤثرين يتقاضيانه ، عامل الحزن الشديد على أخيه العزيز ، وعامل الوفاء بما أخذ على نفسه من عهد وقضى بانجازه من وعد ، ولكنه لابد أن يتغلب على الاحزان ويمضى رغم المصاعب ذلك الامتحان ، حتى لايقال إنه تقهقر أمام إرادة صالحة كاشف بها الكثيرين من إخوانه المصريين المقيمين فى باريس وقد بلغ من ظنهم صعوبة تمثيل تلك الارادة عملا محسوساً أن أحدهم وهو حضرة الفاضل كامل فيضى بك قال له بصريح اللفظ (إن هذا مستحيل) فأثرت هذه الكلمة فى نفسه تأثيرا بليغا .

وكذلك ينقلب التحذير إغراء متى كانت النفس من حسن الاستعداد الفطرى أو الكسبى أو من حيث هما معا بحيث تحدث فيها ألفاظ اليأس واستصعاب الامر ذلك الأثر فتنفعل به انفعالا يجوز بها العوائق ويدني منها منال المقاصد .

قابل المترجم شقيقه وولى أمره وطلب منه أن يأذن له بالعودة الى أوربا ليجوز الامتحان فرضى بذلك وسافر ثانية إليها فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٩٤ بعد أن خففنا عنه الحزن قليلا ورافقته إلى الاسكندرية داعيا له بالنجاح . وعند وصوله إلى باريس قدم توا الى مدير الكلية طلبا لتمضية امتحان السنة الاخيرة فدهشت إدارة الكلية لهذا الطلب لاعتبارات كثيرة أهمها أنه مخالف لقوانينها التى لا تسمح لطالب أجنبي مهما كان جاهه أن يقضى امتحانين لسنتين في سنة واحدة أمام كلية باريس . فضاقت الدنيا في وجهه لما لم يجد طلبه قبولا من مجلس إدارة الكلية — ولكن هل قوى اليأس على فؤاده الكبير ؟ كلا . . .

أكتب « كلا » وأنا معجب بعزيمة أثبت من الرواسى الشامخات أمام الاهواء والاعاصير مكبرا إرادة هى العظمة والقوة بحيث لاتعوقها العوائق .

أقول لامغاليا ولاغرض لى إلا الصدق حاكيا أن تلك المصاعب لو قامت في سبيل تيار زاخر لحولته عن مجراه ، ولكنها كانت أمام نفس من الطراز الاول فماذا صنعت ؟ كان موقف المترجم من أحرج مايكون إذ اجتمع عليه وعد واجب الوفاء وأمنية محتومة القضاء ، وصعوبة عسيرة الحل ، ولكنه لم يكل ولم يمل ، فلم يكن له بد من

أحد موقفين إما الفرار إذا وجد اليه سبيلا وإما التسليم إذا أجداه التسليم فتيلا. ولكنه استطاع بمهارته الفائقة وعزيمته الصادقة أن يستكشف سبيلا للنجاة مما كان محدقا به من المشاق والمصاعب. فانه لجأ الى ذهنه فأعمله فيما هو فى صدده فهداه الى استعانة ربه واستمداد معونة استاذيه الكبيرين المسيو دي روزاس ناظر مدرسة الحقوق الفرنسية فى مصر، والمسيو مولر أستاذ الاقتصاد السياسى بها، وشكا اليهما الامر واستعان بهما بعد أن شرح لهما مركزه أمام شقيقه الاكبر وإخوانه الذين كاشفهم بعزيمته فأظهرا له عطفا كبيرا وأشفقا على صحته أن تمس من جانب نشاطه بسوء فنصحاله بأن يؤجل الامتحان للسنة التالية حتى لايخالف قوانين الكلية ولايجهد نفسه إجهادا لاينجم عنه إلا الاثر السيىء فى صحته!

فلم ييأس ولم ينهزم أمام تلك المصاعب بل أعاد الكرة وألح على أستاذيه كل الالحاح وصرح لهما بأنه إن لم يكن يؤدي الامتحان فى هذا العام فالخطر على صحته محقق إذ هو لايؤثر الحياة على العود الى مصر بغير النتيجة التى قصد باريس من أجلها.

ولما رأي استاذاه الفاضلان تمسكه بقضاء حاجته فكرا فى الامر طويلا ثم ساعداه أمام كلية طولوز. فنقل أوراقه اليها أولا ثم عرض طلبه على مجلس إدارتها. وقد اشتد الجدال بين مديرها الشرفى ومديرها العامل. فالاول كان يري في قبول طلب مصري لم يؤد إلا امتحانا واحدا أمام كلية طولوز حطا من كرامة الكلية وعلي الاخص بعد أن رفضت طلبه كلية باريس التى لم تكن أقل من كلية طولوز قدرا. وأما الثاني وهو المدير العامل فقد عضد الطلب تعضيدا كبيراً حيث صودق عليه بأغلبية أصوات مجلس إدارة الكلية.

هنا قاسي المرحوم شدائد هائلة دفعته إليها قوة الارادة والاعتماد على النفس إذ قصد مدينة طولوز بعد أن أجيب طلبه واستأجر مسكنا لم يبرحه مدة عشرين يوما كاملة وهي الايام الباقية على ميعاد الامتحان. وقد بعث إلي بكتاب من مدينة طولوز طلب فيه أشياء خاصة وقد جاء فيه مانصه:

«أما مسئلة امتحان السنة الاخيرة فقد صادفت فى سبيل بلوغها عقبات كادت تودي بحياتي. ولولا أنى استعنت الله ووسطت مسيو دى روزاس ومسيو مولر لما وجدت لها حلا غير فنائى لشدة ألمى واعتلال صحتي

لأنك تعرف الميثاق الذى أخذته علي نفسى أمام سيدي وأخى وكيف أعود الى مصر بلا نتيجة وألقاه؟ إن هذا لخزي كبير!

« رفضت كلية باريس طلبي وبحسن مسعي هذين الفاضلين حولت أوراقى إلى كلية طولوز وقد قبل طلبي أمامها بعد جدال عنيف وقع بين مديرها الشرفى والمدير العامل مما سأحيطك به علماً بمشيئة الله عند وصولى سالما فائزاً إليكم.

« ولذلك تراني لم أعرف من طولوز غير مسكنى حيث أكد ليل نهار، وقد سقم جسمي ولكني سأتغلب بمشيئة الرحمن على كل شيء للوصول إلى بغيتي. وقد عزمت أن أستمر كذلك أزود القريحة بما هو مسطور فى كتب السنة الأخيرة لأنى شاعر بحرب هائلة سيثيرها المدير الشرفي علي عند ما أقع بين يديه فى الامتحان أو بين يدى من عضده في رأيه من الاساتذة الممتحنين. فادع الله معى واطلب من السيدة الوالدة الدعاء الصالح حتى أجتاز هذه العقبة وأعود إليكم بقلب يجسر بكل شرف أن يقابل أخاه الاكبر بل أباه الصادق جزاه الله خير الجزاء.

هذا وسأبعث لكم إن شاء الله بتلغراف مبشر بالنجاح متى تم ذلك والله المعين . . .

طولوز الثلاثاء ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٩٤ »

***

إنتظرنا بعد ذلك بضعة أيام فجاء منه كتاب آخر كتبه في يوم الجمعة ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٤ قال فيه:

« ربما ظهرت نتيجة امتحانى فى يوم ١٧ أو ١٨ الجارى فانتظروا منى تلغرافا فى مساء أحد هذين اليومين.

ولا تسل عما قام بنفوسنا جميعاً من فرط الشوق لتلقى أنباء الخير عنه فقد انتظرنا بصبر نافد ورود التلغراف الحامل إلينا أكرم البشائر وفيما نحن مجتمعون فى ليلة بيت الاخ الاكبر وإذا الخادم يقول « تلغراف بشرى » . .

فخرجت إليه مسرعا وتسلمت الرسالة ثم قدمتها إلى أخي ففضها ونحن سكوت ثم تبسم معلناً نجاح المرحوم فى امتحان الحقوق الاخير نجاحاً باهراً . فحمدنا الله على ذلك حمداً كبيراً وقد أشفق أخوه الاكبر على حالته فكتب إليه على جناح البرق أن يستريض فى باريس قليلا حتى ترجع إليه صحته وتعاوده قوته قبل أن يعود إلى مصر، فصدع المترجم بالامر وسافر إلى باريس لاطلبا للرياضة التى كنا نرجوها له من سويداء القلب خوفا علي صحته وتفانياً فى حبه، ولكنه قضاها فى البحث والتنقيب وراء الكتب التى تشرح المسئلة المصرية بعد أن وقف على أسماء أشهر الكتاب الذين رسم فى مخيلته وجوب التعرف إليهم .

ولم يمض على تلغراف البشرى بنجاحه أسبوع كامل حتى وصل إلي منه كتاب طويل جاء فيه مانصه :

« واليوم أحمد الله حمداً كبيراً وأشكره شكراً جزيلا على فك قيد أسرى والمن باطلاق فى ميدان الحرية فقد أصبحت حاملا لشهادة الحقوق . وعولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الافراد . ولو أتيح لي الخير وبلغت ماأتمنى لكنت المدافع عن حقوق الامة بأسرها أمام العالم أجمع .

لان مصر وهي جنة الدنيا لاتستحق أن يداس شرفها بالاقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الاعزاء ممقوتين غرباء . . . .

« وأؤكد لك أننى ماسررت بفوزى فى هذا الامتحان إلا لأرضى أخي الاكبر الذى عطف على هذا العطف الخالد الاثر . وسأخبرك بمشيئة الله عند وصولي الى مصر بما لقيته من المعاكسات أثناء تأدية الامتحان . . .

مصطفى كامل »

وما ظهرت نتيجة امتحان طلاب كلية طولوز حتى نشرت « غازيت دي طولوز »

مقالة في عددها الصادر يوم الجمعه ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤ أثنت فيها على الذكاء المصرى ثناء عاطراً إذ قالت ما تعريبه :

« بين الذين نجحوا فى كليتنا الحقوقية شاب مصري لم يتجاوز التاسعة عشرة من سني حياته هو « مصطفى كامل » فقد نال فى الامتحان لأول مرة أربع كرات بيضاء (لم تكن الدرجات التى تعطى للطلاب فى كلية الحقوق بفرنسا أرقاماً كما هو الشأن فى مصر وغيرها بل هي علامات تسمى كرات وهي على هذا الترتيب من أعلى إلى أدنى . (١) بيضاء (٢) بيضاء حمراء (٣) حمراء (٤) حمراء سوداء (٥) سوداء (٦) سوداء داكنة) وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا فى الكلية من مبدأ دراسة الحقوق ، بل هذه أول مرة له فيها . ومن يعلم أنه أمضى فى شهر يوليو الفائت إمتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر يدهش دهشاً كبيراً لهذا الذكاء النادر . ومع ذلك لايعجب قراؤنا فان تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التى تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد . وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا فى مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة فى مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة على دفائن الذكاء المصرى حتى رفعوه فوق كل ذكاء .

« والظاهر أن اعتدال الاقليم سبب من الأسباب التى أوجدت فى المصريين هذا الذكاء النادر .

« فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة فضلا عن ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الاكيدة فى الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفائضة

لا بد أن تسترجع مجدها بفضل هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيراً ونجلهم اجلالا كبيرا .

« وأنه ليس فى وسعنا بعد الذي شاهدناه من ذكاء «مصطفى كامل» إلا أن نهنىء مصر به ونرجو له النجاح التام فى العمل الذي يريد به خدمة بلاده .

« لأن الغيرة التى شاهدناها على محياه والطلاقة التى تشير إلى مستقبله الباهر والتى تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة لا بد أن ترفعه إلى مصاف مشهورى الرجال .

« ثم لا ينسى القارىء أنه ظاهر على سيما مصطفى كامل الصفاء التام فى القول والفعل ، وأن قلبه لا يزال طاهرا كريما وفوق ذلك آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قدهذبت علمه الغربي تهذيباً لم نره فى حياتنا إلا قليلا .

« وأن مدينة طولوز لتفخر بأن تسجل فى عداد الذين تخرجوا من كلياتها شابا كهذا الشاب نقي الفؤاد متصفاً بكل ما يزين المرء من علم وأدب ورأي صائب .

« وأن سكان طولوز ليميلون إلى معرفة « مصطفى كامل المصري » ومحادثته ولكننا نعلن أنه سافر بعد أن حادثناه فنكتفى بأن نقدم للقراء صورته هذه .

وها هو الحديث الذي جرى بيننا وبينه :

« وجهنا إليه سؤالا عن درجة احترام المصريين لنا وميلهم إلينا — وعن حالة إمتحانه الاخير وسبب قضائه سنتين في سنة وماذا يريد أن يعمل بعد بلوغه مرسى بلده ؟ فقال لنا بصوت عال وبطلاقة نادرة وبلغة صحيحة سهلة وبسرعة مدهشة ما نصه :

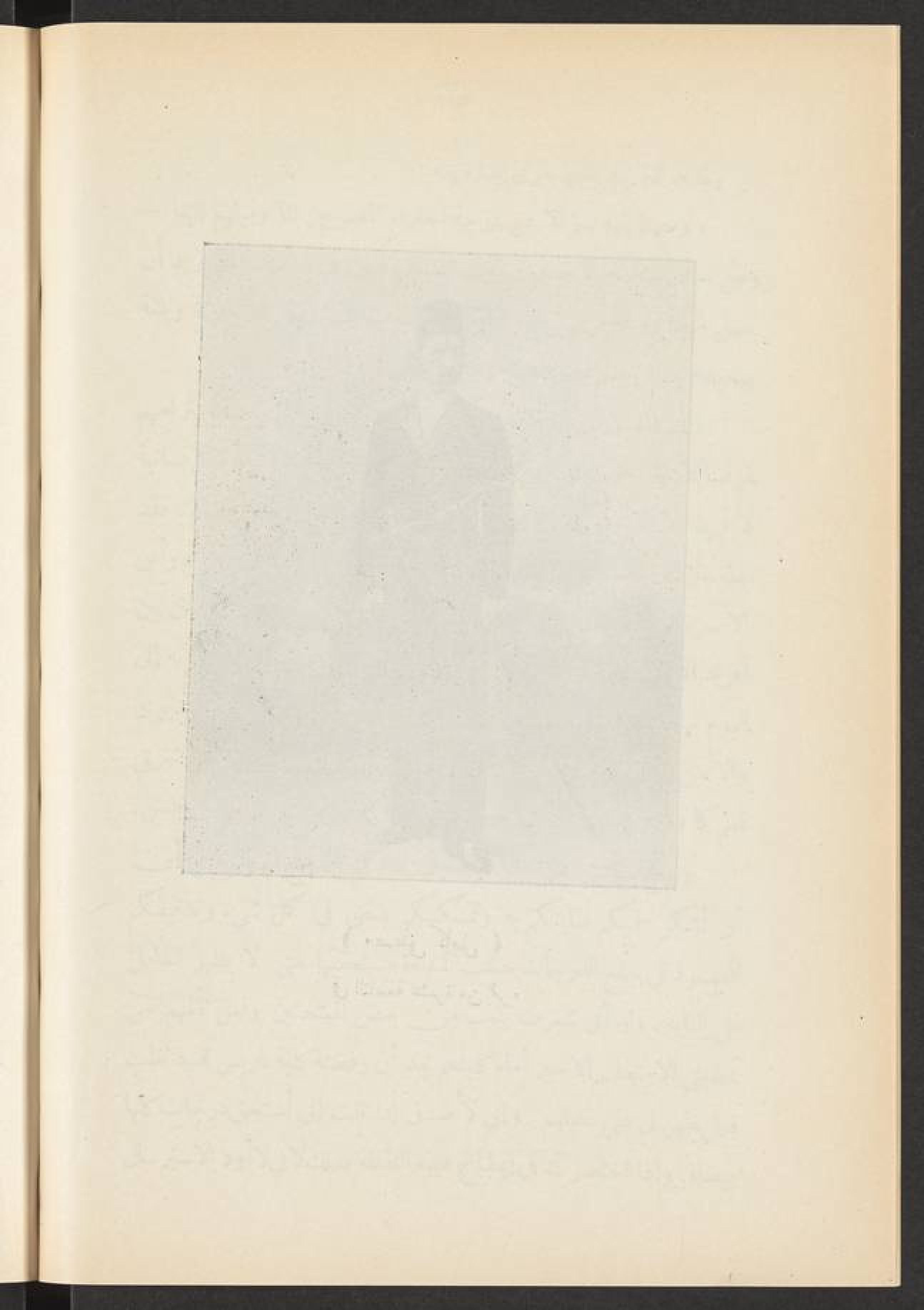
« إن المصريين لا يحترمون أمة من الامم الأوربية المسيحية احترامهم فرنسا لأنها برهنت فى كل أطوارها التى لها علاقة بتاريخنا أنها بارة بالانسانية لا تريد إلا الأخاء بين الامم ونشر مصابيح العلم فوق رؤس العباد . فقد جاء بلادنا منكم عدد كبير بدعوة من « محمد على باشا الكبير » رأس الأسرة الحاكمة فلم يعملوا على دس الدسائس وبذر بذور الشقاق بين أفراد الأمة وعناصرها بل نشروا العلم باخلاص وما زالو ينشرونه إلى اليوم بهمم جمعياتكم . بخلاف الانكليز فانهم دخلوا بلادنا بأسم الخديوى والأمن فانقلبوا إلى الضد محاربين سموه الذي يندر أن يوجد أمير شرقي تعلم كما تعلم فانه تلقى العلوم فى النمسا والصحافة الاوربية تعرف عنه كل حسن.

« وقد سألتنى عن حالة الامتحان عندكم فاسمح لي ياسيدي أن أن أشكر لكم عنايتكم به وتمسككم بالحق فى كل شيء وتدقيقكم المحمود فى منح الدرجات حسب كفاءة مستحقيها حتى لا يظهر الخامل على النابه ، ولو أنى شعرت بتعب من بعض الممتحنين ولعل تألمهم من تمضيتى الامتحان الاخير أمام كليتهم بعد أن رفضته كلية باريس قد تغلب فيما يظهر لى على عدلهم . وإني لأصدق إذا قلت إنى أستحق درجات كلها بيضاء. وإذا اختصرت فى إيضاح هذه النقطة فذلك لأني لا أود الاسترسال



﴿ مصطفى كامل ﴾

فى التاسعة عشرة من عمره



في هذا الموضوع بعد أن طوقت طولوزجيدي بمنة لا أنساها أبداً .

« أما السبب فى تمضيتي سنتين فى سنة فهو أني وعدت شخصاً أحترمه بذلك ، ولان إرادتي رغبت في هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب إلى ميدان العمل والدأب . ومتى عدت إلى مصر أنضم فى الحال إلى صفوف المحامين لأني ممن يحتقرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها وكيف لا يعلون الأمر كذلك والموظف منفذ لأرادة الغاصب لأثمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور . ولا أبالغ لك إذا قلت أن حراس جهنم ربما كانوا أخف وطأة على الذين دخلوها من الرؤوس الانكليزية التي حشرت فى مرافقنا حشرا وهى جاهلة لغتنا وعاداتنا وأعمالنا ؟ ؟ »

« هذا كلام مصطفى كامل المصرى الذى ألقاه بترو وتبصرة ولو أنه احتد فى الجزء الاخير حدة تدل على قوة الوطنية عند المصريين وأنهم استفادوا كثيراً من الدروس التى تلقوها على أساتذة منا ... . » أهـ

« ما نشرت الغازيت دي طولوز هذا الحديث حتى تناقلته الجرائد الفرنسية المصورة وغيرها وهذه أول مرة ذكر فيها اسم المرحوم على صفحات جرائد الغرب بهذا الاطناب الذي شرف جنسنا ورفع ذكاءنا فوق مراتب الذكاء البشرى .

وقد ورد إلى بعد ذلك خطاب من المرحوم جاء فيه ما يأتي :

« ربما وصلت إلى ثغر الاسكندرية فى يوم الاربعاء ٥ ديسمبر المقبل أو يوم الخميس ٦ منه فأرجوك انتظارى

باريس فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٩٤ مصطفى كامل »

فسافرت يوم الثلاثاء ٤ دسمبر سنة ١٨٩٤ إلى الإسكندرية ونزلت ضيفا على المرحوم الدكتور حسن حمدي بك . وكان حضرته يرافقنى إلى شركات البواخر كل

يوم لنسأل عن قرب وصول الباخرة التي تقل عزيزنا الغائب حتى إذا كانت الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس ٦ دسمبر أقبلت الباخرة وكان المترجم بين ركابها فلحظناه ولحظنا فأخذت القلوب تتناجى والايدي ترتفع بتحيات اللقاء . وكانت الباخرة كلما قربت من الشاطىء ذراعاً زادت نار الشوق اشتعالاً فلما رست صعدت إليها مع صديقنا الدكتور وتعانقنا عناقا لا أنساه إلى الآن . ثم جئنا بالحمالين لنقل متاعه فحملوه وفيه صندوقان كبيران مليئان بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسات الامم ، وفيهما عدا هذا وتلك مذكرات بعضها من كبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس الرسمية وبعضها من نظارة الخارجية الفرنسية .

ولقد سألته قبل أن نسير إلى البيت عن الحالة التي كان عليها البحر أثناء قدومه فقال لي . « إنه كان هادئا ما كنا أقل ضيوفه بالتجلة والتكريم وأهم ما أذكره لك مما كان أنه جرت محادثة سياسية هامة بيني وبين الكولونيل بارنج شقيق اللورد كرومر الذي قدم على هذه الباخرة ذاتها وسأنشر هذه المحادثة فى جريدة الاهرام.

ثم ركبنا العربة وكلانا يريد أن يقص على أخيه شيئا كثيرا فوصلنا إلى منزل حضرة الدكتور فى شارع راغب باشا وقضينا تلك الليلة في ضيافته الكريمة حيث أعد لنا من صنوف التكريم والحفاوة ما هو خليق بالوطنية العالية .

وقد جلس المترجم فى صدر المكان يروى لنا الاحاديث عن أسرار رقي الغربيين وبلوغهم ما بلغوا من العزة والسؤدد ويدلنا على ما فى السياحة من الخير وأثمن الفوائد كشهود آيات الرقى العمراني وغذاء القلوب بالوطنية الصحيحة وما شاكل . وقد قص علينا تفاصيل امتحانه الاخير فى الحقوق على نحو ما مر .

ثم زاد علي ذلك قوله :

« أذكر لكم أمرا ما كان يدور بخلدى وما أظنه دار بخلد كم بعد الذى سردته عليكم وهو أن ذلك المدير الشرفى الذى عاملنى تلك المعاملة رغبة منه فى المحافظة على كرامة كلية قضى حياته فيها قد بعث فى طلبى بعد أن نجحت فى الامتحان وهنأنى أحسن تهنئة وسألنى أن أعتبر ما صنعه معى غيرة على سمعة فرنسا وشرف كلياتها . لأن هذا الاستثناء

الذى عوملت به لم يقع قبل الآن لأجنبى فى جميع أدوار تاريخ الكلية ثم دعانى لتناول العشاء مع أسرته فلبيت الدعوة بكل ارتياح وقضينا ليلة لطيفة السمر حضرها أيضاً ذلك الاستاذ الذى كان منضما فى معاكستى إلى هذا الرئيس .

« وأنكم لو رأيتم ما كان يوجهه إلي فى سهرة العشاء ذلك الرئيس الجليل من البشاشة واللطف ورقة الحديث لأنكرتم علي حديث ماصنعه معى من قبل ولكنهم يعتبرون العمل الاول واجباً علميا والثانى تشجيعاً للمجدين فنعمت الاخلاق أخلاقهم وحبذا الحال حالهم »

هذا ماقاله المرحوم فكرر له الحاضرون التهنئة وأعجبوا به إعجاباً كبيرا وقد كانوا عرفوه جميعا من رسائله التى نشرتها جريدتا الاهرام والمؤيد .

وقد سافرنا فى اليوم التالى الذى هو يوم الجمعة ٧ ديسمبر فى الساعة التاسعة صباحاً فودعنا على المحطة ذلك الجمع الذي كان حافاً من حولنا ثم ركبنا القطار ووصلنا إلى العاصمة حيث كان يستقبلنا بالمحطة جمهور من الاصدقاء والخلان في مقدمتهم خالنا المرحوم الدكتور محمد فهيم . وبعد التحية والتسليم ركبنا إلى المنزل فوجدنا الاسرة كلها مجتمعة تنتظرنا كما ينتظر السارى طلوع القمر وكانت تلك السيدة الشريفة الصالحة التى أختارها الخالق تعالى للدار الآخرة ، أعني المرحومة الوالدة ترتقب قدومنا وهى في أظهر ما كانت عليه من الحنان، فلما وصلنا إلى المنزل وتبادل القادم من السفر وجميع أفراد الاسرة فروض السلام وقضيت حقوق الشوق أخذ إخوانه يزورونه ويزورهم : هم يزورونه مهنئين معجبين بنجاحه وفلاحه وهو يزورهم مثنياً على لطفهم شاكراً لهم فضل تشجيعهم .

وبعد أن انتهى التزاور مدة يومين شرع يضع رواية كلها دروس وطنية وحكم إجتماعية وقداختار لها موضوعا وطنياً تاريخياً من أكبر الموضوعات، وهو فتح الاندلس وبهذا الاسم وسمت الرواية وقد نشرت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٩٤ .

ولما كانت من أهم الروايات موضوعاً ووضعاً ولم يكن بها عيب إلا صغر حجمها

صحت عزيمة المترجم على تكبيرها بما أراد أن يضيفه إليها من العبر والعظات ولكنه كان إذ ذاك مشتغلا بما هو أهم وأكبر من ذلك .

وقد طلب من المراسح العربية أن تمثلها فتعللت بأنها صغيرة والواقع أن العاطفة الوطنية لم تكن قد استيقظت بعد فى النفوس وهذه الرواية تمثل شهامة العرب وشجاعتهم وخيانة الدخيل للوطن الذي لم يمزج تبر ترابه بدقائق أجسام آبائه وجدوده. وتبين كيف أن ألاعيب المرأة ومخادعاتها قد تكون سببا لقعود أمة وقيام أمة

وقد نسج المرحوم هذه الرواية على منوال رواية للمسيو كستيني أحد محرري بلجيكا التى رسفت فى قيود الذل والاستعباد تحت النير الهولاندي زمنا طويلا . نعم نسج علي منواله فيها من الوجهة الادبية تماما لان تلك تشرح مقدار الغبن الذي ينال الامم المستعمرة من الامم المستعمرة لها . وأن الدخيل علي الدوام طامع وهو عند قوله (ليس للطمع من حد) وقد كان مؤلف الرواية المشار اليها أحد ممثليها الذين مثلوا بعد ذلك دورا كبيرا فى مذبحة سنة ١٨٣٠ التى وقعت بين البلجيكين والهولانديين وانتهت باستقلال بلجيكا .

وأما هذه فانها عظة من حقيقة وقدوة من واقعة مشاهدة مادعا فيها المترجم إلى ما يخل بالامن لانه كان يعتقد أن الثورة سيئة المقدمة والنتيجة معا وهى أخطر مايكون على الامة والوطن .

ولم يستعن المرحوم على إبراز شعر هذه الرواية بقلم غير قلمه بل كل نظمها من نتاج قريحته . وأما مالقيت من الاقبال وسرعة الانتشار فقد وزع منها آلاف النسخ فى وقت أهملت فيه آثار العرب وكسدت صناعة الادب .

وسننشرها مع مؤلفاته فى مكانها من هذه السيرة .

***

ذكرنا عند وصول المرحوم من أوربا أنه جلب معه كمية وفيرة من الكتب وقد رتبها فى مكتبته ووضع لنفسه نموذج حياة سار عليه فقد كان يعمل كل يوم بلا استثناء ثماني ساعات فى مكتبه . ذلك انه كان يستيقظ في الساعة السادسة صباحاً فيؤدي صلاة الصبح ثم يتناول الفطور ويقصد كبرى قصر النيل للرياضة ثم يعود فى الساعة السابعة ويدخل توا فى قاعة المطالعة ويستمر بين قراءة وكتابة وتقييد مذكرات

إلى الظهر ثم يتناول الغداء وينام إلى الساعة الثالثة . ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقاءه ويعود فى الساعة السابعة ليقرأ مرة أخرى إلى الساعة التاسعة . ثم نتناول جميعا طعام العشاء ، ونقضى فى السمر مع من يشرف من الزائرين حتى منتصف الليل .

إنتقلنا بعد ذلك من منزل الوالدة إلى منزل آخر استأجرناه خلف قسم المنشية بعمارة خليل أغا وقد اختاره المرحوم فى هذه الجهة ليكون قريباً من جمعيته التى أسسها باسم «جمعية إحياء الوطن» وهى جمعية تعمل لخير مصر من الطريق الادبي وكان فيها الكثيرون من الموظفين وغير الموظفين الذين هم الآن أعضاء في الحزب الوطنى المبارك .

إستمر المرحوم على هذه الدراسة السامية ليقف على أحوال مصر الادبية والسياسية والعمرانية ، وتفصيل تاريخ الدولة العلية السياسى ، وبالجملة على كل ماله علاقة بمصر والاسلام والشرق .

رأيته يوماً وقد اعتلت صحته فنصحت له ألا يشتغل كثيرا فقال لى إن الشغل لم يتعب ولكن بين سطور الكتب التى أقرأها أشراكا نصبتها الدول الطامعة فينا مما يؤلم القلب ويبعث إلى الوجه اصفراراً . وإلى القوى انحطاطاً . . . .

حياته السياسية

يحق لنا أن نسمى عام ١٨٩٥ بعام « مبدأ حياة المترجم السياسية الكبرى » لانه فيه :

عنى بدارسة المسألة المصرية عناية فائقة مستعيناً فى ذلك بما حصل عليه من الكتب السياسية التي تبحث فى هذا الشأن وما أتيح له أن يقتنيه من المذكرات الخطية وغير الخطية من بعض رجال السياسة الذين كاتبهم أوحادثهم فى هذاالصدد .

ونشر الرسائل السياسية التى كلها حجج دامغة وبراهين قاطعة على سداد نظره وصدق فراسته ولطف حسه وحسن استنتاجه كما أنه نشر المقالات العمرانية فى أغراض ومطالب شتى .

وجاهد لاول مرة جهاد الابطال الكرماء أمام العالم الاوربي إذ قدم العريضة المشهورة لمجلس النواب الفرنسى وانشأ يكاتب ويحادث دهاة الساسة وينشر مايعن له من السوانح السياسية في أشهر الصحف وأوسع المجلات انتشاراً .

ووقع التعارف بينه وبين جماعة من كبراء الرجال وأساطين السياسة فلم يكن يخلو اجتماع له مع أحد منهم من الحديث عن مصر .

وخطب أول خطبة له باللغة الفرنسية فى مدينة طولوز فكان لها بين جمهور السامعين تأثير بليغ ووقع حسن وقد رحبت بها إذ ذاك الصحافة الفرنسية التى اتصل بها خبرها .

والتف حوله جمهور كبير من أبناء البلاد الذين أعجبوا كل الاعجاب باستقامته ونبل قصده وشرف غايته .

وفيه عرف كيف يلفت الرأى العام الاوربى إلى مصر، وبالجملة فقد كان هذا العام أول عام حمل فيه أعداء مصر عليه حملات دنيئة وأخذوا يحاربونه بالاضاليل والاباطيل وهو هازىء بهم ماض فى سبيله بثبات وشجاعة لامثيل لها .

كان من عادة المترجم أن يحتفظ بما يرد عليه من كتب ومجلات وجرائد ومكاتيب خصوصية سواء من الاقرباء أو الاصدقاء فلا يمزق شيئاً من كل ذلك . وقد وجدنا نفسنا بعدوفاته أمام تلال من الصحف والكتب عدا ما اقتناه هو من مئات الكتب ونفائس المؤلفات كما أننا وجدنا أكثر خطبه وبعض مقالاته مكتوبة بخط يده . ولما كان غالب الكتب الخصوصية غير مشتمل إلا على جمل وبعض فقر تدور حول محور السياسة المصرية رأينا أن نقتطف منها الاهم فالمهم حسب مااستطعنا أن

نرتبها حتى لا يطول علينا الشرح ولا يجد القارىء فى نفسه سأما ولا ضجرا .

وأنه ليس من الوفاء أن نغفل إفادة القراء بنتف من هذه الكتب ليقفوا على طراز من كتبه الخصوصية كما وقفوا وسيقفون على أعماله العامة ولذلك صحت نيتنا على اقتطاف نبذ منها .

ولما كانت علاقة المترجم ببعض أشخاص عماله علاقة كبيرة بعمله السياسى باعتباره خطيباً وطنياً وصحفياً عاملا وكاتبا مصريا كان من المحتوم علينا أن نذكر مادار بينه وبين خصومه السياسيين من الاخذ والرد ومن عاصروه من الصحفيين من الوئام تارة والانقسام تارة أخرى غير متخذين أنفسنا حكما .

ذكرنا أن المترجم حادث أثناء عودته من فرنسا فى المرة الاخيرة الكولونيل بارنج شقيق اللورد كرومر فى المسئلة المصرية حيث سافرا على نفس الباخرة إلى مصر وقد نشر الاهرام هذا الحديث بعنوان « حديث ذوشأن » بعدده الصادر فى يوم الاثنين ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ وهذا هو نصه:

« جمعتنى والكونيل بارنج (شقيق اللورد كرومر) مصادفة من أحسن مصادفات الحياة استطلعت فيها رأيه فى المسألة المصرية وما ينويه لها الانكليز من النيات (الحسان) فأحببت إيراد أهم ما دار عليه الحديث خدمة للقراء الكرام وإظهاراً لرأى رجل من كبار رجال الانكليز فضلا عن أنه أقربهم إلى معتمد الدولة البريطانية فى مصر .

« بدأنى حضرته بالكلام على خلاف عادة الانكليز فقال :

« هل أنت مصرى أم عثمانى ؟

« فأجبته مصري عثماني .

« فقال وسمة التعجب بادية عليه وهل تجتمع الجنسيتان فى أحد ؟ فقلت ليس الامر جنسيتين بل فى الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع

للدولة العلية والتابع (كما لا يخفى على جنابك) لا يختلف عن المتبوع فى شىء من أحكامه .

« فتبسم قليلا وقال : إن مؤلفى الكتب الجغرافية وبعض الكتاب الذين لا تظلهم سماء السياسة الحاضرة يقولون إن للدولة العلية بعض السلطة على مصر ولكن الذين وقفوا على حاضر الامور وماضيها لا يجهلون دخول مصر تحت حكم الانكليز دخولا لم يبق معه شك لعاقل من العقلاء .

« فسخرت عندئذ من قوله هذا المبني على حبه لجنسه وشغفه باتساع نطاق المستعمرات الانكليزية وقلت له : إن وزراءكم وكبار رجالكم قالوا المرة بعد المرة إن احتلالكم مصر ليس إلا احتلالا موقوتا ينتهى بعد إصلاح الحال وتأييد سلطة الأمير وعاهدونا وعاهدوا أوربا على ذلك مقدمين المواثيق الغلاظ والعهود الشداد بأن جنودكم ستنجلي عن بلادنا بسلام (إحتراما للتاج الانكليزى وشرف البرلمان) مما يؤيد حقوق الدولة العثمانية على مصر المؤيدة من قبل بالمعاهدات الدولية والفرمانات الشاهانية فكيف بك اليوم تقول عكس هذا القول وتجاهر بنقيض ما جاهر به عظماء رجالكم وكبار وزرائكم؟ وماذا يكون شأنكم إذا افتضح الأمر وبان السر وعلم الناس أنكم كذبتم الكذب الصراح على أوربا ومصر بل ماذا تكون عاقبة أمركم إذا أجبرتم على الجلاء خلافاً لما تهمون به من تملك وادينا العزيز .

« فضحك إذ ذاك ضحكا عالياً وقال : ما أسلم نياتكم معشر المصريين ! إنكم أقرب إلى الحالة الفطرية منكم إلى الحالة الحضرية أتظنون أن الانكليز (وهم أحق الناس بكل نعمة وخير) ينجلون عن مصر ويتركون

لكم أو لغيركم برها الغزير وخيرها العميم ؟ أم تظنون أننا نؤخذ بأقوالنا وأفعالنا ناطقات بحقيقة نياتنا وماذا على رجالنا إذا كانوا حققوا لكم ولاوربا (الأحتلال المؤقت) و (الجلاء القريب) ومبدؤهم (الكذب فى خدمة الاوطان) واستعمال الخداع فى السياسة (وماهي إلا حرب سلمية) نفس استعماله فى الحرب والطعان ؟ وهل تصدقون بأن أوربا تنجدكم وتساعدكم علينا ؟ ألا إنها آمال بعيدة وأوهام يجب عليكم أن تتركوها وتعلموا أنكم فى حماية الانكليز وأن سيادة الترك أصبحت فى حيز النسيان بل دخلت من زمان فى خبر كان !

« فثار منى الفكر عند سماع هذا القول وأجبته أن لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها ولكم أن تتحققوا من بطلان آمالكم وضياع أمانيكم ، فلقد كشفت أفعالكم الناطقة بنياتكم الغطاء عن هذه المقاصد الخبيثة التى أضمرها غرنفيل وسالسبري وغلادستون ومن حاكاهم فى سياستهم ولم يعد سياسى من السياسيين يغتر بما تقولون بل تحقق أنكم لاتصدقون فى عهودكم ولذا استبشر القريب والبعيد بان الاحتلال فى آخر ساعاته وقضى عليه عدل القرن التاسع عشر ومدنيته بالموت الدائم فاطمئن خاطرا ياحضرة الكولونيل واعلم أن الجلاء قريب عاجل بمشيئة الرحمن ! إذ ليست السنون فى حياة الامم إلا ساعات فى حياة الافراد !

« فازداد ضحكه وقال : ومن لكم ياترى من السفراء والانصار فى أوربا حتى قلتم بقرب الجلاء ؟

« لنا أوربا باسرها التى تناديها صوالحها العديدة بان تنصرنا بنصرة تلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها . «

على أنها إن لم تنصرنا فان لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما إلى ما نصبو من حرية واستقلال.

« فقال : اصرفوا عن أوربا أملكم فانا نرضيها بالأراضى الكثيرة والاملاك الواسعة « كأن انكلترا قد ملكت الارض وماعليها » ونضمن لها فى مصر منافعها وديونها .

« لنتفق جدلا على ذلك ، ولكن هل نسيت أن فى حمايتكم لمصر ووضع يدكم عليها ضياعا للموازنة الأوربية التي تعمل كل دولة للمحافظة عليها ، مهما قدمتم من الهدايا لبعض الدول على أنكم لستم المتصرفين فى كل أرض، فهل تحسبون أنها تقوم لديها مقام مصر الطريق البحرى للشرق الاقصى ولأعظم المستعمرات الاوربية فى أسيا والبحر الاحمر ؟ أم نسيتم أن من العار على أوربا أن تساعدكم على انتهاك حرمة المعاهدات وتترككم تستعبدون أمة اعترفت أوربا نفسها بكمال استعدادها ومحاكاتها لاعظم الممالك المتقدمة مدنية ونظاماً . ولم ساعدت فرنسا الولايات المتحدة وطردتكم منها ؟ أكانت صوالحها هناك أكبر من صوالحها هنا ؟ بل لماذ قامت أوربا قومة واحدة لمساعدة اليونان على نيل استقلالهم وانفصالهم كل الانفصال من الدولة العلية ؟ ولماذا قررت استقلال بلجيكا وإيطاليا وغيرهما وأقامت نفسها وصية على الامم الضعيفة خاذلة للطماعين ناصرة لذوى الحقوق ؟

« أظنك ياجناب الكولونيل لاتقدر على إثبات أن المصريين ليسوا من النوع الانسانى أو أنهم غير أهل لأن ينالوا من أوربا حريتهم واستقلالهم المضمون المثبت فى المعاهدات التى كنتم أول المصدقين عليها

والمؤيدة بالفرمانات السلطانيه العثمانيه !

« فقال والغضب باد على وجهه : إن أوربا فى شغل عنكم وفرنسا التى وجهتم آمالكم إليها لها من سوء أحوالها وكثرة مستعمراتها ما يجعلها على الدوام عاجزة عن أن تخدم مصر خدمتها للولايات المتحدة وتساعد العباس مساعدتها لواشنطون !

« على أني لو وافقتك وقلت إن أوربا ستنصركم وتجبرنا على الجلاء فذلك لا يكون إلا بعد أن يبيع فلاحكم أرضه ويسوء حاله وتملأ جيوبنا مالا فضلا عن أننا نهيىء تملكنا للسودان (١) وهو كما تعلم روح بلادكم !

« فقلت. وكيف تملكون السودان وهو لا يزال ملكا لنا ؟

« فأجاب ضاحكا . وإذا كان ملكا لكم فلم لم تستردوه ولم ضاعت منكم وادلاي وكسلا ؟

« — كان ذلك بدسائسكم ومعارضتكم لنا فى استرجاعه ولكن متى خرجتم يسهل علينا استرداده .

« — لقد فقدتموه بمضى المدة ولم يعد لكم بل أصبح متاعا لمن يستولى عليه . وجزي الله نوبار باشا كل خير فلقد سهل فى الماضى سلخه وسيسهل لنا قريبا ملكه نهائيا .

«فاستولت علي دهشة عظيمة وقلت له : ألى هذا الحد تطمعون فى نوبار باشا؟

---

(١) ليقرأ هذا القول المصريون بأمعان ، فقد قيل منذ أكثر من واحد وثلاثين عاما على لسان كولونيل إنجليزى ! وليقارنوه بما حدث فى السودان منذ عام على أثر قتل السردار ! ! . .

« فأجاب . وبأكثر منه . إن نوبار رجلنا ومحبنا وقد أطلق عليه السياسيون فى أوروبا اسم (نوبارستون) دليلا على شدة اخلاصه لنا !

« — وماهى فائدته من خدمتكم ؟

« — إنه يؤمل استقلال أرمينيا على أيدينا ولا يخفى عليك ما فى ذلك ...

« — فقلت والدهشة فى ازدياد ولكن أما تخافون بقية وزرائنا ؟

«فأجاب مبتسما . إن بقية الوزراء لا يهمهم إلا قبض رواتبهم العظيمة وبقاؤهم فى أعلى المناصب لا يخالفون للانكليز رغبة بل يقدسونهم من صغيرهم إلى كبيرهم خوفا من السقوط والعزل .

«فتنفست عندئذ الصعداء وقلت: لا تغتر يا جناب الكولونيل بوجود بعض الخونة فينا واعلم أن بلدا فيه رجال يعرفون معنى الوطنية معرفة رجالكم لها لا يموت أبدا ، بل يعيش معززا عالى الذرى والمقام ، ولربما أحيا فرد واحد أمة بأسرها وفى تاريخ الدول وانقلاباتها أقوى دليل على صحة ما أقول ومصر فى هذا العصر غنية برجالها مباركة بأبنائها ولها أن تأمل منهم العمل لاسترداد الحق المسلوب وما الظفر ببعيد إن شاء الله . . .

« فبهت الكولونيل وقال : إني أقف معك فى الحديث عند هذا الحد فلقد رأيت أن حميتك تملى عليك القول ووطنيتك تحقق لك آمالك البعيدة .... »

« هذا هو الحديث الذى جاهر به ضابط إنكليزى عظيم بما لم يستطع المحتلون المجاهرة به من قبل وإن كانت فعالهم قد أفصحت أظهر إفصاح عن نياتهم وخبث طويتهم . هذا ولا يعدم القاريء اللبيب حكما صادقا على نيات نصراء الحرية وزعماء المدنية ، كما أن وزراءنا هداهم الله يعلمون منه

مايقوله الانكليز فيهم وماذا أفاد تهاونهم وموافقتهم على ضياع البلاد، ولكن ليس المقام الآن مقاماً لتنبيههم فيه إلى ماوصل إليه مركزهم واحترامهم بل لنا معهم حساب فى وقت آخر والسلام». . . .

والظاهر أن هذا الحديث قد أثار ثائرة المحتلين وأقامهم وأقعدهم فاوعزوا إلى جريدة (المقطم) أن تكذبه. ولكن الكولونيل نفسه لم يتقدم بأى تكذيب ولو استطاع لفعل بلا تردد ... على أن الايام وحدها حققت فحوى ما بطن من نيات الانجليز تجاه واد النيل عامة والسودان خاصة

* * *

قدم المترجم فى تلك الايام طلبه إلى لجنة قبول المحامين فقبل أمام المحاكم الجزئية ولكنه لم يترافع في قضية لفرد طول حياته، بل اكتفى بالقضية العظيمة التى كانت مطروحة بين يديه ، وهي قضية الوطن المقدس لان الدفاع عن الحق العام أهم وألزم من الدفاع عن الحق الخاص وشتان بين حقوق الافراد المدنية وحقوق الامم السياسية

ثم عاد إلى مناقشة الجرائد الاحتلالية فكتب إلى صديقه المأسوف عليه بشارة تقلا باشا كتابا بمناسبة مقالة المقطم تلك، وقد نشرته الاهرام فى عددها الصادر يوم الاثنين ٤ فبراير سنة ١٨٩٥ وهذا نصه :

« صديقي العزيز مدير الاهرام »

« لم يكن يدور بخلدي من قبل أن أجراء المحتلين فى مصر على هذا الجانب العظيم من الحمق والجهالة وأنهم يرون فى السفاهة والوقاحة أحسن الرد على كل قول صحيح وفكر سليم، فما نشرت الاهرام مقالتى الأخيرة المعنونة « حديث ذو شأن » حتى هاجو وماجوا وزلزلت بهم الارض زلزالها وجاءونا بردود يحسبون أنها تكذب قولا صادقا فجاءت على عكس مايرون إثباتاً لحديثنا الذى لاريب فيه .

« وأعجب شيء فى هاتيك الردود أنهم حملوا على صاحب الاهرام

الجليل حملة اللئيم على الكريم ولم يعلموا أنه صدق فى خدمة الوطن العزيز فاجتمع حوله المخلصون الصادقون .

« وما عساهم يكتبون ويردون والحديث لا يزال حديثا وشقيق اللورد كرومر أرفع وأعظم من أن ينكر اليوم قولا قاله أمس ؟

« على أنهم لو كانوا كما يدعون شيعة الحق وأنصار الصدق لكان الأجدر بهم أن لا يتعجلوا فى الرد قبل أن يترجموا الحديث إلى الانكليزية بغير ما اعتادوه من تحريف أقوال الجرائد الوطنية ويرفعوه إلى سيدهم (بويل) ليوصله إلى أخى كرومر حيث هو الآن ليرى فيه رأيه فان قال بصدقه وهو مالا ارتاب فيه سكتوا عن الرد إن لم يبروا باظهار الحق وإلا نشروا لنا جواب حضرته تكذيباً. وإذ ذاك لا نقصر عن تذكير جنابه بالمكان الذى جمعنا واليوم الذى دار فيه الحديث مذيلين كل ذلك باسمنا غير خائفين تبعة الصدق فى القول والاخلاص فى الوطنية شأن كل مصرى أمين »

***

ثم استمر المترجم فى عمله وهو دراسة المسئلة المصرية بكل عناصرها وموادها منفذاً ذلك الترتيب الذي رسمه لنفسه تنفيذاً دقيقاً . وقد كثرت معارفه فى هذه المسئلة كما كثر أصدقاؤه ومريدوه والمسترسلون إلى خطته السياسية من كبراء ووجهاء وعلى الأخص أعضاء مجلس الشوري الذين كان يجتمع بهم كثيراً ويداولهم فى الشؤون الوطنية طويلا وليس غريباً أن تكون المسئلة المصرية بالغة من التمكن فى فؤاده مبلغاً عظيما بحيث إنها كانت تشغل منه فضاء التصور وملأ مجال الخيال :

وكانت حركة الحزب الوطني قد قويت فى البلاد واتسع نطاقها بازدياد عدد الذين انضموا إلى صفوفه القوية العاملة المباركة شيئاً فشيئاً ولاسيما من أعيان الاقاليم وكبار الوجهاء في أنحاء القطر وكان المترجم يسافر كل أسبوع أو أسبوعين

مرة متنقلا فى الاقاليم تلبية لنداء مواطنيه الذين أحبوه حباً جماً وتعلقوا به تعلق الوطنى الصادق بمن يخدم وطنه بأباء وإخلاص .

وقد رسم لنفسه خطة دراسة المسئلة المصرية إلى غاية شهر أبريل على أن يظل في تلك الاثناء يكتب الرسائل فى الصحف السياسية ممهورة بالتوقيع الذى اختاره لنفسه حتى إذا ابتدأ عمله الوطني شهر اسمه مرة واحدة.

وقد كان تولاه الله برحمته يقرأ علي إذ ذاك كل مقالة يكتبها قبل إرسالها إلى الاهرام شأنه فى كل أعماله فكنت أعجب بها إعجاباً كبيراً .

***

وفى هذه الاثناء حمل المحتلون الخديوى على أصدار أمر عال بتأسيس محكمة مخصوصة لمحاكمة من يعتدى من الاهالي على ضباط وجنود جيش الاحتلال فى مصر! وما صدر هذا الامر شاملا نظام تلك المحكمة حتى قامت البلاد وقعدت لهذا الحادث الفظيع . فتقدم جميع المصريين المرحوم إلى جريدة الاهرام باحتجاج فى قالب مقال وطني سننشره في حينه .

ثم سافر إلى مدينة الاسكندرية فى مساء يوم الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقبال المسيو ديلونكل النائب الفرنسى الشهير إذ ذاك والذى جاء خصيصا للقاء رجال الحزب الوطني المصرى والوقوف على أحوال مصر الوطنية والاجتماعية والاحتلالية . . . فاستقبله المترجم مع الكثيرين من الوطنيين علي رصيف البحر فى صبيحة اليوم التالى وبعد أن صافحه والسيدة قرينته قدم لهما جميع إخوانه المصريين.

وقد كان فى استقبال المسيو ديلونكل رسميا المسيو دلا كرتيل قنصل فرنسا فى الثغر مع موظفى القنصلية والكثيرين من النزلاء الفرنسيين .

قصد بعد ذلك المسيو ديلونكل وقرينته القنصلية حيث تناولا بها الغذاء ثم برحا بعد الظهر الثغر علي قطار الاكسبريس إلى القاهرة وبرفقتهما المترجم والوفد المصرى وقد رافقوهما حتى فندق كونتنتال . وصحب المترجم المسيو ديلونكل فى كل روحاته وغدواته بمصر وقدم له الكثيرين من المصريين وفى مقدمتهم أعضاء الحزب الوطني الذين أكرموه إكراماً كبيرا واحتفلوا به احتفالا عظيما .

ولقد تعرفت إلى ذلك النائب فى الوليمة التي أعدها له صديقنا الحميم المرحوم عثمان جلال رئيس قلم قضايا مصلحة السكة الحديدية وحضرها الكثيرون من الاخوان

فرأيت منه رجلا عالما فاضلا قوي الحجة ملما بجميع أدوار المسئلة المصرية إلمام أعلم أبنائها بها .

وبعد أن مكث المسيو ديلونكل بمصر زهاء عشرين يوما ألقى فى خلالها خطباً مهمة بالقاهرة ثم بالاسكندرية حيث أولم فيها للصحفيين جميعا وليمة في يوم الخميس ١١ أبريل وقد ألقى فيها المترجم كلمة هذا هو نصها :

« أيتها السيدات . أيها السادة :

« إنى إذا وقفت الليلة بينكم خطيباً فأنما أقف بدافع الاخلاص ولو أنى لست الخطيب الذي يسحر الالباب بهذه اللغة الفرنسية الغنية الجميلة ولكن السرور الذي يخامر قلبي والابتهاج الذى أراه شاملا كل نفوسكم سيعينانى على تقديم هذه التحية للمسيو ديلونكل أولا ولحضراتكم ثانياً

« نعم إن المسيو ديلونكل هو ذلك الرجل الذى قدم نفسه لخدمة المسئلة المصرية بكل همة لأنه واقف على أسرارها وما دار ويدور فى الدوائر السياسية العالية بشأنها . وإننا إذا لاحظنا مركزه فى بلاده وقوة حجته وغزارة مادته علمنا أنه سيكون لنا منه أكبر ساعد وأوفى نصير.

« ولذلك يحلو لي أن أجاهر بملء فمى عن نفسى وبالنيابة عن إخواننا المصريين سواء الذين حضروا هذه الوليمة أو الذين غابوا عنها . أننا أبناء أمة اعترفت فى كل أطوار حياتها بالجميل لمن أحسن إليها وأخلص لها ولبلادها الود وكان عونا لها على تأدية عملها بين أمم العالم بدون أن يمس كيانها بسوء . فاذا نحن شكرنا الليلة جناب النائب على زيارته مصر واستعداده الذي أظهره لخدمتها فأنما نشكر نفساً عالية من تلك الأنفس الفرنسية الشريفة التى عودتنا أن تنشر العلم في بلادنا وترشدنا إلى خير وسيلة تنهض الامم من رقدتها .

نعم . إن الفرنسيين المخلصين قدقدموا لأمتنا المحبوبة خدمات عديدة لا ينساها التاريخ المصرى وستبقى ذكراها ميراثاً محفوظاً فى كتاب الدهر وتنتقل من صدورنا إلى صدور أبنائنا .

« إننا ياجناب النائب نشكركم من صميم فؤادنا على دعوتكم لنا فى هذه الليلة. هذه الدعوة التى جمعت أرباب الاقلام وقادة الرأى العام فى مصر برجل نجله كما تجله بلاده . ونسأل لكم ولقرينتكم طيب الاقامة فى بلادنا كما نسأل الله ان يوفقكم لخدمة مصر الخدمة التي تنتظرها من مستشرق عالم له مركزكم السياسى السامي فى بلادكم » اه

وبعد أن انتهى المترجم ودوى هتاف الاستحسان صاح فى الجمع بصوت عال لتحى مصر : لتحى فرنسا : ليحى العدل ! فردد الحاضرون هذا الدعاء وصفقوا تصفيقا عاليا متواليا وضجت جوانب الغرفة بأصوات الدعاء والتشجيع وبذلك انتهت الحفلة بسلام .

وقد برح المسيو ديلونكل البلاد في يوم السبت ١٣ أبريل سنة ١٨٩٥ حيث ودعه الجم الغفير وفى مقدمتهم المترجم على رصيف ميناء الاسكندرية ..

ولا تسل أيها القارىء عن مقدار الغيظ والحنق اللذين أظهرهما رجال الاحتلال لزيارة هذا النائب مصر واختلاطه بالمصريين فقد أوعزوا الى جرائدهم المأجورة أن تسبه بلاحياء وأن تشنع بالوطنيين وتحمل على أمير البلاد حملتها المشهورة فى كل أمر وطنى.

ولم يلتفت المرحوم الى هذيان الجرائد الاحتلالية وما وجهوه إليه والى غيره من نبلاء المصريين من السب الفظيع والشتم الشنيع وكأنه رحمه الله كان يقول « مابقى كان أعظم فسندافع رغم أنوف أعدائنا عن حقوق بلادنا . »

***

صدر إلي الامر أن اسافر مع الاورطة الاولى البيادة فى يوم الخميس ٢ مايو سنة ١٨٩٥ فرافقني المترجم الى المحطة حتى إذا بقي على سير القطار بضع دقائق همس فى أذني بأنه وطد النفس على السفر إلى باريس، وأنه سيبحر من الثغر الاسكندري

بعد ثلاثة أيام فدهشت جدا لهـذا السفر المفاجيء على غـير ميعاد وبلا سبب لانه أدى الامتحان ونال شهادته وأصبحت باريس فى نظري بالنسبة إليه بلد نزهة لا بلد عمل. فضحك رحمه الله وقال لى أنسيت «المسئلة المصرية» ؟ تلك المسئلة التي استخرت الله أن أكون المدافع عنها . لقدزودت نفسى فى المدة الماضية بمعلومات جمة عنها إذ طالعت كتبا كثيرة رسمية وغير رسمية ووقفت على كل أسرار بلادنا السياسية. فلا تدهش يا أخي فان هـذا الطريق — ولوأنه وعر المسلك — مطلوب من كل وطنى صادق تعلم تعلما صحيحا معتقداً أن ما يجرى فى عروقه هو دم مصرى أن يعمل عملي فان خير الناس من خدم بلاده من الطريق الصعب »

سمعت منه هذا القول الحلو المنعش وأنا شاعر بأنه على أبواب المجد الكبير . فقلت له إني أسافر إلى ميـدان السيف والطعان ، وأنت تسافر إلى ميدان القول والبيان ، وكلانا مخلص في عمله فالله معنا يتولانا بقوته وجلاله ويلحظ والدتنا بعين عنايته لغيابنا عنها فى خدمة الوطن العزيز .

قلت له ذلك وقد أذن القطار بالسير فتعانقنا وتحركت من إمامه وهو ضاحك باسم يحرك منديله الابيض وما زلنا ينظر أحدنا الآخر حتى حال البعد بين جسمينا ولم يحل دون اتصال روحينا .

فكرت في أمر أخى ليل نهار وأنا أذكر كلماته وما غاب عنى من الاسئلة التى أحب معرفة جوابها وهل هو بمفرده يعمل لبلاده ! فتذكرت في الحال الحزب الوطنى وقوته وأن بين صفوفه الاغنياء والعلماء وأنه لابد أن يكون ما ادخره من مال موقوفا على هذه المهمة ولا بد أن يكون قد وقع اختيار الحزب عليه . . . .

إنتظرت بعد وصولى إلى سواكن خطاباً منه وأنا على أحر من الجمر حتى إذا ماجاء يوم السبت ٢٥ مايو سنة ١٨٩٥ تسلمت منه خطاباً فيه مسائل عائلية كثيرة وقد جاء فيه هذه الجملة :

« ولما وصلت إلى باريس وجدت فى استقبالى صديقي الحميم الفاضل الشيخ محمود أبي النصر (الاستاذ الكبير محمـود أبى النصر بك) وغيره من أخلص المصريين لمصر . وقد قصدت توا فندقاً جميلا بشارع بلزاك (وهنا كتب عنوانه)

« وسينشرح صدرك عند ماتقف على ما سأعمله خدمة لبلاد لاعز لنا إلا بها .

فها قد أوصيت على صورة سياسية تمثيلية لاقدمها مع عريضة سياسية لمجلس النواب الفرنسى وسأجتهد فى أن يكون الموقعون على هذه العريضة من أبناء مصر كثيرين حتى يكون لها فى العالم دوي كبير وتأثير عظيم .

وأني أرجو منك ألا تذيع هذا النبأ لانى ممن يتمسكون بقول النبي الكريم « استعينوا علي قضاء حاجاتكم بالكتمان »

أدامك الله لاخيك المخلص « مصطفى كامل »

« الاحد ١٢ مايو سنة ١٨٩٥ »

***

وفى يوم الخميس ٣٠ مايو سنة ١٨٩٥ تسلمت منه كتابا جاء فيه :

«إنك لابد أن تكون قد قرأت المقالة التى بعثت بها إلى جريدة المؤيد عن الشرق الأقصى إذا كانت نشرتها ، فأرجو منك أن تذكر لى فى الرد على هذا ما رأيته فيها لأنى أود أن أقف على رأيك وأنت أقرب الناس إلى وأحبهم كما أعلم لنجاة بلادنا العزيزة التى إذا كان أهلها لم يشعروا اليوم بما هم فيه فلا بد أن يشعروا به فى المستقبل ، لأن السياسة الانكليزية كسور جهنم ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب !

«إذا كنت تريد أن أرسل إليك فى سواكن عدة صور من الصورة السياسة التى كاد طبعها ينتهى يمكنك إخبارى فى الرد على هذا .

إنى الآن أقضي ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة . والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسئلة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد . وانى أجد من نفسى قوة فى هذه الايام ما وجدتها فى حياتى كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة

الهائلة. بيد أني أشعر من جهة أخرى بأن بلادنا في حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب البعيد بما تحدثه في العالم من التأثير. ولي الأمل أن ينتشر الشعور في البلاد بسرعة فإنه هو وحده رأس مال محرري الامم والشعوب وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو. ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بما لديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس متين من الدين القويم والتربية السليمة. وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة في خدمة قطر هو أثمن وأغلى الاقطار.

نسأل الله أن يحقق آمالنا ويهب بلادنا وأمتنا السعادة والهناوة »

﴿ العريضة المرفوعة ﴾

(إلى مجلس النواب الفرنسي)

وكان المترجم قد أوصى بصنع كمية وفيرة من الصورة التمثيلية السياسية التي صحت عزيمته على رفعها إلى مجلس النواب الفرنسي فانتهى طبع عدة آلاف منها يوم الاثنين ٣ يونيه سنة ١٨٩٥. وقد جاءت وفق غرضه الذي رسمه شكلا وموضوعا واتفق مع ستة من إخوانه المصريين الافاضل الذين كانوا مقيمين في باريس إذ ذاك على الذهاب معه لتقديم العريضة إلى جناب رئيس مجلس النواب الفرنسي بصفتهم وفدا يمثل الامة المصرية.

وفي الساعة العاشرة قبل ظهر يوم الاربعاء ٤ يونيه أي بعد نجاز طبع الصورة التمثيلية السياسية بيومين قصد مع إخوانه إلى مجلس النواب مملوئين جميعا من روح الامل التي كان يبثها المترجم في صدورهم متمثلين أمام أعينهم المستقبل الباهر لمصر بما يرجون من معونة فرنسا للمصريين في هذه السبيل. ورفع الصورة إلى سكرتير المجلس. أما العريضة فقد تسلمها منه جناب الرئيس بيده بعد أن استقبلهم استقبالا

غاية فى الحفاوة والاجلال، مظهرا لهم ماشاء عطفه ولطفه من التشجيع مبديا لهم من التكريم ما هو خليق أن يلقاه المخلصون فى خدمة وطنهم وأمتهم فى كل زمان ومكان.

وقد أرسل المترجم عقب ذلك نسخة هذه الصورة ونص العريضة الممثلين لحالة مصر السياسية ومطالبها الوطنية إلى كل جريدة من جرائد العالم الاوربي والامريكى .

أما الصورة فانها تمثل مصر والاحتلال الانكليزى وقد رسمت بالبوية وطبع منها الآلاف العديدة التى وزعت على النواب وأصحاب الجرائد وكافة السياسيين والتى أحدثت فى الشعب الفرنسى كله أحسن وأجمل تأثير . وهذه الصورة تشتمل على مجموعة رسوم ورموز مثلت فيها فرنسا بفتاة استكملت أنواع المحاسن قائمة على منصة علاها مصغية لاستغاثة الملهوف، تخفق عليها أعلامها الاهلية، مادة يمناها لتأخذ من يد المصري عرض شكاية الامة الواقفة مستظلة برايتها الهلالية رافعة يديها على صورة المستغيث مما نزل بها . ومن وراء فرنسا قد مثلت الامم التي أنقذتها هذه الدولة من قيود الاسر محدقة بها تشخصها صور أربع غانيات تحلت كل واحدة منهن بملابسها الاهلية إشارة إلى الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وإيطاليا «وهى الامم التي نالت حريتها بمساعدة فرنسا» وعلى كل واحدة منها تخفق راية وطنها

وفي الاسفل نرى مصر العزيزة قد مثلت بغانية جميلة مكبلة بسلاسل الاسر واغلال الهوان قد سلبت كل آثار نضرتها حتى أصبحت عارية لا تملك سوى شعار حدادها على ما تولى من أيام سعادتها. وتلك السلاسل فى مخالب أسد رابض يجاوره رجل هائل الصورة قابض على سيفه ناظر إلى مصر نظرا شذرا كأنه يريد أن يبتلعها بفمه . وذلك مثال القابضين على أمر مصر بالقهر والعنفوان .

وعلى يساره تلك الصورة الهائلة نرى النيل وقد مثل بشيخ من شيوخ الاعصر الخالية متكىء على اناء تتفجر منه عيون النيل . ومن دقيق الاشارة أن ذلك الرجل الهائل الضارب باحدى رجليه فى النيل رمز إلى معنى الاحتلال . وقد زينت الحاشية السفلى لذلك اللوح بهذه الابيات التى كتبت بالعربية (وهي من إنشاء الفقيد) وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية :

أفرنسا يامن رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك

أنصري مصر إن مصر بسوء ... واحفظي النيل من مهاوي الهلاك

وانشري فى الورى الحقائق حتى ... تجتلي الخير أمة تهواك

وأما العريضة التي رفعت إلى مجلس النواب فهذا نصها :

« ياحضرة الرئيس

« إني بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذي أنت له نعم الرئيس هذا اللوح الذي يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها ، وأن هذا اللوح يمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما ، ولقد برهنت الامة المصرية ياحضرة الرئيس مع مايعتورها من المصائب الشديدة على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الامم الاوربية .

« ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا . هذه الدولة العظيمة التي أعلنت « حقوق الانسان » والتي سارت به منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية .

« جاءت الامة المصرية تستغيث بهذه الامة الكريمة التي حررت عدة من الامم ، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها ؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الاسلامي الواثق بها ؟

«على أن ذكر اسم مصر عند ماتكون حرة مستقلة بجانب أسماء الامم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها .

« فلتحي فرنسا محررة الامم »

***

وإنا لانتمدح بما لقي هذا الصنع الجليل من عظم التقدير ولا بما كان له من بالغ التأثير ، وإنما نضع هذا الاثر السياسي التاريخي النفيس ليحكم القارئون بما يرون من استحقاق هذا الجهاد السامي ، فيكون حكمهم عادلا وجهد ما نستطيع أن



(الصورة التي قدمها المترجم)
(لمجلس نواب فرنسا)

نقوله إن هذه الحركة الجميلة لفتت أنظار الجرائد الاوربية الكبرى والصغرى على اختلاف أجناسها ومنازعها إلى أن فى مصر شعباً حياً يطالب بماله من حق مسلوب وملك مغصوب بالطرق السلمية المشروعة وأن هـذا الشعب المهضوم الجانب بحكم السياسة الجائرة جدير أن يسترد ماهو عامل على استرداده من حقوقه الطبيعية الثابتة وأن مصر ذات المجد التاريخي القديم والعظمة الجليلة المدهشة ومجمع المدنيات الثلاث حرام أن يكون حاضرها أقل من ماضيها سؤدداً وشرفا .

كما أنها لفتت الجرائد المحلية الى همة هذا المصري الوطني العامل والى مايعمل لخدمة وطنه بمثل هـذا المسعى المبرور الذى يمثل المصريين أمام الاجانب تمثيلا يملأ العيون .

وقد نوهت شركات البرق بهذا النبأ فاحدث كل ذلك ضجة فى الدوائر السياسية التى عنيت بفهم هذه المساعى عناية فائقة . وتلفت القوم ينظرون من هذا المصري الذي بهر الالباب بعالى همته .

ولما كانت آراء الصحافة الاروبية والصحافة الامريكية قد تمثل أكثرها فى هذه المسئلة فانا نذكرهنا أقوال وأسماء بعض الجرائد التى كتبت في هذا الشأن كمثال لما كتب أكثرها لان إثبات ما كتبته جميعها أمر يحتاج إلى مجلدات ويستغرق وقتاً طويلا .

قالت جريدة « الجولوا » وهي من أكبر وأقدم الجرائد الفرنسية مايأتي :

« إن العريضة التى قدمها « مصطفى كامل » المصرى مع اللوح الذى يمثل فرنسا فى عظمتها وتحريرها الامم الضعيفة أصبحت موضوع الحديث فى كل انحاء فرنسا ولا نخطىء إذا قلنا فى كل انحاء العالم . فان العمل فى ذاته جليل وهويعد بمثابة تاريخ لظهور الامة المصرية بمظهر الامم الحية التى تشعر بكرامتها وانها لايصح أن تكون كمية مهملة . . . . إلى أن قالت :

« والمسئلة المصرية التى قام على رأس العمل فيها « مصطفى كامل » لم تكن مسئلة الامة المصرية فقط ، بل هي مسئلة العالم المتمدين بأسره وفى مقدمته فرنسا التى غرست شجرة العلم العصرى فى مصر وأول الحكومات ذوات المصالح فيها مادياً وأدبياً ،

« وأنه إذا كان المصريون اختارونا للدفاع عنهم فنحن أحق بأن نختار أنفسنا أيضا لمناقشة انكلترا وطرح المسئلة المصرية على بساط البحث مع مسئلة الشرق الاقصى . . . . »

وقد نشرت جريدة الاكسترا جبلاط النمساوية كلمة فى سبيل هذا العمل السياسى هذا تعريبها :

« إن «مصطفى كامل» المصرى شاب تعلم فى فرنسا ونال منها شهادة الحقوق وقد تشبع بروح الدفاع عن حقوق وطنه مصر . والظاهر ان فى مصر جمعية كبيرة تعمل لانقاذ الوطن وأن «مصطفى كامل» موفد من قبلها وقد كان أول عمل له هو تقديم عريضة لمجلس نواب فرنسا (ونشرتها مع صورة اللوح السياسى)

ولا شك عندنا ان المصريين ما اختاروا باريس مركزاً لاعمالهم السياسية الا لتلك الرابطة القوية التى تجمعهم والفرنسيين الذين عاشروهم طويلا ونشروا بينهم العلوم والمعارف باخلاص فضلا عن المصلحة القوية التى لفرنسا ماديا فى مصر والتى تفوق مصالح كل الدول . وانه اذا كانت فرنسا تظهر عطفاً على المصريين فكذلك النمسويون يظهرون هذا العطف على بلد أميره ابن النمسا أدبيا وهو الامير « عباس حلمي الثاني » خديوى مصر (السابق) فهل لحكومتنا ان تجيب نداء المظلومين فتأخذ بيدهم في مؤتمر يعقد للفصل في هذه المسئلة المصرية الدولية ؟ هذا ما نؤمله .... ونختم قولنا بأن نهنىء «مصطفى كامل» من صميم فؤادنا على عمله هذا ونرجو له التوفيق هو وإخوانه فى هذا العمل الوطني العظيم »

ونشرت جريدة برلينرتاجبلاط الالمانية جملة بعد أن أثبتت العريضة ووضعت الصورة ، قالت فيها :

« يظهر أن المصريين متألمون كثيراً من أعمال الانكليز فى مصر وأن الحكم الانكليزى وتوغل الاحتلال فى بلادهم علمهم كيف يكونون رجالا . اما سياسة ألمانيا فى مسئلة الاحتلال الانكليزي لمصر فهى غامضة للآن ولو أن الالمانيين يعطفون بكل جوارحهم على المصريين .

« قال لنا «مصطفى كامل» في كتابه إنه سيزور برلين قريباً ونحن نرحب به وبكل مصرى يزور بلادنا لبث شكوى المصريين . . . . »

وقالت جريدة دي روما الايطالية مالا يخرج عن معني ما كتبته الجرائد النمسوية والالمانية .

أما الجرائد الفرنسية الكبري التى أشارت إلى هذا العمل السياسى العظيم فهى :
(الطان ، الديبا ، الريبوبليك فرنسيز ، الفيجارو ، البتى جورنال ، السولى ، الانتراسيجان ، الراديكال ، الفريتيه، السييكل ، الاكلير ، الماتان ، البترى ، فرنس الليبرتيه) وغيرها مما يضيق المقام عن ذكره .

أما الجرائد الانكليزية فانها استقبلت هذا العمل بالاستهزاء كما هو المنتظر منها وسبت المترجم سباً شنيعا كعادتها فى كل أمر يدل على نهوض المصريين وقد قالت جريدة ذي ستندرد فى هذا الموضوع ما تعريبه :

« ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعى أنه مصري والحقيقة أنه تركى وقد كان أبوه موظفاً فى سراي الخديويين المصريين . قدم هذا المهيج المغرور استنجادا لفرنسا من الاحتلال ونسى ما عليه إنكلترا من القوة والحق فى احتلال مصر .

ويظهر أن المصريين ناكرون للجميل لاننا أحسنا إليهم فعلمناهم بعد أن كانوا أنعاماً ونظمنا جيشهم وأحسنا أحوالهم المالية .

« فالرأى العام الانكليزى لايلتفت إلى هذا الهذيان الذى يدل على أن يداً كبيرة تحركه ضد انكلترا صاحبة الحول والطول .

« وانا ننذر هذا المصرى وغيره إنذارنا الاخير من أن الدول الاوربية جميعاً ترى من مصلحتها بقاء الاحتلال ليضمن لهن مصالحهن لان المصريين ليسوا أكفاء لهذا العمل فاذا تركناهم وشأنهم وقعت مصر فى الفوضى التى كانت عليها فى سنة ١٨٨٢ .

« وفى نهاية قولها هزأت بالجرائد الفرنسية التى عضدت هذه الحركة وقالت: « إن من الخرق فى الرأي أن يعين الانسان غريباً جاهلا غير متمدين على جار أقرب وأنفع ! ! ! »

على هذه النغمة الانكليزية وبهذه الالفاظ التى يتحرك بها لسان السياسة الاستعمارية جاءتنا جرائد الاحتلال فى حين أن جرائد العالم بأسره قد استقبلت هذا العمل العظيم بصدر رحيب حتى أن جرائد أمريكا استبشرت خيراً بهذه الحركة المباركة فقد كتبت جريدة « نيويورك هرالد » فصلا ينم على حسن أدبها وصدق لهجتها ، هنأت فيه المصريين بعملهم وأثنت ثناء جميلا على ما بهم من النشاط والذكاء

ونادت بوجوب وفاء الانكليز بوعودهم لان الحكومة التى لاتبنى عملها على أساسين من الشرف والوفاء لاتكون محترمة أمام العالم ولا مذكورة بالثناء على لسان التاريخ.

أما جرائدنا فانها انقسمت إزاء هـذا المجهـود قسمين . الجرائد الوطنية مشجعة مبشرة والجرائد الاحتلالية مثبطة منذرة .

فالاولى استقبلت هذا الحادث السياسى الاول فى تاريخ الاحتلال بما هو أهل له من الاكبار والتشجيع إذ علقت عند ورود التلغرافات العمومية بنبأه تعليقاً يشف عن فرط رغبتها فى تشجيع همم العاملين من الوطنيين لخدمة البلاد خدمة صادقة خالصة، ويعرب عن أكيد الوفاء لمصر،وكذلك كتبت الفصول الضافية عند ما وصل إليها نص العريضة وصورة اللوح المصحوب بها .

أما الثانية وهى الجرائد الاحتلالية فانها كما هو المنتظر منها وكما هو شأنها استقبلت هذه الحركة بتهديد المصريين والطعن فى كل ماله مساس بهم إلى غير ذلك من الهذيان الذي هو شارة الدخلاء والخوارج المأجورين فى كل بلد من البلدان التى منيت بمطامع المستعمرين .

***

عرفت أيها القارىء الكريم أني كنت ذلك الوقت فى سواكن وقد انتظرت بنافد الصبر ما ذكره لى المترجم في خطاب بعث به إلى من أنه أوصى على صورة سياسية وما جاء يوم السبت ٢٢ يونيه حتى وردت إلينا الجرائد وفيها نص العريضة ووصف اللوح كما أنه ورد إلى أيضاً خطاب من المرحوم ومعه ملف داخله عشر صور .

أما الخطاب فقد حوى أشياء كثيرة لامحل لذكرها هنا ومما جاء فيه مانصه :

« أبعث إليك بعشر من الصور التى تمثل مصر راسفة فى قيود الاحتلال لتوزعها على من شئت من أصدقائك الاعزاء . أما تأثير هـذا العمل فهو عظيم جـداً وأؤكدلك أنه ليس فى استطاعة كاتب مهما كان قلمه سيالا قويا فى الوصف أن يوفى المقام حقه . لان الجرائد الفرنسية على اختلاف مبادئها ومشاربها قد استقبلته بكل ارتياح إذ رأت من المصريين ميلا كبيراً إلى فرنسا واحتراماً لها واعترافا بجميلها .

« ولما كانت الجرائد المصرية لاتنشر كل ماتكتبه الجرائد الأوربية فى هذا الموضوع فقد عزمت أن أبعث إليك بكل ماينشر لتقرأه وحدك وأرجوك ألا تتظاهر بأى عمل سياسى لئلا يضرك الانكليز، ولايغيب عنك أن القوانين العسكرية صارمة لاترحم أحداً وعلى الاخص أخا من يعمل ضدهم مدافعا عن وطن آبائه وأجداده وقد أخذوا كل حق فيه غصبا .

وفى الختام لاتنسى أن تشرح لى آراء الضباط فى هذا العمل ودم بخير لأخيك المخلص ...... مصطفى كامل »

وما جاءت الجرائد ووقف فيها الضباط على دقائق هذا العمل حتى أقبلوا على سائلين نسخات من هذه الصورة فاينما كنت أولى وجهى سواء فى القشلاق أوفي الطريق أو فى النادى أجد من يسألنى صورة وقد وعدتهم جميعاً أن استحضر لهم طلبهم .

وقد دفع الضباط شعورهم إلى كتابة خطاب للمرحوم يشكرون له فيه هذا العمل وليكون منشطا له فى كل أعماله وقد وقع عليه ٣١ ضابطاً كلهم مصريون وهذا نص الخطاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« إلى الشهم الغيور الوطنى المصرى مصطفى كامل أفندى أيده الله

« السلام عليكم . إن الذين يخاطبونك يجدون أنفسهم أمام وطنيتك النادرة وتفانيك فى حب مصر المقدسة صغاراً ،لان قلمك الحق أمضى من سيوفنا، وحججك القوية أفعل من رصاصنا، فان قصرنا فى شكرك فلنا من عملنا أكبرعذر وفى عفوك أعظم أمل .

« إنا نشكرك أيها السيد المبجل شكر المصري الصميم لأخيه الحميم فاقبل شكرنا واعلم أن أرواحنا طوع اشارتك فى خدمة بلادنا العزيزة

فسر فى هذا الطريق السلمي الحق ،ولا تخف أبداً فان من يخدم الحق يجد على الدوام من الله نصراً والسلام عليك من إخوانك الضباط المصريين »

(الامضاءات)

٢٤ يونيه سنة ١٨٩٥

***

ما وصل هذا الخطاب إلى يد المرحوم حتى جاءني منه تلغراف هذا نصه :

« شكرا جزيلا ..... كامل »

وقد بلغت هذا النص لكل من أمضى هذا الخطاب . وما جاء يوم السبت ٣ أغسطس سنة ١٨٩٥ حتى ورد إلي منه خطاب أظهر لي فيه أنه تسلم كتبا وبرقيات كثيرة من كل جانب حافلة بعبارات الشكر والتشجيع كما أظهر لي ارتياحه الكبير من عمل الضباط ولكنه نصح لنا بأن نقرأ ولا نكتب حتى لا يؤول عمله تأويلا يضر مصر. وقد جاء فى الخطاب هذه الجملة الحكيمة :

« من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا ، بل نجتهد في توجيه السهام إليه مع إحتراسنا من سهامه . وأني لا أود أن يدخل الضباط فى حركتنا السياسية دخولا ظاهرا لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضررا بليغا حيث يجد الاحتلال مسوغا لاختلاق التهم الثورية بمصر، وغير ذلك مما لا يخفى عليهم .

« وأملى أن تتخلص من خدمة الجيش قريبا لتكون فى جواري لنؤدي معا هذا العمل الكبير الشاق الذي يحتاج لمئات من المصريين المخلصين المتعلمين .

« إنك لو قفت على أعمالي من محادثات سياسية ،وتعريب ما تكتبه الصحف الفرنسية فى المسئلة المصرية لنشره فى جرائدنا العربية ،ورد على كتب الشاكرين من الوطنيين مما يعد بالمئات ،لعذرتني ورجوت معي أن

نكون كثيرين فى هذا العمل الوطنى الجليل .

« ولكنى مع ذلك أشعر بنشاط فوق نشاطي وهمة فوق همتى وأجد من السعادة أن يكتب قلمي كلمة مصر ويذكرها لساني وطنا محبوبا ...

برلين فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل »

***

بعد أن قدم المترجم العريضة مع الصورة قصد برلين مع صحفي نمسوي قديم تعارف به بواسطة المسيو ديلونكل ولما وصل اليها زار إدارة الصحف الكبرى وعرف مديري دفة سياساتها وقد أخلص له من بينهم اخلاصا تاما مدير جريدة البرلينر تاجبلاط مسيو فون لافيزون فانه بقى على إخلاصه القديم يخدم المسئلة المصرية مع المرحوم حتى آخر أيامه .

أراد بعض هؤلاء الصحافيين محادثته فى المسئلة المصرية ولكنه فضل أن يكون ذلك بعد نشر حديث والقاء خطبة على الاقل على الارض الفرنسية حتى لا يخسر الدفاع بما يسببه ما بين الفرنسيس والالمان من الحقد والتباغض والعداء القديم .

عاد رحمه الله إلى فرنسا فى أواخر شهر يونيه ، وقد دار حديث بينه وبين محرر جريدة الجرنال الفرنسية في يوم ٢ يوليه سنة ١٨٩٥ وهي من أشهر الجرائد الحرة وقد كانت أول جريدة نشرت حديثا سياسيا للمرحوم بعد عريضة مجلس النواب وهذا تعريب الحديث :

﴿ مصر والسياسة الفرنسية ﴾

« إن الحديث الذى جرى بيني وبين المصرى الوطنى «مصطفى كامل» النائب فى أوربا عن حزبه بمصر لابد أنه يفيد قراء (الجرنال) وهاك ماقاله لى :

« إن سؤالك إياى رأيي فى السياسة الفرنسية فيما يختص بالمسئلة المصرية

لسؤال خطير جدا وعظيم الأهمية .

« إن لفرنسا على ما أرى سياستين فى مسألة مصر : سياسة فى أوربا وسياسة فى مصر نفسها .

« فسياستها فى أوربا هي سياسة صريحة حازمة . فلقد أعلنت مرات عديدة أنها لا تستطيع ولن تستطيع أبدا أن تترك مصر للانكليز فان مركز بلادنا الجغرافى مهم جدا ومصالح فرنسا فيها عظيمة لحد يحملها على اعتبار المسألة المصرية من أخطر المسائل التى تهمها مباشرة .

« وفضلا عن ذلك فان فرنسا باعتبارها دولة محافظة على صيانة المملكة العثمانية وعلى استقلالها يجب عليها أن تحقق الاستقلال المحدود لوادى النيل الذى هو جزء من الدولة العلية .

« أما السياسة الفرنسية فى مصر فلقد كانت ولا تزال - وأرانى مضطرا بكل أسف للجهر بصدق وصراحة — سياسة تساهل وتسامح .

« ولم يترك معتمدو فرنسا فى مصر الانكليز يهددون فقط أعظم تهديد العمل الجليل الذى عملته فرنسا فى بلادنا . هذا العمل المدنى الخيرى الذى ما نسيناه ولا ننساه أبدا . بل إنهم بصمتهم وسكونهم الذى لا يفهم له معنى شجعوا الانكليز على استعبادنا وسمحوا لهم أن يحولوا وادي النيل الجميل إلى هند أفريقيه أسوأ حالا من أختها الاسيوية .

« وانظر كيف أن انكلترا تزاحم النفوذ الحسى والمعنوي لفرنسا فى مصر في كل يوم تحارب لغتكم التى نقبل على مطالعتها لغناها وجمالها وتعد الذين يتلقونها من الطلبة أعداء لها فتسد فى وجوههم أبواب الوظائف وتشدد عليهم الامتحانات . وقد فازت بتقليل عدد الموظفين

منكم كثيراً . ودهورت الارسالية المصرية التي كانت عديدة مزهرة فأصبحت اليوم لاتتألف إلا من عشرة شبان نصفهم أرمنيون من مواطني نوبار وأرتين !

« ولكن الانكليز لحسن الطالع لم يتمكنوا برغم مساعيهم الخبيثة من القضاء على النفوذ الفرنسى نهائياً فى البلاد، وذلك لما عندنا من الود المكين لكم وعدم نسياننا المعاونات الادبية التي قدمتموها لبلادنا منذ تولى أمورها ذلك البطل العظيم والمصلح الجليل محمد على باشا .

« وبرهان هذا الود أننا لما أردنا الاستعانة بأوربا على إسعافنا السياسى كان أول ماعرضنا أمرنا على فرنسا معتقدين كل الاعتقاد أنها لاتمتنع عن توطيد نفوذها فى الشرق بانقاذها شعبا يحبها كل ذلك الحب وحقيق أن يكون حراً فى بلاده .

« ولكنى مع هذا أصارحك القول بأننا قد عيل صبرنا من طول الاحتلال . ! فان كانت عزيمة الحكومة الفرنسيه قد صحت على أن تقوم بعمل حازم فى المسئلة المصرية فلتعمله عاجلا .

« وأظن ياسيدي أني أبديت لك فيما قلته رأى إخوانى المصريين »

وما نشرت الجورنال هذا الحديث الخطير حتى أذاعته صحف العالم كله من قارة إلى قارة ونقلته أسلاك البرق من دولة إلي دولة كما أن شركة هافاس نشرته فى مصر فى اليوم التالى وعلقت عليه الجرائد الكبيرة فى باريس تعليقا مرضيا .

قالت جريدة الطان والقراء يعرفون منزلتها فى عالم السياسة ومبلغ تأثيرها في الدوائر السياسية الخطيرة تعليقاً على هذا الحديث مانصه :

« لابد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم فى المسألة المصرية لان أسلوبه السياسي قائم على الصراحة والحق . فهو يذكر بشجاعة

وجلاء المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذي
كلما مرت السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الاشخاص. الخ
وعلق كثير من الجرائد الفرنسية الكبيرة بأقوال مشجعة لاتخرج فى الغالب عن المعني
المتقدم . ولم يمض علي هذا الحديث يومان حتي كان المترجم فى طولوز مدينة العرفان
والنور . تلك المدينة التي نال منها إجازة الحقوق حيث ألقي هناك خطبته السياسية
الاولي باللغة الفرنسية على مرأي ومسمع من العالم الراقي وسننشرها بمشيئة الله مع
أهم خطبه التى القاها حتى انتقاله إلى الدار الاخرة في مكانها من السيرة .
ومنذ ذلك الحين أخذت شهرة المترجم تكبر وتزداد سعة فى أنحاء العالم كما أن
كبريات الجرائد قد أخذت تلهج بذكر المسألة المصرية وتتحدث بأعمال فقيدنا
العظيم . تلك الاعمال التي جلت وكبرت وأدهشت الالباب .
وكيف لايكون شأنها كذلك والمترجم بشهادة الواقع كان في وقت واحد يكتب
المقالات الوطنية كالبرنامج الذى وضعه وينشرها فى الصحف المحلية، وتهاجمه الصحافة
الاجنبية بالاحاديث السياسية ثم تدفعه غيرته الشريفة وحماسته الطبعية النادرة
ونشاطه الذى لايعرف الكلل ولا الملل الى القاء مثل تلك الخطبة التى نحن فى
صددها ويجتذب أنظار السياسيين وذوي الرأى في الممالك ذات الشأن الى البحث
فى المسألة المصرية ويرد علي مايرد اليه من الكتب الخصوصية وأقل ماكان يكتب
يوميا من هذا القبيل عشرون كتابا ليس فيها إلا ايضاح حقيقة أوجواب عن سؤال
أوحل مبهم من المقاصد إلى مايماثل هذه الاغراض مكتوبة بالعربية أو الفرنسية .

(وليمة فى طولوز)

رأي المرحوم بعد ان أبدت الصحافة الطولوزية عطفها على المصريين وعنايتها
بمسئلتهم إزاء الاحتلال الانجليزي على أثر الخطبة التى ألقاها أن يدعو كبار
الصحفيين إلى وليمة فدعا خمساوعشرين ذاتا من كبار الكتاب فى مساء يوم الاحد ٧ يوليه
سنة ١٨٩٥ وقد كتب أحد المصريين المقيمين بباريس لجريدة الاهرام تفصيل هذه
الوليمة فنشرته فى عددها الصادر فى يوم الجمعة ١٩ يوليه وهذا نصه :
« إعترافا بالجميل دعا حضرة الوطني المصري مصطفى أفندي كامل أصحاب
الجرائد الطولوزية إلى وليمة شائقة أولمها ليلة مبارحته طولوز وحضرها كل رجال
الصحافة والتحرير فى تلك المدينة برئاسة المسيو لاتاييه المحرر الاول فى جريدة

لاديبش وهى من أشهر الجرائد التى تصدر مرتين في اليوم صباحاً ومساء . وبعد انتهاء المأدبة نهض المسيو لاتاييه فألقى خطابا أنيقاً شكر فيه همة هـذا الوطنى المصري الصادق مظهراً انه يجب علي فرنسا الاصغاء إلى استغاثته لتحرير مصر ثم وجه اليه عبارات التشجيع على عمله مظهرا إعجابه بوطنيته مهنئا إياه علي المهمة الشريفة التى أخذ على عاتقه القيام بها . واختتم خطبته بهـذه العبارة البليغة : « إني واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنيـة الصالحة وليقضى الشعب المصرى لبانته ويسمع يوما الحكم له على انكلترا. ولذلك أدعو زملائي أصحاب الجرائد إلى تهنئة زملينا الشاب الغيور منذ الآن »

ثم وقف المسيو أريست نقيب أصحاب الجرائد فى جنوب فرنسا وقال :

« وأني إعجابا برصيفنا المصرى أشرب نخب الصحافة التى قام من رجالها فى الشرق رجل يسعى فى تحرير وطنه المحبوب »

«وفى الختام نهض حضرة الاديب مصطفى أفندي كامل وقال ما مؤداه :

« اسمحوا لى بأن أشكر لكم قبل كل شيء ما أظهرتموه نحوي من عبارات الود وعواطف المزاملة سواء بأنفسكم أو في جرائدكم الغراء مما تكرمتم بأظهاره لى مرة أخري إذ أجبتم اليوم دعوتى . وأن اجتماعكم هذا لما يولد في نفسى سرورا عظيما ويوليني شرفا كبيرا انتم معشر الكتاب الوطنيين وأنشط المدافعين عن الحرية والاستقلال . وليس لى أن أخطب فيكم اليوم وقد علمتم عواطفى نحو الامة العظيمة التى تنتسبون إليها، وما اعترافى بالجميل إلا إحدي نتائج الخدم التى قمتم بها لوطنى فقد دافعتم ولا تزالون تدافعون عن مسألة مصر الشرعية الشريفة . ولهذا أهنئكم كرجل ذي شعائر وعواطف ، وأشكركم كواحد من بنى مصر الصادقين .

«وأنكم مهما تنازعتم اليوم في الآراء السياسية واختلفتم فى المبادىء بازاء أي مسألة عامة فان مصلحة فرنسا المنضمـة إلى مصلحة الانسانية تقضى عليكم بالدفاع عنها . ولسنا نعرفكم إلا فرنسيين لا فرق عندنا بين الجمهوريين والملكيين ولا بين الاشتراكيين والراديكاليين ... لا نعرف إلا فرنسا والفرنسيين وبكم معشر الفرنسيين الوطنيين نستنجد وإياكم نستعين . فعليكم كلكم أجمع أن تجيبوا نداء مصر الحزينة.. مصر التى تحييكم من صميم فؤادها وتحيي فيكم أجدر المناضلين وأصدقهم عن الحق والعدل .

« فلتحي فرنسا، ولتحي مصر، ولتحي الحرية » (مصري فى باريس)

* * *

برح المترجم طولوز في اليوم التالي لهذه الوليمة قاصداً برلين (عاصمة المانيا) فودعه على المحطة أكثر كبار رجالها من سياسيين وصحفيين وغيرهم وقد رأى منهم كل تكريم وتبجيل . وبعد أن وصل برلين أخذيقابل رجال الصحافة وحملة الاقلام وفي مقدمتهم جناب مدير جريدة البرلينر تاجبلاط الذيأعجب به كثيرا وقد كان واسطة التعارف بينه وبين الكثيرين .

وبعد أن مكث ببرلين خمسة أيام قصد باريس وزار كبار الكتاب والصحفيين الذين ساعدوه على نشر خطبته الاخيرة واستقبلوها أحسن استقبال . وفيهذه الاثناء تعرف إلى الكاتبة الطائرة الصيت ، السيدة الجليلة مدام جوليت آدم وقد كتبت بقلمها عنهذا التعارف ما نصه :

كتب إلى «مصطفى كامل» أول مكتوب من طولوز فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ وهذا هو نصه :

« سيدتي

« إني لا أزال صغيرا. ولكن لي آمالا كبارا. فأني أريدأن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه . وسأجود فى سبيله بجميع قواي وأفديه بشبابي ، وأجعل حياتى وقفا عليه .

« إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقدنلت إجازة الحقوق من طولوز قبل سنة ، وأريد أنأكتب وأخطب وأنشر الحمية والأخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز .

« وقد قيل لي أكثر من مره إني أحاول محالا ، وحقيقه تصبو



(مصطفى كامل)

في الحادية والعشرين من عمره

نفسي إلى هذا الحال فأعينيني ياسيدتي ، فأنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تدبر قولى ، وتقوية عزمي وشد أزري ، وتقبلي تحية واحترام مصطفى كامل »

(حاشية : مع خطابي هذا يصل إليك كتيب لي في (أخبار الاحتلال البريطاني على مصر) وأملي أنه يروقك وتستعذ بينه)

« فرددت على مصطفى بما يؤكد له معونتي . فورد إلي منه خطاب شكر جزيل ، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألني فيه حديثا . فسرعان ما أجبته إلى طلبه . فأقبل على شاب خلته ابن ثماني عشرة سنة . فقلت له ضاحكة ، اصدقني سنك فأنك لم تبلغ الحادية والعشرين ، فقال : « قد بلغتها ياسيدتي وأكملتها ....

« إني منذ ذلك اليوم — يوم لقاء مصطفى كامل — بدأت أنشر له في لانوفل ريفو الرسائل السياسية في المسألة المصرية . . . .

« . . . . . وأوجدت له في آن واحد علائق نفيسة في عالم الصحافة الفرنسية . تلك العلائق التي عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة في دعواه الشريفة . وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة في جميع البلدان الأخر حتى في انجلترا نفسها . . . . »

كتب إلي رحمه الله خطابا استغرق ١٦ صفحة ذكر فيه مسائل كثيرة ما بين خصوصية وعمومية جاء فيه :

« تلقيت بمزيد الجذل والشكران كتابك الكريم وقد قرأته مرارا فكان في كل مرة يحدث في نفسي تأثيرا عظيما ويورد عليها انفعالات شتى . وقد فهمت تمام الفهم ما أشرت إليه وأني عامل به على قدر الأمكان .

« ولا أخفي عنك أيها الشقيق الأعز أنه لا محل للدهش فأني لم أصنع لبلادي شيئا بعد وهما عملت وقلت فذلك دون الواجب . وأن اليوم الذي يقل فيه القطار آخر جندي إنكليزي من وادي النيل ، ويصبح النيل حرا كما كان من قبل ، لهو اليوم الذي تهدأ فيه نفسي من التوثب للعمل بعزم لا يكل وإقدام لا يمل . فلا تحسب أنني أديت ما على لبلادي من الدين الكبير حتى إذا قيل لك إن أخاك يردف الحديث بخطبة ويتبع الخطبة بمناقشة ويقفي على أثر المناقشة بمقالة ، فليس هذا كله شيئا !

« وإذا كان من يعشق فتاة جميلة لا يهدأ له روع ولا يهنأ له بال إلا إذا وفر لها صنوف السعادة والرفاهية فما بالك بمن يعشق فتاة الدهر وأم العجائب — مصر — هل يعذر هذا العاشق إذا لم يسل روحه على قدميها دفاعا عنها ؟؟

« ألا إن وطنا غذاني بنباته ومائه واستظللت منه بصفو سمائه لجدير أن أدافع عنه دفاع الأبطال.فأما إلى الرفعة والاستقلال ، وإما أن أقضى آملا أن يقوم من أبنائنا أو أحفادنا من يبلغهما عظيم الآمال .

« إننا ماخلقنا أيها الأخ إلا لنعمل والناس يتفاضلون بالأعمال . فاعمل فى الدائرة التى أنت فيها بهمة ونشاط .... »

وجاء فيه بعد كلام آخر هذا نصه :

« كيف يكون فى مصر من يحسدنى وهاهم الفرنسيون يذكرون اليوم وغدا بمزيد التبجيل والاحترام أمثال موليير وميرابو وهوجو وغيرهم من الذين خدموا بلادهم خدما عالية وهم مثلهم فرنسيون ؟ ياعجبا للحاسدين !! قل لهم يا أخي إن الحسد نار لا تلوى على ماتتلف وليحرصوا على قلوبهم

أن تحرقها النار! فالوطن أولى وأجدر بقلوب تعبث بها هذه الصفات . قل لهم عسى أن تخمد تلك النيران الملتهبة ، إن هذا الذى يخدم ويناضل فى باريس إنما يخدم مصر ويناضل عن المصريين وأولئك قوم مصريون . قل لهم ذلك عسى أن يقووا على كبح جماح نفوسهم ووضعها حيث وضعتها القدرة وإنزالها حيث أنزلتها الفطرة .

«قل لهم إننا فى ظروف سيئة يلزمنا فيها أن نتكاتف ونتعاون على مايشرف قدر وطننا وأمتنا . وأنك بلا شك توافقنى على أن ذلك الحسد ضرب من ضروب الجمود وسببه راجع الى قتل روح الحرية الصحيحة التى هي ألذ وأشهى ثمرة من ثمار العلم . وأنه يجب على أغنيائنا إن كانوا حقيقة مصريين أن يغرسوا مااستطاعوا من أشجار العلم ويقيموا ما يقدرون على إقامته من دور المعارف لتخرج لنا أبناء كراما لا تعرف الصغائر إلى نفوسهم سبيلا . . .

«ولقد علمت أن الانكليز بلغ بهم الغيظ مبلغه من هذه الحركة التى تسوءهم طبعا ، لأنها تكشف الستار عن ظلمهم واستبدادهم وأثرتهم وأنانيتهم ولكنى لا أبالى غضبوا أورضوا . على أن جهدهم أنهم أوعزوا إلى جرائدهم هنا وهناك أن تسبنى وأن تنكر على الأمة المصرية بأسرها أن تكون سارية فيهاروح الوطنية .

«ولئن كانوا قد قالوا وأعادوا مرات عديدة إننى واحد أعمل بمفردى بلانصير من عواطف الأمة ولامعين، فليعلموا أن الحزب الوطنى آخذ فى الانتشار وأنه سيكون حزبا سياسياً كبيرا يعمل لانقاذ مصر بالوسائل السلمية المشروعة الشريفة .

إلى أن قال :

« سألتني رأيي عن استقالتك من الجيش حالا ، ولكني أرى ضرورة الانتظار ؛ ومتى حان الوقت أخبرك في الحال لتقدمها وتعمل معي في خدمة المسئلة المصرية جنبا لجنب .

« أسافر بمشيئة الله بعد غد إلى فيينا لأنشر بين رجال السياسة آلامنا وخواطرنا والله الموفق مصطفى كامل »

١٨ يوليه سنة ١٨٩٥

***

سافر المرحوم إلى فيينا فى ٢٠ يوليه وقد جرى بينه وهو في القطار وبين سائح انكليزى كبير حديث أرسله لجريدة المؤيد وقد نشرته في عددها الصادر يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٩٥ وهذا نصه :

ماوراء السياسة

الانكليزية الحاضرة

« أسعدتنى الفرص في سفرى من باريس إلى فيينا بالاجتماع مع سائح انكليزى يلوح عليه الوقار والاحترام تجاذبت معه الحديث طويلا بشأن السياسة الانكليزية الحاضرة فوجدته واقفا على دقائقها عالما بحقائقها يرى في احتلال مصر ضربة على النفوذ البريطانى وإخلالا بقواعد المملكة المؤسسة على احترام الشرف وإعزاز تاج المملكة الذى أقسم به ساسة انكلترا عند ماوعدوا بالجلاء عن وادى النيل . ويعتبر سياسة البقاء في مصر سياسة عوجاء لاتؤدى إلا إلى هياج الدول ضد الدولة الانكليزية ، ولذا رأيت أن أقدم للقراء الكرام خلاصة أقواله ليعلموا أن فى انكلترا نفسها قوما يقبحون الاحتلال ويودون لمصر خلاصها وحريتها ولانكلترا تحقيق وعودها وسلامة شرفها فلقد قال لى هذا الشيخ الحكيم مامعناه :

« إن جنودنا لابد من خروجها من دياركم سواء كان ذلك بالقهر أو

بالرضا وأن تنبه أوربا إلى الاعمال التي تنسب إلي بعض رجال السياسة منا يقيم فى وجهنا العقبات والمشاكل فى كل البلاد وفى كافة المسائل وكان خيرا لنا أن نصافيكم ونعاهدكم وتتخذ مصر حليفة أفريقية نركن إليها وإلى سودانها عند الحاجة. ولكن احتلالنا بلادكم هذا الاحتلال الذى مقتموه جعلكم خصماء لنا وأثار الخواطر علينا فى مستعمراتنا نفسها وفى كل بلاد أوربا

« والأمر الذى آسف له خصوصاً هو ما استعملته حكومتنا فى غضون هذه الايام من القسوة والشدة فى معاملة الدولة العلية فلقد بدلت بسياستها الصفاء بالعداء وزادت حكومة جلالة السلطان تعلقا بمسئلة مصر من حيث أرادت إغفالها عنها. ولم يكن يخطر على بال اللورد روزبرى ورفقائه أن سياستهم مع الدولة ومعاضدتهم الأرمن يثيران السخط والغضب فى المسلمين ويملآن قلوبهم حقداً على انجلترا. فلقد قامت جرائد الشرق عامة وجرائد الهند منها خاصة تقبح دفعة واحدة سياستنا وتدعو المسلمين إلى النفور منا وزيادة التعلق بالدولة العلية والخلافة العثمانية.

« ولكى تعلم مقدار تغيظ الهنود منا اقرأ هذه الجريدة - قال ذلك وناولني جريدة هندية - فقلت له إنى لا أعرف الهندية فأخذها مني وقال هذه جريدة « شمس الاخبار » الصادرة فى مدراس بتاريخ ٢٤ يونيو الماضى وفيها فصل مطول ضد الدولة البريطانية جاء فيه ما مؤداه: « إن الانكليز يساعدون الأرمن على الدولة العلية ويحدثون الاضطرابات فى كل بقعة يحكمها المسلمون ولا يدرون أن أعمالهم هذه تقابل بالغضب والسخط من كافة المسلمين وهم ليسوا بالعدد القليل »!

« فماذا يريد الانكليز من هذه الاعمال ؟ أيريدون إقامة حرب دينية؟ ليقولوا لنا ذلك علنا حتى نقوم ونملأ الوديان والجبال من دمائنا ومن دمائهم ونزيل آثارهم من البلاد ونجاهد فى سبيل الخلافة الأسلامية العالية المنار إلى آخر لحظة فى حياتنا » .

وبعد أن قرأ هذا الفصل الخطير استمر فى حديثه قائلا :

«ولا شك أن ثورة أفكار المسلمين على حكومتنا ليس بالأمر الهين فانهم أقوياء إذا اجتمعوا وأقل ضرر يمس جلالة السلطان (عبد الحميد) يجمع لا محالة كلمتهم ويلم شعثهم. على أن السياسة التى اتبعها اللورد روزبرى ليست فقط ضارة بنا بل هي مناقضة كل المناقضة لتقاليدنا القديمة فلقد مضت الدهور الطويلة ونحن أعز أصدقاء الدولة العلية وأجل نصرائها. »

فلما قال ذلك سألته وأى سياسة يجب على اللورد سالسبورى اتباعها إذا أراد؟

« هى السياسة التي يكون مؤداها حل المسئلة الارمنية حلا يرضى الدولة العلية وجلاء الجنود الانكليزية عن وادى النيل . فان هذا الأمر فضلا عن كونه يعيد الصفاء بيننا وبين جلالة السلطان الأعظم مما نحن فى حاجة إليه فأنه يقوى نفوذنا فى الشرق ويعلى كلمتنا . أما إذا أراد اللورد سالسبورى اتباع خطة سلفه فما أضر هذه السياسة بدولتنا . هذه السياسة التي يكون من أقل نتائجها ثوران المسلمين علينا فى كل الاصقاع ، وخروج جنودنا من مصر بالرغم منا ، وزيادة نفوذ فرنسا فى الشرق ، وتلقاء ذلك يضعف لا محالة نفوذنا وتقل سلطتنا »

«ومن يقرأ هذه الاقوال ويتدبر معانيها يرى أن نظرات هذا الرجل الحكيم من الصواب بمكان وأن ماردده العقلاء في المؤيد وفى غيره من الجرائد الصادقة

بشأن اعوجاج سياسة العداء ضد الدولة العلية لمن أحكم ماقاله سياسي ونطق به خبير . . .

« وللمصريين فى هذه الاقوال الجليلة فائدة كبرى ، ألفت أنظار مواطني اليها وهي أن عقلاء الانكليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الامة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الامور ، حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ويسألوها الجلاء عن وادى النيل . فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق فى أوربا باكثر اللغات انتشاراً ، خصوصاً باللغتين الانكليزية والفرنسية حتي يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذى فى خدمته خدمة الحق وفي نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية مصطفى كامل »

فينا فى ٢٦ يوليو سنة ١٨٩٥

***

وما وصل « مصطفي كامل » الى مدينة فينا فى أواخر شهر يوليو عام ١٨٩٥ حتى توافد عليه الكثيرون من رجال السياسة وأرباب الصحف يسألونه رأيه فى المسئلة المصرية ويستفسرون منه عن حالة مصر وآمال المصريين . وقد نشرت عنه وقتئذ جريدة « الاكسترابلاط » الشهيرة ــ التى تعتبر في البلاد النمسوية كجريدة « البتي جرنال » فى فرنسا، لانها جريدة الشعب المنتشرة بين جميع طبقاته ــ حديثا كان له أعظم تأثير في العالم السياسي وتناقلته الجرائد العديدة وفي مقدمتها جريدة « ذى ستاندارد » الانكليزية لسان حال اللورد سالسبرى . واليك ترجمة ماجاء فى جريدة « الاكسترابلاط » المذكورة بعددها الصادر بتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٨٩٥

« إن في فينا اليوم ضيفا كريما هو « مصطفي كامل » أحد كتاب مصر الفضلاء. وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه فى وطنه وفى أوربا أخيرا وهو الآن يجوس خلال القارة الاوربية مطالبا باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربقة الاحتلال الانكليزي .

« ويدهي أن الامة التى ينسب لها هذا الكاتب الشرقى قد استحقت

بما استفادته من مدارس المدنية وبما لها من الذكاء الفطري النادر المثال أن تعد فى مصاف الامم المتمدينة فهى بذلك لاترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل فى مصر كل ماتريد .

«ولقد أخلص المصريون فى محبة عرشهم اخلاصا فوق العادة وقدروا حرج مركزه حق قدره وأظهروا أنهم غير راضين بالحالة الحاضرة وبوجود السلطة الانكليزية فوق سلطة أميرهم . وفى كل يوم يزداد بين المصريين إحساس التألم والتأذى من وجود احتلال أجنبي بين ظهرانيهم، ويود المصريون من صميم أفئدتهم لو اهتمت أوربا كثيرا بشأن مصر وشعرت بالخطر الذي يهدد منافع كافة الدول إذا دام الاحتلال فيها .

« ولقد نزل مصطفى كامل فى نزل متروبول وزاره أحد محررى جريدتنا فأخبره الكاتب المصرى بأن أمته تنتظر بصبر نافد خلاصها وتحرير وطنها . ويقول إنه من أوجب الواجبات على النمسا أن تكون في مقدمة الدول التي تهتم بشأن مصر لما لها من المصالح التجارية والسياسية فيها حتى صارت تريستا كأنها مينا تشارك الاسكندرية في الشفقة وتلاصقها فى الجوار .

« وفضلا عن ذلك فان أمير مصر قد تربى فى فيينا على مبادئ المدنية والأنسانية ومصر شاكرة لفييناهذا الجميل .

« ثم قال . وأن أخطار الاحتلال هي واحدة بالنسبة لكل الدول الأوربية إذ ليس الاحتلال الدائم إلا إضافة مصر لأملاك انكلترا وأن حكومة النمسا والمجر التى أمضت المعاهدات المتعلقة بمصر، وضمنت المحافظة عليها، لابد لها أن تقضى على بقاء انكلترا فى بلاد الفراعنة : ولماذا

لاتحرر أوربا مصر وقد حررت بلغاريا وصربيا؟ ألسنا معشر المصريين كالبلغاريين والصربيين في المدنية؟ إن آلافا من شباننا النبهاء الذين تثقفوا بالمعارف والعلوم ينتظرون أشد الانتظار الساعة التى ترد فيها مصر إلى نفسها حيث يستطيعون خدمتها بحرية واستقلال.

«وأن الخطر الذى يهدد أوربا من بقاء الانكليز فى مصر عظيم جداً والخسائر التى تلحقها من جرائه لاتحصر ولا تقدر. فمصر هي مفتاح آسيا ومن ملك قنال السويس ملك مكة وبيت المقدس ويستحيل أن يرضى المسلمون فى جميع أقطار العالم باستيلاء الدولة الانكليزية على مدينتهم المقدسة. إن ذلك اليوم يكون يوم قيام المسلمين فى الارض وهم نحو ثلاثمائة مليون من الانفس، ويوم إعلان حرب دينية تسيل فيها الدماء أكثر مما سالت فى الحروب الصليبية.

«وأن غاية انكلترا من تملك مصر هي الاستيلاء على السودان وإضعاف مصالح أوربا فى أفريقيا وأسيا حتى تقوى مصالحها. ووظيفتها الآن فى مصر إقفال المدارس المصرية لتقليل عدد المتعلمين من الامة واستعمال الميزانية في تكوين جيش من الموظفين الانكليز» اه

ماأثر هذا الحديث حتى تناقلته الجرائد النمسوية الخطيرة وغيرها وطيرته الشركات التلغرافية وقد أخذت الجرائد الاحتلالية فى مصر والانكليزية في انكلترا تشتد فى حملتها على المرحوم مظهرة اندهاشها من حركته المستمرة فى كل ممالك أوربا. ولكن هذا الاستياء ماكان يزيده إلا نشاطاً وعملا لانه يدل بأجلى بيان على أن العمل ناجح ولايستاء منك خصمك إلا إذا تألم من عملك، ولاشيء يؤلم الغاصب مثل نشر مساوئه وإذاعة جناياته علي الحق وأهله.

وقد أرسل إلى رحمه الله من فيينا كتابا قال فيه :

« لقيت في هذه المدينة المزهرة الزاهية كل حفاوة وأني لمدين لمدير جريدة الاكستر ابلاط الذي كافني فى خدمة بلادى بما أجراه أحد محرريه من الحديث معى وما نشره على العالم من الآراء المصرية مستحثا حكومته على التدخل لحل المسئلة المصرية .

« وسأعود إلى باريس غداً لنشر رسالة مهمة فى إخطار الاحتلال الانكليزى وسأبعث بترجمتها إلى جرائدنا الوطنية فاقرأها وأدع لأخيك أن يكون خادماً نافعاً من خدام الوطن الأمناء مصطفى كامل »

٦ أغسطس سنة ١٩٠٨

***

عاد رحمه الله إلى باريس في ٨ أغسطس ونشر كراسة متضمنة اخطار الاحتلال الانكليزى وهى الرسالة التى شرح فيها الاحوال شرحا وافياً وجاء ذكرها فى مكتوبه السالف الذكر إلى مدام جوليت آدم ، وهذا تعريب الرسالة :

أخطار الاحتلال الإنجليزي

« الاحتلال وما وراء الاحتلال »

استهلال .

« ليس غرضي من كتابة هذه الرسالة لفت الانظار إلى مصائب وطني . وإن كان هو الواجب الشريف الذي أؤديه بإخلاص عظيم من صميم قلبي . بل غرضي هنا إظهار الاسباب المادية المشاهدة التي تجعل أولئك السياسيين الذين لم تستفزهم للآن بواعث الشعائر والاحساسات أنصاراً لتحرير مصر لان الموافقة على تقويض أركان هذا البلد بواسطة السلطة الانكليزية لاتعتبر انتهاكا لحرمة حقوق أمة محبة للمدنية جديرة بكل عناية فحسب، بل هي أيضاً إيقاد لنار الحرب في العالم أجمع .

« وما قصدت في كتابة هذه النبذة إلا التكلم في مسائل عامة . أما المسائل الخاصة كفوائد حاملي القراطيس المصرية التي يهددها الاحتلال الانكليزي أعظم تهديد ، ومقام أوربا في الشرق الذي يضعفه الآن وجود الانكليز في مصر ويقضي عليه إذا دام احتلالهم لبلادنا فسنوفيها شرحاً في أبحاث آخر .

« وبعلم القارىء مما أبينه هنا حقيقة ما يعتقده المصريون بالنسبة لحالة بلادهم والآراء التي يشاركني فيها كل أبناء وطني الدالة على أننا عالمون بأن وضع بلادنا الجغرافي يقضي علينا بإكرام كل الاوربيين النازلين عندنا ، ومعتقدون ألا وجود لمصر بغير أوربا ولذلك فاننا بطلبنا جلاء الانكليز عن وادي النيل وبذل مساعينا لتحرير بلادنا لانريد شيئاً آخر غير تحقيق سعادتها وتقدمها ولا نطلب غير السلام في أوربا ، والمحافظة على حقوقها وامتيازاتها التي قررتها المعاهدات الدولية .

« أما مبدؤنا فيكون دائماً « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا » .

« وأننا نتحمل كل مشقة ونضحي بكل مايضحى به في سبيل تتويج أعمالنا بالفلاح ، ونصرة الحق وتحرير مصر .

الموضوع

١ — لما كانت مصر لا تقوم بسداد نصف دينها إذا بيعت فى مزاد عمومى كان من المستغرب عند بعض الناس إهتمام فرنسا وغيرها من الدول الكبرى بأمر تحريرها من النير الانكليزي .

« على أن أولئك المتعجبين الجاهلين بحقيقة المسئلة المصرية لم يلتفتوا إلى أن حاصلات مصر ليست هى الداعي لاشتغال العالم بأمرها ، بل أن وضع وادينا الجغرافى هو السبب الحقيقي لكل ذلك . ومن الجلى الواضح أن الدولة التى تستولى إستيلاء تاما على وادى النيل تصير بذلك ملكة أفريقية . هذه الارض العذراء التى أصبحت مطمحا لانظار كافة الدول التجارية . ولا بد أن يكون من نتائج استيلائها على مصر وضع يدها على الشام وبيت المقدس . ذلك الحرم الذى تعزه الامم بأسرها والذى سبب فى الماضى حروباً امتلات منها البحار والوديان دماء عشرات من السنين فانتجت اضطراباً واختلالا فى أحوال الامم التى كان لها شأن في تلك الحروب .

« وبتملك ثغور السويس والقصير وسواكن تصير الدولة المالكة لمصر سيدة — لاخلاف فى سيادتها — على البحر الاحمر فتهدد مدينة جدة تهديداً مستمراً من حيث كونها ثغراً ليس فيه من القوة الدفاعية ما يحفظه . ويكون من السهل إذ ذاك أخذ الكعبة المقدسة بقذائف المدافع الحديثة الطراز .

« فمن يتدبر هذه النتائج ويضيف إليها أن قنال السويس هو جزء من مصر وأنه طريق الهند والصين واستراليا يعلم داعى اهتمام الدول بأمر مصر واعتبارها المسئلة المصرية مسئلة أساسية دولية ذات أهمية كبيرة .

« وعليه فأن مصر بجوارها لمكة وبيت المقدس وبتملكها قنال السويس صارت مركزاً للعالم كله .

« ومن الاسباب المهمة التى دفعت انكلترا إلى احتلال بلادنا طمعها فى الاستيلاء على السودان رغبة فى الاستئثار بكل تجارة وادى النيل والوصول منه إلى الكاب

« ولما كان النيل أحسن السبل الموصلة إلى أجمل بلاد أفريقية كان من الضرورى بقاؤه حراً . إذ لو فرضنا أن السياسة الانكليزية تقهر قوة السودانيين فان استيلاء الانكليز علي الخرطوم يكون مضراً جداً بتجارة أوربا فى أفريقية

الوسطى وهي الوادي الخصب المأهول بالسكان والذي لايزال مؤصد الكنوز . والذى هو اليوم بسبب ثروته مطمح أنظار الدول.

« فاذا استولت انكلترا على الخرطوم ، كانت ثروة ذلك الوادى الرحب لها وحدها غير تاركة للدول الاخرى إلا مشاهدة آثار تقدمها الاستعماري العظيم !

« وفي الواقع فأن استيلاء فرنسا على الجزائر وتونس لم يضر قط بالتجارة العامة للدول الاخري كما أن المانيا وبلجيكا والبرتغال لم تستول وحدها على تجارة البقاع السوداء لان أملاك هذه البلاد مقطوعة عن الداخل بصحار ومهامه قفرة بخلاف انكلترا فانها إذا استولت على مصر (التى يكون من نتائج الاستيلاء عليها الاستيلاء علي وادي النيل كله » تمد سلطتها من الاسكندرية الى رأس الرجا الصالح وتضع يدها علي كل مصادر الثروة الداخلية الافريقية . فكأن أوربا لم تحارب الامم السوداء الا لفائدة الانكليز الدهاة . وأن فى ذلك اليوم الذى تمد فيه سلطة الانكليز من الاسكندرية إلى رأس عشم الخير يذهب فخار « سيسل رود » بانوار مجد « وارن هاستنج » مستعمر الهند حيث يكون أثر هـذا الفاتح الجديد أعظم قدرا وأكبر فى التاريخ ذكرا من أثر ذلك المستعمر الهندى .

« ولا يقبل العقل أن تغتفر أوربا لرجال سياستها احداث خطر اقتصادى مثل هذا . فان كان انكليزيو أوجنده يتسلمون تجارتهم الواردة عن الخارج من طريق النيل البديع ففرنسا محتاجة لصرف الملايين لتحقيق أمنية السكة الحديدية التى تود إنشاءها فى الصحراء . وعند مايجد انكليز منشستر وبرمنجهام طريق النيجر والكونغوحرة أمامهم لتوصيل تجارتهم إلى سكان أفريقية الغربية ، ويجد انكليز الهند طريق زنجبار، وانكليز أوستراليا طريق زامبيز ليبلغوا بحيرة طانجا نيكا ، يجد الالمانيون وزملاؤهم الفرنسيون والروسيون والنمسويون والايطاليون الآتون من البوسفور وسلانيك وتريستا وبرندزى ومرسيليا عمال الجمرك الانكليز الواقفين فى دمياط والاسكندرية قد أغلقوا فى وجوههم الطريق الوحيد الصالح لهم أعنى به طريق النيل .

« ومن جهة أخرى فان مسئلة تملك البحر الابيض المتوسط اعتبرت دائما مسئلة ذات أهمية عظمى مما حمل كل دولة على أن تبحث لنفسها عن فرجة من شواطئه

لتطل منها عليه حتى تضايقت اسبانيا من وجود الانكليز في جبل طارق وتكدرت فرنسا من احتلالهم لمالطة . ولكن قبرص ومصر خصوصاً زيدان كثيراً من نفوذ الانكليز فى هذا البحر مما يضر كثيراً بالدولة العلية والروسيا . وأن هذه الاخيرة تؤمل أن يرخص لها الباب العالى المرور من الدردنيل حتى يكون لها فى البحر الابيض المتوسط تمام حريتها ولتبلغ بسهولة بلاد الشرق الاقصى فهي من أجل ذلك تكره مراقبة انكلترا لها . والدولة العلية من جهة أخري صارت تخشى كثيراً على طرابلس الغرب التى باتت نقطة الاتصال بينها وبين الممالك الاسلامية فى السودان . وأما الفرنسيون فان فوائدهم على شواطيء الجزائر وروابطهم الدينية مع فلسطين عظيمة جدا . ويؤثر فيهم كثيراً ازدياد نفوذ دولة قوية مبارية لهم فى بحر لها فيه الآن أعظم السلطة .

٢ — إذا وجهنا الآن أنظارنا إلى آسيا رأينا مصر على طريقين هما أهم طرق العالم . طريق البحر الموصل من أوربا إلى الشرق الاقصى ، وطريق البر الذى يربط الخرطوم بالاستانة والخليج العجمي عند ماتتصل يافا بالاسماعيلية بواسطة سكة حديدية (١)

« فتملك انكلترا لمصر يكون إذاً عبارة عن تملكها حرية التصرف كما يشاء هواها فى علائق الدول السياسية والتجارية والمعنوية . وأى حكومة ترى ذلك ولا تضع حداً للاحتلال ؟ . أى حكومة ترضي اهمال أمر عظيم كهذا وتستطيع أن تتحمل تبعته ؟

« إن تملك دولة بحرية قوية قنال السويس فى وسط الطريق الدولى البحرى الكبير فى بلد عظيمة الثروة مثل مصر يهدد مباشرة أملاك فرنسا والمانيا وهولاندة وإسبانيا . . .

« ويكفي حين ذاك أن هذه الدول تتظاهر بالعداء لانكلترا بسبب أي خلاف لتضيع الملايين التى صرفتها والضحايا التى ضحت بها فى سبيل الاستعمار هباء منثورا . وتبيت مستعمراتها ككندا والهند فريسة لانكلترا السعيدة الطالع الماهرة ! فاي ساسة في أوربا يرون هذا الخطر العظيم دون أن يهتموا به ويتحملوا تبعة نتائجه ؟

---

(١) لقد تحقق كل ذلك

« أما قنال السويس فلها فى أعين المسلمين أهمية عظمى لان استيلاء انجلترا عليها يحول البحر الاحمر إلى بحيرة انكليزية ! فيكون من الممكن وقتئذ تعطيل أداء فريضة الحج وسد طريقه إذا دعت الحاجة لحشد الجنود الانكليزية فى بريم وسواكن والقصير والسويس كما يسدونه الآن فى وجوه السودانيين.

« وأن الانسان ليستولى عليه الحزن عند مايفكر في نتيجة هذا الامر وينظر إلى هذا البحر العثماني الذى يصير إذا ملكت انكلترا مصر ميدانا لسفن جلالة الملكة وهواليوم ملتقى للبوسنيين والمراكشيين والروسيين والجراكسة والجزائريين والتونسيين والصينيين والهنود والعرب والجاويين والزنجباريين وبقية الامم الاسلامية ، فليس إذاً استيلاء الانكليز على مصر شيئاً آخر سوى استعباد انكلترا لامم الاسلام كلها ! ! !

« ذلك كله غير الخطر الذى يهدد « جده » و « مكة » متى رسخت قدم الانكليز فى الخليج العربي !

« فان تملك جدة بعد تملك « بريم » يجعل بلاد العرب الجنوبية وخصوصاً بلاد اليمن فى حالة تشبه حالة البلاد التى بعد سواكن متى احتلها الانكليز .

« والناس كافة يفهمون ماذا يكون مآل الدولة العلية فى اليوم الذي تخرج فيه جدة من دائرة سلطتها . فان هذا الامر الذى يظهر مستحيل الحصول مادام البحر الاحمر معتبرا بحيرة عثمانية يصبح حقيقة جلية عقب وقوع أى خلاف بين الاتراك والانكليز. وقليل من السفن الانكليزية يكفى يومئذ للاستيلاء على ميناء جدة التى لاتحرز القوة الدفاعية الكافية. وعندئذ يعلم فلاسفة السياسة الشرقية ورجال الفنون العسكرية الذين عكفوا على عدم الخروج من ديارهم أن الكعبة التي كانت من عهد « ابراهيم عليه السلام » أبى الانبياء والرسل المبارك في مأمن أصبحت على خطر !

« ومن البدهى أنه لو كانت انكلترا صديقة للدولة العلية ومن الدول الراغبة فى المحافظة على استقلال أراضيها لما أمكن تصور وقوع حادثة كهذه . ولكن رجال السياسة الانكليزية ظهروا فى هذا العدد الاخير بمظهر العدو الالد للدولة العلية فهددوها تهديداً عظيماً ولا يبعد أن يقوم بين الدولتين خصام عنيف كالو

أعلنت انكلترا حمايتها علي وادى النيل وعندئذ لايمنع الانكليز مانع من تحصين ثغور البحر الاحمر. وعند أول فرصة تسير سفينة من سواكن أو القصير أومن أى شاطىء من الشواطىء المصرية إلى « جدة » . والفرصة لمثل ذلك سهلة فتكون إذا قتل أحد المساطين فى جدة مثلا كما تكون لوقام من الرعاع من يدعى الخلافة . لان انكلترا بما تدعيه لنفسها عندئذ من حقوق الجوار تتدخل لتوطيد الامن العام والسلام في الحجاز .

«ومن ذلك كله يري أنه من المستحيل رضا الدولة العلية باحتلال شواطىء البحر الاحمر المصرية . والافماذا يكون شأن العالم الاسلامي إذا ضاعت منه مكة وقد قام دفعة واحدة فازعج الامم طرا لماضاع منه بيت المقدس ؟ ولاجرم أن ضياع « مكة» يدمى مقلة المسلم ويؤلمه آلاماً شديدة فكيف والمعمور مسكون بثلاثمائة مليون من المسلمين . لابد أن يحسب لهم حساب ؟

٣ — إن أول نتيجة من نتائج اتصال السكك الحديدية المصرية بسكك الشام هي وضع هذه البلاد تحت سلطة الانكليز متى استولوا على مصر . إذ ليس يخاف على أحد أنه من زمن الفراعنة الاول والخلفاء الراشدين الي الآن يري من يستولى على مصر مستولياً على الشام لاسباب سياسية وحربية لاحاجة لذكرها هنا . فأما أن يكون حاكم الشام حاكما على مصر كما هى الحالة الحاضرة، وإما ان يستولى حاكم مصر إذا أحس من نفسه القوة على الشام كما حصل ذلك لحكام مصر في أدوار عديدة وأن تجريدة (بونابرت و (محمد على) وقت استحكام الشقاق بينه وبين الباب العالى لمن أقرب الادلة على صدق هذه القضية التاريخية . ومن المستحيل أن تكون انكلترا المضروبة بطمعها الامثال أقل حبا للفتوح من بونابرت ! وحينئذ تكون النتيجة من وراء ذلك الطموح سقوط بيت المقدس في يد السلطة البروتستانتية !وهي نتيجة لانعرف كيف يقابلها الكاثوليكيون والارثوذكسيون فى العالم أجمع . ولايخفي أن سبب حرب القريم بين دولتين من شأنهما الاتحاد كفرنسا والروسيا كان هوالشقاق القائم بين الكاثوليك والارثوذكس فى فلسطين . فماذا يكون الامر عند مارفع انكلترا البروتستانتية رايتها على « أورشليم »؟

«وعلي فرض ان البابا والقيصر يقبلان هذا الامر فماذايقول المسلمون الذين

على ماكان بينهم من التفرق والشقاق دافعوا عن هـذا الحرم الشريف في وقت الحروب الصليبية وقاوموا النصرانية المتحدة ؟

«وعاذا تجيب عندئذ الامم الاسلامية الحكومة العثمانية التي بسكوتها وخضوعها امام مطالب جيش (ولـلى) جعلت وقوع هذه الحادثة السيئة بالنسبة لـكل الامم من الممكنات ؟

« على أن في استيلاء الانـكليز على (أورشليم) أمراً آخر هو من الاهمية بمكان . ألا وهو فصل الحجاز عن الدولة العلية . فتصير الدولة بعدئذ كاحدي الامارات التي لاتتجاوز أهميتها أهمية بلغاريا الحالة . وأن خطر هذا الامر يظهر للفكر من أول وهلة . فليست ثروة الشرق الاقصى وكنوز أفريقية شيئاً يذكر بالنسبة لجوار أورشليم .

« وأن الطريق بين يافا والاسماعيلية الذي يوصل بسكة حديدية من الخرطوم إلى الاستانة ومن شمال إفريقية إلى الخليج العجمى وآسيا الصغرى يكون بطبعه ذا فائدة جليلة لانـكلترا مما يحملها على توجيه مطامعها نحو الشام ووجود الدروز والارمن فى فلسطين مع ماهو معلوم من ميلهم للدولة الانـكليزية . وكثير منهم آلات لها مما يسهل بعد ذلك تملكها لفلسطين . وفضلا عن ذلك فان التجانس بين السوريين والحجازيين والمصريين يدعوهم عند تفرقهم إلى الاجتماع تحت حكم حكومة واحدة . . .

« ولقد أثبتت الحروب الصليبية أعظم إثبات أن أورشليم لا يمكن أن تملكها دولة غير الدولة الاسلامية إذ بها وحدها يوجد التوازن فيها بين كل المذاهب وكافة الديانات التي تتنازع وطن أنبياء بني اسرائيل وهيكل سليمان . وبقاؤها لدى الدولة الاسلامية خير كفيل لذلك التوازن الذي نراه الآن . وأن ضياع أورشليم من يد الدولة العلية الذى هو فى الحقيقة ضياع هـذه الدولة نفسها يكون مصيبة عظمى على المدنية ونذير حروب هائلة بين كل الامم المعتنقة لديانات مختلفة حيث لا تستطيع واحدة منها دون الاخرى تملك ذلك الحرم المقدس والمحافظة عليه .

« ومن نتائج سقوط الخلافة الاسلامية فتح باب وراثة القسطنطينية وهو الباب الذى إذا فتح اندفع تيار القلاقل والاضطرابات والارتباكات منه حيث يصبح العالم

ولا وسيط بين الامم الاسلامية والامم المسيحية .

« ولقد احتاج العثمانيون إلى زمن طويل حتى استطاعوا أن ينخرطوا فى سلك الامم الاوربية مع المحافظة على ما لهم من السلطة والنفوذ المعنوى على الامم الاسلامية .

« لذلك كان الفكر يضطرب أشد الاضطراب كلما تخيل النتائج الهائلة التى ينتجها ضياع الدولة العثمانية، إذ ليس ضياعها إلا الرجوع إلى حالة الهمجية حيث تفقد المعاهدات معناها وتصبح بغير عمل يوم تخرج الخلافة الاسلامية من الدائرة الاوربية .

« ومن كل ما ذكرنا يتضح جليا أن احتلال انكلترا لمصر خطر عظيم على العالم بأسره وأن السياسيين الذين يعملون لاجلاء الجنود الانكليزية عن وادى النيل لا يؤدون فقط الواجب الذى يفرضه عليهم عدل أوربا وشرفها، بل يعملون أيضا للسلام العام ولاتحاد النصرانية مع الاسلام . وبالجملة يعملون لنصرة المدنية الغربية والسلام .

مصطفى كامل »

***

وأننا لا نعلق على هذه الرسالة بكلمة من عندنا وانما نعقب عليها بما نشرته الكاتبة الطائرة الصيت فى عالم السياسة وهى مدام جوليت آدم فقد كتبت إذ ذاك فى جريدة « البتي مرسيليه » الفرنسية الشهيرة مقالة من أبلغ وأصدق ما كتبته الاقلام وهى أحسن ما يقال تقريراً للحقيقة وقد نشرتها الجريدة المذكورة فى عددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥ وهذا تعريبها :

« إن هذا العنوان « أخطار الاحتلال الانكليزى » علم على نبذة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثنتى عشرة صفحة كتبها مصري « وطني » يحب بلاده حباً شديداً وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الاجنبى وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهباً لهم أو تنير ما أشكل عليهم .

« والعنوان الثانى لهذه النشرة الصغيرة الحجم الكبيرة الاهمية هو « نتائج الاحتلال الانكليزى لمصر » وهو لا يلم بموضوع إلا وفاه حقه وزيادة لان اظهار حقائق كبيرة مثل التى أظهرها كاتب هذه الرسالة لم يأت أبدا فى عبارة مختصرة وألفاظ قليلة مثل ما أتى فيها .

« وإني قرأت منذ واقعة التل الكبير ما كتب عن مصر فى انكلترا وفرنسا ومصر نفسها فلم أر قط المسئلة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الاستنتاج ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولا مبسوطة بتعقل وتدبر مثل ما بسطت فى هذه الرسالة التى نحن فى صددها .

« وقد بين لنا كاتبها « مصطفى كامل » في مقدمتها الصغيرة التى لا تزيد على صفحة واحدة ان ترك مصر تحت يد السلطة الانكليزية يدك معالمها ويهدم بنيانها وليس هذا يعد انتهاكا لحرمة كل حق وجناية على مقام الامم تجنيها أوربا على أمة محبة للمدنية جديرة بالرعاية فقط بل هو أيضاً إيقاد لنار حرب هائلة لانهاية لها ويكون شبوبها فى العالم أجمع كما أثبته لنا الكاتب وهو يقول إن المصريين يعلمون أن وضع بلادهم الجغرافى يقضى عليهم بألا يعادوا الاوربيين النازلين عندهم وأنهم يفهمون جيداً أن مصر لا كيان لها بغير المدنية الاوربية ولذا كان مبدأ المصريين « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » .

« وأنه أي (مصطفى كامل) يعلم جيدا أن الدفاع عن مصر ضد الانكليز ليس لثروتها بل لمركزها الجغرافي الذى يهم العالم أجمع أمره فأن الدولة التى تحكم وادى النيل تصير الموزعة لكنوز أفريقية على غيرها حيث تستطيع أن تحتكر تجارتها لنفسها ضد مصلحة أية أمة أخري .

« وأن مياه النيل القوية الخصبة الجارية في أغنى البقاع الافريقية متى صار النيل إنكليزيا عظمت المملكة الافريقية الانكليزية شيئاً فشيئاً ووقفت الامم الاخرى موقف التأخر تشاهد تقدم انكلترا التي تصبح يومئذ مفترسة للتقدم الاستعمارى العظيم .

« ومتى تملكت انكلترا النيل تملكت كل الاراضى التى يمر منها أو تجاوره . وإذا أصبح قنال السويس فى قبضة بريطانيا العظمى فهل يتصور أن طريق الهند والصين وأستراليا يبقى حراً؟ كلا ثم كلا!

« وأن أعين الانكليز ترمق الآن الشام ومكة وبيت المقدس وتحدق بها . وأنه ينبغى لكل إنسان أن يقرأ ما بين سطور الكتابات التى تنشرها جرائد لوندره عن الشام وأرمنية وجده ليتحقق من مطامع الانكليز فى الشرق . وهاهي السرعة

الغربية التي أظهرتها المراكب الانكليزية في الذهاب إلي جدة لنصرة جرحى حادثتها الاخيرة تبين لنا مقدار قلق الانكليز ومقدار طموح ميولها إلى أخذ جدة.

« وكل يعلم ماذا يكون أمر الدولة العلية إذا لم تكن جدة تابعة لها بل تابعة لمصر الانكليزية .

«ومن البدهي أن أخذ جدة سهل لمن يستولى على مصر وإحداث اضطراب فيها أمر بعد ابن الصناعة الانجليزية. والذين نالوا الانتصار في واقعة التل الكبيرهم أول أساتذة العالم في معرفة وسائل تحريك الاحساسات الدينية أو الاهلية التي يأخذونها حجة لازالة آثارها وأضرارها .

« وأن من يرمي إلى جدة يرمى إلى مكة ولكن هل الثلاثمائة مليون من المسلمين يرضون بأن تنزع مفاتيح الكعبة الشريفة من يد الخلافة ويصبح الحجر الاسود تحت رحمة الحماية الانكليزية ؟

« ومتى صار الانكليز سادة مصر صاروا ثاني يوم سادة بيت المقدس! وكم سبب الطموح إلى الاماكن المقدسة من حروب لانهاية لها . أليس المسلمون وحدهم هم القادرون اليوم على حفظ التوازن بين الديانات والمذاهب فاذا ملكت انكلترا البروتستانتية بيت المقدس اتحدنا جميعا بالطبع من كاثوليكيين وارثوذكسيين مع المسلمين لمطالبتها به .

« وأما من حيث الوجهة السياسية والاقتصادية أفلم يكن جبل طارق ومالطة وقبرص ومصر عبارة عن البحر الابيض المتوسط المحتكر. أوليس وضع انكلترا يدها على أبواب السويس والقصير وسواكن جعل البحر الاحمر بحيرة انكليزية ؟

« بل لننظر الآن إلى آسيا كما يقول لنا ذلك الشاب المصري، نشاهد مصر على أهم طريق العالم كله، طريق البحر الذي يوصل من أوربا إلى الشرق الاقصى، وطريق البر الذى عند ماتتصل يافا بالاسماعيلية يوصل ما بين الخرطوم والاستانة والخليج العجمى، ومتى استولى الانكليز على مصر أضر الاستيلاء بمصالح كل الامم التجارية والسياسية والادبية.

« فأى حكومة أوربية تستطيع حمل تبعة تعريض بلادها الى مثل هذا الخطر؟.. يتصور العقل أن فرنسا والمانيا وهولاندة وإسبانيا تستطيع عدم الاهتمام بمستعمراتها

وترك طريق السويس البحرى الدولى لانكلترا وحدها؟ أتقبل الامم الاوربية أن ترى يوما ما انكلترا ناشرة لواء سيادتها على ما بين الاسكندرية ورأس الرجاء الصالح؟

« هل من الممكن ان ترى فى وقت ما انكليز أو غنده لايقابلون على النيل الا الانكليز سادة مصر ؟

« أمن الجائز ان الروسيين والالمانيين والفرنسيين والايطاليين والنمسويين الآتين من البحر الابيض المتوسط يجدون عمال الجمارك من الانكليز على ثغور دمياط والاسكندرية فيصدونهم عن السياحة علي ضفاف النيل ؟ هل ذلك ممكن الوقوع . . ؟

« ألا إن وجود الانكليز فى مصر يخلق مشاكل كثيرة ويضر بمصالح تجارية عديدة ويناقض مصالح الدول ويهدد حرية العقائد الدينية بين اسلامية وكاثوليكية وارثوذكسية ويهيج المصريين ضد المحتلين . وكل هذا مما يدل على أن بقاء الاحتلال فى مصر مستحيل . . . . جوليت آدم »

***

وقد كثرت الاعمال على المترجم كثرة كانت تستغرق كل وقته . لان الصحف أكثرت من محادثته وكانت تستعين به على بعض ماتريد التأكد من صحته من الاحاديث عن الاسلام والشرق عامة ولاسيما مصر على الاخص . حتى أن جريدة (الاكلير) الفرنسية الشهيرة أوفدت إليه أحد كبار محرريها لمحادثته على أثر ماطيره البرق من إلغاء الارسالية المصرية إلي فرنسا وقد نشرت هذا الحديث في عددها الصادر بتاريخ يوم الاثنين ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ وهذا نصه :

«ورد علينا فى الاسبوع الماضى تلغراف من الاسكندرية يفيد أن نظارة المعارف فى مصر قررت إلغاء الارسالية المصرية فى فرنسا . ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى (مصطفى كامل) وهو الكاتب الخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس . لان آراءه فى مثل هذه المسئلة لاترد ولا تحج .

فلما ذهبنا اليه وسألناه رأيه أجاب بما يأتي :

« أراني سعيداً جداً لان أجيبكم عن سؤالكم فى هذه المسئلة التى تهم بلدينا كثيرا . فان الارسالية المصرية في فرنسا هى إحدي النظامات الكثيرة الفوائد لمدنية وادى النيل وسعادته . فقد أسسها «محمد على» رأس عائلتنا الحاكمة وصديق فرنسا العظيم بقصد تعليم الشبيبة المصرية وتهذيبهاوذريعة إلى إدخال أصول المدنية الغربية فى مصر . وكانت عبارة عن بعث عدد عظيم من الشبان المصريين بين وقت وآخر إلى فرنسا .

« وقد تخرج من هذه البعثات أكثر من ألف عامل نشروا في مصر أنوار العلوم والمعارف والفنون والصنائع. فكانوا بذلك عمالا حقيقيين للمدنية . وليس بالمستطاع أن آتي لكم بأسماء كل المشهورين الذين نبغوا من تلك الارساليات ووصلوا بلادنا إلى حد من المدنية صارت معه تعد فى مصاف الامم المتمدينة . ولكن لاأراني مخطئا إذا قلت إن أسماء «علي مبارك باشا » و « على ابراهيم باشا » و «محمود الفلكى باشا » و « رفاعه بك » معروفة عندكم بأنها اسماء علماء كبراء فى مصر وكلهم كانوا من أعضاء هذه الارسالية الزهراء التى هدم أركانها اليوم المحتلون.

« ولقد وجد الانكليز أمامهم عند مادخلوا مصر أمة مستنيرة منتشرة بين جميع طبقاتها مبادىء المدنية الغربية فلم يكن لهم بد من إبادة النفوذ الفرنسى توصلا إلي استعبادها ، ذلك النفوذ الذى أنال مصر شبيبة مستنيرة عارفة بما لها وما عليها ، شبيبة لاتقبل أبداً ترك الغير يسلبها بلادها .

« وبناء على ذلك وضع المحتلون أيديهم على وزارة المعارف العمومية وعينوا أساتذة من الانكليز فى أكثر المدارس الاميرية . بل وأعظم من ذلك أنهم وضعوا على وكالة المعارف أرمنيا اسمه (أرتين) استعملوه آلة لهم، والفضل له فى نشر اللغة الانكليزية فى كل الارجاء .

« ومع أن الانكليز يدعون فى أوربا أنهم لايعملون عملا ما فى سبيل تقدم لغتهم وانتشارها نراهم فى مصر على العكس من ذلك واصلين آناء الليل بأطراف النهار عاملين لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة الفرنسية وإليك البرهان :

« قال اللورد روزبرى فى يوم من العام الماضى فى مجمع عام: «إن الانكليز في مصر لايحمون أحداً فى تعلم اللغة الانكليزية ، بل أن المصريين هم الذين يتسابقون من تلقاء

أنفسهم إلى تعلمها». ولكن اتفق أنه فى اليوم التالى ليوم مقاله هذا توفى ناظر المدرسة التجهيزية وكان مصريا فلما علم اللورد روزبري بذلك أمر الوكالة البريطانية فى مصر أن تطلب من الحكومة المصرية تعيين إنكليزى مكانه فعارضت فى تعيينه ولكنها لم تفلح فى معارضتها وتم بعد ذلك تعيين الانكليزي ناظراً لتلك المدرسة. وهذا يدلكم على أن جيرانكم الانكليز لا يتركون فرصة تمر دون استعمالها في تقويض أركان نفوذكم العلمي الذى يعود علينا بالفائدة والذى غايته شريفة .

« ولقد قلت لك فى أول كلامي إن الانكليز استخدموا فى المعارف كآلة لهم أرمنياً شهيراً في مصر بجهالته وكفرانه بالنعمة، فبعد أن جعل هذا الارمني نصف العشرة التلاميذ الذين صارت إليهم كمية البعثة المصرية من الارمن، مواطنيه المنخرطين فى سلك الجمعيات الثورية الارمنية، ألغى اليوم مرة واحدة البعثة المصرية حتي لا تعود فرنسا الكريمة تهب مصر شبانا جريمتهم الوحيدة فى أعين الانكليز أنهم مهذبون متعلمون، وعلي الاخص وطنيون ثابتون فى الوطنية .

« ولسنا نأسف فقط علي فقدان هذه البعوث العلمية بل نبكيها ونؤمل من صميم قلوبنا فى هذه الساعة المحزنة أن يتحقق تحرير مصر عاجلا لنبعث مرة أخرى الحياة العلمية بعد موتها .

« ولا تحسبن الغاء الارسالية آخر ما يأتيه الانكليز من سياسة العداء المتبعة ضد فرنسا من سنة ١٨٨٢ . بل اعتقد أن العراقيل والصعوبات تقام دائماً فى وجه من يتعلمون فى بلادكم . فلقد أراد أخيراً طالبان من الذين أتموا دروسهم فى مدرسة دار العلوم الحضور إلى فرنسا ليكملا فيها معلوماتهما، فقال لهما وكيل المعارف (أرتين) بلهجة صريحة: إنهما يفقدان مستقبلهما إذا توجها إلى فرنسا مستندا فى قوله إلى أن الانكليز يعتبرون كل من تعلم فى فرنسا ألد عدو للاحتلال .

« وأن الامثلة على تصدي الانكليز فى مصر للنفوذ الفرنسى ولمحبى فرنسا لا كثر من أن تحصر الآن . ويكفيني أن أضرب لك علي ذلك مثلا واحداً . وهو أنه لما صعد مسيو فيلكس فور إلى منصب رئاسة الجمهورية بعث له طلبة الارسالية المصرية في باريس رسالة تهنئة نظراً لما هو مشهور عنه من أنه من أحباء مصر العظام . فتكرم مسيو فيلكس فور عندئذ بدعوتهم إلى زيارته فى الاليزيه فذهبوا

واستقبلهم استقبالا وديا لاينسونه أبدا حيث صرح لهم جنابه بأن لهم فى الاليزيه محبا يمكنهم الاعتماد عليه . فأجاب الانكليز عن هـذه المظاهرة برفت مدرس اللغـة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس (١) معللين ذلك بأنه كان إمام المصريين في زورتهم لمسيو فيلكس فور . ولولا أن مسيو كوكوردان وزير فرنسا فى مصر تدخل في الامر لما ألغى أمر فصله الذى صدر مرتين .

« وها قد أشيع أخيراً أنهم سيفصلونه مرة ثالثة تنفيذاً لفكرة عقابه على كونه ذهب لرؤية مسيو فيلكس فور ! »

« هذا هو الجواب الذى أجاب به الوطنى المصرى (مصطفى كامل) على ذلك السؤال . ولقد كان من الضرورى كشف النقاب عن مثل هذه الاشياء وإظهارها علناً لان فرنسا فى حاجة إلي معرفة أصدقائها من غيرهم . » اه

« ما نشر هذا الحديث حتى تناقلته أغلب الجرائد الفرنسية الخطيرة وحملت على أعمال الانكليز فى مصر حملة أحدثت دوياً هائلا فى كل انحاء أوربا . وقد عضدت الصحافة الفرنسية صحفا كثيرة أوربية وفى مقدمتها الصحافة الروسية . وقد قالت جريدة الطان في هذا الصدد وهي لسان حال وزارة الخارجية الفرنسية ما تعريبه .

« إن الحكومة المصرية أو بعبارة أخري الاحتلال الانكليزى . بالغائها الارسالية المصرية برهنت من جديد على سوء طويتها نحو المصريين أولا ونحو بلادنا ثانيا لانها حرمتهم جنى ثمرات العلم العصرى من بلد كفرنسا يعد أستاذ الاساتذة فى غرسه وطريقة تلقينه .

« إن الاحتلال الانكليزى يريد بعمله هذا أن يحارب العلم باسم ترقية الامم ويرجع بتلك الامة القديمة ذات التاريخ المجيد إلى القرون الوسطى .

« إن إسماعيل باشا الخديوى الاسبق لمصر قال: — وله الحق أن يقول — إن مصر قطعة من أوربا » وقد اعتمد فى قوله هذا علي العلم الذى نقله إليها بواسطتنا حيث نجد كبار الوطنيين الذين هم الآن من كبار الرؤوس المصرية وأصحاب المراكز العالية أبناءنا فى العلم .

« أفلا تخجل حكومة جلالة الملكة من أن يمثلها وكلاؤها فى مصر هذا التمثيل المعيب ! ! » اه

---

(١) الاستاذ محمود بك أبو النصر

مضت الايام ولم يرد الي من المرحوم حتى اليوم الثاني من شهر أكتوبر خطاب ، وقد كنت منتظرا منه الرد على كتاب أرسلته اليه وأبنت له فيه الاضطهاد الذى ألقاه كل يوم، وخصوصا بعد قيامه بهذه الاعمال السياسية وبعد ان علم الضباط الانكليز انى شقيق خصمهم الالد. ولهذه المناسبة أثبت هنا نص ما كنت أرسلته اليه شاكيا جتى عليه أبنى ما يأتي من المناسبات وهو بعد التحية والتسليم:

«وقفت على كل شيء تفضلت بارساله الي ولكن هل وقفت أنت على ما أنا فيه من العذاب الاليم ! إنك طبعا لا تعرف حالى فاليك شرحه:

«شعرت بتغيير فى المعاملة من رؤسائى على أثر وصول البكباشى جدج من مصر حيث كنا يوما فى مناورة تولى هو فيها قيادة أورطة وتولى القائمقام هيجت بك قيادة اللواء وقد كنت أعمل معه كأركان الحرب .

«وبعد أن انتهينا من المناورة جاء إلي البكباشى المذكور (وهو الذي عاشرني ثلاث سنوات ويعرف اسمي كما يعرف اسمه) وقال لى بصوت منكر « لم لا تنضم إلى الاورطة يا مصطفى افندى » . فقلت له إني ياور اللواء ويجب أن أرافقه إلى البيت وراجعته فى صحة اسمى واندهشت في نفسى من نسيانه أياه وقد كان يذكره قبل عريضة مجلس النواب (أي قبل سفره إلى مصر) عشر مرات فى اليوم الواحد.

«وقد كرر يا أخى هذا الضابط مناداتى باسمك مما ألزمنى أن أشكوه لقومندان الاورطة الذى طيب خاطرى .

«وقد أدرك الامر ضابط عظيم مصري من إخواننا وهو حضرة البكباشى إبراهيم أفندي صبري (اللواء إبراهيم صبري باشا فيما بعد وقد كان مديرا لمديرية اسيوط) . . . . وقال لي إن السبب فى الضغط علي وتسميتي « مصطفى » لم يكن إلا تألما من عمل أخيك ضد الاحتلال في أوربا . ولذلك أرجو منك أن تجيبنى عما عرضته عليك من زمن، ألا وهو أمر استقالتى من هذه الخدمة الثقيلة، لان البعد عن مخالطة هؤلاء الغلاظ القلوب غنيمة ....

سواكن فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٩٥»

وقد تسلمت فى ٣ أكتوبر خطابا منه ورد فيه :

«حوى كتابك سرا كبيرا فقد علمت مما أظهرته من الالم ورغبتك في ترك الجيش أن أعمالى مثمرة وأن الانكليز الذين يتباهون على كل الامم بالحرية العالية والعدل النادر وعدم التظاهر بالتألم من أعمال الخصم أصبحوا كالاطفال أمام أعمالنا فلم يتمالكوا أنفسهم من أبداء ألمهم فى كل مكان . ولو اطلعت على جرائدهم لعرفت مبلغ تغيظهم وحنقهم على المصريين عامة وعلي خاصة .

« ولما كنت يا أخي فى مركز حرج بل خطر على مستقبلك وقد سئمت نفسك الخدمة في الجيش فأنا أول من يشير عليك بتركها حالا . .

باريس فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل »

***

ماقرأت هذا الكتاب حتى فرحت كثيرا ووددت تقديم طلب الاستعفاء حالا لولا انه كان قبيل مساء يوم الخميس، فانتظرت حتى يوم السبت ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٥ وقدمت استقالتى بيدى لجناب القائمقام هيجت بك قومندان الاورطة الاولى وقتئذ، وهو إيرلندى، وهذه صورة الاستقالة بالحرف الواحد :

« جناب قومندان برنجى أورطة پيادة

أتشرف بتقديم هذا لجنابكم مستقيلا من خدمة الجيش الذى كنت ولا أزال أعمل فيه بكل حواسى حبا فى حسن القيام بواجب الخدمة . لأن الظروف العائلية الخاصة هي التى دفعتني إلى ذلك ولجنابكم كل احترام

على فهمي »

سواكن فى يوم السبت ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٥ ملازم أول

«وما قدمت لجنابه هذا الطلب وترجمه له المترجم حتى غضب ودعاني إليه وسألني أن أسترد هذا الاستعفاء لان الوقت وقت ضرب نار والاورطة فى حاجة الي (إذ أنى كنت ملاحظ ضرب نار المحطة) واستعان علي بكبار ضباط الاورطة الوطنيين فقبلت استرداده (وكأن الله أراد أن يعاقبنى على هـذا الاسترداد ليعلمني ويعلم كل مصري التمسك بالارادة والتوكل عند العزم وعدم التردد فى الامر) وبقيت أعمل فى الاورطة حتى صدر إلي الامر بغتة بالسفر إلى مصر وقد وصلت اليها فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥ .

وقد أخبرت المرحوم بكل ماجرى بخصوص الاستعفاء

***

استنشاط المترجم حمية فى دفاعه الوطني فى كل بلد . ومن المجلات الشهيرة التى استقبلت عمله بصدر رحب المجلة الحديثة (لانوفل ريفو) التى هى من أشهر المجلات وهى مجلة «مدام جوليت آدم » . وقد قدم لها أولى مقالاته لتنشرها فأعجبت بها وعرضت عليه ان تنقده أجرا على مايكتبه كما هى العادة فى أوربا فأبى وشكر لها عطفها وأظهر لها أنها تدين الامة المصرية بأسرها بخدمتها مصر ونشرها آلامها واشتراكها في كلمة دفاع عن أمة جديرة بكل حنو وعطف .

***

بعد ذلك وردت علي المرحوم كتب كثيرة من أغلب جرائد باريس تطلب منه المحادثة فى المسئلتين المصرية والارمنية وقد جرى بينه وبين جريدتين منها هما جريدة الجولوا وجريدة الجورنال حديثان.

أما حديث جريدة الجولوا فهاك تعريبه:

«زرنا مصطفى كامل المصرى فى شارع الاونيفرسيتى وقد تحادثنا معه فى المسئلة المصرية موجهين اليه هذه الاسئلة :

(١) هل فى قدرة مصر إذا رحل عنها الاحتلال أن تدير شؤونها بنفسها كما يديرها الاجانب الآن؟

(٢) وما هي الضمانة التى تقدمها مصر للدائنين محافظة على ديونهم إذا انجلى الانكليز عنها؟ ،

(٣) وما هي وسائل الاصلاح التي يريد المصريون سلوكها إذا سلمت اليهم مقاليد الامور ؟ . .

« فأجابنا ثلاثة أجوبة لا نرى معها الا الاعتراف بكفاءة المصريين واستعدادهم العلمي وادراكهم مركزهم وتمسكهم بحقوقهم فقد قال « مصطفي كامل » بصوت خالص ولغة صحيحة وسرعة مدهشة :

« إنك سألتني أولا عن أمر أدهشني كثيراً لانك تعرف كما أعرف انه يكفي لاستقامة الاعمال فى أى بلد أن يكون مديرو دفته مخلصين لها حاملين لرؤوس استقت العلم من موارده الصحيحة . وهذا هو الحال فى مصر فان ماغرسته فرنسا من بذور العلم فى بلادنا سواء بواسطة أساتذتها الذين توظفوا فى مدارسنا أو بواسطة مدارسها التي علمت بعوثنا السنوية العديدة – قد أخرج رجالا يعدون الآن بالآلاف وفيهم القانونى والمهندس والحكيم والصيدلى فضلا عن الكثيرين من ضباط اركان الحرب الذين تعلموا تعلما كبيراً عالياً سواء فى أوربا أو فى مصر نفسها

« وأني أؤكد لك أن الاحتلال وغلطاته علمتنا كيف نصلح ما أفسده الدهر علينا . ويكفي أن تقرأ تاريخ دي فوجاني وغيره ممن كتبوا على مصر الحديثة لتعرف كيف أن فى مصر جيوشاً من الرؤوس العامرة والقلوب الوطنية الحكيمة المخلصة وتحكم معى بأن مصر قادرة في كل وقت على أن تحكم نفسها بنفسها .

« وأننا ياجناب المحرر إذا كنا نستغيث بأوربا لتجبر انكلترا على تحقيق وعودها وعهودها فما ذلك إلا لاننا نخاف كثيراً أن ينقرض مع هذا الاحتلال الجيل الذي تعلم تعلماً صحيحاً فى مدارسكم أو على أيدي معلميكم ولا نجد من يقوم مقامهم من الذين يتعلمون اليوم تعلما انكليزيا .

« وأني أؤكد لك مرة أخرى أن الانكليز فى مصر ليسوا إلا هادمين لبنيانكم الادبي ، مدمرين كل حصن علمي ، مطفئين كل نور يستعين به المصريون على كشف مساوئهم .

« أما السؤال الثاني وهو الضمانة التى تقدمها مصر للدائنين إذا رحل الانكليز عن ديارنا فهي أكبر من الضمانة التى يقدمها الانكليز اليوم ، لانهم ألغوا المراقبة الثنائية ليتمكنوا من التصرف كيفما شاءت أهواءهم ومآربهم فى أموال البلاد .

« أما نحن فنقبل كل مراقبة دولية على الجزء الذى يخص ديون مصر من ميزانية البلاد ويكفى فى ذلك وضع الثقة بأعضاء صندوق الدين الذين يمثلون الدائنين أحسن تمثيل .

« وأما طرق الاصلاح التى نقوم بها متى سلمت إلينا الاحوال فهي لا تخرج عن طرق الاصلاح فى أية مملكة راقية فننشر العلم بأسهل الطرق ونوفد البعثات إلى أوربا ونعزز الصناعة والتجارة بما نشد به أزر الزراعة . وكذلك نضع حدا لفوضى القوانين التى أصبحت خليطا من نظريات عقيمة لا تصلح لاحقر أمة فى الوجود ... إلي غير ذلك من الاصلاحات التى تكون رسل خير بين العباد ومن البواعث على خدمة الانسانية »

هذا ما أجابنا به « مصطفى كامل » وقد سألناه رأيه فى المسألة الارمنية فقال :

« ان العالم كله متفق على أن الافضل لكل قطعة من الارض أن تكون مملكة قوية في ذاتها عوضا عن تجزئتها إلي جملة ممالك ضئيلة ضعيفة . كذلك الحال فى الدولة العلية فانها دولة قوية بشهادة العدو والصديق ولكن يد السياسة الدولية التى لايستريح لهـا بال إلا بمشاغبة دولتنا المنصورة تغش بعض سكانها من المسيحيين وتدفعهم إلي مناوأة حكومتهم وسلطانهم باسم الاستقلال الموهوم فينشأ عن ذلك إراقة الدماء وخطف الارواح .

« وهذه اليد هي يد انكليزية قامت لتشغل أوربا عن مسئلة مصر فحركت تلك الجماعة التى ظلمت من حيث طمعت فى ملك كبير وسلطان عظيم .

« ولا أشك فى أن العالم كله سيقف علي حقيقة السياسة الانكليزية التى لايخرج تاريخها فى كل أطواره عن الدسائس ونصب الاشراك لكل الدول على السواء . كيف لا وهى السياسة التى تجد الشرف في كل حيلة تصل بها إلى نيل بغيتها ولو احمر وجه البسيطة من دماء البشر لتملك بيتا واحداً !

« وأنه يدهشنا كثيرا موافقة الدول لانكلترا فى كل عمل تريد القيام به ضد الدولة العلية . وهن لايفطن لمثيرى هذه الحركة وهم معتمدو انكلترا وقناصلها فى الخارج أولئك الذين يثيرون الخواطر بكل الوسائل ثم يحتالون على معتمدى وقناصل الدول الاخرى فيزينون لهم الباطل حقا والحق باطلا وهؤلاء يبعثون بتقاريرهم

السريعة التى لو تليت على جماد لذاب من هول الافصاح بابشع عبارة ضد الدولة العلية . والدول لاتتوانى اذاً فى ارسال أساطيلها عقب نذرها المتكررة .

« فاذا أرادت أوربا أن تستريح من هذه المتاعب فلتعرف كل دولة مركزها إزاء الاخرى ولتتخذ التاريخ عبرة وتحترم شعور ثلاثمائة مليون من الانفس فلا تتعدى بلاحق على دولة لاذنب لها إلا انها اسلامية وعرضة لدسائس انكلترا » . . اه

وأما الحديث الثاني الذي جرى بين المرحوم وبين جريدة الجورنال فقد كان مقصوراً على المسئلة الارمنية وهو لايخرج عن فحوى حديث الجولوا .

***

« كان المترجم قد عزم أن يسافر إلى الاستانة العلية فى سنة ١٨٩٥ ولكن الازمة الوزارية الفرنسية حالت دون ذلك فرأى من الصواب بقاءه فى أوربا مدافعا عن مسئلة مصر ومسئلة الدولة العلية إزاء الحادثة الارمنية .

« ولما قرأ الخطاب الذى ألقاه اللورد سالسبري الوزير الاول للحكومة البريطانية فى جلد هول وحمل فيه بأشد لهجة علي جلالة الخليفة الاعظم مما هاج الدوائر السياسية العالية وجميع المسلمين الذين قرؤوه أو وقفوا على فحواه ، أرسل رحمه الله مكتوبا لذلك اللورد كتابا باللغة الفرنسية وهذا هو تعريبه :

« باريس فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥

« جناب اللورد

« يستميحكم الاذن مسلم معجب بالمدنية الاوربية كي يعرب لمقامكم السامي عما كان لخطبتكم الاخيرة من سوء الوقع لدى المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها . فلقد رأوا فيها برهانا جديداً على ماتضمره انكلترا للاسلام وللخلافة من العداوة والخصومة .

« نعم قد سبق لجنابكم أن قلتم إن تدخل الدول الاوربية فى المسئلة الارمنية لم يكن الغرض منه تخصيص دين دون آخر بالحماية والذود . ولو كان صدور هذا القول من فرنسا لصدقنا به لأن أعمال الحكومة

الانكليزية ومساعيها لاتزال إلى الآن غير موافقة له ولا منطبقة عليه وقد تعلم جماهير العالم أن انكلترا هى التى لاتزال توالى الأرمن بالتشجيع والتحريض على متابعة المنهج الذى سلكوه بإرشادها وأنها مافتئت ترسل إليهم الذخائر والأسلحة وتحضهم على الاسترسال فى العصيان والتمرد بواسطة الكتابات المهيجة وبغيرها من الوسائط كالوعد بإرسال أسطول ضخم لمساعدتهم ومواصلة بطريقهم فى الاستانة العلية بخطابات تتضمن مايشابه هذه الوعود .

« ولا يخفى على جناب اللورد أن المسلمين قد توصلوا بالتجربة إلى الوقوف على عادة اعتادها رجال السياسة البريطانيون ألا وهى إخفاء بعض النيات فى طي مايلقونه من الكلام بحيث إذا ماحان وقت التنفيذ جاءت نتيجة الأعمال مناقضة على خط مستقيم لما سبقها من مقدمة التصريحات وفاتحة المجاهرات . ومن هذا القبيل تلك الألفاظ الفخمة والعبارات المنمقة التي تعنون بها تمسك الدولة الانكليزية بعدم التحيز للاغراض. أفلستم تريدون بها بناء على ذلك القياس الذى هو الحقيقة بنفسها التحيز والغرض ؟. أليست هذه الألفاظ من قبيل تلك التى أودعتموها منى الوعد بالجلاء عن القطر المصرى ! ! !

« صرحتم فى خطابكم بأن تجزئة بلاد الدولة وتفريقها على الدول الاوربية أمر فى أقصى مراتب الخطورة والجسامة وأنه يمكن أن يلقى « بما يوجد فى القارة الاوربية من قوة وتمدن فى مهواة الخصومة والعداوة التى ليست إلا مصيبة دهماء وبلية عظمى » . وأن هذا التصريح ليطمئن خاطرنا ويودع المسرة قلوبنا . ولكن لو تتبعنا أعمال الدولة البريطانية لوجدناها

ترمى إلي غاية واحدة ألا وهى إنزال جلالة الخليفة الاعظم عن عرشه السامى كما يتضح للمتمعن فى خلال خطبتكم حيث يجدها بمجموعها حملة قاسية على جلالته .

«أيخطر على بالكم يا جناب اللورد أن المسلمين فى أنحاء المعمور ينظرون بعين الرضا والسكون إلى سقوط جلالته من سامى مقامه أولا يلتفتون إليه كأنه حادث بسيط ! كلا . ثم كلا . فان إسقاط الخليفة بيد أجنبية يسقط المصائب على المصائب ويزيد فى البلايا والنكبات . إذ قد تكون عاقبته فى العالم كله وخيمة على السلام الذي تتمنون بقاءه فى موئل حصين وحرز مكين . ويكون مسلمو الهند يومئذ — وهم الذين تحسبونهم أصدق رعايا الدولة البريطانية ولاء — أول المنادين بالثورة الجانحين الى الاضطراب والانتقاض على السيطرة البريطانية دفاعا عن ملاذ الخلافة الذي يبثون الدعوات بحفظه فى كل جمعة من كل أسبوع .

« الغالب أن جنابكم لا تنظرون فى نتيجة تأثير سقوط الخليفة على المسلمين . ألا إنه لا يقل عن التأثير الذى يلم بالنصاري الكاثوليكيين إذا تمكنت انكلترا البروتستانتية من إنزال قداسة البابا عن عرشه الروحاني .

« قد أظهر جلالة الخليفه الاعظم موافقته لمشروع الاصلاحات الذي قدمته الدول الاوربيه أفليس من الواجب على انكلترا بعد ذلك أن تقلع عن تحريض الاشقياء وحث المهيجين ؟ أتلومون جلالته لكونه قد رغب عن مقاضاة بطريق الأرمن الذى ضبطت عنده أوراق وخطابات من أشهر سياسي إنكلترا ؟

«ماذا تقولون إذا قابل جلالته صنيعكم معه بإيجاد الصعوبات والمشاكل لكم فى البلدان الخاضعة لاحكامكم ؟

«إن فى سلوك الدولة البريطانية هذا المسلك خطرا كبيرا عليها وعلى التمدن الاوربى. وكلما رأينا الانكليز جارين على خطتهم الحالية نسائل أنفسنا عن الغرض الذى يسعون إليه هل هو القاء بذور الشقاق بين الناس وبث الحقد والضغينة فى صدورهم؟ وهل المهمة التى عهد إلى انكلترا القيام بها هي حفر بئر عميقة بين المسلمين والنصاري على حين أن الدول الاخري المتمدينة تعمل على ضم القلوب المتنافرة تحت راية الاخاء ؟ وإذا كانت أوربا بأسرها تحترم العقائد وتجل الديانات بمقدار واحد أفيليق بانكلترا أن تتعمد جرح عواطف ثلاثمائة مليون من المسلمين ؟

« بالرغم من جميع الأخطار المحدقة الآن بالمسلمين كن واثقا ياجناب اللورد أنهم لاينفكون عن ملازمة السكينة والصبر. وإذا كانوا فقدوا مجموع ثقتهم بانكلترا فلم يضيعوا ذرة من حسن اعتمادهم على أوربا التى ينتظرون منها بكمال السكون والخشوع حكمها العادل الذي يثقون منذ الآن بانه لايناقض مصالح الخلافة والاسلام فى شيء.

« هذا وأرجوكم ياجناب اللورد أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامى

مصطفى كامل »

ما نشر هذا الكتاب حتى طيرته شركات البرق إلى أنحاء المعمور وعلقت عليه الجرائد الكبرى تعليقا كبيرا . فالجرائد الفرنسية كالاكلير والديبا والفيغارو والطان وغيرها ذكرت المترجم بالشهامة ونهاية الادب في مخاطبته الوزير الاول الانكليزي .

وقد نشر المسيو ارنست جوديه كتابا فى جريدة الاكلير قال فيه :

« إن الكتاب المفتوح الذى وجهه مصطفى كامل المصرى إلى اللورد سالسبري

رداعلى خطابه الاخير بجلدهول ليس الا مثالا صالحا يفقه منه كل أوربى قوة الشعور عند المسلمين وارتباطهم بخلافتهم ومبلغ تأدبهم فى المخاطبة وقوة حجتهم وإدراكهم دسائس إنكلترا على المسلمين خاصة والعالم عامة . . . . . وأنه أصبح من الواجب على الذين كانوا يتهكمون على المسلمين ويسخرون منهم أن يقفوا قليلا أمام هذا الكتاب الذى هو الاول فى بابه وأن المسلم ليشعر من نفسه على الدوام بقوة لاتخاف دولا ولا ترهب باطلا ولا تحيد شعرة عن الحق وأنه لو قال بعضهم إن مصطفى كامل تعلم فى فرنسا فصار مثلنا ادراكا وعلما وهو مالا يصح أن نقيس عليه جميع المسلمين لكان جوابنا ان العلم العصرى منتشر بين الكثيرين من المسلمين وان الشعور الدينى لا يعرف فلسفة ولا علماء بل ويلازم الجهلاء اكثر من العلماء .

« فعلى قادة السياسة الاوربية ان يدركوا هذه الحقائق ولا يطوحوا بالمسيحيين القليلين الذين يعيشون بين المسلمين العديدين إلى التهلكة فان التاريخ لم ينسنا الحروب الصليبية وهو لها . . . » اه

وقالت جريدة الاكترا جبلاط النمسوية ما تعريبه :

« ليس فى شدة لهجة الانكليز أمام المسئلة الارمنية إلا سر واحد هو لفت أوربا إلى شىء جديد لتنسى به شيئا قديما وليس هذا القديم إلا المسئلة المصرية تلك المسئلة التي كان يجب أن تكون موضوع البحث مع مسئلة الشرق الاقصى .

« إن العالم كله يشك فى نيات انكلترا التى أجرت تجاربها السياسية فى الافئدة الفارغة والمدارك الضعيفة . فهى ترسل جوادها الذهبي ليلعب دوره الثعلبى أمام تلك القلوب والمدارك فيسحرها ثم يسخرها كيفما شاءت أهواء مالكة زمامه الحكومة البريطانية .

« عرف قراؤنا مصطفى كامل المصرى ومقدار كراهة الحكومة الانكليزية له لانه يدافع عن أقدس واجب وهو تحرير بلاده . فقد كتب كتابا للورد سالسبرى ناقشه فيه مناقشة الشيخ الساكن الحكيم لذى البطش والجبروت وشرح بأوضح عبارة العلاقة التى تربط المسلمين عموماً بجلالة خليفتهم باعتباره رئيسهم الدينى، بأن ثائرتهم لاتلبث أن تنفجر كالبراكين إذا مس هذا الممثل لكلمة التوحيد عندهم بسوء .

« إنه لاشك فى أن ساسة أوربا وعلى الاخص حكومة بلادنا التى لها فى بلاد

الدولة العلية بأوربا من المصالح ما ليس لدولة أخرى مثله سيهتمون بهذا الكتاب النفيس ويقدرون شعور المصريين قدره فلا يهملون عملا يغضب ثلاثمائة مليون مسلم ليرضوا خمسمائة ألف أرمني . . اه

« وكذلك نشرت الجرائد الالمانية والروسية نص الخطاب وعلقت عليه نفس التعليق .

ووردت على المترجم الرسائل تترى من كل حدب وصوب فكان يرد عليه فى اليوم عشرات من الكتب من أفاضل يخطبون وده ويطلبون التعرف إليه لان جريدة الاكلير نشرت مع الكتاب عنوانه فكان أكرم الله مثواه وأحسن اليه يتولى بنفسه الجواب عن كل كتاب بما يناسب المقام . وقد كتب فى إحدى مذكراته إذ ذاك ما يأتي :

« لم يمطرنى البريد مطرا غزيرا من الرسائل كما أمطرنى عقب نشر الكتاب الذى بعثت به إلى اللورد سالسبرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ وكلها تدور حول محور توجيه الثناء إلى شخصى الضعيف مع أنى أرى عملى بسيطا وواجبا على كل مسلم لان جلالة مولانا أمير المؤمنين رأس الدولة العلية، والدولة العلية رأس الدول الاسلامية، وليس هذا الميراث الكبير إلا ملجأ للمسلمين فمن البلاهة والحمق أن نسمع ولا تتحرك شفاتنا التى تتصل بقلوب تشعر وتتألم »

❊ ❊ ❊

« نشر رحمه الله بعد أن علقت الصحف العالية بما علقت على كتابه إلى اللورد سالسبرى رسالة قيمة عنوانها « تحالف يتحتم » وسنثبتها بمشيئة الله فى مكان رسائله من هذه السيرة. ثم أعقب الرسالة بخطابة ألقاها باللغة الفرنسية على جمهور فرنسى كبير بباريس في قاعة الجمعية الجغرافية في ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ .

❊ ❊ ❊

« علم القراء الكرام مما تقدم أنى كنت سألت المترجم رأيه في استعمالى من

خدمة الجيش بعد أن تجرعت ماتجرعت من غصص الاضطهاد عقب مجاهدته في خدمة وطنه وإذاعة مقاصد الاحتلال السيئة فى كل مكان. فأجابني باستحسان تلك النية وأشار علي بوجوب تقديم الاستقالة حالا .

« فأذعنت لهذه المشيئة التي صادفت من نفسى هوى مكينا، وقدمت الاستقالة منشرح الصدر قرير العين، وكنت إذ ذاك ملاحظ ضرب نار الاورطة. ولكن رئيسى وهو قومندان الاورطة التى كنت ملحقاً بها ألح علي فى الرجاء أن أرجع عن الاستقالة وأستردها ففعلت .

« وما مضى شهر نوفمبر حتى كادت روحى تبلغ التراق لشدة ماوقع على من الضغط، ولما كان يتفنن فيه البكباشي جدج من صنوف الاضطهاد الثقيل على النفس. وأدت الحال إلى مناقشة بيني وبينه فى ميدان ضرب النار انتهت باحالتى على الاستيداع فوصلت إلى مصر يوم الخميس ٥ دسمبر سنة ١٨٩٥ وأنا فرح مستبشر وقد صحت عزيمتي على تقديم استقالتى بعد عودة المرحوم لأني استأنفت دراسة الحقوق بالمدرسة الفرنسية بالقاهرة.

ولما وصلت إلى مصر طيرت نبأ وصولى إلى المترجم فورد علي منه الرد تلغرافيا بالارتياح والسرور.

وقد أخذت منذ ذلك الوقت أرتقب بدقة كل ماينشره دفاعا عن الوطن وايقاظا لعاطفة الوطنية في الصدور . وكان أول ما قرأت له فى ذلك الحين ـ أي بعد عودتى إلى العاصمة ـ مقاله فى (لانوفيل ريفو) وخطابه إلى اللورد سالسبرى ثم خطبته فى باريس .

وقد تسلمت منه فى يوم السبت ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطابا قال فيه :

« سررت جدا من وجودك فى مصر .هذا الوجود الذى سيكون أكبر مساعد لك على دراسة الحقوق والخلاص مما أنت فيه لتكون إلى جانبى نعمل قلبا وقالبا لخدمة وطننا العزيز فأحمد الله على ذلك كل الحمد .

« قد كان لخطابى الاخير فى باريس أكبر وقع فى الدوائر السياسية الأوربية . ولا شك أنه سيؤثر في مصر تأثيرا كبيرا سواء فى الوطنيين

أو فى الأعداء الألداء . وقد تعرفت هنا إلى الكثير من كبار رجال الحكومة الفرنسية الذين أؤمل أن يؤدوا أكبر الخدم لمصر والمصريين .

«سأبرح بمشيئة الله تعالى باريس فى يوم الجمعة ١٠ يناير المقبل فأكون عندكم فى يوم الاربعاء ١٥ منه وسأرسل اليك تلغرافا عند مبارحتى مرسيليا لتنتظرنى فى الاسكندرية .

باريس فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل »

***

وما قرأت هذا الخطاب حتى سررت سروراً كبيرا لقرب قدوم أعز عزيز لدي وأجبته فى الحال بما أعلم عن مبلغ تأثير الخطبة التى القاها فى باريس والتى نشر المؤيد تعريبها الذى كان قد أرسله المرحوم اليه في نفس اليوم الذي بعث إلى فيه هذا الخطاب :

***

وقبل أن يبرح مرسليا كتب إلى مدام جوليت آدم مكتوبا هذا تعريبه (١)

« سيدتي المديرة المبجلة

« قبل أن أبرح هـذه الأرض العزيزة أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الثناء على المساعدة النفيسة جدا ، تلك المساعدة التى أوليتنى إياها . لأنه واجب واجب الأداء أن أشكر بكل إخلاص ميلك العظيم إلى وطني التعس الحزين وإلى شخصي المتواضع . ولا شيء يؤلمنى أكثر من فقري فى الكلمات . ولولا ذلك لكنت أصف لشخصك المبجل مقدار التأثير الذي وقع فى نفسى من حسن لقائك إياي وما أحرزته

---

(١) نشر هذا الخطاب في الرسائل المصرية الفرنسية

من هذا اللقاء . وعلى الجملة فأنك أعلم بشعوري نحو شخصك الوطني الكريم .

«أبرح فرنسا بعد ساعة حاملا تذكارا متين الدعائم . وأملي أن أعود إليها بعد أن أتمم عملي في مصر . وأني أعتمد على الله وعليك أيتها السيدة الوطنية في خدمة بلادي في أوربا .

«وأرجو منك أن تتكرمي بقبول أجل إكبار وأعظم اعتبار من المعترف لك بالجميل . . . مصطفى كامل»

(وإنا نقدم صورة هذا المكتوب بخط المترجم تذكارا يحفظه مقتنو سيرته . . . وهي :

longueur, je termine ma lettre en vous faisant mes derniers et plus respectueux adieux.

Je quitte dans une heure la France, emportant avec moi un souvenir des plus durables. J'espère y revenir après avoir réussi à accomplir ma mission en Egypte, et je compte toujours sur la grande et illustre Patriote.

En terminant, je vous prie, Madame et bien aimée Directrice de vouloir bien agréer l'expression de ma grande estime et de mon profond respect

Votre bien reconnaissant
et très dévoué
Moustafa Kamel.

Marseille, le 9-1-1896

Madame et bien Aimée Directrice,

Avant de quitter cette chère terre de France, je tiens à vous exprimer de tout cœur ma profonde gratitude pour le concours si précieux que vous avez bien voulu me prêter. C'est un doux devoir à accomplir, que de vous remercier très sincèrement de cette grande sympathie que vous avez pour mon pauvre et bien triste pays et pour mon humble personne. Je ne regrette que d'être très pauvre en mots pour vous décrire combien je suis profondément touché de votre accueil, et combien je vous suis complètement acquis. Vous savez bien du reste quels sont mes sentiments à votre égard et

جاء أول شهر يناير سنة ١٨٩٦ وكنت قد قصدت إلى وزارة الحربية لاتناول مرتبى وهناك لقيت كاتم اسرار الجيش المصري وهو ضابط انجليزى فتبادلنا السلام ودار بيننا هذا الحديث —

قال : كم سن أخيك ؟

قلت: واحد وعشرون عاما

ثم قلت ماداعية هذا السؤال ؟ ؟

قال : ربما عرفت «داعية هذا السؤال» ! ! هل تعلم كيف كان تأثير أكاذيبه السياسية فى خطبته الباريسية فى نفوسنا نحن قواد الجيش المصري ؟ ؟

فاجبته عن هذا السؤال بابتسام يشعر بالاستخفاف وهو فى اعتقادى أحسن جواب على مثل ذلك السؤال .

ثم مضى فى حديثه فقال:

لو عرفت مقدار تأثير تلك الاكاذيب لعذرتنا . لانه ماجاء الى مصر كما تعرف ويعرف كل ضابط مصرى قائد عام اتصف بالشدة فى مواطن الشدة واللين فى مواطن اللين في معاملة الضباط المصريين والمساواة بينهم وبين الضباط الانكليز مع استقامة الاحوال والمحافظة على الاموال : مثل قائدنا الحالى كتشنر باشا . فكيف يقول أخوك الذي لم يعرف من الدنيا غير الكلام المؤثر ماقاله في تلك الخطبة التي كلها اكاذيب في اكاذيب على وزارة الحربية ؟ ؟

سمعت هذا السؤال ولم أتعجب من القائه على . ثم أردت أن أجيبه عنه بما يناسب المقام وفهم هو ذلك فقال :

قد دهش كل الضباط العظام من انكليز ومصريين عندما علموا أنه أخوك فهل أنت الذي زودته بهذه الاكاذيب ؟؟

سمعت هذا السؤال أيضا فاضفت الي الاستخفاف به الاعراض عنه . ولم أجبه بكلمة بل تركته يمضى فى حديثه لاعرف النهاية فقال :

إن أخاك يسيء كثيرا إلى مواطنيه بأعماله هذه ولن يبلغ من الاحتلال شيئا . بل ربما أمتد إليك وإلى غيرك الاذى بسببه فقلت له :

إني لا أزال فى الجيش ضابطا لا علاقة لي بالسياسة فأرجو منك أن تأذن لى بالانصراف لأؤدى ما جئت لاجله .

وهنا تبسم ابتسامة ذات عدة معان. ثم سلمت وسلم وانصرف كلانا وفى قلبه مضض هو يريد أن أصعق وأنا أريد أن يطهر جو مصر من نفسه وأنفاس أمثاله ليعود الى سابق نقائه وصفائه ! !

فكرت كثيرا بعد أن تركت جنابه فى مركزى بالجيش وتألم القوم من أعمال أخى ونظرت فى حظي الذي حتم علي أن استرد استقالتى التى كنت قدقدمتها إلي قومندان الاورطة وأنا بسوا كن وقلت فى نفسى لابد من الاستعفاء حالا . ولكنى أجلت الامر إلى حين وصول المترجم لاهتدي بهديه وأقتدى برأيه.

وما جاء يوم الاثنين ١٣ يناير حتي سافرت إلى الاسكندرية لاستقباله فوصلت الباخرة في الساعة السادسة صباح اليوم التالى وما وقع نظر كل منا على الآخر حتي التهبت نفسانا من شدة الوجد وفرط السرور فتعانقنا وحيا كل منا أخاه تحية اللقاء بعد غياب ثمانية أشهر قد قضاها فى خدمة مصر العزيزة ثم ركبنا إلى المحطة وقد وصلنا إلى مصر قرب الظهر . فكانت غاصة بالجماهير الذين جاؤوا ليحيوا خطيبهم المفوه ومحاميهم الباسل . فدهش رحمه الله من هذا الشعور والتفت الي قائلا: « ألم أقل لك ان الشعور الوطني كامن في نفوس مواطنينا الاعزاء ويكفى لاظهاره ان يقوم منا رجال يجاهرون بالدفاع عن حقنا المسلوب » ؟؟

ثم سلم رحمه الله بيده علي كل قادم لنقائه . وركبنا العربة إلى المنزل وبعد الاستراحة وفد عليه الكثيرون من الاصدقاء وفى مقدمتهم أعضاء الحزب الوطنى الذين أظهروا له عظيم ارتياحهم من جهاده الذي شرف به كل مصرى وأملوا جميعا النجاة القريبة من هذا الاحتلال .

خطاب غلادستون

كان المرحوم وهو في باريس قد أرسل إلى المستر غلادستون (أحد وزراء انجلترا الاول وزعيم حزب الاحرار) كتابا سياسيا بعد أن طالت الازمة الارمنية واشتد هياج الشعب الانكليزى على الدولة العلية بتأثير أقوال مستر غلادستون نفسه، وهذا تعريب الكتاب :

« باريس فى ٢ يناير سنة ١٨٩٦

« أيها السيد المبجل .

« إسمحوا لأحد أبناء وادى النيل . لوطنى لا أمنية له إلا تحرير بلاده أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسئلة مصر .

« فلقد كنتم منذ احتلت انكلترا وطننا أشد نصراء الجلاء وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود فان عملا كهذا يمس شرفها أشد المساس .

« وأننا سجلنا كل تصريحاتكم وحفظنا مجاهراتكم . ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عند ما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها بالكلية فأننا لا نزال نظن اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سالف الزمن، أي أنه ليس لمسئلة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء .

« ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم فى هذا الوقت الذي اضطربت فيه أحوال المسئلة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا .

« فأن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد ؟

« وفضلا عن ذاك فأن تصريحا منكم فى شأن مسئلة مصر يكون له أعظم قيمة فى هذه الأيام التى يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الاسلام .

« وأنى مع انتظارى الجواب على كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي مصطفى كامل »

« فبعث إليه جناب المستر غلادستون كتابا باللغة الانكليزية جواباً على خطابه السابق هذه ترجمته :

« سيدي العزيز .

« إني أستحسن مافهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصريا . ولكنني مجرد بالمرة من كل سلطة .

« أما آرائي فإنها لم تتغير قط . وهي دائما أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها .

« وأن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين !!!

« ولما كنت في منصبي أخيراً أملت مساعدة الحكومات الاخرى توصلا إلى تسوية هذه المسئلة المهمة . والسلوك الذي اتبعه مسيو وادنجتون في عام ١٨٩٢ شجع أملي غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك — ولست أدري لأي سبب ،

« ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ولم يبق عندي شيء أضيفه عليها . وقد كنت مستعدا لعمل كل حسن في سبيل إعطاء آرائي تأثيرها إلا أنني تركت المنصب بالمرة ولست الآن الا أحد أبناء بلادي الخصوصيين . وإني أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق .

« بيارتز في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ — و . غلادستون »

وأنا نثبت هنا الاصل الانكليزي بخط المستر غلادستون نفسه كأثر تاريخي وشهادة منه نسجلها على الانكليز كما سجلنا غيرها ، وهو هذا .

Dear Sir I sympathise with what I
understand to be your feelings as an
Egyptian but I am wholly devoid
of power. My opinions have always
been the same; that we ought to quit Egypt
after having fulfilled the work for which
we went there with honour and benefit
to that country; So far the moment had
been arrived some years ago. When
I was last in office I hoped for the aid
of other governments in arranging
this important matter and steps taken
in 1892 by Mr Waddington encouraged
this hope. But no step was taken in
correspondence with our expectations,
for what reason I know not. My expla-
nation was made in Parliament in
1893 and I have nothing to add but that
I was ready to do my best towards giving it
effect but that I have been entirely divested
of the power being now simply a private
citizen of my country. I have the honour to be
yours obediently & faithfully
W E Gladstone
Biarritz Jan 14. 1896

ما انتشر كتاب المستر غلادستون حتى تناقلته كافة الشركات التلغرافية واهتمت به كل الدوائر السياسية فى مصر وفى غيرها وعلقت عليه الصحافة الاوربية التعليقات المهمة . فمن ذلك ماشره المسيو الفونس همبير أحد كتاب فرنسا السياسيين وأحد نواب مدينة باريس فى مجلس النواب الفرنسىء فى ٣ فبراير بجريدة الاكلير الباريسية وهذا تعريبه :

« تبودلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر غلادستون . ومصطفى كامل هو شاب مصرى مغرم أشد الغرام بتحرير بلاده وقد أقام فى باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادي النيل . وهو قد كتب أخيرا إلى «الشيخ الكبير » - أعنى غلادستون — كتابا يذكره فيه بأنه كان في سالف الزمن نصيرا عليا للجلاء عن مصر ويسأله فيه عما إذا كان باقيا على آرائه القديمة أو انها تغيرت فأجابه المستر غلادستون بكتاب كله أدب ولطف . جاهر فيه بأن آراءه لم تتغير . وأنه يعتقد دائما ماقاله فى الماضى من أن (شرف انكلترا ملتصق باحترام عهودها نحو مصر) . وأضاف إلى ذلك قوله : « إن وقت الجلاء على ما أعلم قد حان منذ أعوام » ولقد كان الناس يعلمون كافة أن المستر غلادستون عند ما كان يعمل ضد وزارة المحافظين أعلن بغيرة زائدة فى مجتمعات عديدة حاجة انكلترا إلى ترك أرض الفراعنة . ولكن كان يظن انه متى استولى غلادستون على منصة الاحكام يرى الاشياء بغير العين التى كان يراها بها من قبل اتباعا لخطة أسلافه وعملا بمذهب (بيلبوكيه) الذي يعتبر ان كل ما يكون تملكه حسنا فمن الحسن المحافظة عليه . ولكن يظهر انه لم يكن على شىء من ذلك . وان المستر غلادستون - ولو انه لم يسر أحدا بما فى نفسه - بقى مدة وزارته الاخيرة من أنصار الجلاء الصادقين ! ولكن لماذا لم ينتهز الفرصة اذاً لاجلاء الجنود الانكليزية عن مصر ؟ إن مراسل مصطفى كامل — يعنى به المستر غلادستون — يجيب عن هذا الموضوع الحرج بقوله: «إني لما كنت في الوزارة أملت مساعدة الحكومات الاخرى » إلى آخر ماقال ....

«والمستر غلادستون إما ان يكون ساخرا من العالم كله وإما أن يكون مراده أنه كان مستعدا فى عام ١٨٩٢ لان يأمر بالجلاء عن مصر لو ساعدت فرنسا على تحقيق رغائبه الكريمة . ومن المستحيل عليه أن يفهمنا ذلك . ولكن ربما يريد أن يقول

إن فرنسا لم تستعجله عندئذ كما كان يجب. وأي حاجة كانت له فى أن تستعجله فرنسا ؟

« إنه من الغريب العجيب أن رجلا سياسياً يعتقد أن عملا موافقا كل الموافقة لشرف بلاده ولمصالحها ثم لا يأتي به بحجة أن حكومة أجنبية لم ترجه الاتيان به ! . .

« فأن هذا العذر لا يمكن قبوله . وخلاصة القول إن تصريحات المستر غلادستون من الغرابة بمكان . والنقطة الوحيدة التي هي جلية صريحة فى كتابه : أن الرجل العظيم ككثير من رجال السياسة : له سياسة عند ما تكون الاحكام بيد غيره وسياسة أخرى عند ماتكون بيده ! !

ا . همبير »

« جريدة الديبا

ونشرت جريدة الديبا الباريسية في ٣ فبراير الجملة الآتية :

« أرسل المستر غلادستون كتابا إلى مصطفى كامل في شأن مصر . ومصطفى كامل هذا هو شاب مصري ذكي محب لبلاده راغب أشد الرغبة فى جلاء الانكليز عنها .

« وقد أقام بضعة أشهر فى باريس وكتب في أول يناير إلى المستر غلادستون يسأله عما إذا كان لايزال نصيرا للجلاء وفى أي وقت يمكن في نظره تحققه ؟ ؟

« وفى كتاب مصطفى كامل هذا فقرة تستحق بصفة خصوصية جوابا صريحاً وإن لم تكن الهمت مراسله العالى الشأن — يعني المستر غلادستون — جواباً عنها وهى : « ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم فأننا لانزال نظن أن اعتقادكم اليوم كاعتقادكم في سالف الزمن وهو أنه لا يوجد لمسئلة مصر إلا حل واحد ، وهو الجلاء »

« وفى الواقع أن هذا الرأى هو رأي المستر غلادستون كما يظهر من عبارات كتابه المرتبكة .

« ولكن لماذا لم يحقق المستر غلادستون وعود الجلاء عن مصر حينما كانت السلطة فى يده ؟ ؟

« فهل ذلك لانه لم يستطع كما قدر مصطفى كامل علي ماظهر له ؟

« وعلى كل حال فقد علمنا أن تأخره عن تحقيق الجلاء لم يكن ناشئاً عن اعتقاده بأن زمنه لم يحن ، لانه يقول بصريح العبارة « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد حان منذ أعوام »

وإذا كان الامر كذلك ـ ولسنا نحن القائلين بضده فعدم إقدام المستر غلادستون على العمل للجلاء أمر لا تفسير له ولا يمكن أن يفسر أبداً بما قاله هو نفسه!

« وإني لما كنت أخيراً فى المنصب أملت مساعدة الحكومات الاخرى » الى آخر ما قال وأطلع عليه القراء .

«وأن مصطفى كامل لا يعلم أكثر منا لماذا لم يحقق المستر غلادستون رأي الجلاء عن مصر ؟ والمستر غلادستون كذلك لا يعلم لماذا لم تساعده الحكومات الاخرى فى ذلك أو بعبارة أخرى لم تدفعه إليه ؟ !

« إذاً فمن السهل علينا أمام جهالة كهذه أو تجاهل للحقيقة أن نثبته كيف جرت الاشياء لأنها تجري دائماً في مجري واحد سواء كانت الحكومة الانكليزية بيد الاحرار أو بيد المحافظين .

« وهو أنه عند ما تتكلم الدول بشأن الجلاء تجيب انكلترا بكل عظمة وتشامخ أنها الدولة الوحيدة التي من شأنها تحديد وقته وتحقيقه ! !

« وعند ما تسكت الدول عن الكلام انتظاراً لقيام انكلترا به تلقى هذه الدولة تبعة الاحتلال على سكوت الدول الاخري .

« والذي يزيد هذه الخطة غرابة من قبل المستر غلادستون هو أن زمن الجلاء على ما يعلم « قد حان منذ أعوام » فما الذى ينتظره إذاً ٠٠ ؟ ؟

« ألم يكن محققا — فيما إذا كان عرض شرائط يمكن الاتفاق عليها — من أن يساعد المساعدة الصادقة ويعضد العضد القوي من الدول التي تعتبر « كفرنسا والدولة العلية » مسئلة الجلاء عن مصر من القواعد السياسية الاساسية ؟ ؟

« على أن المستر غلادستون قد ابتعد اليوم عن عالم السياسة ويقول بنفسه — واني لا أستطيع فى الامر شيئاً ... أنا لست إلا احد أبناء بلادي الخصوصيين — ولكنه لا يظهر مثل هذا التواضع والخضوع والابتعاد عن الاعمال عند ما يكون الامر متعلقا بالمسئلة الارمنية .

« وعلى كل حال فمن البدهي أن المشتغلين بمسئلة مصر وجلاء الانكليز عنها لا يمكن أن يعتمدوا عليه الآن .

«ولقد أصبح من خصائص حكومة الملكة أن تتساءل : ألم تكن إطالة الاحتلال

بلا داع ثقيلة جدا على السياسة العمومية لانكلترا بل على سياسة دول أخري؟؟

« وهل لم تحرمها من وداد تحتاج إليه بعض الاحايين؟أو لم تجعلها محلا للشكوك والظنون السيئة إذا لم يكن ضررها الحسى والمعنوي أكثر من نفعها ؟ ؟

« ونحن لانشك فى مجيء الوقت الذى تحل فيه المسألة المصرية حلا موافقا لعهود انكلترا ولفائدتها الحقيقية ولحرية مصر تحت سيادة الباب العالى ولمبادىء القانون العام والانصاف » اه

جريدة الفيغارو

وكتب المسيو « دنيس جيلبير » محرر السياسة الخارجية فى جريدة (الفيغارو) الشهيرة بعددها الصادر بتاريخ ٣ فبراير ماتعريبه :

« لقد أصبح المستر غلادستون أحد أبناء بلاده الخصوصيين كما ينادى بذلك وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق اللورد سالسبرى في المفاوضات الجارية دائما فى شأن الجلاء عن مصر. فقد كتب إلى زعيم الاحرار ذلك الشاب المصرى ، مصطفى كامل ، يذكره بآرائه القديمة التى كان مغزاها دائما انه لاحل للمسئلة المصرية إلا بالجلاء . .

« فأجابه المستر غلادستون بكتاب لاشك فى أنه زائد فى الصراحة وإن كان مع صراحته هذه يحتاج إلى تفسيرات وتوضيحات تكميلية!

« يقول الشيخ السياسى الهرم المحنك فى ذلك الكتاب إن زمن الجلاء عن مصر على ماأعلم « قد حان منذ أعوام » فاذا دققنا النظر فى ذلك القول رأينا ان الزمن الذي يشير اليه المستر غلادستون قدحان قبل عام ١٨٩٢ عند ما كان هو القابض على أزمة حكومة بلاده ولكن لم تطابق أعماله معتقداته.

« ذلك مالا يفصح عنه المستر غلادستون وهنا تظهر هذه الظاهرة الغريبة التى تبدو عند كل السياسيين وقتما يتولون الاحكام بعد أن كانوا خارجها، فعند ما يكونون خارجا عن الحكومة يرون كل أمر سهلا ويجدون من أنفسهم استعدادا غريبا لقبول التسهيلات الفائقة لحل كل المسائل ورغبة تامة في الوفاق العام والتقدم السلمي لصالح بلادهم . وعلى هذا المبدأ وعد المستر غلادستون نفسه بمنح ايرلاندا استقلالها الداخلي .ولقد تخلى عن الوزارة قبل أن يتمكن من نيله .

« ولكن عند ماتكون الاحكام في أيديهم يرون الاشياء بأشكال جديدة ! !

« فسواء أكانت الحكومة موكولة إلى الاحرار أم إلى المحافظين لايبصر رجالها أمامهم سوى مصالح انكلترا ولايفكرون إلا فى اتباع التقاليد السياسية القاضية بانتهاك حرمة الحق والذمة والشعائر الانسانية والاغراق في الانانية وحب الذات

« ولهذا عندما يقول المستر غلادستون « انه لايعلم لماذا لم تأت المفاوضات التى جرت فى عام ١٨٩٢ بنتيجة عن الجلاء » نراه يذكرنا بالبغى من الابكار الكاذبات التى مع اعترافها بأنها على وشك أن تضع حملها تقول كما يقول المستر غلادستون إذا سئلت عن سبب هذا الحمل : « إنني لاأعلم من الامر شيئا ! !

« وعندنا أن هذا التشبيه الفلسفى المحض لاينقص شيئا مطلقا من خطورة الحالة التى أوجدها اعتراف المستر غلادستون « بأن زمن الجلاء قد وافى منذ أعوام » لخلفه اللورد سالسبرى .

« فاذا كان وقت الجلاء قد حان من قبل سنة ١٨٩٢ فتحقق الجلاء في سنة ١٨٩٦ يظهر أنه من الامور الطبيعية!

« ونحن ننتظر بشغف زائد أقوال الانكليز فى هذه الحجة الحديثة »

لا بولتيك كولنيال

وكتبت جريدة « السياسة الاستعمارية » الباريسية ما تعريبه:

« بعث مصطفى كامل الشاب المصري المشهور اسمه فى كل بلاد فرنسا كتابا إلى جناب المستر غلادستون يسائله فيه عن رأيه في المسألة المصرية فأجابه زعيم الاحرار والوزير الاول لانكلترا سابقا بكتاب عظيم مهم للغاية.

« ومن تلاوة الكتابين اللذين تبودلا بين المستر غلادستون ومصطفى كامل يرى القراء أن تصريحات المستر غلادستون ربما ضايقت اللورد سالسبرى ولكن يعلم الناس كافة أن الوزير الاول لانكلترا لايتضايق أبداً حتى اذ ذكر بنفس وعوده الصريحة ! !

« والمستر غلادستون الذي استعاض بابتعاده عن السلطة ببعض الصراحة فى القول يعلن اليوم بأنه لم يستطع « خلافا لرغبته » الوفاء بالوعود التى وعدت انكلترا بها أوربا بشأن الجلاء عن مصر وذلك لان الدول لم ترغب فى مساعدته ! ! !

« وأن اللورد سالسبرى لايستطيع الاتيان بعذر كهذا ولكن من الجائز أن دول أوربا التى لايطلب هو منها حل مسئلة مصر تعود اليه وتطلب منه ذلك » اه جريدة البوست

وكتبت جريدة (البوست) الباريسية ماتعريبه :

« إنقطع الكلام عن مصر عندنا مدة أسبوع واحد ولكن نحن الآن مضطرون لاعادة الكلام في شأنها.

« والذي يدعونا إلى إعادة الكلام عن مصر كتاب بعث به المستر غلادستون إلى ذلك الشاب المصرى الوطنى « مصطفي كامل » الذى ذكره بتصريحاته القديمة والذي يزيدنا رغبة فى الاشارة الى هذا الكتاب والعناية بأمره أن جرائد انكليزية علقت عليه تعليقات من شأنها أن تحدث أعظم تأثير.

« والمستر غلادستون يجيب السياسى المصرى — الذى يجب علينا ان نقول إنه يعبر عن أفكاره أحسن تعبير — بكل سذاجة . فهو يقول إنه كان ولايزال نصير الجلاء ولكنه لم يستطع في الامر شيئا لانه صار أحد أبناء بلاده الخصوصيين ! !

« ولكن أليس من الصواب أن المستر غلادستون متفق الآن مع رجال سياسة إنكلترا ؟ ؟ ؟

« على أن كتاب المستر غلادستون لم يقنع ـ علي مانظن ـ مصطفي كامل وإن يكن سرورنا مما فيه الدليل القوى على أن التاريخ يتجدد إلى الابد.

« والذى نراه نحن بمناسبة هذا الكتاب الخطير انه من الصعب جدا بل من المستحيل علي انكلترا أن تقبل من نفسها الجلاء عن مصر فى هذا الحين . ونزيد على ذلك أن اللورد سالسبورى اذا اضطرته الدول الى تحقيق الجلاء فى هذا الوقت الذى تغيرت فيه السياسة الاوربية بسبب حوادث أرمينيا والكاب، كان في ذلك سقوطه وسقوط وزارته إذ لا تثبت قدماه يوما كاملا، بل يسقط محتقرا مرذولا من جميع الانكليز » اه

وجاء فى جريدة (الريبوليك فرنسيز) ماتعريبه :

« طالما تساءل الناس عن سبب امتناع المستر غلادستون حينما كانت الاحكام بيده فى انكلترا عن تحقيق الجلاء عن مصر مع كونه لم يترك فرصة الا جاهر فيها

بأن الجلاء محتوم على انكلترا ومفيد لها .

« وصحيح أنه قد فاه في مراي وستمنستر (مراي البرلمان الانكليزي) باقوال صريحة مهمة متعلقة بمصر . ولكنه من ذلك الحين لم يقل شيئا في المسألة المصرية حتى جاءه شاب مصري وطني وسأله عن رأيه في هذه المسألة الخطيرة . فأجاب المستر غلادستون ذلك الوطني المصري — مصطفى كامل — بكتاب رضى أن يجاهر فيه بسره السياسي .

« فهو يقول إنه ليس هو الذي لم يرغب في الجلاء بل ان الدول لم تساعده على تحقيقه وان الحكومة الفرنسية لم تدأب في سعيها وراء هذا الحل ! !

« وأن مجاهرة المستر غلادستون هذه كانت غير منتظرة وجوابا عليها نقول للذين ينشرون الاحاديث السياسية عن احرار انكلترا التي يجاهر فيها أولئك الاحرار بانهم نصراء الجلاء عن مصر — ان اليوم الذي تجيء فيه ساعة الجلاء لا يكون من الاحرار الا مثل ما فاه به شيخهم الكبير ! يقولون رغبنا في الجلاء ولكن أوربا لم تساعدنا عليه » !! اهـ

جريدة لوسوار

« قصد محرر من جريدة (لوسوار) إلى المسيو جول لافوس أحد مشهوري الساسة في فرنسا وأحد كبار النواب المسموعي الكلمة في المسائل الخارجية ليسأله رأيه . وقد نقل المحرر عنه حديثا تناقلته جرائد مهمة كجريدة الاستافيت وجريدة النيويورك هيرالد الشهيرتين وغيرهما .

« قال مسيو لافوس بعد أن قرأ الكتابين ما يأتي :

« حقيقة ان المستر غلادستون هو من رجال انكلترا الذين يعتقدون اعتقادا صحيحا — كالسير شارل ديلك — ان الجلاء عن مصر لازم لمصلحة بريطانيا ولكن المستر غلادستون امسى قصيا عن المنصب وربما بقي قصياعنه إلى الابد .

« وعلى رأيي انا الذي طلبت كثيرا الجلاء عن مصر ورفعت مسئلة مصر فوق منبر خطابة مجلس النواب ، انه لا يمكن طلب الجلاء عن مصر إلا بعمل تشترك فيه الدول الاوربية . فان هذه المسئلة صارت دولية ولا يمكن فرنسا وحدها أن تقوم بمهمة طلب الجلاء ولكن ذلك لا يمنعها من أن تدعو الدول إلى اتحاد في هذا

الشأن وهذا الامر متعلق بالحكومة ويجب عليها أن تنتهز الفرصة السائغة للقيام به .

« وعندى أيضا أن الروسيا تقدر طلبنا الجلاء عن مصر حق قدره وأرجح من جهة أخرى أن النهضة الحالية المسببة عن الخلاف بين انكلترا والمانيا تحل المسئلة المصرية حلا نهائيا . على أنه ليس من المقبول مطلقا ان دولة وحدها تصبح السيدة الاميرة على قنال هو الطريق الوحيد للشرق الاقصى .

« وان الحجة العظمى التي يحتج بها الانكليز لوجودهم في مصر هي ان المصريين ليسوا أهلا لان يحكموا بلادهم بانفسهم ولذلك أقاموا أنفسهم أوصياء عليهم !! ولست أدري بم يبرر الانكليز هذا الادعاء وفي المصريين طبقة مستنيرة تلقت عن أوربا كل ما تحتاج إليه إدارة شؤون البلاد العمومية . ولماذا تنكر انكلترا على هذه الطبقة فضلها ولا تتركها تدير شؤون بلادها بنفسها ! ? ?

« ويظهر من تعصب الانكليز هذا على المصريين كنه مقاصد انكلترا من رغبتها فى اطالة أمد الاحتلال والبقاء على شواطيء النيل — وهو الامر الذى يضج منه المصريون — وهذا التعصب لا يقضى عليه شيء آخر سوى اتحاد الدول الاوربية » اه

جريدة الموند

وكتب مسيو (جول دولا يورث) فى جريدة الموند الباريسية الشهيرة تعليقا على كتاب المستر غلادستون ما تعريبه :

« لوزراء الانكليز كما لغيرهم من رجال السياسة العديدين خطة خاصة عند ما يكونون خارج الحكومة وسياسة أخرى عند ما تلقى إليهم مقاليد الاحكام .

« وليس المستر غلادستون الوزير الاول الاسبق ممن يستثنون عن هذه القاعدة فلقد كتب إليه فى هذه الايام الاخيرة الشاب الوطنى المصرى — مصطفى كامل — أحد رجال الشبيبة المصرية المتربية فى أوربا يسأله رأيه عن حل مسئلة مصر ويذكره بأنه هو نفسه غلادستون الذي كان نصيراً لسياسة الجلاء عن مصر وأنه جاهر مراراً عديدة بأن من العار الكبير على الشرف الانكليزى أن تحتل مصر إلى أجل غير مسمي خلافا لتعهدات بريطانيا العظمى .

« وقد قال له ذلك الشاب المصرى فى كتابه إنه وان لم يستطع مدة وجوده فى الوزارة تحقيق رغائبه الشريفة فلابد أن يكون الآن باقيا من نصراء الجلاء

ويرجوه أن يبدى رأيه بشأن ميعاد الجلاء فأجابه المستر غلادستون من باريز التى ذهب إليها لينتفع بمياه حماماتها بأن آراءه لم تتغير ولن تتغير قط بشأن مصر ويزيد على ذلك اعترافه بأن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام .

« ولكن لماذا لم تحل هذه المسئلة الخطيرة عندما كان المستر غلادستون فى الوزارة ؟ ؟ ؟

« ذلك مالا يعرفه المستر غلادستون ؟ ؟ ؟ ويدعى أن عدم تسوية مسئلة مصر ناجم عن خطأ الدول التى لم تأت بأجوبة فى المخابرات ترافق الرغائب الانكليز مما يفسر بأن انكلترا اشترطت شروطاً لم تقبلها الدول .

« ومهما قال المستر غلادستون فان انكلترا لم تعمل مااستطاعت من الحسن في سبيل حل مسئلة مصر .

« وعند قراءة العبارة التى يقول فيها المستر غلادستون أنه أصبح أحد أبناء بلاده الخصوصيين يتساءل الانسان عما إذا كان المستر غلادستون يحل مسئلة مصر حلا شريفاً كما يشتهي إذا عاد إلي منصب الوزارة ؟

« ومهما كانت النتيجة فان الثمرة التى يستفيدها كل منا من كتاب غلادستون هي أن ساعة الجلاء عن مصر قد آذنت منذ أعوام » اه

وكتب مسيو (موريس أريس) فى جريدة الرايل تعليقاً من هذا القبيل علي كتاب المستر غلادستون هذا تعريبه :

« كتب المستر غلادستون إلى الشاب الوطني المصري مصطفى كامل الذى سأله عما إذا كان زمن الجلاء قد حان أو لم يحن « بأن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام »

« وكل قاريء لهذه العبارة يتساءل لماذا لم يحل المستر غلادستون مسئلة مصر اذا كان اعتقاده أن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام فيجيب غلادستون على هذا السؤال بجواب يلقى فيه التبعة علي الدول ؟ ؟

« ويقول المستر غلادستون بسذاجة مسلية تكاد تكون طفلية « ولاى سبب لم تجب الدول رغائبنا الشريفة ؟ إنى لا أعلم في الامر شيئا »

« وأنا وإن لم نكن نحسب أن المستر غلادستون بريء من تبعة الاحتلال مثل هذه البراءة وهو ساذج الفكر إلى هذه الدرجة — بل على العكس يظهر أنه هو السياسي اليقظ الذي يحب الوقوف على كل شيء بغاية الدقة — لكن يظهر أننا كنا مخطئين وأنه في المسائل الحرجة المشكلة يجهل كل شيء ولا يستطيع الوقوف على شيء ! !

«وهذا كان دائماً شأن حكومة الاحرار فهي ليست صريحة مثل حكومة المحافظين لانها لم تجسر على ترك مقاليد المحافظين أنفسهم. وهذه الخطة كانت دائماً عجز الاحرار والمستر غلادستون يغش نفسه بقوله الآن: «وأني لا أستطيع في الامر شيئاً» اهـ

الجرائد الانجليزية

وما نشر كتاب غلادستون في مصر وفي باريس حتى احتدم الانكليز غيظاً وأخذوا يطعنون في ذلك الشيخ بانه صار خرفاً في السياسة لا مبدأ له فلا يعول عليه وإن لم يقولوا شيئاً من ذلك عند ماصاح بصوت عال مزعج في المسألة الارمنية ودعا أوربا إلى إثارة حرب صليبية على جلالة الخليفة الاعظم.

وهذا مايدلنا على مبدأ الانكليز الحقيقي وهو أن كل من يقول، « كما يشتهون» فذلك هو الرجل الذي يحاط بنعوت الكرامة والاحترام ولو كان هزاءاً. وكل من ينطق ببنت شفة لا توافق أهواءهم فذلك هو الرجل المطعون بكل سنان والممزق السيرة من كل لسان وبنان، ولو كان المستر غلادستون زعيم احرارهم ورئيس وزارتهم بالامس !

التيمس

ولما كانت نفثات الحقد الانكليزي لما يكرهون تظهر دائماً على صفحات جريدة التيمس فقد الفينا مكاتبها في القاهرة يغدو ويروح مفتشاً عن منزلنا ليرى كتاب غلادستون بعيني رأسه. وقد تم له ذلك وزار المرحوم في حضوري وسأله ان يريه كتاب غلادستون بالذات. ولا يسأل القراء عما نفث من الاحقاد اثناء قراءته له وتحققه من خطه وامضائه. وكان يقول بعد ذلك لكل من لقيه ان غلادستون

كثير الكتابة بلا غرض كثير الكلام بلا فائدة ونحن لا ندرى ما الذي أتاه غلادستون من الخطأ ؟

« أما مكاتب التيمس في باريس فانه ما اطلع علي كتاب المستر غلادستون حتى أخذ يطعن فى المترجم بالوقاحة المعهودة في بعض مكاتبي التيمس . وقال: « انه أقام فى باريس بضعة اشهر ليظهر للملأ بانه يوجد مصريون يعربون عن آرائهم . وقد انتهز هذه الفرصة ليذيع اسمه وصيته بين العالم ».

« ثم قال عن كتاب المستر غلادستون انه ركيك العبارة مرتبك مختبط فى مبانيه ومعانيه . وهو لا يعجل حل المسأله المصرية التى هى أكثر المشاكل ارتباكا وتعقيدا وأنه من الواجب الصبر على حل المسألة المصرية حتى يظهر في مصر كثيرون من أمثال مصطفى كامل ليقوموا بادارة اشغال الحكومة المصرية بدون مساعدة أجنبية، إلى ما ماثل هذا الكلام . مما يدل على مقدار تغيظ الانكليز من كتاب المستر غلادستون على هذا المنوال وإعلانه على رؤوس الاشهاد: «أن زمن الجلاء قد وافى منذ اعوام ».

ذى ديلى تلغراف

واكتفت ذى ديلى تلغراف بنشر مضمون كتابي غلادستون والمرحوم تاركة الحكم لقرائها .

ذى ديلى مسيجير

« وجاء فى جريدة (ذى ديلى مسيجير) الانكليزية التى تصدر فى باريس تحت عنوان « الانكليز ومصر — حل عاجل » ما تعريبه :

« بعث المستر غلادستون كتابا « ننشره بعد » فى شأن احتلال الجيش الانكليزى لمصر، إلى مصطفى كامل الذى هو من أشهر دعاة الوطنية المصريين .

« ونحن تلقاء هذا الكتاب نقول إن المكاتب الباريسي لجريدة (الاوبزرفر) الخطيرة أتبع نشر كتابى غلادستون ومصطفى كامل بالتلغراف الآتي :

« علمت من مصدر موثوق به أن البارون دي كورسل أطال الحديث مع مسيو (برتلو) وزير خارجية فرنسا وأخذ وأعطى مع اللورد دوفرين فى شأن مسائل

سياسية عديدة وهو حامل معه إلى لوندرة جملة مطالب تطالب بها الحكومة الفرنسية بشأن مسائل مختلفة حيث يقدمها إلى اللورد سالسبرى وهى المسائل المشتركة فيها فوائد الدولتين الانكليزية والفرنسية ويصحب هذه المطالب إيضاح خطة الحكومة الفرنسية فى سياستها التى أعلم من مصدر موثوق به أنها خطة سلمية ودية .

« ولا شك أن المسألة المصرية هى من ضمن هذه المسائل. ومهما كانت النتيجة السريعة للمداولات التى فتحت الآن على أساس جديد فان الحكومة الانكليزية لابد أن تجيب بصفة سلمية عن أسئلة فرنسا حتى يكون من وراء ذلك تحسين العلائق الودية بين الدولتين .

« وفى استطاعة « ذى ديلى مسيجير » أن تؤكد بصحة القول بأن البارون دى كورسل حامل لتعليمات جديدة للمداولة في الجلاء عن مصر ، الامر الذى ترك الكلام فيه من عهد المسيو « دكريه » سفير فرنسا فى لوندره .

« ومهما بولغ فى القول بأن فرنسا ستستفيد من علائقها الودية مع روسيا ومن التنافر الحالى القائم بين انكلترا والمانيا لتنال معاضدة هاتين الدولتين فى طلب تدخل الدول كلها فى شأن مصر فانا نظن بأن فرنسا لاتنادى الدول (لعقد مؤتمر) حتى يعلم اللورد سالسبرى آراء الحكومة الفرنسية فى شأن حل مسألة الاحتلال المشكلة اه

سان جمس غازت

وقالت جريدة — سان جمس غازت — الانكليزية ما تعريبه :

« لاريب عندنا فى أن الامة الفرنسية حاذقة ماهرة ولكنها لم تدرك مغزي أفكار المستر غلادستون فانها لو كانت أدركت ماارتبكت فى فهم عبارات كتابه الذى بعث به إلى مصطفى كامل — ذلك الذي يصف نفسه بأنه أحد أبناء وادي النيل .

« فلقد سأل هذا الشاب المستر غلادستون رأيه فى المسألة المصرية . فأجابه على سؤاله بكتاب يفيد أن المستر غلادستون صار شيخاً كبيراً بعيداً عن عالم السياسة ومن رأي هذا الرجل السياسى الذائع الصيت أن المسألة المصرية كان يمكن حلها بل كان يلزم حلها منذ أعوام لولا معارضة المعارضين .

« والمستر غلادستون لم يعلم ولايعلم لماذا كانت هذه المعارضة »

ذى جلوب

وكتبت جريدة « ذى جلوب » الانكليزية الشهيرة فصلا تحت عنون (حالتنا فى مصر) وهذا تعريبه :

« لقد نجح مصطفى كامل الذي يلقب نفسه « بابن وادي النيل » فى طريقة الحصول على كتاب من المستر غلادستون في شأن الجلاء . وهذا الكتاب يحتوى على بعض إرشادات وتصريحات فهو يعرفنا أنه إذا كانت مصر لم تسقط مرة ثانية فى وهدة الفوضى والمصائب التى أنقذها منها الاحتلال الانكليزى فليس الفضل فى ذلك للمستر غلادستون . ولقد كنا نعرف شيئاً من هذه الحقيقة ولكن قد علم العالم كله الآن وبإلم إلى ما شاء الله أن رأى المستر غلادستون أنه يجب علينا نحن معشر الانكليز أن نغادر مصر وأن هذا الواجب قد حق علينا منذ أعوام . ويظهر عدا ذلك أن المستر غلادستون كان قد تداول مع المسيو وادنجتون في شأن تحقيق الجلاء عن مصر .

« ويقول المستر غلادستون فى كتابه أنه مجرد الآن من النفوذ وحبذا لو كان الامر كذلك فان أبناء جنسه كانوا يسرون من ذلك !

«على أننا سعداء الحظ إذ نرى المستر غلادستون لايستطيع اليوم تنفيذ آرائه الخطرة المضرة . ولكن من يقول إن رجلا سياسيا مثل غلادستون قضى السنين الطويلة فى خدمة جلالة الملكة وكان فيها مستشارها الاول لايمكنه أن يتحمل تبعة أقواله هذه بمجرد بعده عن السلطة وإعلانه « أنه أحد أبناء بلاده الخصوصيين »

« وأن الانكليز لايجدون فى قول المستر غلادستون أنه مجرد عن كل سلطة شيئاً من المبالغة ولكن غير الانكليز لايظنون ذلك . ومراسل المستر غلادستون نعني به مصطفى كامل — يتكلم باسم مئات من المصريين يمقتون الاحتلال وغير أوفياء للانكليز . وكذلك مئات الالوف من الفرنسيين غير الواقفين علي الحقائق والذين لامنية لهم غير انتهاء الاحتلال . والكثيرون غيرهم سيظنون عند قراءة كتاب المستر غلادستون أن فى انكلترا حزبا علي رأي الوزير الاول لانكلترا سابقاً، ويتشجعون بذلك علي الاستمرار فى خطتهم العدائية ضد الانكليز أملا فى بلوغ أمانيهم.

« ونحن نقول إنه لايمكننا فى الحالة الحاضرة أن نفكر فى الجلاء عن مصر. وافتكارنا فى ذلك يكون كافتكارنا فى الجلاء عن أفريقية الجنوبية . والانكليزى الذي يشير إلى الجلاء عن مصر أقل إشارة يكون قد سب وطنه سبة شنيعة » اه

« يرى القارىء الكريم مما اقتطفناه من أقوال الجرائد الانكليزية أن الغيظ قد بلغ من نفوس أصحابها ومحرريها حدا تخبطوا معه وخلطوا . فهم كانوا يسفهون المرحوم لالذنب جناه إلا لانه مصرى يجب عليه أن يحب بلاده كما يحب الانكليزى بلاده ويسعى لغرس حبها فى أفئدة الاطفال والبنات وكل آدمى تحت سماء النيل .

« وكذلك حملت على المستر غلادستون حملة شعواء ، فنسبت اليه الخرف بعد أن خدم بلاده خدمة المخلص الحر ونسيت صحافة الباطل أن الحق لايحتاج إلى دليل فقد أخذت حكومتها على نفسها من العهود مالو أخذ مايشابهه أقل الناس أخلاقا على نفسه لوفي به فى أجله وما حنث فى يمينه . وكيف يحنث الطاهر فى يمينه وهو ميثاق من روح الله والله لاينصر الماطلين ؟

« غلادستون مرة أخرى »

بعد أن ذاع كتاب المرحوم للمستر غلادستون ورد هذا وعلقت على الكتابين صحافة العالم الشروح الضافية التى لو جمعت لكانت فى ذاتها كتابا ضخما ذا أجزاء عدة : رأى رحمه الله أن يرسل إلى مستر غلادستون مرة أخري كتابا آخر لان الوطنية لاتلزم الصمت مادام فى عروق الوطنى دم وفى قلبه نبض وله فى الوجود وطن جميل يمن رؤوف رحيم بابنائه كمصر وطننا الذي إذا ذكر اهتزت دقائق أعصابنا حنينا إليه وكان المال والدم أقل مايفدى به .

وهذا تعريب الكتاب الثانى !

«مصر فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦

«أيها السيد المبجل ،

«أعذرنى إذا كنت أكتب اليك مرة ثانية . فان عددا عظيما من أبناء وطنى لما رأوا « أن زمن الجلاء على ماترى قد حان منذ أعوام »

كلفوني ان أرجوك التكرم على مصر باحداث حركة فى الرأى العام الانكليزى لمصلحة الجلاء .

« وإن الحركة الخطيرة العديمة المثال التى أحدثها فى انكلترا لمصلحة الأرمن بعض جمل نطقت بها فى شأنهم ـ حيث لم تكن وقتئذ الا أحد أبناء بلادك الخصوصيين كما تقول — هو أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة .

« وإلا فهل مسلمو مصر أقل استحقاقا لرعايتك العالية من مسيحيى الارمن ؟؟؟ . أوهل أنت كما أشاعوا فى كل بلاد الشرق عدو ألد للاسلام ؟؟؟ ذلك مالا نتجاسر على ظنه .

« ولقد قلت فى خطبتك التى ألقيتها فى شهر أغسطس الماضى « إنك لا تبغض المسلمين البتة » فها هم المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر .

« ومع ذلك أفليس من الواجب على انكلترا أن تحترم هى نفسها العهود العثمانية والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توصى تركيا — التى تعتبرها أقل بلاد أوربا مدنية ـ باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالأرمن ؟؟

هذا وأننى أرجوك أيها السيد المبجل أن تتفضل بقبول عظيم احترامى »

(مصطفى كامل)

***

وقد عقد المترجم نيته فى تلك الاثناء على القاء خطبة عربية وطنية سياسية بمدينة الاسكندرية . وما اختار ذلك الثغر الجميل الجليل ليرن في أرجائه صدى أول خطبة سياسية له فى وادى النيل الا لانه كان يعتقد اعتقادا ثابتا أن سكان ذلك الثغر على

جانب عظيم من الحماسة والوطنية الصحيحة وقد حفظ لهم التاريخ الحديث أجمل ذكري فى الشمم وعزة النفس والاباء .

ولا جرم أن مثل هذا الاختيار الحسن كان جديرا أن يقدر قدره وقدقدره أولئك الوطنيون الغيورون .

سافر المترجم وقد رافقته إلى الثغر يوم ٢٨ فبراير ١٨٩٦ وقصدنا هنالك فندق (آبات) ولكن صديقنا اسماعيل بك الشيمى الذى كان آنئذ قاضيا بمحكمة المنصورة الابتدائية المختلطة دعانا إلى منزله ملحا فى القبول هو وإخوته الكرماء أهل الاخلاص والغيرة العالية فأجبنا دعوته وقصدنا منزله الآهل على شاطىء البحر بجهة (الانفوشى) وهو بيت عال فخم شيده ذلك الفاضل على مقربة من منزل العائلة القديم (منزل شيمى بك الكبير والد حضرة الداعى وهو من كبار المصريين فضلا ونبلا وقد كان مديرا للبلدية وللسكك الحديدية ورئيسا لمحكمة الاستئناف المختلطة تغمده الله برحمته ورضوانه وبارك فى أبنائه البررة النجباء)

وما نشرت الجرائد نبأ قدوم المترجم إليه لغرض إلقاء هذا الخطاب حتى أخذ كبراء الثغر وفضلاؤه وأعيانه يتوافدون بمنزل شيمى بك للسلام عليه فكان ذلك البيت فى ذلك الاوان مهوى أفئدة الجموع من الوطنيين المخلصين. ولم يكن يمضى يوم إلا قد زاره من لا يقلون عن ثلاثمائة نفس وأرباب البيت يستقبلونهم بمزيد الحفاوة والاكرام .

وقد سببت هذه المقابلات المتوالية عناء جما للمترجم ولكنه تحمله بحكم الضرورة وكان نبأ هذه الخطبة قد دوى فى أسماع الانكليز . وأبغض شيء لديهم أن ينهض من الوطنيين من يستطيع أن يحرك أوتار القلوب ويستجمع العواطف مصرفا اياها كما يشاء . ولا ندرى ما كان تأثير ذلك الخبر بيد أن أطوار الانجليز عرفتنا شيئا مما دخل إلي أذهان المحتلين إذ ذاك .

عاد إلى مصر بعد القاء هذه الخطبة فودعه أبناء الثغر وداعا لم يره أحد غيره حيث احتشد علي رصيف المحطة وخارجها نحو ثمانية آلاف نفس وفى مقدمتهم رائدو الوطنية وحماتها وفوق رؤسهم الاعلام وقدموا للمرحوم نيشانا من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة النخيل المصري ومسلة الثغر وكتب على لوجه الآخر هذه الجملة :

برهان الاخلاص

من أهالي الاسكندرية

(للوطني الغيور مصطفى كامل)

***

فتقبل الهدية شاكرا وقد أمطرت عليه باقات الازهار والرياحين وما تحرك القطار حتى هتف له هذا الجمع الكبير هتاف الاخلاص والحب وهو يحييهم تحية الابن لابائه أو الاخ لاخوانه .

سار بنا القطار ونحن فى سرور عظيم فقال لي رحمه الله ما معناه :

« إنى أرى ان الساعة التى يجب عليك فيها الاستقالة من الجيش نهائيا قد أذنت فقدمها غدا لتكون بجانبي حتى نعمل عملنا الوطني باتقان ونجاح ». فأجبته إلى طلبه وما وصلنا إلي القاهرة حتى كتبت الاستقالة فى الحال مخاطبا قائد الجيش الفريق كتشنر باشا (الانكليزى !) وقصدت البريد لاسجلها وقد كان برفقتى صديقي الحميم من أيام الطفولة حضرة الملازم الاول محمد أفندى حافظ (اللواء الآن) .

سجلت الخطاب وأبلغت المرحوم فسر كثيرا وأخذنا نضع نموذج العمل على قاعدة متينة فقر رأينا ان أقيم أنا بباريس ستة أشهر لأؤدى امتحان الحقوق وستة أخرى فى لوندره لاتقوى فى اللغة الانكليزية التى كنت أعرف منها وقتئذ شيأ قليلا . وطدنا العزم على ذلك وسألنا الله النجاح.

بعد أن عاد المرحوم إلى مصر من الثغر كتب كتاب شكر لاهالى الاسكندرية نشرته جريدة المؤيد وهذا نصه :

إلى أهالي الاسكندرية

«أبناء وطنى الاعزاء

«يعجز قلمى ولساني أن يؤديا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوى من العواطف الشريفة وما أبديتموه لي من علامات الود والاكرام ولولا انى معتقد انكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن الا اعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت أخجل أن أمسك

القلم وأسطر هذه السطور

«وان الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة « ٣ مارس » الشريفة التى أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية وبرهنتم على أنكم تقدرون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والأعتدال فى خدمة الاوطان فاعملوا دائماً بهذه المبادئ السامية لنبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والأقبال .

«وقد برهنتم فى هذه المظاهرة المعدودة على أنكم ألد أعداء الدخلاء فحاربوهم باقلامكم وألسنتكم حتى تتبدد طغمتهم وتفشل مساعيهم وتتحد كلمتنا وتجتمع قلوبنا .

«وبرهنتم كذلك على حبكم للأمير الجليل . فحافظوا على ولائه وتعلقوا به فانه أخلص بني مصر لمصر أعز الله أيامه .

«وما مثلي أمامكم ومثلنا جميعا أمام الوطن العزيز الا كمثل رجل وجد أمه عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام مناديا اخوته للعمل معه لشفاء علتها حيث وجدهم جميعا يحسون نفس إحساسه ويشعرون شعوره ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة

«فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال . دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته .

مصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٦ .　　　　(مصطفى كامل)



﴿ تجريدة دنقله ﴾

« تفاصيل تدهش القراء »

يذكر قراء هذه السيرة من مطالعة ما مر بهم أنى قد قدمت استقالتي من الخدمة فى الجيش وذلك على أثر العـودة من الثغر الاسكندرى بعد أن ألقى المترجم خطبته الوطنية السياسية تلك الخطبة التى ألهبت نفوس من سمعوها وأحدثت فيها شيئا جديدا ويذكرون أيضا مادار من المناقشات بيني وبين بعض رؤساء الجيش . ولما كانت هذه الاستقالة فى ذلك الاوان غير متوقعة عند أولئك الرؤساء وقد ترتب على طلبها أنهم أرادوا الانتقام من ذات المترجم فى ذاتى نفتقت لهم الذمم الطاهرة أو السرائر التى لا تخون أن يجردونى من رتبي وأوسمتى كما يجرد السيف من غمده ويبزلونى إلى صف جندي بسيط : رأيت أن أضع تحت أنظار القراء تفاصيل تبعث على الدهش من هذا الحادث ليعرف من لم يكن قد عرف من قبل كيف يقدم الانكليز على الكيد للعاملين المخلصين ولترى نابتة العصر مثالا محسوسا على مبلغ عدل المحتلين وعسى أن يذكروه كلما احتاجوا إلى مثال .

بينت فيما سلف من هـذه السيرة كيف كان بعض الضباط الانكليز يضطهدون شخصى الضعيف على أثر إذاعة نبأ العريضة السياسـية التى رفعها المترجم إلى مجلس نواب فرنسا وكيف أن البكباشى جدج أحد الضباط العظام فى الاورطة الاولى البيادة بلغ من تفننه في اضطهادى أنه كان يتناسى اسمي كلما دعانى ويذكرنى باسم مصطفى وقد ترتب علي ما مر بالقراء وصفه أنى قدمت استقالتي إلى القائم مقام هيجت بك قومندان الاورطة الاولى ولكنه لم يقبلها .

وكانت فاتحة الالطاف أن كتبت المعية السنية إلي وزارة الحربية فى شأن تعيينى

في الحرس الخديوي بدلا من الملازم الاول محمود حلمى اسماعيل أفندى الذى نقل إلى الاورطة التاسعة ، (الآن أميرالاى فى المعاش) وكان ذلك في شهر يونيو سنة ١٨٩٥ ولكن الانكليز الذين يعرفون أنني أخو « مصطفى كامل » شق عليهم الامر كثيراً فأرغى منهم من أرغي وأزبد من أزبد واعتبروا طلب المعية هذا إهانة لهم وقام الفريق كتشنرباشا سردار الجيش المصرى إذذاك وقصد من فوره مدينة الاسكندرية حيث قابل اللورد كرومر ورئيس مجلس الوزراء مصطفي فهمى باشا ثم قصدوا إلي سراى رأس التين وطلبوا من سمو الخديوى أن يصدر أمرا بالغاء طلب تعيينى فى الحرس الخديوى وكان لهم ماأرادوا وتعين فى المكان الخالى الملازم الاول ابراهيم أدهم أفندي (اللواء الآن).

تلك فاتحة المكايدوأنموذج منها وإلى القراء أنموذجا آخر يدلهم على مبلغ حرص الانكليز على الانتقام على غير ذنب ، وتعمد الاذى بلاسبب ، أننا أقمنا فى سواكن زينة باهرة فى نادي الضباط إحتفالا بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ودعونا إلى شهوده كل الضباط الانكليز . وما انتظم عقد الجمع حتي ألقيت عليهم خطابا تكلمت فيه عن وجوب « الاتحاد » وكان من الامثلة التى ضربتها بيانا لما فى الاتحاد من القوة وما في التفرق من الضعف مثل العصى يسهل كسرها متفرقة ويصعب كسرها مجتمعة وهو المثل الذى عناه الشاعر بقوله :

كونوا جميعا يابني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا

وكان المثل فيما أذكر واضحا بيد أنه خفي على المترجم الدخيل فترجمه إلى اللواء لويد باشا قومندان المحطة الذي كان حاضرا إذ ذاك بأنني أحرض الضباط المصريين على المحتلين عامة وعلى الضباط الانكليز خاصة . وقد صدر أمر القومندان فى اليوم التالى بوقفى وقد جرى أمامه بسراى المحافظة تحقيق سرى فانجلى عن براءتي مما نسبه إلي دخيل السوء فأفرج عني.

ذاك ثاني النماذج ، على أن القوم كانوا موسوسين إلى حد تصديق كل مايقوله وسطاء السوء إذا صح أن يبنى على قولهم ظلم برىء أو الجور على طالب إنصاف والله لايهدى كيد الخائنين .

وإلى القراء ثالث الامثلة الدالة على اطراد تلك القاعدة :

كنت ملاحظ ضرب النار بسواكن ولما كانت الارطة التى كنت تابعا لها

هي الاورطة الاولى رأى أحد الضباط المصريين الذين يغارون من تقدم بلوك آخر علي بلوكه فى تمرين ضرب النار أن يدس دسيسة أمام البكباشي جدج . والمرء اذا انقطعت الصلة بينه وبين وجدانه هان عليه كل أمر ، فجاء البكباشي المذكور إلى الميدان وكان أول ما نطق به ألفاظا لا يقبلها إلا الجبان الضعيف الجنان ، فلم أطق الصبر بل كلت له الصاع صاعين . ولما رأيت منه بوادر الشر أخذت الاهبة لمقاتلته قرنا لقرن إذا اقتضى الامر وبدهي أنهم لم يكونوا ليتوقعوا مني هذه الجرأة وان كانوا يبغون أن يروها ليتخذوا منها سلاحا يحاربونني به بدليل أن البكباشي المذكور لم يكد يتصل به ماجرى ان لم يكن عارفا به من قبل حتى وقفني عن العمل مدعيا أنى أعمل عملا مخالفا للقانون من جهة ولم أحترم ضابطا أعلى (هنا بيت القصيد) من جهة أخري . وكانت نتيجة هذا الاتهام أنني قدمت إلى محاكمة كانت السبب لالقاء النفور بين الضباط المصريين والضباط الانكليز . وكان المجلس المنعقد للمحاكمة تحت رئاسة القائم مقام سيدنى بك قائد الاورطة العاشرة وفى المجلس ضباط مصريون أذكر منهم المرحومين القائم مقام محمد مختار بك والصاغ محمد افندى سامي .

شمم الضباط المصرى

أبين بمناسبة ذكر انعقاد هذا المجلس فى سوابق لمحاكمتى ضربا من ضروب الشمم المصري العسكرى لاخواني المصريين المعاصرين والعاقبين ليعرفوا أنهم من عنصر سام شريف لا يقبل الضيم ولا يعنوا له ساعة من الزمان. أبين ضربا من ضروب الشمم المصرى العسكرى لهذا الجيل وللاجيال المستقبلة ليعرفو انهم من عنصر سام شريف يأنف الذل ويقول دائما النار ولا العار . والموت فى العز خير الف مرة من الحياة فى الذل !

أبين فى هذا الفصل كيف أن عزة نفس الضابط المصرى تأبى أن تصبر علي المهانة مهما كان المهين عظيما وتأبى أن تذل لغير العزة الالهية ولو وقف لها الدهر فى كل سبيل ! !

أبين كيف أن الشمم يصل بصاحبه إلى الجوزاء ويذلل الصعاب ، أبين لهم كيف أن فؤاد الضابط المصري والانفة العالية صنوان لا يفترقان ! !

جرت العادة فى المجالس العسكرية بعد أن يترافع جانب الادعاء وجانب الاتهام

(النيابة) ويناقش كل عضو من أعضاء المجلس الطرفين فيما يراه : يخرج المدعى والمتهم ويتداول المجلس سرا (موضوع المداولة « وهل المتهم مذنب أم برىء »)

وعلى هذه القاعدة اختلى المجلس للمدالة بعد أن دافعت عن نفسى بنفسى وكان معاونا لى على الدفاع صديقى المرحوم الصاغ محمد توفيق الرشيدى أفندى . وترافع كذلك حضرة البكباشى ابراهيم أفندى صبرى باعتباره مدعيا (اللواء ابراهيم صبرى باشا الآن) وقد كانت مرافعته فى الحقيقة لي أكثر مما كانت علي لانه كان من كبار الضباط العادلين الذين درسوا أطوارى وعرفونى حق المعرفة . وقد كبر عليه وقتئذ أن أحاكم بلا سبب ولكن هكذا أراد عدل الاحتلال .

خلا المجلس بنفسه للمداولة ليظهر البراءة أو يحق التهمة فسأل الرئيس أقل الضباط رتبة وأحدثهم بالخدمة عهدا وهو سامى افندى فى هذا الشأن فأجابه على الفور ببراءتي . . . . فسأله :

« لم تبرئه وهو مذنب . »

فقال له « هكذا رأيت »

فناقشه الرئيس مغلظا له القول بلا حجة ولادليل .

فقال له مهما حاولت إقناعي فان الحق ظاهر أمامى ظهور الشمس فى كبد السماء فهو برىء . برىء . بريء . » وبعد الاخذ والرد والمناقشات الحادة تقررت إحالتى على الاستيداع . هذه الاحالة التى هى أشبه شىء بسلاح يستعمله الرئيس الحربي المطلق ضد من يثقل عليه وجوده أمامه ! وقد وافق وقوع هذه الحركة قدوم السردار كتشنر باشا إلى سواكن للتفتيش على حاميتها فصادق على هذا الاستيداع وركبت أول باخرة سارت واحتشد لتوديعي قبل أن أبحر جميع الضباط المصريين على مرأى من الضباط الانكليز الذين يسكنون الشاطىء المطل على مكان رسو البواخر .

فكان منظر الوداع بمثابة انذار للمحتلين بأن الحق منتصر ولو كان فردا وأن الظالمين مخذولون ولو كانوا جيشا جرارا . وقد شهدت بعض الضباط الانجليز وهم جاثمون فى أماكنهم والباخرة على وشك المسير يستعينون بالمجاهر لشهود حركات المودعين . ولو استطاعوا أن يجدوا آلة يستعينون بها على استماع ماقيل فى الوداع من عبارات العطف والتآخي لما تأخروا لحظة من الزمان !

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق مايعتاده من توهم

ألا إن الظالم لايستقر له بال من القلق وإن أوهم ظاهره غير ذلك .

فياليت شعري فى أي شيء كان يفكر الضباط الانكليز وقد شاهدوا الضباط المصريين عن بعد ملتفين حول واحد منهم ظلم بلا سبب .

كانو يفكرون فى عاقبة الظلم وكفى ! !

* * *

عرف القراء من هذه الحوادث المتكررة أن الاضطهاد الذى وقع علي بلغ النهاية وأن خدمة البلاد تناديني مع كل وطني أن أكون شريك مصطفى كامل فى أعماله فاستقلت علي أثر عودتنا من الاسكندرية وحدث في هذا الشأن ماحدث . . . . .

ألا فليقرأ المصرى بامعان مايلى :

بعد أن قدمت الاستقالة بأيام أعلنت الاوامر العسكرية إلى الملأ أمر التجريدة وقد كنت بالاسكندرية . فعزمت على السفر إلى العاصمة وقبل أن آخذ القطار تسلمت إشارة برقية من صديقى الحميم محمود سالم بك القاضى سابقا بالمحاكم المختلطة . مفادها أن الحربية أرسلت فى طلبي وأنه يجب حضوري . ولما وصلت إلي مصر قصدت في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ مارس سنة ١٨٩٦ إلى حضرة الاميرالاي مكسويل بك كاتم أسرار الحربية وسألته عن سبب استدعائى فقال : «إنك قدمت استعفاءك والتجريدة على وشك الحركة . أفلا تزال مصمما على الاستعفاء مع علمك أن الجيش فى حاجة الآن إلى ضباط كثيرين » ؟ ؟

قال هذه الجملة وهو باسم . فأجبته : « سأسترد استعفائي إنما أرجو منك أن تساعدنى على الالتحاق بخدمة أركان الحرب لا البيادة ، حتى أقوم بعمل كبير . فوعدني خيراً وحييته وانصرفت . ثم كتبت إلى السردار خطابا مسجلا ، به استرددت استقالتى .

وما هى إلا عشية حتى تلقيت فى صبح الخميس ١٩ مارس خطاباً من الحربية وفيه الامر بتعييني بالاورطة الخامسة عشرة من أورط الرديف . فتألمت كثيرا لان عملها علي ماخطر ببالى لايذكر فى جانب أعمال الجيش . فتقدمت فى الحال إلي قومندان الاورطة ولما لقيته كلفني « تطقيم » ٤٨٠ جندياً من اسلحة وملابس

ومهمات من مخازن القلعة . فأديت هذا الواجب فى أسرع وقت وقد عدت فى منتصف الليل مع الجنود فى يوم الجمعة ٢٠ مارس إلى الثكنة بالعباسية .

وما بزغت شمس يوم السبت ٢١ مارس حتى أخذ كل عامل فى عمله . وخرجنا للطابور وقد كنت أمرن الضباط وصف الضباط القدماء على ماغاب عنهم من القوانين الحديثة والتغيرات التى طرأت على نظام الجيش أثناء بعدهم عنه . .

وبينا أنا كذلك اذ جاءني المأسوف عليه الكريم الخلق البكباشي سعيد ناصر افندى أركان حرب قسم المحروسة وهمس في أذني قائلا :

« جاءت اشارة تليفونية من الحربية بوقفك وارسالك إليها حالا تحت حراسة ملازم أول »

فدهشت من هذ النبأ كما دهش حامله إلى دهشا لايقدر . دهشت لانني لم أصنع مايستدعي ذلك . ودهش هو لانه كان من أعز الاصدقاء . ولقد سألني مكررا عما عسى أن أكون قد أتيته على وهم أن ثمة عملا مخالفاً للقانون ارتكبته وزادالدهش دهشاً أن أمر الوقف مرفق بطلب الذهاب إلى الحربية مع ظروف التجريدة الحاضرة .

فقصدت إلي الحربية مع حضرة الملازم الاول محمد زكى افندى وسرنا كلانا هويحمل سيفه وأنا أعزل كما هى القاعدة المتبعة فى وقف الضباط .

دخلنا غرفة مكسويل بك كاتم الاسرار وقدم اليه الضابط الخفير خطاب قومندانية قسم المحروسة فأمرنا بالراحة فى قاعة هناك .

قضينا في هذه القاعة من الساعة الثامنة صباحا إلى منتصف الساعة الثانية عشرة ثم نودينا فدخلنا غرفة وهناك وجدت السردار كتشنر باشا يرأس مجلسا عسكريا عالياوقتيا أعضاؤه الادجوتانت جنرال رندل باشا وكل من المرحومين اللوائين محمد زهرى باشا وأحمد فضلى باشا وكان المدعي الاميرالاى مكسويل بك .

وما رأيت هذه الهيئة حتى أدركت فى الحال أن هناك مكيدة مدبرة ولكنى ما كنت أتصور أنها بسبب الاستعفاء .

خاطبنى السردار قائلا : « إنك استقلت فى زمن الحرب ، لذلك نحن نحا كمك الآن »

فدهشت وقلت على الفور بأعلي صوتي :

« إني مااستقلت فى زمن الحرب . وهـذه وصول البريد يؤيد تاريخها قولي . فان تاريخ الاستعفاء سابق تاريخ صدور أوامر التجريدة . ولنفرض جدلا أنني استقلت فى زمن الحرب ثم استرددت الاستقاله قبل اعلاني بالالتحاق بأورطة ما لانى من ضباط الاستيداع،فان استقالتى صحيحة واستردادها صحيح اللهم إلا إذا كان فى الامر سر سياسى ! سلوا المدعى مكسويل بك يجبكم إن أراد أن يجيب ألم أحضر وأقابله وأسأله العودة إلى الجيش العامل .

سلوا ضمائركم بعد ذلك هل فى المسألة ما يستدعي هذه الضجة القائمة من زمن بعيد علي رأسى ! ماذنبى ! ماجريرتي ! أي حدث أحدثته فى القانون ؟ ؟

إذا كانت محاكمتي على شيء لم آته فاني أطلب مما تسمونه عدلا أن يعطيني حق الدفاع عن نفسى ولو بتقرير أكتبه »

قلت هذه الكلمة متأثراً منفعلا فلم يسمع السردار منهاحرفا . وانما كان جوابه على طلب اعطائى « حق الدفاع عن نفسى ولو بتقرير أكتبه » لا: ثم التفت إلى من حوله . أما رندل باشافقدهز رأسه ويمين الله لقد كان قلبه أشد اهتزازاً . وأما فضلي باشا فقد كان أفصح من زميله إذ قال نعم . نعم . ولو فطن لمغزى الجواب ما نطقت به شفته . وأما زهرى باشا فانه قال :

« دعوا الضابط يدافع عن نفسه لان التهمة كبيرة . ودعوه يحضر لنا وصول البريد عن الاستعفاء أولا وعن استرداده ثانياً »

قال هذا فلم يسمع منه قول لان الآذان قد صمت عن استماع كلمة الحق ولان الغرض غشى تلك العقول تنفيذاً للقضاء المحتوم .

وأشار السردار كتشنر باشا في الحال إلى مكسويل بك وهـذا قام يخطر في المجلس حتى جاء إلي ورفع النجوم عن كتفي وكأنما كان يرفع الحدقتين من العينين أو يستل لباب الجمجمة من الرأس .

وددت فى تلك الساعة لو كنت أملك سلاحي لافصل به بين الظلم والعدل ، بين الغـدر والوفاء، بين الباطل والحق ، بين الأثم والطهر ، بين الخطل والسـداد ، ولـكن سبق السيف العذل وخرجت من هـذه الغرفة وأنا لا أكاد أعي وما زلت

كذلك حتى تركت الحربية وسرت فى الطريق وهناك وجدتنى سائرا بين جنديين مدججين بالسلاح شاهرين السونكي على البندقية وخلفنا صف ضابط يقودنا . ولكن إلى أين ؟ هذا مالم أكن به داريا !

خرجت من الحربية إلى بولاق ومنها إلى الازبكية ثم إلى باب الشعرية فالفجالة فالعباسية مخترقا ما تخلل هذه الشوارع من الاماكن التى يقبح ذكرها . وقد استغرقت مسافة السير من الحربية إلى الثكنة في العباسية سيرا على الاقدام أربع ساعات ونصف ساعة . إذ وصلت إليها فى الساعة الرابعة بعد الظهر والناس من حولى يزدادون كلما خطوت خطوة . ومنهم من كان يظن أننى قاتل أو سارق ، ومنهم من كان يقول إنى عدو الانكليز ، ومنهم من كان يقول بل انه أخو «مصطفى كامل» وهذا هو القول الحق .

وقد استقبلنى الضباط المصريون متأثرين لما لقيت من هذا العدوان والظلم المنظم بل لقونى غاضبين صاخبين لما أصابنى اعتداء وافتراء . ورأيت منهم حركة هي التى كنت أنتظر أن أراها منهم . وتقدم إلى أحدهم وهو الشهم المرحوم شفيق بك الحضري وقال:

« يا أخانا المظلوم

« إنا نعتقد أن رئاسة الجيش المصري قد مثلت اليوم رواية من أشنع وأفظع الروايات . إذ ظلموا ضابطا مصريا بريئا وتحاملوا زورا وعدوانا على رجل ذنبه أنه أخو « مصطفى كامل » فمرنا فأنا طوع إشارتك »

فلم يسعني إلا أن شكرت لهم عنايتهم بشأنى أجزل الشكر وأشرت عليهم باستعمال الحكمة والروية حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

ومن هناك سرت إلى السجن الحربي . والظاهر أن التعليمات كانت قد سبقتنى إلى حكمداره اليوزباشي ليعاملني معاملة قاسية وهو ضابط ما كنت أعرفه من قبل واسمه خورشد فهمى . فاستقبلني كما يستقبل عشماوى فريسته وصار بى وحولى بعض الجند إلى غرفة صغيرة عرضها متران وطولها متران وارتفاعها نحو عشرة أمتار فهي مدخنة لا غرفة أو مغارة من مغاور الجن في السجن . ووضع الاصفاط في رجلي وتركنى علي الارض لا وطاء ولا غطاء . ولا زاد ولا ماء ، ولا أنيس ولا رجاء ، ثم أغلق الباب وقال للباشجاويش وهو يغلقه :

« لا تدع أحداً يدخل عليه فهو مضروب بالرصاص غداً »

وقد تعمد أن يسمعنى هذه الكلمة فسمعتها . سمعتها وأنا ثابت الجأش مستقر الايمان ذاكراً قوله تعالى « لكل أجل كتاب » .

هاجتنى هذه الكلمة بضع دقائق . ولكني لم أكد انتهي من الهواجس حتى سمعت هزة فى الباب فانفتح ودخل أونباشي هو (شرف الدين) يحمل قدحاً من الماء ورغيفاً وقطعة من الجبن وقال بصوت الخائف الوجل: « إقبل مني ما أتيتك به » فقبلته شاكراً وسألته عن اسمه : فقال أنا فلان الذى كنت في الاورطة الاولى وكنت أنت مدافعاً عني حينما كنت أحاكم أمام مجلس عسكري لتهمة وجهها إلي أحد صف الضباط فكان حسن دفاعك خير كفيل لظهور براءتى : الخ الخ .

أعطانى هديته الثمينة في هذا الوقت الذى لا تظهر فيه إلا المروءة وقال لي بعد ذلك : « إني أنجيك بنفسى فهل لك في الهرب» فقلت له على الفور: «ذلك لا يكون أبداً»

إنقضت تلك الليلة كما انقضت حتى إذا طلع النهار فتح الباب فانتقلت نفسى انتقالاً فجائياً من الضيق إلى السعة . ومن الوحشة إلى الانس ، ومن العناء إلى الهناء ، ومن الانقباض الى الانبساط . إذ رايت شقيقي المترجم وافداً علي كما يفد الندى على الزهرة الجافة . وقبل أن يعرف القراء ماقال لى وما قلت له أذكر أنه كان فى الاسكندرية ولما اتصل به ماجرى جاء في الحال إلى القاهرة ثم أراد أن يقابلني في السجن ثم يأذن له ذلك الضابط بذلك .وكان قد رأى أمام باب المدرسة الحربية حركة غير عادية فسأل عن السبب فقيل له إن الادجوتانت جنرال فى المدرسة ليتخير من تلاميذها ضباطاً لان الجيش في حاجة إلى الكثيرين منهم . فما صدق المترجم أن سمع هذا حتى قصد إلى ذلك الضابط العظيم الكبير وعرف إليه نفسه وطلب منه أن يسمح له برؤية أخيه فى السجن فهش له وبش وأجابه إلى ماطلب وأرسل معه بكباشيا إنكليزيا .

فلما وقعت العين على العين ألقيت بنفسى إليه وأردت أن أتكلم فقاطعني وقال :

« ياأخى

« إن النفوس العزيزة لترخص فى خدمة الوطن .وأنت إذا عوقبت فلا والله ما عاقبوك على ذنب جنيته أو إثم ارتكبته وإنما عوقبت لانك أخو من يرى الحياة رهينة

رفعة الوطن »

سمعت هذه الكلمة وقد أنعشتني وأرسلت في قوة خفية لاأدركها . فتمالكت نفسي وتعانقنا ثم قال : « إني تاركك الساعة فلا تضجر ولاتيأس . فان يوما أري فيه الكثير من أمثال هذه المظالم لهو يوم الافراج عن الوطن . فأنت بما وجه اليك من التهم أول مثال ستقدمه مصر علي ظلم الانكليز يوم لاينفع الظالمين ظلمهم » ثم سلم وسلمت وانصرف وانصرفت معه آمالى وفكرى وخاطرى وفؤادي ولم يبق منى في غرفة السجن الاهذا الجسم الذي كنت أنتظر مابين ساعة وساعة أن يحل به الانتقام الموعود (ضرب الرصاص)

ثم حل الليل والهم والسهاد ، وحل (شرف الدين) يقوم لى بخدم أقلها يستحق عليه من المكافأة مايشتري به المرء ألف ضابط كضابط السجن . هذا وما أصبح صباح الاثنين ٢٣ مارس حتي فتح ذلك الجراب أوغرفة السجن،واذا الضابط ومعه جند كثير يقول لى « هيا » فخرجت معه وسرت وحولى اثنان منهم يقودنا صف ضابط كما حصل عند خروجى من وزارة الحربية فى ذلك اليوم المشهود . فقلت له أنذهب الى البليجون (الميدان الذى تتمرن فيه العساكر على ضرب النار فى شمال العباسية وتسكنه الطوبجية الآن) فقال كلا : إنك ذاهب إلى قشلاق عابدين .

فعلمت أنه ماقال تلك الكلمة عند دخولى السجن « لاتدع أحداً يدخل عليه فهو مضروب بالرصاص غدا » إلا ليؤلمني أو ليحملني على الحاق الاذى بنفسى لو كان مثلى يجعل لمثل قوله شأناً .

وماجزته من الشوارع عند مفارقتي غرفة السردار جزته عائداً من السجن إلى عابدين ، إذ وصلت ثكنتها بعد أربع ساعات وهناك أودعوني فى غرفة الحرس وتركونى . .

وبعد الظهر رافقت الاورطة السابعة بملابس السفر وعدة الحرب . وقد سرت إلى المحطة فوجدت الناس عديدين والاصدقاء منهم متأثرين تأثرا بليغا وكأنهم يريدون أن ينقضوا على القطار ليأخذوني منه أخذا . وكان فى مقدمتهم محمود سالم بك وفؤاد سليم بك وعبد الله بك أباظه والمرحوم اسماعيل بك الشيمى والمرحوم خالى الدكتور محمد فهيم وشقيقى مصطفي كامل.

سرت في وسط العساكر لا بين رفقائي الضباط ولم يكن معي من الحواس مايعينني على معرفة موقفهم ازائي . وقدسار بنا القطار وأنا أفكر في والدة بارة شريفة كان وجودنا في جوارها شفاءها وسيكون بعدنا عنها داءها، وفي أخ أقصى أماني أن أكون معه جنبا لجنب أعينه على ماهو في صدده من الخدم الوطنية العظيمة وفي دفع هذا الشقاء الذي حلق طائره علي مصر منذ وفد عليها الانكليز

وصل القطار إلى نجع حمادي ومن ثمة ركبنا البحر وأنامثقل بالحراس وقددهشت من هذه الحالة أيما دهش . لاني كنت أظن كما يظن كل ضباط العالم أن الرجل الذي جرد من رتبه مثلا أو نزل رتبة أو رتبتين لايمكث في هذه الحال طويلا بل يطلق سراحه ويكون له ماللجندي وعليه ماعليه . أما هذه الحالة فاني كنت أعتقد أن وراءها ضرب الرصاص لانه لامعنى لتقييد متهم على زعمهم هذا القيد فيحرم من الحرية الشخصية ويقطع طريقا لايقل طوله عن ألف كيلو متر تحت هذه الحراسة الثقيلة ولكن هكذا قضى ظلم الانكليز في مصر !

ماوصلت الباخرة (ألكسندرا) إلى شاطيء مدينة قنا حتى جاءني أحد الضباط وقال لي إنا وصلنا إلى قنا وأنا أعلم أن أخاك الاكبر (حسين واصف بك) وكيل تفتيش الري بها فهل تريد منه شيئا ؟ قلت لاأريد منه إلا أن أراه أو يراني إن أمكن . قلت هذا ولم أكن عارفا أن الاوامر السرية تحول بيني وبين رؤية أقرب ذوي القربي .وهكذا الظلم يحول بين الاذن وماتسمع والعين وماتري لانه حجاب كثيف وكفى أن يكون من ظلم المحتلين لمصر.

على هذه الحال وصلت إلي أسوان ومنها إلى حلفا وفي كل محطة نصل اليها أدخل سجنها ولاأخرج منه الاإلى سجن المحطة الاخرى كأني رسام سجون أنقل منها للناس أنباء ظلم الانكليز في مصر !

وقد كانت خواطر الضباط المصريين عامة لاسيما في حلفا متأثرة جداء والذين كانت بوادر تأثرهم في أتم ظهورهم أولئك الضباط الذين هم انتظروا الباخرة على الشاطيء ولكن قومندان الاورطة التى رافقتها وهو المرحوم ابراهيم فتحى باشا رأى أن في إمساكي بالباخرة تخفيفا لآلام المنتظرين فأبقاني تلافيا لما عسى أن يحصل إذا التقى المظلوم والشهود ! !

ولقد بقيت بالباخرة حتى اذا جن الليل خرجت إلى إحدي الشكنات مع الحرس وفى الصباح جاءنى قومندان الاورطة وقال لى إنك ستعمل جنديا بسيطا وقد وضعك السردار فى أورطتي فاختر لنفسك بلوكا فاخترت بلوك حضرة اليوزباشى أحمد زكى أفندى (الذى استقال من الجيش لشممه وشهامته وعدم تحمله رياء المرائين ونفاق المنافقين وهو الآن مهندس شهير ومقاول كبير وقد نجح فى عمله نجاحاً باهرا) لانه كان أحد رؤسائى الضباط فى المدرسة الحربية .

عملت فى هذا البلوك جنديا فاشتغلت فى كل عمل يعمله الجندى ماعدا حمل الاثقال فالظاهر أنها كانت امتيازاً سببته رحمة إخواني الضباط وحنو النفوس الآبية نحو النفوس المظلومة .

فكنت شريك البنائين فى السكك الحديدية وفى ورش الاشغال وغيرها .

ثم حضرت واقعتى فاركة والحفير ودخلت دنقله وأنا جندى أحمل السلاح وأسير وسط الصفوف حتى يوم ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٦ فهو يوم ظهرت شمسه مع تنفيذ العفو الخديوي عني حيث قابلت السردار كتشنر باشا فأعاد لى رتبى ونياشيني وأقام إخوانى الضباط احتفالات يطول شرح تفاصيلها وعينت بالاورطة الثانية فالاورطة الثامنة عشرة فأركان حرب كروسكو فأركان حرب السكة الحديدية فضابط بالحملة ثم الاورطة الثانية فأركان حرب الحملة ثم الاورطة الثانية ثم واقعة عطبرة (مع الامير محمود) ثم واقعة أم درمان إلى أن وقعت في مرض التيفود ثم نزولى مع ارسالية المرضى ومكثت شهرين بالمستشفى العسكرى بالعباسية ثم شفيت إلى أن كانت استقالتى مرة أخرى وقبولها وخروجى من الجيش حيث كان ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩

هذه هى الحادثة بوجه الاجمال مما سيجىء مفصلا فى تاريخ « مصر الحديثة » الذى سأنشره بمشيئة الله بعد ختام سيرة المترجم وكل آت قريب .

***

عرف القاريء أن المرحوم جاءني فى السجن فى العباسية وقال لى ماقاله وبعد أن خرج وقصد المنزل أمسك القلم وكتب لى خطابا جاء فيه بعد شرح طويل :

« داوم على الصلاة وذكر الله ومحاربة الشيطان فكل ذلك خير سلاح للمؤمن . واعلم أن ربك لبالمرصاد ولابد أن ينتقم لك ولو الدنيا ولا الدنيا ولآل بيتك

ولوطنك من هؤلاء الظالمين . واعتقد يا أخي أن الوطنية تظهر في هـذا الوقت الذي حف بالمكاره، فلا تقدم على مايهيئه لك الشيطان أمام هـذا الحادث واقتد بسادة البشر الانبياء والمرسلين، فقد رأوا مصاعب جمة وصادفهم من الآلام مايدك هوله الجبال، كل ذلك وهم صابرون فاصبر فأن الله مع الصابرين .

«إني لا أبكي حتى أرواحنا في سبيل خدمة الوطن فان التاريخ مليء بجلى الحوادث التي أراق فيه أبناؤه الصادقون دماءهم في سبيل نصرته ورفعة شأنه .

«فليكن أمامك في كل لحظة هذا الوطن الذي عرفه شامل وواشنطون وجان دارك وجاريبلدى وكوسوت وهم ذوو الجنسيات المختلفة الذين تلقوا هذا الدرس من شهداء خدمة الاوطان وفي مقدمتهم امراء المسلمين سواء كانوا عربا أو تركا أو غيرهم.

«إني قرأت في كتاب فرنسي أن نائبا اضطهد لوطنيته، وهو المسيو ميرمان، فدعوه إلى خدمة الجندية فمكث فيها ثمانية أشهر يحمل السلاح بلا نصب ولا تعب حتى إذا أدى الواجب وخرج منصوراً عاد إلى عمله الوطني رافعاً لواء فرنسا صائحا في كل لحظة ومكان بلادي ! بلادي !

« إني واثق من حكمتك التي لا تقل عن وطنيتك فكن كما أنت لا تزعزعك الحوادث ولا يدخل اليأس على قلبك فانه من عمل الشيطان . .

« سأمكث بمصر حتى يصدر العفو عنك قريباً

٢٤ مارس سنة ١٨٩٦ مصطفى كامل »

الحادث واللورد كرومر

كتب رحمه الله فى يوم ٢٣ مارس سنة ١٨٩٦ خطابا مفتوحا للورد كرومر وقد نشرته جريدة الفاردى لكسندرى فى نفس التاريخ كما نشر المؤيد باللغة العربية تعريبه وهذا نصه :

مصر فى ٢٣ مارس سنة ١٨٩٦

« ياجناب اللورد

« كان شقيقى على فهمى ملازماً أول فى الاورطة الاولى بسواكن ونظراً لثناء رؤسائه عليه ومدحهم فيه طلبه سمو الخديوى المعظم ليكون من رجال حرسه الخاص فعارض السردار فى ذلك الطلب ورفض قبوله وفى شهر نوفمبر الماضي أحيل على الاستيداع وفى ٥ مارس الجاري أرسل استعفاءه من الخدمة للسردار قبل أن يعلم بخبر تجريدة دنقلة . وفى اليوم الثانى علم بها وعاد فى الحال للقاهرة وقدم نفسه لنظارة الحربية لتلقى أوامر السلطات العسكرية وفى الوقت نفسه أرسل إلى السردار كتاباً يظهر له فيه رغبته فى الرجوع إلى الخدمة وفى اليوم عينه عين فى الأورطة الخامسة عشرة برتبته ملازماً أول واستمر يؤدي وظيفته مدة ثلاثة أيام إلا أنه أول أمس جرد من رتبه وسجن بحجة أنه تنحي عن الخدمة فى الميدان.

«ألا إن الأمور التى سردتها لسيادتكم تقوم برهاناً ضد دعوى تنحيه عن الخدمة فان الضابط المستودع الذي يستعفى لا يعد هارباً والهارب لا يطلب من نفسه الرجوع إلى الخدمة عند سماعه خبر الحرب . وليس فى قوانين العالم قانون يعاقبه.

« لذلك أحتج على عقاب رجل ذنبه الوحيد أنه شقيقي وأرجوكم

ياحضرة اللورد ان تعملوا ضدى وحدى إذا رأيتم وجودي فى مصر أو أعمالى فيها مايضر بالأمن والنظام. هذا وأرجوكم أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامي

« مصطفي كامل »

وقد ذيلت جريدة الفار الغراء هذا الكتاب الذي صدرته بمقدمة مفيدة — بما يأتي :

« ونحن نؤمل أن طلب التحقيق الذى تطلبه الجرائد يقبله ناظر الحربية وأن تحقيق هذه المسئلة لايكون إلا فى وجه الضابط علي فهمي بالذات . ولاريب فى أن رجلا تقع عليه تهمة خطيرة كهذه التهمة وعوقب عليها مثل هـذا العقاب الشديد كما اتهم وعوقب شقيق « مصطفى كامل » يجب أن يسمع دفاعه عن نفسه الذى هو أقدس حق من حقوقه الشرعية .

« وإذا رفض طلب تحقيق هذه المسئلة يكون للناس جميعاً الحق في الظن بأن وزارة الحربية لاتريد إبداء أي أيضاح وتبيان حقيقة المسئلة وانها بمعاقبتها على فهمى لم تقصد معاقبة ضابط جني جناية ما بل أرادت أن تضطهد في شخصه بأية وسيلة شخص أخيه الذىهو خصم سياسى للاحتلال وعامل نشيط للتمكين للوطنية فى أنفس المصريين »

❊❊❊

وقد رد اللورد على كتاب المرحوم بأن هذا العزل كان من عمـل الجيش أمام مجلس عسكرى عال وأنه لايمكنه بأى حال من الاحوال أن يتدخـل فى الامر إلى غير ذلك من التمحل غير المقبول. ولوكان اللورد كرومر يريد أن يمثل عدل حكومته فى مصر كما يدعى وكما ملأ تقاريره العديدة بهذه التخرصات لاشار في الحال بعمل تحقيق دقيق ولـكن هكذا أرادت السياسة الانكليزية أن تنتقم من أخ فى شخص أخيه لتقفه من طريق الارهاب والالم عن عمله السياسى . ولـكن خاب فألها فقـد كال المترجم للاحتلال بعد ذلك الصاع صاعين ، لانه لمس ظلمهم بيده وعرف مبلغ مدنيتهم فى معاملة الامم الاخرى .

❊❊❊

وأنا فى غنى عن القول إن هـذا الـكتاب قد أحدث حركة غير عادية في الدوائر الرسمية وكان له من الشأن في ذلك الاوان مالايزال أثره عالقا بالاذهان

وثابتاً فى الصحائف : فان القوم قد تحدثوا به كثيراً وتناولته الجرائد كافة فعلقت عليه الاقوال الضافية . ولاجرم أن حادثا كذلك الحادث كان جديراً أن يكون موضوع الحديث لالذاته ولكن لانه كان مذكراً للمصريين بأن العدل بين يدي الانكليز في مصر اسم لامسى له على الاطلاق !

تناولت الجرائد ذلك الخطاب الرنان بالمناقشة الحادة فانقسمت فيه كعادتها قسمين : إذ أخذت الوطنية منها تطلب إعادة التحقيق أمام ناظر الحربية وقد عضدتها فى هذا الطلب أغلب الجرائد الاوربية المحلية، وأما الجرائد الاحتلالية عربية كانت أو انكليزية فقد كان أمرها عجبا أن أخذت من ذلك الحادث دليلا جديداً على نزاهة الانكليز وعدلهم وأنهم أكثر أهل الارض إنصافا !

وقد قوي الصوت المطالب باعادة التحقيق ولكن الانكليز كانوا قد صمت آذانهم عن سماع ذلك الطلب العدل لان تحقيقه كفيل بكشف الستار الكثيف الذي أسدلوه على الحقيقة الناصعة وهي البراءة وحاشا أن يريدوا ذلك !

هل سمعتم أيها المصريون أورأيتم أن موظفا منصفا يقف ضابطاً على لسان التلفون وفيما بين دقيقه ودقيقة يجرد ذلك الضابط من رتبه إلى مرتبة الجندي البسيط وذنبه أنه شقيق المطالب بجلاء الجنود الاجنبية عن بلاده .

حاشا أن أحتقر مرتبة الجندي فانها مع العدل أشرف من مرتبة الضابط العظيم مع الظلم وانما أنا أحتقر الصوت الذى نادى بوجوب نشر العدل في ارجاء مصر حتى إذا أظلته سماؤها كان خائنا للعهد حانثا فى اليمين !

ألا فاكرهوا الاحتلال أيها المصريون فبقدر كرهكم له يكون حبكم للوطن . اعملوا جهدكم لاخراج المحتل من بلادكم فانكم لاتزالون في أرضكم ضيقة صدوركم دامية قلوبكم حتى ينجلي عنكم بسلام .

إكرهوا الاحتلال وألحوا فى كرهه فقد ألح في إرهاق الجسوم وإذهاق الارواح فأنكم لاتزالون فوق أرضكم وتحت سمائكم وعلى ضفاف نيلكم غرباء حتى يكون الامر لكم وزمامه في أيديكم وإذ ذاك تنالون ماشئتم من العز والسؤدد والارتقاء .

اكرهوه ما استطعتم أن تكرهوا وورثوا كرهه لابنائكم فاننا أشقياء تعساء الحظ مسلوبو الكرامة مادام فينا . اكرهوه لانه قد كره لكم كل ما تحبه الامم أو

تريده لذاتها من حرية واستقلال وسعود وإقبال ، وهو لو أراد لكم الخير لانصرف عن بلادكم بسلام !

إننا نحن المصريين لتحمل صدورنا قلوبا هي أشرف من القلوب التي تحملها صدور قوم يدعون العظمة، ولو كانوا عظاء لاحترموا ما أسلفوا لنا من عهود ووعود !

وإني اقص عليكم قصصا شتى يأخذ المصرى من كل قصة منها مالم يأخذه من غيرها

كانت الاورطة السابعة التى ألحقت بها جنديا بسيطا تعمل فى إنشاء السكك الحديدية بين بلدة «سرس» وبلدة « أبي فاطمة » فكانت كلما أتمت أربعة أوخمسة كيلو مترات انتقل معسكرها إلى رأس هذه المسافة . فلما انتقلنا أول مرة واصطف الجند وأخذنا فى المسير وكل جندى حامل بندقيته وسونكيته ورصاصه وفراشه (وغير ذلك من المثقلات) : رأيت شابا طويلا حسن البزة على جانب عظيم من الخلق العظيم وهو من جنود البلوك الذى أنا فيه . رأيته وقد كاتفني واجتهد فى أن يأخذ طوله فى الصف حتى لا يختل النظام وذلك بأن تقاصر شيئا فشيئا ثم مد يده إلى ذلك الحمل الثقيل الذي كنت أئن تحته ونقله إلى عنقه ووسطه فكان يمثل جنديين فى جندى كما مثل الحب القومى والمروءة العالية فى مصرى . . .

سار هذا الجندى وهو بجوارى فسألته عن اسمه فقال « أحمد القافلة » فحمدته وحمدت قافلة بين أفرادها مثله وأصبحت أسير صنعه الجميل . وقد لبث ذلك الشهم المقدام يقدم لى هذه الخدمة فى كل رحلة من رحلاتنا العسكرية حتى حل يوم اجتيازنا لعطمور أبي «صارى» وهو يبلغ ٢٧ كيلو مترا تقريبا فقطعه وهو مقيد بهذه الاغلال الثقال وكانت الارض رملية والحر شديدا وكنا كلما وقفنا ببلد أو قضينا ليلة فى قرية ذهب ليبحث عن الخضر والبقول ليقدم لى ما غاب عني من طيب الغذاء الى غير ذلك مما لا استطيع أن أفى له شيئا من حق اثناء الجميل .

نعم إن هذا الجندى الكريم لم يتصد لخدمتي الا بأمر من ضابطه الاعلى وهو الاخ الوطنى الفاضل اليوزباشي أحمد زكي أفندي ولكنه أرانى عواطف عالية ليست مما تجرى عليها الاوامر . عواطف مصرية لو صورتها ريشة الرسام لتجلت في منظر يبهر أعين الناظرين .

تلك العواطف التى هي غذاء القومية يجب أن ننميها لانها مكينة كمينة في أفئدتنا

لا ينقصها إلا دروس صغيرة يقدمها الاستاذ عمليا لابنائه الطلبة ، كما يقدم مثلها رئيس المصنع إلى عماله الصناع ، ورئيس المصلحة إلى من يشرف عليهم من الموظفين وقائد الفرقة إلى جنده ، وما الامة إلا مدارس أو مصانع أو مصالح أو جيش على رأس كل منها استاذ أو معلم أو رئيس أو قائد . فاذا عرفت هـذه الرؤوس واجباتها الحقيقية تألف ما بين القلوب وتجاذبت النفوس أهداب الحب ثم رسخت فيها أعراق الفضائل فتكونت تكونا حسنا وكان لها الذكر الجميل فى العالمين .

ليت شعري ما الذى حدا بذلك الجندي الشهم المقدام إلى التضحية بقوته الجسمية ودفعه إلى أن جعل راحته وقفا على راحتي . وأي نفس تلك النفس التى للمروءة فيها أسمى مكان ؟؟

ألا إن المصري الذي لم يطرأ على فطرته طارىء لا مثيل له في كرم الخلق وجمال الطبع . إنه زكي بفطرته ويكاد الكرم يكون عنوان وجوده .

لا ينكر علينا صحة هذا القول أحد وفى كل يوم يقع تحت الحواس ألف دليل ودليل على أن نفس المصري قد ركبت فيها المروءة تركيباً عجيباً وأصبح التسامح خلته التى تفرد بها بين افراد سائر الامم .

ولما كانت الاشياء تتميز بأضدادها فأني كما ضربت هذا المثل علي مروءة المصرى وشهامته اضرب مثلا آخر يبين أنه متى طرأ على فطرته طاريء خرجت عن طورها وزايلتها تلك السجايا الفاضلة والاخلاق النادرة فقد رأيت ضابطا من ضباط الاورطة نفسها عمل عملا شذ به عن عواطف السبعمائة نسمة الذين هم أفراد هذه الاورطة!

مر ذلك الضابط يوما على مطابخ الاورطة بالقرب من نقطة « كوشه » فرأى لى بينها مطبخا ولما تحقق أن فيه غذائى ضرب القدر برجله ضربة الشجاع المقدام فانقلبت وانقلب مافيها رأساً على عقب . ولقد أساء بذلك إلى المروءة كما أنه أساء إلى واجبه ، لان الجندي غير مجبر بحكم القانون علي تناول الغذاء الذى يقدم له من الجيش وإنما هو مجبر فقط على اداء واجبه العسكري . وله أن يأكل ماشاء ويشرب ما شاء مما أحله الله للعالمين ، وذلك هو الحد القانوني العسكرى .

ومن هذين المثلين المتناقضين الذين ضربناهما للقراء نرى أن بين صفوف الفقراء من له قلب يحمل أشرف العواطف ويتأثر بألطف المؤثرات كما أن بين مصاف

الوزراء والرؤساء من يقبل الارض ليرقي سلما . وأنه ظاهر من المثل الاول أن من الجند من يؤدي أكثر مما يجب على الاخ نحو أخيه وقت الشدة ، ومن المثل الثاني أن من الضباط من لايكتفي بما يأتيه من قصور بل يضيف إليه الاساءة إلى المظلوم بلاسبب . وان الاباء والذل لايجتمعان في نفس واحدة وثمين الجوهر لاينقص من قدره أن الوسط الذي يعيش فيه وسط غير صالح .

وأننا مانشرنا هذا الحادث فى سيرة المترجم إلا لندل على مبلغ تأثيره فى نفسه وليكون فكاهة من فكاهات ظلم المحتلين . . .

***

ولقد بلغ من عناية الصحافة الفرنسية بشأن المترجم أن نحو مائتى جريدة قد خاضت غمار هذا الحادث وبينت مافيه من الظلم وتممد الاساءة وكلهاقدأجمع على أن المقصود من هذا الظلم البين انماهو الانتقام من شخص المترجم على أمل أن يخفت صوته أو يلين جانبه ولكنه لم يكن من هذا الطراز . وقد كان لصيحة هذه الجرائد صوت رن فى الآفاق كافة وعرف الناس قاطبة أن الاصلاح الانكليزي سداه ولحمته الظلم الصارخ وأن هذه المظاهر ظواهر لاينخدع بها إلا السذج والبلهاء !

ومما يذكر في هذا المقام أن كل الجرائد التى كتبت فى هذه المسألة قد نقلت ما كتبته جريدة الماتان وجريدة (السياسة الاستعمارية) التى قالت في عددها الصادر بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٨٩٦ بعنوان « انتقامات انكليزية » ماترجمته بالحرف الواحد :

« لقد انتقم اللورد كرومر بصفة غير لائقة من المعارضة التى يبديها فى سياسة مصر (مصطفى كامل) المصري الطائر الصيت .

« وبيان ذلك أن مصطفى كامل أخا اسمه علي فهمي كان ملازما أول فى الاورطة الاولى بسواكن . ولما كان مصطفى كامل يخطب فى فرنسا الخطب الجليلة دفاعا عن مصر . كان الانكليز فى سواكن يسيؤن معاملة أخيه أشد الاساءة باعتبار أنه راض عن خطة شقيقه ومروجا لها بين الضباط وأخيرا أحيل على الاستيداع فى شهر نوفبر بلا سبب شرعي . .

« ومن ذلك الحين أخذ علي فهمى يدرس علم الحقوق في المدرسة الفرنسية . ثم رفع فى ٥ مارس الماضى استقالته إذ لم يكن يعلم كغيره بامر الحملة على دنقله فلما علم

بأمرها توجه للسردارية واسترد استقالته . وفي الحال صدر له الامر بالتوجه إلى أورطته ليؤدى بها وظيفته الا أنه بعد ذلك سيق امام مجلس عسكري (!!!) وحكم عليه في الحال بالسجن والتجريد من رتبه بحجة أنه حاول الفرار من الخدمة .!

« ولاشك أن كل من يطلع على هذه الحادثة الغريبة يحكم بان الدناءة والوقاحة لم تكونا من جانب المحكوم عليه السيء الحظ !!! »

***

هذه بعض آراء الجرائد وما كتبته في هذا الحادث . أما أصدقاء المرحوم من المصريين فقد رأى فريق منهم أنه إذا استمر فى عمله السياسى يضر بعائلته كثيرا إن لم يضر نفسه أيضا ولذلك كان بعضهم ينصح له بأن يصافى الانكليز. ومما يدهش القارىء أن هذا البعض كان يتظاهر بوطنية تفوق وطنية جاريبالدى الايطالى . وكان المرحوم يقابل قول هؤلاء الجبناء بالاحتقار والازدراء واستمر فى عمله قوى القلب عالي الرأس لان الحياة بلا وطنية ليست ألا موتا مرذولا وعارا أبديا !

***

حديث على بعد المزار

« فى الحملة الدنقلية »

لما قررت حملة دنقلة أرسل مدير جريدة « الا كلير » الباريسية الشهيرة كتابا إلى المرحوم يسأله رأيه عن هذه الحملة ورأي المصريين فأجابه عن سؤاله بجواب نشرته جريدة « الا كلير » فى عددها الصادر بتاريخ ٧ أبريل سنة ١٨٩٦ وها هو تعريب ما جاء فيها بعد كلام من عندها :

« وسواء كان الايطاليون فى كسلا أو لم يكونوا فيها وسواء كان الدراويش هم الغالبون أو هم المغلوبون فان الحديث الذى يقرأه القراء هنا والذى جرى على بعد يفيدهم أعظم فائدة . والذى تكرم علينا بهذا الحديث هو (مصطفى كامل) المصرى الوطنى الصادق العزيمة .

« سألناه - هل المصريون مرتاحون لامر الحملة السودانية ؟

« فأجاب عنه : كلا . يعلم المصريون اليوم أن انكلترا لا تريد بارسال الجنود

المصرية فى السودان إلا إطالة أمد الاحتلال الانكليزى إطالة لانهاية لها . فهم يبكون أبناءهم وأخوتهم الذين سيضحون فى سبيل تحقيق مقاصد الانكليز وليس بكاؤهم لأقاربهم عن ضعف فى قلوبهم أو عن جبن . بل على العكس فأن المصريين يعدون أنفسهم سعداء لو كان أبناء الوطن ذاهبين لان يكتبوا بدمائهم صحيفة فخر ومجد لمصر ويردوا «السودان للمصريين» لا « للانكليز» ! ولكن المصريين تعلموا من التجريدات التعسة في أعوام ١٨٨٣ و ١٨٨٤ و ١٨٨٥ أن أقاربهم حاربوا ويحاربون السودانيين لمصلحة إنكلترا وحدها .

« يقول الكثيرون هنا إنه ليس ببعيد عن مرامي الانكليز أن يكون المقصد من الحملة إبادة الجيش المصرى والاضطرار عندئذ لانشاء جيش جديد مما يحتاج لاعوام وأعوام كما وقع فى الايام الغابرة إذ احتلوا مصر .

« والذى يزيد هذه الفكرة قوة ويحمل على قبولها هو مايحسه المشتغلون بالسياسة فى مصر من أن انكلترا تفتح باب المسئلة السودانية عندما تطالبها أوربا — وفرنسا على رأسها — بالجلاء عن مصر !

« وبالاختصار أقول إن المصريين غير راضين بالحملة ويخافون أن تنخدع أوربا أيضا هذه المرة . والمصريون كافة يقولون اليوم ويكررون هذه العبارة : « إنا نريد حقا استرداد السودان ولكن قبل استرداد السودان نريد استرداد مصر نفسها »

« كيف يسترجع السودان ؟ لا يسترجع السودان بالحرب . إن السودانيين الذين هم إخوان المصريين مسلمون متعصبون فى الدين وذوو صلابة وعناد فهم لم يقبلوا ولن يقبلوا أبداً أن تحكمهم انكلترا .

وأول نتيجة لجلاء الانكليز عن مصر تكون استرداد السودان بلا حرب ويكفى أن يعلم السودانيون أن الانكليز قد تركو وادي النيل ليعودوا تحت راية مصر التى هى راية خليفة الاسلام وراية بلادهم.

« وأنا بمحاربتنا لهم اليوم نحملهم على أن يعتبرونا أصدقاء أوفياء لانكلترا وبذلك لا يعتبروننا مسلمين ويحملون الضغينة ضدنا إلى ماشاءالله

« واقد أوضح هذه الحقيقة بكل صراحة الغازى مختار باشا ـ وهو الرجل العظيم الكفاءة فى مثل هذه المسائل ـ فى تقريره الذى كتبه فى عام ١٨٨٦ عند ماأرسله الباب العالى بقصد تسوية مسئلة مصر مع السير درومند وولف!

« وما هو مقصد انكلترا الحقيقى ؟ وماذا تكسب إيطاليا من هذه التجريدة ؟

«لقد أحسنت انكلترا اختيار الفرصة فانها لما رأت إيطاليا مغلوبة النجاشى ظهرت فى الميدان وأعلنت رغبتها الكريمة فى إنقاذها . . . .

وكيف ذلك ؟

« بتجريدة على دنقلة..ولكن كسلا لاتنقذ بواسطة دنقله ؛ لانه يلزم على الاقل مسيرة خمسين يوما للذهاب من كسلا إلى دنقلة ولا نظن أبداً أن الدراويش يتركون كسلا ويسيرون خمسين يوما للمدافعة عن دنقلة . وإذا كانت انكلترا تريد حقيقة خدمة إيطاليا كان يجب أن تسير التجريدة من سواكن الي (بربر) التى هى أهم كثيرا من دنقلة والتى هى على بعد اثنى عشر يوماً من كسلا

« وعلى ذلك لاتكسب إيطاليا شيئا من هذه التجريدة ومن الذى سيكسب اذاً من كل ذلك ؟ انكلترا وحدها!

« وبما أن التجريدة سائرة فماذا يكون ؟ يكون ولا شك أحد أمرين إما انتصار جنود مصر وإما انهزامهم، فان انتصروا فدنقلة تكون المحطة الاولى وانكلترا تظهر وقتئذ الحاجة للتقدم نحو الامام لاسترداد السودان كله،وإن انهزموا تضطر انكلترا إلي المدافعة عن مصر بنفس جنودها وتعمل لتنظيم جيش جديد . الامر الذى يؤجل فى الحالتين ميعاد الجلاء .

« ولا تنسى أن المال والرجال لازمان فى الحالتين . وعلى فرض أن صندوق الدين يدفع الخمسمائة ألف جنيه المطلوبة منه فمن المستحيل أن يدفع فيما بعد غير ذلك مما يجبر انكلترا على أن تنفق من جيبها الخاص . الامر الذى يزيد الاحوال تعقيداً !

« أما من جهة الجنود فالجيش المصرى لايكفي أبدا لقهر السودانيين وانكلترا مضطرة لان تكمل قوته بجنودها وهذامما يزيد الامور تعقيداً على تعقيد وينشىء المشاكل فوق المشاكل (١)

«ومن ذلك كله ترى أن الحملة السودانية تعسة مشؤومة والحنق العظيم الذى يتظاهر به المصريون الآن على الاحتلال ليس فى غير موضعه

« وقبل الختام أذكر لك أمرا غريباً : وهو أن انكلترا تدعى أمام أوربا أنها ذاهبة إلى السودان لنصرة ايطاليا وتوعز هنا لوزراء مصر ان يجيبوا عن إحتجاج جلالة السلطان ضد الحملة « أنها لم تسر إلا لأن الدراويش

---

(١) لقد أنشئت الشركة بين مصر وإنجلترا إسما فى السودان وإنجلترا منفردة فيه فعلا . فلا حول إلا بالله !

مشغولون بكسلا عن غيرها وليس من مدافع عن دنقلة . . » أليس هذا الامر غريبا ؟

«أوليس أغرب من ذلك أن الايطاليين لايزالون يظنون أن انكلترا ذاهبة الى السودان لاسعافهم ! ! !

«ولنفرض أن انكلترا ذاهبة حقا لانقاذهم . أليس حقيقة من الامور القاسية التي يرفضها العقل أن المصريين الذين سلبهم الطليان كسلا يذهبون لانقاذهم فى كسلا نفسها !

« وأنى أعتبر الحملة على دنقلة بمثابة تهييج للأمم الاسلامية بأفريقيا . فان هذه الامم على جانب عظيم من التعصب والصلابة ومن مبدأ الاحتلال الى الآن لم تحج الي مكة مع بقية الامم الاسلامية بسبب سد طريق مصر فى وجوهها وهي لذلك ناقمة على مصر وتنتظر الفرصة المناسبة للهجوم على بلادنا رغبة فى تأدية فريضة الحج.

«وإنى أخاف أن تهيجهم الحملة على دنقلة وتكون بسبب ذلك مبدأ أعظم المصائب وأشد البلايا !

« وعلى كل حال فهذه الحملة لاتجدى مصر نفعا بل على الضد تغنم منها انجلترا كل الغنم بينما تخسر مصر خسارا كبيراً . . »

***

ظن أعداء المرحوم وفى مقدمتهم المحتلون أن حادثة الجيش التى نصبوها لى تفل من عزمه أو ترعبه فترجعه عن عمله فلا يسمع الانكليز صوت مصرى يحتج ولا برهان صديق يدافع فأخذوا يكتبون المقالات الضافية موجهين إلينا كل صفات الذم التى ينفر منها الحر الكريم حتى صرحت احدى جرائد المحتلين بأن هذا الحادث قد أخفت معه صوت ذلك الوطني الكبير ؟

ولكن المرحوم وجسمه مصرى ودمه مصرى وقلبه مصرى وقضيته مصرية لم يجد فى هذا الحادث إلا برهاناً جديداً على أن عمله منتج وأصر على أنهم لو قطعوا أفراد عائلته من الكبير إلى الصغير أمام عينيه إربا إربا فلا يتغير له اعتقاد ولا يحين له قلب ولاينثني له عزم عن مواصلة الدفاع عن حقوق الوطن !

قدم على أثر هذا الحادث برهانا على قوة إيمانه ووطيد ثباته وحبه لبلاده فأعلن بناء على دعوة الاوربيين القاطنين بمصر أنه سيلقى بالفرنسية خطبة فى مرسح زيزنيا فألقاهاوقد كان لها دوي فى العالمين !

* * *

بعد أن ألقى المرحوم خطابته بالاسكندرية عاد إلي مصر وكتب إلي خطابا جاء فيه ما نصه :

« ألقيت فى مساء ١٣ الجاري خطابا باللغة الفرنسية بمرسح زيزنيا بالاسكندرية ذكرتك فيه وأشهدت الله علي أن وطنيتي التي لاتزعزعها قوة الجبابرة أوسلطة القياصرة سائرة فى طريقها دفاعاً عن وطن لاعز لنا إلا برفعة شأنه .

« إني أشعر أيها الأخ العزيز بانحطاط فى قواي ولذلك قد عولت على السفر إلى الريف لأرتاح هناك شهراً على الاقل .

« وستظهر فى هذين اليومين مجموعة تشتمل على عملى مدة عام وقد أنشأ مقدمتها حضرة الصديق الحميم الاستاذ محمد مسعود صاحب جريدة منفيس (مدير قلم المطبوعات) فيما بعد وسأرسل لك نسخة متى تم طبعها .

« إنى أؤمل أن سينالك عفو قريب وتترك خدمة الجيش المصرى الذى أصبح فرقة إنكليزية لا مصرية . وأؤكد لك أن اعتقادى فى عمله خيانة للوطن المصرى . . . . . .

الجمعة ١٧ أبريل سنة ١٨٩٦ مصطفى كامل »

ظهرت بعد ذلك مجموعة أعمال المترجم فى ١٠ مايو سنة ١٨٩٦ معنونة : « مصر والاحتلال الانكليزى » . وقد جاءنى خطاب منه بعد ظهورها قال فيه :

« إليك عملى فى عام . ماظهر هذا السفر الصغير وجعلت ثمنه ١٥ قرشاً حتى أقبل عليه مواطنونا الكرام إقبالا يفوق الوصف وقد طبعت منه ستة آلاف نسخة . وأني أؤكد لك أن بوادر الاقبال ستضطرني لطبع عدد آخر مثل هذا »

وفى الحقية فان هذه المجموعة الوطنية قد طبعت مرتين وبلغ ما طبع منها عشرة آلاف نسخة . وهو إقبال لم يره أى مؤلف آخر . . .

ولقد كان هذا الاقبال سببا من أسباب تشجيع المترجم وبرهانا قائما على أن في الامة حياة كامنة يظهرها القول الحق والجرأة الصادقة .

ولما كانت المقدمة التى توج بها هذه المجموعة — منذ ثلاثين عاما — حضرة الكاتب البليغ محمد مسعود بك من الاعمال الوطنية المشكورة رأينا أن نثبتها هنا اعترافا بفضله ومثالا ناطقا على التضامن الجنسى ومحبة الوطنى للوطنى وهذا نصها :

إلى أبناء مصر

« هذه مصر ياأبناءها الاعزاء قد أمضت فى أغلال الاحتلال سنوات عديدة ذاقت فيها مرارة الاستعباد ولم يعن لخاطر واحد منكم أن يقوم أمام الملأ الاوربي ليوفيها عهد الاخلاص والولاء بأداء ماينبغي لها من الواجب المفروض ، حتى مهد للدخلاء سبيل الطعن في كفاءتكم وملأوا الآفاق نعيا مزعجا للخواطر بدعواهم أن لاوطنية فى مصر تنزل منها ومنكم منزلة الصلة المتينة بين الام الرؤوم والولد البار ، وطوح بهم الاستخفاف بكم إلى حد أنكروا معه صفتكم المصرية وما حزتموه من قصبات السبق فى ميادين العرفان ، وعزوا كل ذلك لانفسهم قحة منهم وعدواناً .

« وقد كاد اليأس الشديد الناتج عن سوء هذه الحالة يتدرج بالمصريين من حيث لايشعرون إلى تصديق تلك الاقاويل حتى قيض الله لهم ذلك المصرى الصادق

والشهم الغيور « مصطفى كامل » الذي طار صيته في الآفاق وأخفت ظهوره في طليعة الشبيبة المصرية حاملا (لواء) النهضة الحديثة تلك الاصوات المزعجة التى أجفلت منها الآذان وأسدل دونها ستر المسامع . وكان في حين واحد برهاناً ناطقاً بصدق إخلاص المصريين لمصر وضربة قاضية على من يؤيد العكس جرا لمنفعة خاصة .

« نبغ هذا المصرى الشهم الهمام من مدارس مصر وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة بمتابعة الدراسة فى فرنسا حتى نال الشهادة الناطقة بفضله وقوة ادراكه وشدة ذكائه وحدة فهمه . وقد كان كافة اساتذته وأقرانه يعترفون له بهذه النعوت الكاملة وبما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق حتى يستميل إليه القلوب النافرة ويرد الاهواء الشاردة .

« ولقد كان فى استطاعته بما فى يده من الشهادات الناطقة بفضله أن يلج أبواب الحكومة أو يزاول مهنة تؤهله لها المزايا الجليلة التى خص بها وفاق أقرانه من جيلنا الحديث، ولكنه طلق المنفعة الخاصة بتاتا وآلى إلا ليضحي بنفسه على مذبح الخدمة الوطنية ولو كلفه ذلك ما كلف . ولذا غادر بلاده وأهله وإخوانه وسافر إلى الارجاء الاوربية للذود عن حقوق هذا الوطن واستنهاض الهمم الفاترة إلى خدمة المسألة المصرية وإيقاظ رجال السياسة الاوربية من سنة تغافلهم عنها ولفت أنظارهم إلى ما يجلبه الاحتلال الانكليزى من الاخطار على السلام العام والمدنية الاوربية . وقد كان هذا الحث والتحريض والايقاظ والتنبيه موضوع كتابات جليلة وخطب مهمة ألقاها على مسمع من أكابر رجال السياسة فى أوربا متضمنة شرح الاحوال الحاضرة فى مصر بعبارات صريحة وحجج بالغة . ولم يلق خطبة إلا فازت بالاستحسان التام من الحاضرين ولذا كانت الجرائد المهمة والتلغرافات العمومية تتناول أهم شذراتها وتشفعها بالشروح وتعلق عليها الآراء التى دلت على وجود رأى عام فى فرنسا والروسيا وغيرها يذهب إلى الحكم بضرورة الجلاء عن هذا القطر .

« ولو أعار القارىء المنصف هذه التقلبات قسطاً من الالتفات واعترف ضميره بأهميتها للوصول إلى نيله المأمول من حل المسألة المصرية لجزم معنا بان هذا الحل يتوقف على أمر واحد هو التوسل إلى الدول الاوربية واستنجادها فى هذه الملمة .

« يعترف القارىء المنصف اعترافا لا تشوبه مداراة أو مواربة بان الموجد لهذه

الحركة الفكرية القوية إنما هو ذلك الذي ينبغى أن يكافئه كل وطني بالاقتداء به وسلوك منهجه القويم . وما هذا المنهج القويم ؟ هو صراط مستقيم يهتدى إليه كل من اجتمعت فيه مزية الاقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة فان هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الانسان التوفيق بتوافرهما فيه أوصلتاه إلي سدرة منتهي الغايات المحمودة والمقاصد السنية وسخرتا له كل الوسائط لتذليل الصعاب وتمهيد العقبات ورفع الموانع .

« وقد أتيح لوطنينا الجليل أن يكون له الحظ الأوفر والقسط الرجيح منهما ولذلك نراه قد ذلل الصعوبات وكبح منها الجماح بعنان الرشد وحسن التدبير . أنظر كيف أنه لما ألقى خطبه النفيسة فى أوربا وأعلن للملاء كله أن لاأمنية للمصرى غير الجلاء والحرية ، كان الدخلاء حساده ومبغضوه يذيعون عنه أخبارا تشف عن سوء ضميرهم وسواد قلوبهم ويذهبون إلى استحالة عودته إلى مصر أو أنه إذا عاد إليها لايعمل شيئا وأكثروامن الخلط والخبط فى هذا الموضوع . بيدأنه لما عاد إلى الوطن العزيز وتكلم ضد الاحتلال بنفس اللهجة التي كان يتكلم بهافى أوربا ثم جرد أخوه الضابط من رتبه وأنزل إلى درجة العسكرى البسيط ، مع تحليه بالعلوم والمعارف ، عملا بالتقاليد الانكليزية المنسوجة على منوال خرافة « الذئب والخروف » قالوا صيحة واحدة هذا هو القضاء المبرم والبلاء الذى لايرد فلما ألقى هذا الوطنى الصادق الوطنية خطبة الاسكندرية باللغة الفرنسية عقب ذلك — وهى باتفاق الآراء أجل خطبه وأجملها وأشدها وقعا فى النفوس مع رشاقة ألفاظها وقوة معانيها — لم ينبسوا بكلمة واحدة لما كساهم من الخزي والخجل . ولا بد أن يلبثوا على هذه الحال إن كان يجرى في شرايينهم مثقال ذرة من الدم الشريف .

« علم مما سلف أن الاقدام والوطنية الصادقة شرطان لازمان للمصريين إذبهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين انقذوا أوطانهم من ربقة الاستعباد فخلدوا في تاريخ أممهم وتاريخ الحرية الذكرى الحسنة وتركوا للاعقاب أثراً جميلا ومثالا يقتدون به وينسجون على منواله .

« ولا بدع إذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنيهم العظيم وخطيبهم المفوه المصقع منزلة فى تاريخ مصر كمنزلة أولئك العظماء في تواريخ بلادهم . فكلهم ابتدؤا كما ابتدأ وربما كان عملهم فى المبدأ لم يصادف من النجح والفوزماصادفه «مصطفى كامل»

فى فاتحة أعماله الجليلة التى نقدمها اليوم للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية فى عامه السياسى الاول .

« وقد احترزنا عن إيراد ما كتبته جرائد العالم من الشروح على كتاباته وأحاديثه وخطبه خوف التطويل واكتفاء بها وحدها دليلا صادقا وبرهانا ساطعا على صدق وطنيته وعظيم إقدامه .

« وقد أردت بجمع هذه المجموعة ان تكون للامة المصرية مثال الصدق والاخلاص والاقدام والثبات وباعثا لكل ذي إحساس شريف وجنان قوى على اتباع تلك السبيل التى أعجب بها كل العقلاء

(محمد مسعود)

مصر فى ٤ مايو سنة ١٨٩٦ مدير جريدة منفيس

***

قلق المرحوم لعدم العفو عني فكتب خطابا إلى رئيس الديوان الخديوى يطلب فيه التشرف بالمثول بين يدى سمو الامير لامر يهمه ، وقد جاء إليه الرد بالقبول وتحدد يوم الخميس ٩ يوليه سنة ١٨٩٦ للتشرف بمقابلته . فسافر رحمه الله إلى الاسكندرية وقصد إلى سراي رأس التين فى الساعة الثالثة بعد الظهر وقد كتبت الاهرام بهذه المناسبة فى محلياتها:

« تشرف بعد ظهر أمس حضرة الوطنى مصطفى افندي كامل بالمثول بين يدى سمو الخديوى المعظم فى قصر رأس التين العامر فى مقابله خاصة لقى فى خلالها من سمو العزيز ما اطلق لسانه بالامتنان والدعاء فنحن نهنيء حضرته على ما ناله من رضا الامير المعظم وثقة أبناء الوطن به راجين مثل ذلك لكل وطنى عامل فى خدمة القطر بالاجتهاد والاخلاص »

وما نشر هذا النبأ حتى تناقلته كافة جرائد القطر ما عدا الاحتلالية منها فأنها انتظرت أوامر الوكالة البريطانية !

وماعلم المعتمد البريطانى بهذه الزيارة حتى قصد إلى سموه وأظهر له تألم السياسة الانكليزية من استقباله « مصطفى كامل » بما أنه عدو الاحتلال . فقال له الامير:

« إن مصطفى كامل » مصرى ككل المصريين له الحق فى أن يشكو إلي ظلامته . وأنه إذا كان جنا بكم قد قال بملء فيه إن أبواب الوكالة

البريطانية مفتوحة لكل مصري يشكو أو يتظلم ، فكيف لا يكون باب العرش في هذه البلاد مفتوحا كذلك لجميع المصريين وفيه تاج الأمة بأسرها » .

وقد أفحمت هذه الكلمات اللورد فعاد من حيث أتى ولم يجد أمامه ما ينتقم به إلا عباد الاحتلال وهم وسطاء السوء الدخلاء فينا ، فأخذوا يشنون الغارة على أمير البلاد والوطنيين المصريين !

وقد كتب إلي رحمة الله خطابا عقب هذه المقابلة قال فيه :

« قابلت رسميا سمو الخديوى المعظم وعرضت عليه مسألتك وقد وعدني خيرا . أما الاحتلال فأنه متغيظ من هذه المقابلة وقد احتج عليها اللورد كرومر وسأخبرك بمشيئة الله عن كل ما دار . وأملي أن العفو يكون قريبا . . . .

مصطفى كامل »

الأحد في ١٢ يوليه سنة ١٨٩٦»

***

صدر عفو الامير عني (وهو عالم ومعتقد أني مظلوم) وبلغ لرئيس الجيش كتشنر باشا وقد نشرته جريدة الاجيبشيان غازت التي (هي لسان حال المحتلين) في ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٦ . ولكن يظهر أن السردار وهو كما عرف القراء كان رئيس المجلس الذي حكم بعزلي جورا قد وضع أمر العفو في جيبه ولم ينفذه إلا في يوم ٤ أكتوبر (أي بعد شهرين تقريبا) .. !

***

أبحر المترجم إلى مرسيليا على باخرة نمسوية في يوم السبت أول أغسطس سنة ١٨٩٦ . فودعه على رصيف الميناء خلق كثير من الكبراء والفضلاء وقدم له

الوطنيون الاسكندريون طاقات الازهار سائلين الله أن يكلل سفره بالنجح التام ، فتقبل منهم هذه العواطف الاخوية بكل انشراح .

وما وصل إلى مرسليا حتي بعث برسالة برقية إلى صديقه الحميم وصديق مصر والمصريين المأسوف عليه المسيو برشيه (الذى كان مديرا لجريدة الجورنال ايجيسيان) لينتظره فى محطة باريس . ولما وصل إليها رتب أعماله مع ذلك الصحفى العظيم المخلص فى عمله نحو مصر والذى كان يعجب به الكثيرون من أبنائها أيما اعجاب .

وماوصل إلى باريس حتى كتب إلى مدام جوليت آدم مكتوبا هذا تعريبه :

« باريس فى أول سبتمبر سنة ١٨٩٦

« سيدتى المديرة المبجلة

« لم أكد أصل إلى هنا حتى قصدت فى الحال شارع مالزرب (فيه قصر مدام جوليت آدم الباريسى) لاقدم اليك واجب احترامى ، ولاصافح يدك الكريمة العادلة التى طالما حركت القلم للدفاع عن قضية بلادى السيئة الحظ . ولكن هذا ما أسفت له إذ علمت أنك في جهة الجنوب فهل تسمحين لى أن أقدم لك فيها فائق احتراماتى . . . . »

وكان أول عمل عمله فى هذه السياحة أن استعد لخطاب عظيم جمع فيه كل مساوىء الانكليز واعتزم إلقاءه فى برلين عاصمة المانيا ، ولكنه بعد ذلك عدل عن برلين لانه شعر بأن بلاغة الخطيب لا تؤثر فى سامعيه إلا إذا كانت بلغتهم وأغلب الالمان يجهلون اللغة الفرنسية .

وقد كتب إلي خطابا من باريس وصلنى فى فريج إحدى قري مركز المحس بمديرية دنقلة وهذا نصه :

« أخى . . . .

« أقبل وجنتيك ألفا وأهدي اليك أشواقا لاقدرة لقلمى على تكييفها

وبعد فقد وصلت إلي باريس أمس فاستقبلني المسيو برشيه الذى كان فى انتظاري بالمحطة استقبالا جميلا وقصدت فى الحال إلي الفندق ورتبت أعمالى وفى عزمى أن ألقى خطبة ببرلين.

« تركت مصر وأنامتألم من أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالوطنية الكاذبة حتى إذا ما أصابك حادث الجيش جبنوا وفرعوني تقريعا سيؤاخذهم عليه الوطن فى يوم من الايام. ولكني من جهة أخري مرتاح جداً للاقبال العظيم الذى صادفته فى نشر كتابى « مصر والاحتلال » فأن القوم أقبلوا عليه إقبالا كبيرا لم يحلم به أكبر المؤلفين بمصر. وفي هذا أقوي دليل على أن الوطنية الحقيقية كامنة فى القري أكثر منها فى العواصم.

« وأؤمل أن يصل إليك خطابى هذا فيجدك قد شملت بعفو الخديوى وعدت إلى مرتبتك الاولي. لان سموه قد وعدنى وعداً صادقاً أنه سينظر فى مسألتك قريبا وأنى لمنتظر من مصر هذا النبأ السار بصبر نافد.

« لا تتأخر عن مراسلتى «وقد ذكر هنا عنوانه» ولا تنقطع خطاباتك عن العائلة لتطمئن السيدة الوالدة التى قاست بسبب مسألتك أشد الآلام والتي لا تزال مريضة بسببها وهى تنتظر رؤيتك فى أقرب آن. وأنى أوصيك ألا تقدم استعفاءك مرة أخري إذا نلت العفو إلا إذا وضعت الحرب أوزارها لأنه ليس ببعيد على المحتلين ـ وهم من الظلم على ما عرفت ـ أن يجددوا آلامنا مرة أخري.

« ولكن هذا لا يمنعك من إخبارى إذا وجدت الفرصة سانحة والقانون العسكرى يسمح لك بذلك.

«وأرجو منك أن ترسل إلي أسماء الضباط والجنود الذين ساعدوك في نكبتك الاحتلالية مهما كان عددهم حتى استحضر لهم معي ما يليق بمقامهم ومروءتهم من الهدايا .

« وأني لواثق بأن صلاحك وإخلاصك للخالق سيشفعان لك عنده وأنت الصالح المظلوم وسيقتص بعدله من الظالمين . انه نعم المولي ونعم النصير . .

« لو كان في بلادنا أيها الاخ المحبوب مجلس نيابي ١ ما كنت وقعت في هذا الشرك الغادر ، ولكان التحقيق أعيد مرة أخري. هذا ما يقوله كل فرنسي من أصدقائنا هنا :

« وفي الختام أسألك أن تكتب إلي طويلا وسأخبرك بكل شيء ودمت لاخيك المخلص مصطفى كامل »

باريس ، الجمعة ٧ أغسطس سنة ١٨٩٦»

***

إنتهزت جريدة الليبر بارول الفرنسية الشهيرة فرصة وجود المرحوم في باريس وأوفدت إليه أحد محرريها لمحادثته وقد كتبت في عددها الصادر يوم الاثنين ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ ما تعريبه :

« إن حوادث الاستانة بفتحها باب المسئلة الشرقية لفتت الانظار إلى حالة مصر : فماذا يظن المصريون الآن ؟ وماذا يؤملون ؟ وما مصير مقام فرنسا على شواطىء النيل ؟

« ولقد رأينا أن رأي مصري كبير في هذه المسائل كلها يكون مفيدا للغاية ولذا انتهزنا فرصة وجود « مصطفى كامل » في باريس الآن لنسأله رأيه في هذا الشأن . وهو كما لا يخفي على القراء ذاك الوطني المصري المشهور بقوة دفاعه وشدة غيرته

على استقلال بلاده . وها هي التصريحات التى صرح لنا بها. وأنها لتعرب بحق عن إحساس الامة المصرية بأسرها ، سألناه :

ماذا يرى المصريون الآن فى مسألة بلادهم ؟ ؟ فقال :

« إن المصريين لم ييأسوا من الخلاص ولن ييأسوا ولكنهم ينظرون إلى المستقبل بقلق شديد . فأن أعمال انكلترا ومطامحها على شواطيء النيل أصبحت مشهورة عند كل إنسان . وليست مسألة مصر اليوم بمسألة الاحتلال الموقوت ، بل أصبحت مسألة ترك مصر للانكليز ؛

« فهل تترك أوربا وطننا لانكلترا أم ترده الينا ؟ أما كره المصريين للاحتلال فيتزايد من يوم لآخر . وقد علمنا الآن حق العلم أن انكلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها « الشرف البريطاني » للوصول إلى غايتها فى مصر وليس لها من غاية هناك سوى الاستيلاء عليها ! !

« وأنه إذا كانت الامة المصرية ساكنة اليوم سكونا تاماً وصابرة صبراً جميلا فاني لا أستطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين »

وماذا يظنونه فى فرنسا بمصر ؟ ؟

« يسوءنى أن أقول لك جوابا عن سؤالك هذا أن احترام فرنسا فى مصر قد ضعف إلى حد معلوم ذلك لأننا . ما رأينا من فرنسا منذ أربعة عشر عاما إلا فشل سياستها المتكرر فى مصر . فمثلا حينما تقررت حملة دنقلة كنا معتقدين أن فرنسا تعمل « عملاما » ضد هذا القرار وقد انتظرنا ذلك ولا نزال ننتظر ! ! !

« وأنى أعلم أن فرنسا لا يمكنها أن تعلن الحرب لاجل مصر ، بيد

أنها مع محافظتها على السلم وبمساعدة الروسيا يمكنها أن تعمل كثير . وفضلا عن ذلك فمن عادة الانكليز ـ وذلك أمر مشهور ـ أن يذعنوا ويطأطئوا رؤوسهم للقوانين الدولية متى كلمهم خصمهم بصوت عال »

وماذا يرى مسلمو مصر فى أوربا ؟

« يرون أن أوربا متعصبة عليهم إذ أنها فى كل المسائل المتعلقة بالمسيحيين تنفعل وتجتمع وتتفق على العمل لمصالحهم ويجاهر ساستها بحب الانسانية والمدنية والحق وذكر المعاهدات. ولكن عند ما يكون الامر متعلقا بأمة معشر المسلمين فالانسانية والمدنية والحق واحترام المعاهدات وكل شيء من هذ القبيل تجهله أوربا كل الجهل ! ! ! !

« لماذا تجبر أوربا الدولة العلية على احترام المادة «٦١» من معاهدة برلين «المتعلقة بالارمن» ومعاهدة هاليبا «المتعلقة بالكريديين» ولا تجبر إنكلترا على احترام المعاهدات المختصة بمصر ؟؟؟

«هذا وقد تكلم معنا مصطفى كامل بعد ذلك عن تجريدة السودان والوسائل التى يستخدمها الانكليز للحصول على المال اللازم وسنعود للكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى.

« والذى يستنتج بكل وضوح من كلام هذا المصرى النابغة والوطنى الصادق هو خيبة سياستنا فى مصر . وهذا ما يحملنا على القول بأن وزراءنا فى كل أمرهم أقل مما يجب أن يكونوا ! » .. اه

***

وكذلك نشرت جريدة (الاكلير) الفرنسية الشهيرة فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦ تحت عنوان (حديث مع مصطفى كامل) ما تعريبه :

« دخل الانكليز مصر القاهرة في يوم (الخميس) ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ومضى عليهم ١٤ عاما لم تسألهم أوربا فيها الجلاء عنها احتراما لوعودهم المؤيدة لذلك بعد توطيد الامن إلا بكل فتور و بلاجدوى ؛

« قد تألف في بلاد مصر — التى هي الصلة بين آسيا وافريقيا والتى أصبحت بوضعها الجغرافي وبمدنيتها المتقدمة على مدنية الكثير من البلاد الاسلاميه قلب الاسلام — حزب وطني على رأسه رجال تربوا فى أوربا وعلى الخصوص فى فرنسا .

« ولقد أدرك الوطنيون المصريون بمهارتهم الشرقية أسرار السياسة الاوربية وعرفوا الاسباب الحقيقية التى تجعلها عاجزة عن العمل على تخليص بلادهم . وأخذ يتلاشى من نفوسهم أملهم فى الخلاص على يد الدول الاوربية . ولكن كانوا حزب صبر وانتظار . ولا يبعد أن يصيروا يوما من الايام حزب أعمال ذات بال وآثار .

« ولقد تقابلنا مع (مصطفى كامل) الذى هو من أشد الوطنيين المصريين غيرة والذى صار فى أوربا ترجمانهم الناطق بلسانهم ، وقال لنا ما يأتى فى شأن تذكار ١٤ سبتمبر (أي تذكار دخول الانكليز منذ أربعة عشر عاما مدينة القاهرة) :

١ — يوم ١٤ سبتمبر !

« أي تذكار محزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة ؟ !

« لقد مضى على مصر أربعة عشر عاما وهي مقهورة مضغوط عليها من قوم يلقبون أنفسهم بمدنيي العالم ! وأن الانسان عند ما يفكر أن الانكليز مضي عليهم هذا الزمن وهم يهدمون كل بنيان فى مصر ، ويحاربون أوربا والمدنية الأوربية على شواطيء نهر النيل ، ويقوضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها ويقهرون المصريين . كل ذلك ودول أوربا لم تعمل شيئاما ضد الاحتلال . يظن أن أوربا هذه تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم !

« وليس تذكار ١٤ سبتمبر تذكار حداد للامة المصرية فقط ، بل هو أيضا — واسمح لى أن أقول لك ذلك — عار وخجل على سياسة أوربا

ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة .

٢ — سياسة الانكليز في مصر . . .

« سار الانكليز فى مصر من عام ١٨٨٢ إلى اليوم على سياسة واحدة ما تغيرت قط . وهى هدم السلطة الخديوية وتسليمها للعميد البريطاني والاستيلاء على الأدارة المصرية مع العمل ضد أوربا عامة وفرنسا خاصة ولقد كان من سكوت أوربا أن بالغت انكلترا فى العمل للتعدى على الحقوق العامة. فهي تعلن اليوم على السنة صحفها أنها تريد شراء الدين المصري كله والغاء المحاكم المختلطة وجميع النظامات الدولية فى مصر ليسقط كل حق لأوربا فيها !

« ولم يكتف الانكليز بالتعدي على حقوق أوربا ومصر، بل تعدوا أيضاً على شعائر المسلمين، فهم ينشرون بلغتنا رسائل الطعن فى ديننا ويوزعون على طلاب المدارس كتبا تحقر الرسول محمدا (عليه الصلاة والسلام) ويستأجرون جرائد تطعن ليل نهار فى المسلمين وفى خليفة الاسلام.

« ولقد علم كافة الناس أخيرا أن اثنين من الاهالى حكم عليهما بالسجن ثمانية عشر شهرا لأنهما سبا ملكة الانكليز. فهل عملا شيئا خلاف الجارى فى مصر ؟ كلا، فأن محرري بعض الصحف « يختلفون عنهما بأنهم ليسوا مصريين وأنهم يحتمون بالانكليز » طعنوا قبلهما ولا يزالون يطعنون أشد الطعن فى خليفة الاسلام . فلماذا عوقب الطاعنان في ملكة الانكليز ولا يعاقب الطاعنون فى جلالة الخليفة ؟ على أنه يجب أن يحترم جلالته فى مصر أكثر من أي ملك كان لأنه سلطانها الشرعى الذى لا يعارض أحد

فى سلطته الشرعية !

« وقد يطول بي الكلام إذا أردت أن أعدد لك أعمال الانكليز ضد المسلمين وأن آخر مثل حاضر فى الاذهان هو مسئلة الجامع الازهر ! ! (١)

« ٣ » أوربا ومصر .

« ومن يوم أن سلمت مقاليد أمور مصر لذلك البطل العظيم « محمد على الكبير » دخلتها المدنية الاوربية وسارت فى طريق التقدم معتمدة على إخلاص أوربا والاوربيين نحوها ! ولما دخل الانكليز بلادنا لم يكن فيها يومئذ مصري واحد يدور بخلده أن دولة متمدينة مثل انكلترا تعمل ضد مواثيقها وتصريحاتها. بل كان المصريون كافة معتقدين اعتقاداً ثابتاً أن انكلترا تسحب جنودها من مصر كلها على أثر إخماد نيران الثورة العرابية واستتباب الأمن فيها ! . غير أننا نرى الأمن قد توطد من سنين والانكليز لا يزالون محتلين وادي النيل ! ولذلك قد فقدوا ثقة المصريين الذين فقهوا جميعا كنه أغراضهم . ولكن أوربا لم تفقد ثقتنا بها بل لبثنا معتمدين عليها مؤملين الخلاص على يديها . وحتى هذا اليوم ما عملت شيئاً مذكوراً في نفعنا وقد كادت ثقتنا بها تزول أيضاً.

« ولقد أصبح اليوم كثير من المسلمين (الذين كانوا فيما قبل أعظم

---

(١) أمر الانجليز الجند لحادث حدث بسبب إصابة أحد الازهريين بالكوليرا أن يدخلوا الجامع الازهر فدخلوه وأطلقوا فيه الرصاص بقيادة الكولونيل هرفى !

أصدقاء أوربا) يعتقدون أن أوربا تحارب المسلمين كافة وبدون استثناء حربا صليبية فى شكل سياسى . وفى الواقع فأن أوربا التي حررت فى القرن التاسع عشر أمما مسيحية عديدة لم تحرر أمة إسلامية واحدة . وأن مصر التى هي مجمع المسلمين ومحط رحالهم ، والتى تضرب للامم الاسلامية كافة مثال الاعتدال الدينى والاتفاق الحسن مع الاوربيين ، والتى لها السبق فى مضمار المدنيات القديمة ، يجب أن ترد اليها حريتها واستقلالها أسوة بأصغر الممالك الاوربية .

« وأننا نرى أن أوربا لا تعمل ولا تتأثر إلا بالجرائم والمذابح ، فهل تريد أن يستعمل المصريون أيضاً هذه الاسلحة البربرية لينالوا حريتهم وخلاص وطنهم ؟؟

« لقد أصبح من الأمور البدهية ، بل من الحقائق التى لا تنكر ، أن أوربا إذا تساهلت وتركت الانكليز فى مصر كانت الحافرة بيدها لأعمق هوة دولية والمعرضة بنفسها منافعها للخطر . . . .

« ٤ » المصريون والخديوى.

مما ذكرت لك تفهم مقدار حقد المصريين على المحتلين .ذلك لأن الاحتلال مبغض من العموم سواء فى المدائن أو فى الارياف .

«أما ما يختص بالخديوى فمهما أراد خصومه بما يقولوه عنه فكن واثقاً أنه لا يزال محبوباً عند الامة فكانا معشر المصريين نعلم مقدار وطنيته . وخطته الحالية على ما أظن هى انتظار ظروف أوفق من الظروف الحالية ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة.

« وأنه إذا أعلن في يوم حلول ساعة إنقاذ الوطن ، تسير وراءه الامة
« المصرية كلها بلا أقل تردد » . اه



﴿ مصطفى كامل ﴾

في الثانية والعشرين من عمره

خطاب غلادستون

(مرة أخرى)

يعلم القراء ما قد دار بين المرحوم وبين المستر غلادستون أحد رؤساء الوزارة الانكليزية مما ذكرناه فى هذه السيرة ، ويعلمون أيضاً أن المترجم لم يقتنع بما جاءه من ذلك الرجل السياسى الكبير فكتب اليه مرة أخرى الكتاب الذى ذكرناه فى محله. ولما رأى أنه لم يتسلم منه رداً على كتابه الثانى أرسل إليه كتاباً ثالثاً وهو في باريس هذا تعريبه :

« باريس فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦

« أيها السيد العظيم الاحترام

« إن الذي يخاطبكم اليوم هو مصري تشرف من قبل بمراسلتكم . ولما شرفتموني فى شهر يناير الماضى بجوابكم الذي صرحتم فيه « أن وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام » كتبت اليكم راجياً باسم الانسانية والشرف البريطاني أن تلقوا خطبة تذكرون فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات خاصة بمصر يجب احترامها . فلم يصلنى جواب ما وحسبت أن رجائى لم يؤثر أقل تأثير فى روحكم الشريفة الكريمة .

« واليوم أرى مع الاسف أنكم لا تميلون إلا الى المسيحيين من بنى الانسان . أو ليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين فى دعواكم المؤثرة ونداءكم القوى ، أما أنا فأظن ذلك . وخصوصاً لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لا تدافعون عن حقوق أمة متمدينة معتدلة فقط بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها .

« وأن اليوم الذي تدافعون فيه عن مصر تستميلون إليكم لا محالة

كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن إنما هو تحيز للنصرانية ودفاع عنها لا عن الانسانية .

« وعلى هذا أؤمل أن تعيروا رجائي التفاتكم ورعايتكم .

« ومع انتظاري لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تتفضلوا بقبول صادق اعتبارى وعظيم احترامي . مصطفى كامل »

رد المستر غلادستون

فأجابه المستر غلادستون بما تعريبه :

« السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦

« سيدى العزيز

« إني لاأظن أنه وصلني منكم كتاب من غير أن أجيب عنه . أما إحساسى ورأيي فى مسئلة الجلاء عن مصر فقد صرحت بهما لجناب مسيو وادنجتون — سفير فرنسا فى لندره إذ ذاك — إذ قلت له إن حكومة سنة ١٨٩٢ (أى الحكومة الانجليزية التى كان يرئسها مستر غلادستون نفسه) مستعدة للمناقشة فى هذه المسئلة ! ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أى جواب مدة وجودى فى الحكومة .

« والآن باعتبارى أحد الافراد أرانى مجردا من كل سلطة تبيح لى التدخل فى هذه المسئلة .

« وفى الختام أتشرف بأن أكون منكم العظيم الاخلاص الخاضع

و . غلادستون »

هذا ومن المفيد أن نثبت هنا صورة هذا الرد بخط المستر غلادستون نفسه ليكون أثرا تاريخيا . . . كما أثبتنا صورة الكتاب الاول لذلك السياسى الكبير .

Dear Sir I am not aware of
possessing or of having received
any unanswered letter from you.
My statements respecting the
evacuation of Egypt and I de-
clared to H. Ex. Mr. Waddington
the readiness of the Government
of 1892 to discuss that subject
but no reply from the French Govern
ment arrived while I was in office,
and I am now as a private
person wholly void of any power
to intervene in this matter.
I have the honour to be
Your most faithful Servt
W E Gladstone
S. 30. 96

***

ماعلمت شركة هافاس بهذا الرد حتى نشرته فى الآفاق وقدعلقت عليه الجرائد الاوربية تعليقاً طويلا نقدم منه مثالا للقراء :

جريدة الديبا

قالت ماتعريبه :

« إن المستر غلادستون الذى كتب أخيراً كتابا يدعو فيه الامة الفرنسية إلى التظاهر بغيرة اشد مما هى عليه انتصارا لمسيحيى الارمن دعاه — إذ جاء دوره — رجل مصرى للدفاع عن أمة أخرى مقهورة :

« وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصري الوطني كتب اليه كتاباً يقول فيه إنه يجدر بشيخوخته النشيطة أن تعمل لتحرير بلاد مصر وردها إلى أهلها من أيدى الانكليز محتليها بلا حق. وإن تكن المشابهة بين مسئلة مصر ومسئلة الارمن مليحة أكثر مما هى صحيحة :

« ولقد أجاب المستر غلادستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الاحرار سنة ١٨٩٢ داول فرنسا فى هذا الشأن. وأنه عرض على مسيو وادنجتون المفاوضة فى المسئلة المصرية ولكن الحكومة الفرنسية هى التى اغفلت هذا الطلب ولم تجبه عنه بشىء ما !

« وإنا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ. ولكن الخطبة التى القاها المستر غلادستون نفسه فى البرلمان إذ ذاك باعتباره الوزير الاول لانكلترا تجعلنا نحكم الآن بان حكومتنا كانت تضيع زمنها سدى لو فاوضت المستر غلادستون فى هذه المسألة . . .

«ومع هذا فاذا كان المستر غلادستون لايزال يعتبر لزوم المداولات ويرغب فى أن تحافظ انكلترا على عهودها وتقوم بوفائها فلماذا نراه لايقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر لنفسه بأنه فرد من أمته مجرد عن كل سلطة ككل افراد الانكليز؟!

« نعم إن هذا القول يعد تواضعا ممدوحا ولكن هل الصوت الذى ارتفع للدفاع عن الارمن فهاج خواطر الانكليز غير قادر على أن يقول الحقيقة فى شأن مصر »

كاتب سياسى فى الاكلير

ونشر مسيو (الفونس هومبير) فى جريدة الاكلير الفرنسية الشهيرة مانرجمته بالحرف الواحد :

« لقد لعب أحد رجال النابتة المصرية ــ مصطفى كامل ــ المشهور بنشاطه العظيم

لعبة متقنة للغاية على الشيخ الموقر غلادستون إذ كتب اليه يسأله أن يجود على أمة وادى النيل الاسلامية المحتلة بلادها بالجنود الانكليزية برغم التعهدات العلنية بشىء من تلك الفصاحة المؤثرة التى يتكرم بها عن سخاء تام على الارمن البروتستانتيين

« وقال له في كتابه مامعناه: هل تقف إذا انسانيتك عند المسيحيين ؟ ألا تشمل الاخوة المسلمين؟ هل اختلاف الاجناس والاديان يحملك على استعمال القوة الوحشية وتبرير مخالفة التعهدات والوعود العلنية؟؟

« ولقد رمى مصطفى كامل بكتابه رمية ذي النظر السديد وكان يجب أن يكون الجواب عن كتابه قطعيا كالطلب - أى أنه كان يجب على المستر غلادستون أن يقبل رجاءه - ولكن ذلك لم يكن . فان المستر غلادستون كتب اليه يقول انه باعتباره أحد أفراد الامة الانكليزية مجرد عن كل سلطة تبيح له التدخل في هذه المسألة »

« وأن هذا القول ليس بصريح ولا بمقبول البتة فان المستر غلادستون يدهش العالم أجمع إذا كان يعتبر نفسه فرداً من أفراد الامة الانكليزية العادين ، وإذا كان يظن ان ليس له فى وطنه مكانة غير مالكل فرد من عامة قومه !

«وعلى كل حال فهذا الاعتبار لم يمنعه من أن يلقى في الايام الاخيرة بكل بهرجة نصائحه على الحكومتين الانكليزية والفرنسية .

« وليت شعرى لماذا نراه عاملا نشيطاً عند مايكون الامر الذى يدعو إليه متعلقاً بتسيير أمتين عظيمتين (الفرنسية والانكليزية) على سياسة قهرية إلى مهاوي أخطار الحرب . وكل ذلك لاجل نصارى الشرق . ثم نراه هو ذاته خجلا لا يستطيع أن يرفع صوته لاجل مسلمي مصر مع أنه اعترف مراراً بأحقية مطالبهم ؟ ؟ ؟

« وليس ذلك لان الدفاع عن الارمن والتهييج - الامر الذي يفضى إلى أخطر الحوادث وربما نتج عنه تقسيم المملكة العثمانية - يخدمان مطامع الانكليز الآن أجل خدمة فى حين أن الدفاع عن مصر لايظهر غير سوء نية الانكليز.

« وعلى ذلك فمحبة غلادستون للانسانية - تلك المحبة الشهيرة - ليست كما يقول مصطفى كامل مسيحية محضة بل هي أقل من ذلك رتبة، وإنما هى « انكليزية » !

« وأنه يلزم الانسان أن يقول الحقيقة دائما وعلى الخصوص لعظماء الرجال .

ولقد كان الناس يشكون فى حقيقة غلادستون إلى زمن قريب إلا أنها أصبحت لاريب فيها » اه

أما الجرائد الانكليزية فأنها كعادتها هزأت بهذا الكتاب أيضا واعتبرته محاولة من المستر غلادستون يريد بها ألا يعطى للمترجم جوابا شافيا . . . بخلاف الجرائد الفرنسية فكلها ناقشته مناقشة حادة لان جزأ منه يخص سياسة حكومتها :

***

كتب إلى المرحوم خطابا وصلني بعد أن نلت العفو هذا هو نصه :

« أخى الاعز . . . .

« بعد التحية والتسليم والاعراب عن شوق عظيم . أنهى اليك أنى تسلمت كتابك الكريم وقد أدهشني وجودك للآن مجردا من رتبك مع أن جرائد مصر كتبت حوالى النصف من شهر أغسطس أن سمو الخديوى قد عفا عنك قبل سفره للاستانة !

« أملى أنك ترسل إلي تلغرافاً عند وصول هذا اليك لاقف على الحقيقة التى أطلب تحقيقها كما أبتغى .

« سياحتى في هذا الصيف كانت تكون جميلة لولا أني كثير البلبال بأمرك وهبك الله من لدنه فوزا عظيما .

« قد كتبت أمس كتابا ثالثا للمستر غلادستون كررت له فيه الرجاء أن يخدم مصر بالقاء خطبة كما خدم الارمن واعتقادي أنه سيرد على هذا الخطاب .

« وقدعزمت أن أسافر الى برلين وفيينا ثم إلى دار السعادة

« وفى الختام أسأل الله أن يمنحنى السعادتين سعادة انقاذ مصر التى

تفديها بالارواح وسعادة لقياك مع الاهل فى أتم صفاء والله يديمك لاخيك المخلص

الثلاثاء ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٩٦ مصطفى كامل »

***

سافر المرحوم من باريس إلي برلين فى يوم الخميس ١٥ اكتوبر وقابل في الحال رجال السياسة والصحافة الذين عرفهم من قبل وعرفوه إلى آخرين لايقلون عنهم إحسانا فى عالم السياسة .

وقد نشرت شركات البرق وفي مقدمتها شركة هافاس نبأ سفره هذا ومادار بينه وبين السياسه الالمان فى شأن مسئلة مصر .

أما الجرائد الالمانية فقداستقبلته استقبالا عظيما وخصوصا جريدتا «ذى برلينر تاجبلاط » التى كانت أكبر جرائد الاحرار المعدودة فى منزلة جريدة الديلى نيوز الانكليزية و « ذى بوست » التى كانت أكبر جرائد المحافظين وكانت فى مركز جريدة « التيمس» في انكلترا .

أما جريدة «ذى برلينر تاجبلاط» فقدقالت بمناسبة وجوده فى عاصمة الالمان ماتعريبه :

« وفد على برلين في هذه الايام أهم المشتغلين بامر تحرير مصر من الاحتلال الاجنبي . وهو الوطني المصرى الشهير « مصطفى كامل» الذى يكتب ويخطب في أوربا منذ عامين، دائب السير والعمل والجهاد فى سبيل مشروعه الشريف والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها نحو وطنه الاسيف .

« ومصطفى كامل هذا هو شاب فصيح جذاب اجتمع به أحد محررى جريدتنا وتحادث معه فى مسئلة مصر وكانت المحادثة باللغة الفرنسية التى يتقنها كل الاتقان .

« واليك الحديث الذى دار بين محرر جريدتنا وبينه :

١ — أترى أغلب المصريين كارهين للاحتلال الانكليزى ؟

— نعم ان الامة المصرية لمتألمة كثيراً من أعمال الاحتلال الممقوتة

وتؤمل من صميم فؤادها أن تخلص من ربقته . وأن الاحساس الوطنى المنتشر فى كل بلاد مصر — وإن لم يكن في انتشاره وقوته كما هو عند الامم الاوربية — لكنه قوى ومنتشر لدرجة يثبت معها حب الامة لحريتها ورغبتها العظيمة فى استرداد حقوقها المسلوبة. وأن سكون الامة المصرية لايدل على شيء آخر غير اتصافها بالحكمة وتمسكها بالصبر .

« وقد يستدل بعض رجال السياسة فى دول التحالف الثلاثى بالسكينة السائدة فى مصر الآن على أن المصريين راضون بالاحتلال ! ويفتكر أولئك السياسيون أنه لوكانت مصر تريد حقيقة إجلاء الجنود الانكليزية عن ديارها لثارت من زمان ضدهم ! ولكن هؤلاء السياسين مخطئون فى هذا الاعتقاد إذ أن المصريين وطنيون صادقون المحبة لبلادهم وإذا كانوا يبغضون الاحتلال بغضا شديداً فانهم كذلك يكرهون الجرائم والمذابح . إذاً فهم يريدون استرداد حقوقهم بالسكينة والسلم وهم عالمون أن أوربا المتمدينة لاتزال موجودة فى العالم ولاتزال نحن معتقدين بها مؤملين فيها . ولكن مع هذا وذاك لاأنكر عليك أنه إذا أهملتنا أوربا زمنا طويلا ولم تجبر انكلترا على الجلاء فيضطر المصريون الي التظاهر (١) بطرق أخرى غير مالبثوا عليه السنين الطوال وحينئذ فليست المصالح الانكليزية هى التى تقع وحدها فى الخطر بل يلحق الضرر بالمصالح الأوربية جميعاً .

٢ — ماذا يظن المصريون في خطة ألمانيا نحوهم وماذا ينتظرون منها؟

---

(١) لقد تحقق كل ذلك

« لقد أمل المصريون دائما أن تنضم الحكومة الالمانية إلى الدول التى لها مصلحة أكثر من غيرها فى جلاء الانكليز من مصر تصديقا لتصريح البرنس بسمارك لسفير فرنسا فى برلين سنة ١٨٨٧ لما كان السير درومندوولف يعمل في الاستانة ليحصل على توقيع جلالة السلطان على الاتفاقية المشهورة بشأن مصر وهو قوله: « إن الحكومة الالمانية مستعدة للعمل فى سبيل تحقيق الجلاء عن مصر » والمصريون يعتبرون هذا التصريح من أهم التصريحات السياسية التي صرح بها من يوم احتل الانكليز مصر.

« وأني لأظن أن استعداد الحكومة الالمانية للعمل فى سبيل تحقيق الجلاء الذي كان موجوداً فى سنة ٨٧ قد فقدته الآن ، ولو أن حملة السودان لم تقرر الا بعد رضا الحكومة الالمانية التى كانت تؤمل بتجريدها مساعدة حليفتها إيطاليا . بل يظهر لي أنه من الامور المستحيلة قيام حكومة جلالة الامبراطور غليوم يوماً ضد حقوق مصر المقدسة .

« وها نحن أولاء نرى أن الحكومة الالمانية تعمل بالاتفاق مع الدول فى مسئلتى الأرمن وكريد وليس لها صالح مادى خاص فى هاتين المسألتين بل هي تعمل فيها بقصد توطيد أركان السلام العام واحترام تنفيذ المعاهدات الدولية وإذا كان هذا مقصدها الحقيقي فواجب عليها أن تنظر لمصر . إذ لو أقام الانكليز فيها طويلا لتكدر صفو السلام فضلا عن أن هناك معاهدات يجب احترامها أيضا كما يجب حمل انكلترا على احترامها .

« وأننا نظن أن التحالف الثلاثى لو بقي على الحياد لا لنا ولا علينا الأدركنا مع ذلك أمانينا . لان انكلترا تبقى يومئذ منفردة أمام الدولة العلية وفرنسا

والروسيا ـ هذه الدول الثلاث التي تطالبها عندئذ أن تحترم عاجلا المعاهدات والعهود العلنية.

٣ — ألا تخافون أن فرنسا تغتال مصر إذا خرج الانكليز منها ؟

« كلا . فاني عرفت بكل تدقيق حقيقة إحساس الامة الفرنسية وحكومتها نحونا . وأقول جازما إن فرنسا مخلصة النية راغبة فى جلاء الانجليز عن مصر . إذاً فهى لاتريد بأي اعتبار كان احتلال مصر بعد خروج الانكليز منها . وهي تقدر كفاءة المصريين حق قدرها ، وتعلم من جهة أخرى ان مصر بموضعها الجغرافى وبأهميتها السياسية لايمكن أن تتملكها أية دولة ، بل يجب ان تكون حرة وتبقى مفتوحة الأبواب لتجارة العالم كله ولصناعته .

« وأن الانكليز يشيعون فى كل مكان ان الفرنسيين إنما يعملون للجلاء ليحلوا محل بريطانيا فى مصر وهذه أكذوبة ساقطة وخبث النية ظاهر فيها ظهوراً جليا . فالانكليز بهذه الاكذوبة يريدون أن يغشوا المصريين وأن يبعدوكم انتم معشر الالمانيين عن الدولة الراغبة فى الجلاء .

« واننا نؤمل اعظم الامل انكم لاتغشون بالاباطيل حتي تساعدونا على استرداد حقوقنا الشرعية المسلوبة » . اه

وقد نشرت الجرائد الانجليزية والفرنسية الكبيرة هذا الحديث.

***

ونشرت جريدة ذى بوست فى عددها الصادر بتاريخ ١٤ أكتوبر ماتعريبه :

« مصطفى كامل المصرى الآن فى برلين . وهو مشهور عند قرائنا الذين قرأوا رسائله السياسية وقد لقيه أحد محررى هذه الجريدة وتحادث معه طويلا فاستبان

منه آراءه السياسية عن مستقبل بلاد النيل وهي الآراء التى تمليها عليه الحقيقة ومحبته الصادقة لوطنه .

وقد نشرت الجريدة المذكورة هذا الحديث بعنوان (مصر وإنجلترا) فى عددها الصادر بتاريخ ١٦ أكتوبر وهذه ترجمة مانشرته :

« لايخفى أن حل المسألة المصرية ذو فائدة عظمى لالمانيا إذ لابد لنا أن نهتم بأمر قناة السويس بعد ماتقدمت مستعمر اتنافى أفريقيـة وانتشرت تجارتنا في الشرق. ويهمنا أن تكون هذه الطريق المائية حرة ولايشك أحد اليوم أن انكلترا تعمل لتملك وادى النيل أو بعبارة أخرى لتملك قناة السويس .

« وبسبب هذه الاعتبارات أخذت الامة المصرية تشتغل بمسئلة الاحتلال . هل ترضى به وتحتمله إلى أمد طويل بذلة وهوان أم تتخلص من ربقة أسره ؟

« ومن الامور المعقولة والطبعية قيام كل الذين لايرضيهم حالة بلادهم الحاضرة لاستمالة دول أوربا نحوهم والعمل لتخليص بلادهم . ولهـذه الغاية نفسها حرك المصريون الوطنيون الساكن من مسئلة الجلاء عن مصر بالخطب والوسائل السياسية واعتنوا بنشر أفكارهم فى كل أصقاع أوربا .

« ولقد تكلمنا في جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجلاء عن مصر وقلنا إنهما من قلم الوطني المصري الشهير (مصطفى كامل) الذى وهب حياته ونفيس عمره لتخليص وطنه وتحرير بلاده .

« وحيث كان يطوف أوربا دائباً فى عمله فقد جاء برلين لغرض التعرف فيها بارباب الاقلام ورجال السياسة حتى يقفهم على حالة بلاده الحالية ليقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء انكلترا في مصر . وقد فعل ذلك في الممالك والعواصم الاخرى .

« وأنا نظن أن قراء جريدتنا يستفيدون كثيراً من الوقوف على رأى هـذا الوطنى المصري فيما يختص بمسئلة تحرير مصر. هذه المسئلة التى سيخرج منها وادي النيل لابساً حلة جديدة من الحياة لاشك تلفت نظر العالم أجمع نحوها .

« ولقد ذكرنا بالامس أن أحد محررى جريدتنا ذهب إلي « مصطفى كامل » واستطلع أفكاره عن مصر ونحن اليوم ناشرو حديثه كما كتبه لنا المحرر .

« لقد تعودنا أن نفكر دائما أن نصراء الآراء الخطيرة وزعماء المذاهب والساعين لتنفيذ أغراض كبيرة كغرض المصريين العظيم يكونون من الشيوخ الكبار السن

ولذلك دهشنا فى أول الامر لما شاهدنا مصطفى كامل المصرى السائح في أوربا طلباً لتحرير بلاده من نير الاحتلال الاجنبى شاباً لم يزل في غضاضة العمر . ولكن لايلبث الانسان برهة حتي ينسى أنه أمام شاب ، بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنكته التجارب والسنون الطوال إذ يجد محدثه — فضلا عن ذلك — فى كل كلمة من كلامه مشغوفا بوطنه ومملوءا غيرة عجيبة وحبا للعمل الذى هو قائم به وحركات رأسه المملوء مهارة ونشاطا وبريق عينيه تدل على رسوخ عقيدته وأنه مستعد لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل .

« وهو يؤدى الاحاديث مع محادثيه بحرارة ما عهدت فى غيره من رجال الشرق . ويجيب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال . وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملا شريفاً طاهراً وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لابد أن تتحقق . وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جليا من جوابه عن السؤال الاول :

(١) أي مهمة سياسية أنت مكلف إياها فى حضورك إلى برلين ؟ ؟

« إني مكلف من تلقاء نفسى وبواجبي الوطنى مهمة وطنية محضة يدفعنى إليها الأحساس النفسانى . فانى لما فكرت فى الحالة التعسة التى فيها وطنى وشعرت من نفسى بأنى إنسان عليه واجبات لأرض آبائه وأجداده رأيت بعد التروى مع أصدقائي الوطنيين أن آتى لأوربا . وقد مضى على عامان وأنا مشتغل بعملى هذا مدافعاً عن قضيه بلادى ضد الانكليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية وأعظم التعهدات العلنية .

« ولقد وجدت أينما كنت معاضدة محبي « الحق والعدل » وهم والحمد لله ليسوا بالقليلى العدد فى أوربا . وأنى أخاطب الأمم والحكومات وسواء سمع صوتي الآن أو بعد الآن حتى لو كان سماعه بعد موتى فانى عامل ماعشت لأداء واجباتى نحو وطنى . وأنادى كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لانقاذ مصر . . . .

« ومع كوني لا أعرف من اللغة الالمانية إلا بعض كلمات فاني جئت لاسمع صوت مصر الحزينة . لأنه لا يهم الناس اللسان الناطق به الانسان ، مادام موضوع كلامه حقا وصدقا وأني أظن انكم لا تبخلون بميولكم الشريفة على أمة تستحق الرعاية والعناية مثل الامة المصرية

(٢) هل فقد الانكليز حقيقة ثقة المصريين وأصبحتم في يأس من أن يقوموا بوفاء وعودهم ؟

— أجل لقد فقد الانكليز ثقة المصريين وأصبحنا جميعا لا نظن أنهم يقومون يوما ما من تلقاء أنفسهم بوفاء وعودهم وأن ثقة المصريين بالانكليز كانت في بدء الاحتلال كبيرة لاننا لم نكن نحسب مطلقا أن أناسا متمدينين ينسبون لامة بلغت من العظم والمرتبة مبلغ الامة الانكليزيه ينقضون وعودهم ويتظاهرون باحتقار شرفهم وشرف الامم الاخرى بأشد ما يمكن من ضروب الاحتقار علنا . نعم أننا ما كنا نحسب قط أن ساسة الانكليز يتاجرون بشرف البرلمان البريطاني وبشرف جلالة الملكة وهم هم أولئك الذين دخلوا مصر ليعيدوا الامن فيها ولينجلوا عنها بعد زمن قليل فأصبحوا يدعون انهم حماة النيل ! ! !

« وان سوء مقاصد الانكليز نحونا اصبح واضحا تمام الوضوح حتى الاحرار الذين يجاهرون بأنهم نصراء الجلاء هم خبيثو النية وليسوا فى الحقيقة إلا (انكليزا) أقل صراحة من غيرهم وأن الحوادث الاخيرة أتحفتنا بأعظم البراهين على ذلك .

« فلقد كتب إلى المستر غلادستون فى الشتاء الماضى كتاباً سياسياً

صرح فيه « بأن زمن الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام » أى أنه كان
يجب ولا يزال يجب على الانكليز أن ينجلوا عن مصر . وبناء على هذا
التصريح العظيم الاهمية الفريد فى بابه كتبت أخيراً إلى المستر غلادستون
أسأله أن يلقي خطبة عن مصر يذكر فيها حكومة الملكة بأن هنا لك
معاهدات يجب عليها احترامها على شواطيء النيل ولان المستر غلادستون
يجب عليه أن ينصح لحكومته باحترام المعاهدات التى يجب عليها احترامها
قبل أن ينصح لها باجبار تركيا على احترام المعاهدات المختصة بها وبرعاياها .

« وقد كنت أنتظر أن يقبل المستر غلادستون رجائى إلا أنه أجابنى
بأنه شخص ككل الاشخاص المجردين من كل حيثية وسلطة فلا يسوغ
له التدخل فى مسألة مصر مع أن المستر غلادستون هو بعينه باعتباره أحد
الافراد المجردين عن كل سلطة وحيثية يتدخل - ويتدخل فوق ما يلزم -
فى مسألة الارمن. وهذا مما يثبت سوء نيات الساسة الانكليز حتى القائلين
منهم بضرورة الجلاء عن مصر !

(٣) هل إحساس الخديوى نحو الانكليزى على مثل إحساسات
أمته نحوهم ؟

« حقاً أن الخديوى لا يريد إلا أن يكون حاكما حقيقياً فى بلده فضلا
عن كونه مصرياً يحب وطنه حباً صادقا . وهو يريد أن يكون جالسا
على أريكة ملكه وأميراً على بلده ولا يقبل بحال من الاحوال أن يكون
تحت حماية أى دولة أجنبية ومنذ تسلم زمام الخديوية أظهر علنا وبكل
صراحة إحساساته الوطنية الشريفة وبذلك أوجد فى مصر تياراً وطنياً
يقوى ويزداد من يوم إلى آخر وهذا التيار هو اليوم أقوى منه فى سائر

الازمان . وكل الذين يعرفون أخلاقه وصفاته يعلمون جيداً أن خطته الحالية لا تشير إلى استضعافه ولا تدل على تنزله عن حقوقه ولكنها تدل على أنه صابر يرقب الفرص والحوادث .

« وأننا معشر المصريين نعلم جميعاً أن خديوينا المعظم يفكر دائما فى تاريخ عائلته الكريمة المجتد. ولا يغيب عن ذاكرته قط مجد جده « محمد علي » الذي طرد فى أول هذا القرن (الانكليز) المحتلين الآن بلادنا . عند ما حاولوا أن يسلبوا مصر وأن عباس باشا الجدير أن ينال هذا الفخار .

« وعلى الجملة فاني معتقد بأن الخديوى عباس باشا لا يعتبر للحياة قيمة فى جانب المحافظة على حقوقه التى هي أقدس شيء عنده خصوصا إذا كانت المحافظة على هذه الحقوق مرتبطة بمحبة أمته إياه وبشرف عائلته المجيدة .

(٤) هل من الجائز أن يتحول بغض المصريين للانكليز إلى بغض كل الاوربيين النازلين مصر ؟

« حقا أن هذا السؤال لمن أهم الاسئلة . فان الامة المصرية عاشت من عهد المغفور له « محمد على » إلى هذا اليوم مع الاوربيين على أكمل وفاق وأصفى وداد ، والاوربيون والمصريون يخلصون بعضهم لبعض فى المحبة ولا خلاف يفرقهم. ولقد كان دائما تساهلنا الدينى أحسن موفق بيننا وبينهم . ومودتنا للاوربيين مستمرة لا تتغير والمبدأ الذى جرى عليه أبناء وطنى دائمًا مع النزلاء هو « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

« ومنذ احتلال الانكليز لمصر اتفقنا معاشر المصريين ونزلاء بلادنا

فى المطالب والامانى . وانا نعلم علم اليقين أن مصالحنا ومصالحهم متحدة ضد مطامع الانكليز وأملنا أن تعاوننا أوربا على الخلاص من يد هذا الاحتلال الثقيل ، فتزداد بذلك محبتنا للاوربيين وتعظم ألفتنا مع نزلاء بلادنا منهم .

« إذاً فان أوربا إذا أجابت نداءنا وحققت أمانينا ومطالبنا وحملت الانكليز — وهى قادرة — على احترام المعاهدات بقى الاتفاق والوئام بين المصريين والنزلاء الاوربيين تامين كما هما الآن ، بل أتم . أما إذا أهملت أوربا زمنا طويلا حل المسئلة المصرية فأمتنا تضطر عندئذ للاعتقاد بأن كل أوربا موافقة على الاحتلال راضية به وأنها تبغض كافة المسلمين بغضاً دينيا وتتحامل عليهم . وهذا يحمل الامة بالطبع على كره الاوربيين عموما كرهها للمحتلين . وهذه نتيجة خطرة من البدهى أن أوربا لاتعمل للوصول إليها » . أه

***

بعد أن لقى المرحوم في برلين كل إكرام وتعارف بكبار رجالها وفطاحل ساستها الذين صرحوا بميلهم للمسئلة المصرية والتى كانت لاقوالهم ضجة فى الدوائر السياسية الانكليزية عول رحمه الله أن يبرحها إلى فينا في يوم الاحد ١٨ أكتوبر وقبل أن نشرح وصوله إلى عاصمة النمسا نذكر هنا مكاتبة سياسية دارت بين المترجم وبين المسيو « جوزيف بوبووسكى » أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمسوى لفائدتها السياسية .

ذلك أن المترجم علم أن المسيو « جوزيف بوبو وسكى » من كبار أعضاء مجلس نواب النمسا الاحرار المطلعين على السياسة الخارجية إطلاعا دقيقا فرأي أن يكتب اليه خطابا عن مسئلة مصر هذا تعريبه :

« باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦

« جناب المحترم المسيو جوزيف بويو وسكى

« لم أتشرف بمعرفتك من قبل ولكنى وطنى مصري أعمل لجلاء الاحتلال الانكليزى، لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلا حرا مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله وتمكنه من معرفة السياسة الخارجيه بحذافيرها ليشرح لى رأيه هل هو نصير الاحتلال أم الجلاء ؟

« وما هي السياسة التي يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى ؟

« ورجائى أن لاتعتبروا سؤالى هذا مملا أو مبهما فان الوطنية قاهرة تدفع المرء إلي مخاطبة من لا يعرفه أو الخروج أحيانا عن حد الليقات . وإنكم أنتم الذين علمتم الامم ماهى حدود الوطنية لا بد أن تعطفوا على الوطنيين المصريين وتمدوا إليهم يد المعونة فى سبيل تخليص وطن حكم عليه بالاسر والذل وكاد يذهب ضحية طمع بريطانيا وتهاون أوربا

« ثم تقبل أيها العضو المبجل أجل تحيات وعظيم احترامات

المصرى المخلص

مصطفى كامل »

« وقد اجاب جناب النائب عن هذا الكتاب بما تعريبه :

« فينا فى ١٥ اكتوبر سنة ١٨٩٦

« سيدى

« تسألني في كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضى إذا كنت نصيراً للاحتلال أو الجلاء فجوابا عن هذا السؤال أقول لك إنى أفهم جيدا أنك باعتبارك مصريا وطنيا لابد أن تتألم لضياع استقلال بلادك وإن كان يعزيك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن الاحتلال الانكليزى فى مصر ليس إلا مؤقتا وأن انكلترا لاتتعدى على الجنسية المصرية، وأن لكم استقلالا داخليا تاما وأن لكم أميرا حازما وإدارة منتظمة ،

« ولكن لكى تنال أمة من الامم حريتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية خصوصية . . وأول هذه الصفات أن تكون مستعدة لان تضحى بنفسها فى سبيل الوطن .

«وقد أرشدنى التاريخ إلى أن روسيا قضت أربعين عاما حتى استطاعت أن تملك القوقاز وأن فرنسا حاربت فى الجزائر حربا طويلة حتي استطاعت أن تقف مقاومة « عبد القادر » لها . ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز والجزائر ! ومن جهة أخرى فليس لانكلترا فى مصر غير ثلاثة الآف جندى مع أن للخديوي جيشاً منظما عدته ثلاثة عشر ألف جندي ولديه خمسة الآف رجل فى بوليس منظم تنظيماً عسكريا . فهذه الارقام تدل على أن أغلب المصريين راضون عن الاحتلال الانكليزي !

« وأنا اعتقد أن الحرب السودانية لابد أن ترفع من شأن الجنود المصرية فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد — وذلك مالا شك فيه — على تتمة الصفات الضرورية لمصر حتى تنال استقلالها يوما ما .

« وأنك تسألني أيضاً فى كتابك عن رأيي فى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى تجاه المسئلة المصرية ٠ وجوابا عن هذا السؤال أقول لك إنى أفتكر أن المسئلة المصرية لاتهم دول التحالف مباشرة بل أن سياستها تتوقف على ما تخطه انكلترا في المستقبل ٠

« هذا وأنى أرجوك أن تتفضل بقبول عظيم احترامى ومزيد اعتبارى ٠

(جوزيف بوبووسكي)

« ولقد علقت الجرائد الاوربية كافة على هذا الخطاب الذى نشرته جريدة الاكلير الباريسية تعليقاً فائضا وفى مقدمتها الجرائد النمسوية . . .

وقالت جريدة الاكسترا جبلاط النمساوية :

« قابل أحد محررى جريدتنا بالامس المصرى النيور الشهير «مصطفي كامل» وسأله عن المصريين والاحتلال فأجابه بما يأتى :

« إننا متألمون من الاحتلال الانكليزي لانه مسقط لكرامتنا باعتبارنا

أمة فضلا عن كونه جارحا لعزة بلادنا حسا ومعني فاننا أمة تقدر محبة الوطن حق قدرها ونعلم أن بلادنا مادامت تحت نير الاحتلال الاجنبي وما دمنا لا ندير شؤوننا بايدينا فلاحق لنا فى أن نحسب أنفسنا أمة من الامم التى لها حقوق محترمة ولهذا نرغب من صميم أفئدتنا التخلص من الاحتلال الانكليزى . ولقد وعدت انكلترا أوربا بالجلاء عن مصر ونطق وزراء الانكليز بذلك فى تصريحاتهم العلنية المتكررة وضمنت أوربا بالمعاهدات التي عقدتها مع الدولة العلية حقوق الخديوية فمن الواجب احترام هذه الحقوق . وأوربا التى تسأل اليوم جلالة السلطان احترام المعاهدات يجب عليها أن تسأل انكلترا قبل كل شىء هذا السؤال .

« ولما كانت الامة المصرية متألمة ولها حقوق الخلاص من النير الانكليزى فترى للوصول إلى غرضها سبيلين . سبيل الثورة . والسبيل السلمي .

« فاما سبيل الثورة فنحن لا نريده لاننا قبل كل شىء قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة وبغض المذابح والجرائم ، ومن جهة أخرى فأن لأوربا عندنا مصالح تضربها الثورة .

« وإذ كنا نحترم حقوق أوربا ومصالحها فى مصر وربما أن الامة إذا ثارت ضلت عن سبيل الرشاد فلا تميز بين الانكليز وغيرهم من الاوربيين إذ تقول وقتئذ : « لقد تظاهرت أوربا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذاً العمل ضدها » — لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذى نكرهه بفطرتنا .

« وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمي ورفعنا صوتنا إلى مسامع أوربا

المتمدينة بمطالبنا الحقيقية . وأن الساعة قد أذنت لا محالة وتحتم على أوربا أن تعمل لجلاء الانجليز عن مصر .

« ولقد كان الاجدر بانكلترا أن تثبت عدلها ومحبتها للانسانية بالوفاء بعهودها ووعودها والجلاء عن مصر لا بأظهار محبتها للأرمن وشفقتها . . . . . . عليهم ! ! ! !

« ومن الوجهة الادارية نري الانكليز قد أضروا بمصر ضرراً بليغا للغاية . أفلا نزال الانكليز محتلين القطر المصرى لاعادة الأمن الي ربوعه ؟ ؟ ؟ كلا . فان الأمن قد تأيد فى مصر بعد مضى أيام قليلة من سجن عرابى وأنه يكون من العار العظيم علي الأنكليز أن يدعوا بأن الأمن لم يتأيد مع احتلالهم لمصر ١٤ عاما !

« أوهل الانكليز محتلون الديار المصرية الآن لتقوية سلطة الخديوى على أريكته ؟ ؟ ؟ كلا . فأنه لم ينل أمير من أمراء مصر احترام شعبه ومحبته مثل ما نال منها خديوينا الحالي « عباس الثانى » وأن الانكليز هم وحدهم الذين يعملون في مصر ضد سلطته فلا يستطيع أن يستعمل أول حق من حقوق الولاية والملك ألا وهو حق اختيار الوزراء الذين يديرون شؤون البلاد باسمه ! فأن انكلترا هى التى تسميهم له وقد اعترضوه اعتراضا وقحا لما لاحظ على جيشه بعض الشيء الذى رآه. وبالجملة فهو لا يمكنه اليوم أن يعمل ضد رغبة الأنكليز حتى ولا يمكنه أن يجهر بزيارة باريس بصفة غير رسمية لئلا تسبه وتتطاول علي مقامه السامي الجرائد الانكليزية البذيئة وفضلا عن ذلك فان للانكليز فى مصر جرائد ينقدونها أجرة الطعن فى الامير والعمل للغض من واجب احترام مقامه فى أعين الامة! ولا يمكن أن

يحسب راضيا بهذه المعاملة ولكنه متبصر وصبور على أنه لا يوجد عند الأمة شيء أقدس من كلمة الامير لو أراد شيئاً .

« أوهل الانكليز محتلو مصر لتربية المصريين وتعليمهم شؤن بلادهم ؟ ؟ كلا . فأن أعمالهم جميعاً تثبت عكس ذلك . انهم يغلقون المدارس فى أوجه الطلاب وهذه مدرسة الطب أوضح مثال ، فقد كان عدد طلبتها قبل الاحتلال أكثر من مائتي طالب، لكنهم الآن لا يزيدون على التسعة وهم يفسدون أخلاق الطلبة إذ يطلعونهم على الجرائد الانكليزية المملوءة طعنا فى الامير والوطن المصرى ويعطونهم كتب تاريخ تسب الرسول وتسخر من العقيدة الاسلامية ، وعلى الجملة فهم يربونهم على أن ينكروا وطنهم ويجحدوا قوميتهم كل الجحود ويكونوا اخداما وعبيداً للانكليز .

« وفى الادارات والنظارات استولى الانكليز على أهم الوظائف إذ أبعدوا الوطنيين منهم وقربوا الاجانب والدخلاء الذين يسهل عليهم قيادتهم وربما قربوا بعض السذج والخونة من الوطنيين ليثبتوا بذلك كله أن مصر غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها .

« أوهل الانكليز محتلون مصر لسعادة الفلاحين وخيرهم ؟ كلا . فالانكليز يحتقرون قبل كل شيء المصريين احتقارهم للمعاهدات ، وإني أقدم لكم مثلا على ذلك : ذهب يوماً من الايام أحد عمال مصلحة التلغراف يحمل نسخة تلغراف إلي مهندس انكليزي فلما قدمها اليه سأله آداء لوظيفته أن يمضى على وصول التسلم فرفض الانكليزي وكرر ساعي التلغراف الطلب لانه لابد أن يأخذ وصول التسلم بمقتضى وظيفته فما كان من

الانكليزى إلا أن تناول بندقيته وأطلقها على المصرى المسكين فسقط مضرجا بدمائه . ولم يعاقب السادة الانكليز هذا المهندس إلا بنقله إلى الهند ! ! !

« ولا تنس المحكمة المخصوصة التى تحكم فى المنازعات التى تقع بين المصريين والعساكر أو البحارة الانكليز وهى تحكم بالاعدام بلا قانون وتأمر بتنفيذ حكمها في الحال فينفذ دون أن يقبل فيه عفو خديوي !

« وأما من حيث الوجهة المالية فلما كان الانكليز مضطرين لدفع مرتبات باهظة لموظفيهم فقد أعلوا الضرائب حتي أصبحت مصاريف الادارة المصرية سبعة ملايين من الجنيهات خلافا لاتفاقية لندره التى تحددها بخمسة ملايين وبعض المليون !

« وديون الفلاحين لم تكن قبل الاحتلال الانكليزي إلا سبعة ملايين جنيه وقد بلغت اليوم أكثر من اثنين وعشرين مليونا من الجنيهات !

« أم هل الانكليز محتلون مصر اليوم لمصلحة أوربا ؟ ؟ كلا . ثم كلا فأن أول غرض للانكليز من احتلال مصر هو تقويض أركان النفوذ الاوربى لا ليعود ذلك علي مصر بالاستقلال فى المستقبل ولكن ليحصروا القوة فى أيديهم . ولقد أفزعت تصرفاتهم المالية حملة القراطيس المصرية ونراهم اليوم « أى الانكليز » يجتهدون فى إلقاء المحاكم المختلطة التى هي أعظم ضمانة لأوربا فى مصر

« ومن جهة أخرى يجب ألا تنسى المسئلة التجارية فأن للانكليز فى الجمرك وزنين وعيارين ، ولست فى حاجة لأن أقول لك إن التجارة الانكليزية هى المميزة بجملة مزايا خصوصية .

« وبالاختصار فأن انكلترا محتلة القطر المصرى لمصلحتها الخصوصية ليس إلا . وان كانت أوربا تريد تحقيق السلام وضمانة حقوقها وإنصاف أمة متمدينة معتدلة كريمة فعليها وجوب حمل الانكليز علي الخروج من وطننا في أقرب وقت والسلام » . . . اه

***

ونشرت جريدة (الاكسترا جبلاط) النمسوية في عددها الصادر بتاريخ يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٦ مقالة افتتاحية صدرتها بصورة المرحوم هذا تعريبها:

« لقد وفد على فيينا فى الايام الاخيرة ضيف كريم ذائع الشهرة هو الخطيب المصرى الشهير (مصطفى كامل) وهو شاب غيور أخذ على عاتقه منذ سنتين واجب السعي وراء تحرير بلاده من النير الانكليزى . وهذا الشاب لايتجاوز من العمر اثنتين وعشرين سنة . ولكن مصائب وطنه صيرته رجلا محنكا خبيرا . فترك مصر وجاء أوربا ليطوف كل البلاد التى يمكنه أن يقف الناس فيها على حقيقة ما يجرى فى وادى النيل .

« وله علاقات كبيرة بأشهر وأكبر رجال السياسة فى أوربا وتعرف فى حله وترحاله بين بلاد أوربا إلى الكثيرين من الوزراء والعلماء والكتاب ومحررى الصحف وكل الذين عرفوه أحبوه وأظهروا له دلائل الميل والوداد .

« ولقد برهن هذا الشاب الخطيب المصرى النبيل على شجاعته برجوعه إلى وطنه هذا العام بعد كل ما عمل في أوربا فاستقبله بنو وطنه أكبر وأجل استقبال .

« وألقى على ملاء من بني وطنه خطبة وطنية رسم فيها خطته فقوبلت من جميع المصريين الغيورين بالتصفيق والتهليل وعلامات الاستحسان ولكن الانكليز انتقموا من هذه المظاهرة الوطنية المصرية بصفة دنيئة . وهي أنهم جردوا أخاه الضابط من رتبه والقابه لولا أن الخديوي رد لذلك الضابط ما سلب منه وأعاد إليه شرفه كما كان .

« ولم يكن لانتقام الانكليز هذا من نتيجة سوى ازدياد محبة المصريين لمصطفى كامل من جهة وازدياد غيرة هذا الوطنى من جهة أخرى .

« ولقد أقام هذا الضيف الكريم فى فيينا خمسة أيام قوبل فى أثنائها من رجال السياسة بكل احتفاء وإكرام وعلى الاخص من جناب البارون (شلومكي) — رئيس

مجلس النواب النمسوي والمستشار الخصوصي لجلالة الامبراطور فرنسوا جوزيف — الذى اعتبره أحسن اعتبار » ٠٠ اهـ

***

برح المرحوم مدينة فينا في يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر قاصدا إلى « بودابست » وقد سافر من هذه الاخيرة بعد أن لبث فيها يومين إلى دار السعادة فوصل إليها لاول مرة فى صبيحة الثلاثاء ٢٧ أكتوبر .

« قصد رحمه الله بمجرد وصوله إلى المابين الهمايوني ولم ينتظر إلا بعض دقائق حتى استقبله دولة الباشكاتب ورحب به كثيراً وأبلغ فى الحال جلالة الخليفة الاعظم نبأ وصوله فتعطف جلالته بان أرسل إليه تحياته وامتنانه من عمله .

« ثم نزل فى فندق « بيرابالاس » ضيفاً على جلالة السلطان وفى اليوم التالى ورد إليه كتاب من دولة الباشكاتب مع أحد الجاويشية يسأله فيه الحضور فى حفلة السلاملك يوم الجمعة ٣٠ أكتوبر فلبي النداء وحضر الحفلة وأدى صلاة الجمعة فى الجامع الحميدى الذى يصلى فيه جلالة أمير المؤمنين .

« وبعد صلاة الجمعة أعلمه دولة الباشكاتب بأن جلالة السلطان يود رؤيته وقد كان ذلك فى الساعة السابعة عربية (أى بعد الزوال بساعتين تقريباً)

ولما تمثل في حضرة جلالة السلطان قال له جلالته :

« إنى كنت أظنك رجلا مسناً ولكنك لاتزال فى حداثة العمر فبارك الله فيك »

فأجابه المرحوم على الفور :

« إن شعور المسلمين جميعاً نحو الخليفة والخلافة كبير جداً ويستوى فيه الصغير والكبير »

فقال له جلالته :

« أين تعلمت ؟ »

فأجابه المرحوم :

« تعلمت في مصر وقضيت امتحانات الحقوق فى فرنسا ونلت إجازتها من مدينة طولوز التي هى إحدى مدائنها الكبيرة »

فقال له جلالة السلطان :

« إنك إذا محام »

فاجاب المترجم :

« نعم يامولاي . إني محام عن قضيتين مهمتين قضية مصر خصوصاً وقضية المسلمين عموما. اما قضية مصر فالعالم الاوربى مستعد ليساعدنا علي حلها وانصراف الاحتلال عنها. ولكنها مسألة يعرف كل المصريين قبل كل أمر أن جلالتكم صاحبها وسيدها وأملنا عظيم فى أن خليفتنا المعظم المحبوب يبدأ بما يحقق آمالنا »

فتبسم جلالته وقال :

«إني أحب لك أن تزور الاستانة كثيراً وأن تتعلم اللغة التركية» (لان الواسطة بين جلالته والمرحوم فى المخاطبة كان دولة الباشكاتب)

فحني المرحوم رأسه وقال :

« إن حب الخليفة لاخلص حب وسيكون ماأراد بمشيئة الله »

فاذن له جلالته بالانصراف . وعند ما تقدم للتسليم على جلالته قال له :

« إنك ستكون كبيراً جداً في زمن قريب مادمت على هذا الاخلاص

فلهج لسان المرحوم بالدعاء لجلالته وخرج مسروراً فرحا مستبشرا .

« عاد المرحوم إلى الفندق بعد أن ودع الباشكاتب وكتب إلي خطابا جاء فيه مانصه :

« تسلمت تلغرافك المنبيء بل المنعش بالعفو عنك فى فيينا التى برحتها فى ٢٣ الجارى لانه جاءنى فى باريس حيث كنت فى برلين وكان عامل الفندق الذى كنت فيه قد تغير فلم يعلم عنوانى المتروك لدى العامل القديم .

« وعند ما وصلت إلى فيينا دعاني الشوق لقراءة أنبائك إلى إعلام الفندق فبعث إلي بما لديه برسمي .

« إن أحسن ساعة قضيتها فى حياتي لساعة تسلم هذا النبأ الذي لا بد أن يكون وقعه الحسن أفاد السيدة الوالدة فى صحتها كثيراً . . .

» إني الآن بالاستانة وسأبرحها بمشيئة الله بعد عشرة أيام على الاكثر .

« ومما يسرك أني ضيف جلالة السلطان وقد تشرفت بلقياه ولاطفنى فى الحديث كما حضرت حفلة السلاملك وأديت فريضة الجمعة (اليوم) فى حضرة جلالته بالجامع الحميدى .

« هذا وسأفيدك عن كل شيء وخصوصاً ما داربيني وبين جلالته من الحديث بالتفصيل وأرجو منك أن تبذل ما فى وسعك لنيل أجازة حتى أنعش الروح بلقياك . واذكرني دائماً كما تذكر مصر فى صلواتك فان الله يجيب نداء الصالحين .

أدامك الله لاخيك المخلص مصطفى كامل »

***

وفى صبيحة يوم الاحد أول نوفمبر سنة ١٨٩٦ جاء إليه رسول من قبل دولة الباشكاتب يرجوه مقابلة دولته فى المابين فقصده فى الحال وقابل دولته فاستقبله بكل بشاشة وأبلغه تحية جلالة السلطان وقال له :

« إن جلالة الخليفة الاعظم يمنحك الحرية التامة فى مقابلة من تشاء كأنك فى بلدك أو فى أي بلد أوربى »

ثم سأله دولته بعد ذلك عما عنده من الرتب والنياشين فقال له المرحوم :

« إني لا أحمل لقباً ولا وساماً ولا أحب أن أحمل شيئاً منها لانى حر والاحرار لا يميلون لهذه الالقاب . وأنك تؤذيني كثيراً إذا لقبت أو وسمت لان وطنيتي خالصة لا تبتغى أجراً ولا تسأل فخراً »

فضحك الباشكاتب وقال له :

« ليت فى الشرق الكثيرين من مثلك »

وقصد فى الحال جلالة السلطان ليبلغه ماقاله المترجم ثم عاد حاملا صندوقا صغيرا من الذهب والفضة وقال للمرحوم :

« إن جلالة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين يهدى إليك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويعجب كثيرا عبادئك وشمائلك على غضاضة شبابك وأمرني جلالته أن أحمل إليك هذه الهدية من خليفة المسلمين »

قال له هذا وقدم إليه الهدية فتقبلها المرحوم وقال :

« إنى أشعر الآن بارتياح كبير حيث رفعنى جلالة السلطان الأعظم والخليفة الاكرم إلي منزلة فوق ماأستحق لأن عملي مهما كان فى نظر جلالته كبيرا فهو ليس إلاقياما بواجب يحتمه علي الدين والوطنية .

« وأني أؤكد لدولتكم أن هذا الصندوق الصغير الكبير لأشرف عندى من أكبر رتبة فى العالم لأنه رمز على صلة الأخلاص بيني وبين عرش الخلافة الذى أفكر دائما فى دوام قوة ورفعة سلطانه . فليدم الخليفة وليدم الاخلاص »

قال هذا رحمه الله وصافح الباشكاتب وما وصل إلى الفندق حتى أخذ قرطاسا وكتب إلى مانصه :

« أخى الأعز حرسه الله

« أقبل وجنتيك واهدى إليك أشواق الأخوية الخالصة . وأبشرك بأن جلالة الخليفة قد أهدي إلي علبة سجاير من الذهب مرصعة بالاحجار الكريمة وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة . وقد سلمها إلي دولة الباشكاتب اليوم بعد أن أبلغنى سرور جلالته وارتياحه إلى عملي .

« وكان جلالته كما أبلغنى الباشكاتب يود الانعام علي برتب أو بنيشان

ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شىء من ذلك حتى لاتروج بضاعة الأعداء ضدي ويتهمني أبناء وطني العزيز بالعمل حبا فى الظهور ونيل هذه الألقاب الكاذبة .

« زارنى الكثيرون من كتاب الجرائد وحادثونى فى شؤون بلادنا التعسة السيئة الحظ والتى نؤمل لها فى مقتبل الأيام كل سؤدد وخير عميم أدامك الله لأخيك المخلص « مصطفى كامل »

الأستانة فى يوم الأحد أول نوفمبر سنة ١٨٩٦

***

ماوصل المرحوم إلى الاستانة حتى طيرت شركتا روتر وهافاس للعالم أجمع نبأ وصوله وكذلك عند ماقابل جلالة السلطان وعند ماأهدى إليه الهدية النفيسة وقد انتهز كذلك مكاتبو الصحف الكبيرة وجوده فى الاستانة فوفدوا عليه وحادثوه فى شؤون مصر . وقد رأينا أن نثبت في هذه السيرة من هذه الاحاديث اثنين أحدهما دار بينه وبين مكاتب جريدة (فرانكفورتر كوريه) الالمانية الشهيرة . والثانى مع مكاتب جريدة « نيويورك هرالد » الامريكية وهي أهم جريدة فى العالم لاستقلالها وتجردها عن غايات السياسة الاوربية .

كتب مكاتب جريدة فرنكفورتر كوريه بعنوان « حديث عن المسألة المصرية — مصطفى كامل في الاستانة » ماتعريبه :

« الاستانة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« تشتغل دوائر الاستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر وهي المسألة الخطيرة التى لايبعد أن تظهر بعد قليل في مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن . وفضلا عما لهذه المسألة من الاهمية فى أوربا فأن الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على عهدتهم النداء بحقوقهم وإظهارها دائما على المرسح السياسى وذلك مازاد قيمتها :

« ولقد حضر ألى الاستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصرى الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم ألا وهو « مصطفى كامل » .

« ذلك الشاب الذى خلق ليكون خطيب قومه لما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين — ولما هو عليه من الفصاحة المتدفقة وملكة التأثير فى النفوس ، ولما فى نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه .

«وما جاء الاستانة (مصطفى كامل) وزار فيها رجال السياسة حتى قوبل من كل الدوائر السياسية بغاية الاجلال والاكرام . وعلى الاخص فى المابين السلطانى فأنه قوبل باجمل مايقابل به سياسى من الحفاوة والتكريم .

« ومن الصعب أن يقرأ الانسان من هذا الحين النتائج التى تنتج عاجلا عن عمل « مصطفى كامل » . ولكن مقابلته لرجال السياسة ذوى الحكمة والشأن فى العواصم الثلاث « باريس وبرلين وفينا » ومحادثاته لسائر الجرائد الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانيه لمن الامور التى يدرك قيمتها كل انسان .

« ولقد قابلت هذا الضيف الجليل وتحادثت معه طويلا فى أحوال مصر والشرق . فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة . وهو يتكلم اللغة الفرنسية كاحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس . كل ذلك فضلا عن معرفته التامة بالعادات الاوربية الحميدة وعدم إهماله العادات الشرقية الكريمة فهو يقابل زائريه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل انسان !

« وأني أقول بكل صراحة واندهاش إن لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمناً طويلا ولايزول تذكارها . أما حرارته فى حديثه فهى حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوربا وهى حرارة كلها وطنية صادقة وإحساسات عالية ،

«ولقد سألت « مصطفى كامل »رأيه عن حركة الخواطر فى العالم الاسلامى فاجابنى جوابا صريحا أنقله لقراء جريدتنا . كماهو :

« لاتظن ياحضرة المكاتب، أن المسلمين يكرهون المسيحيين أو أن فى نفوسهم شيأ من البغضاء لهم . وأن الذين يصرخون فى أوربا بتعصب المسلمين الدينى إنما يضرون أعظم الضرر بمسيحيى الشرق فاذا تساهلت

أوربا زمنا طويلا وأغضت عن الكتابات والخطابات العدائية ضد الاسلام اضطر المسلمون عندئذ أن يجزموا بأن أوربا قاطبة متعصبة ضدهم محاربة لهم حربا دينية .

« وأن نتيجة انتشار اعتقاد كهذا الاعتقاد في العالم الاسلامي لعظيمة الخطر على العالم كله .

« وماذا تقولون معشر الاوربيين إذا قام اليوم علماء الاسلام وقلدوا قسوس الانكليز وألقوا فى الجوامع والمساجد الخطب الدينية ضد النصرانية والنصارى وحرضوا هذه الأمم التى يبلغ عددها ثلاثمائة مليون من النفوس على المسيحيين ؟؟

« ولقد رأيت بنفسك ياحضرة المكاتب فى الحوادث الاخيرة برهانا واضحا على عدم تعصب المسلمين ضد المسيحيين، فهل نال أحداً من الاوربيين شيء من الاذى ؟؟؟ كلا ثم كلا إنما بغض الأرمن وإن كان شديداً فأنه طبعي لان هؤلاء القوم الذين كانوا فى رغد تام من العيش وفى نعمة زائدة لم يجدوا وسيلة يظهرون بها امتنانهم للدولة العلية غير الثورة والجرائم والمذابح ؟؟؟ فاولئك المجرمون هم المسؤلون وحدهم عن مصائب إخوانهم الأرمن الذين ماتوا أبرياء وذهبوا ضحية عمل فريق منهم .

«وإذا كانت أوربا تريد حقيقة العمل للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين فعليها أن تجبر انكلترا على احترام المعاهدات وحقوق السلطان فى مصر التى هى من الخلافة الاسلامية روحها وقلبها . واعتقد ياحضرة المكاتب أنه متى انحلت مسئلة مصر لا يكون لانكلترا فائدة من الآن فى دس الدسائس على الدولة العلية . . .

« أوليس من الغرائب أن أوربا المتمدينة تهمل حمل انكلترا على احترام حقوق السلطان فى مصر ثم هي بنفسها أوربا التي تسأل السلطان نفسه احترام المعاهدات ؟؟؟؟

« أما الجواب عن سؤالك لى عن نفوذ خليفة الاسلام المعنوى بين الامم الاسلامية فقطعى لاريب فيه. وأن للخليفة الاسلامى نفوذا هائلا لايدركه الفكر بين كل الامم الاسلامية. وإذا كان يوجد فى أوربا أناس يقولون عكس ذلك فأنهم يغشون أوربا ليلقوها فى هاوية خطر عظيم .

« ويكفينى أن أقول لك أن كلمة واحدة من جلالة الخليفة تكفى لتسيير الأمم الاسلامية كلها فى أى سبيل يشاء فليتيقظ لذلك الامر محبو السلام فى أوربا !!!

الحديث الثانى

« كشف الغطاء عن دسائس الانكليز »

(السياسة ذات الوجهين)

وهذا هو حديث مكاتب جريدة نيويورك هرالد فى الاستانة :

« الاستانة فى ١١ نوفمبر

« إن لزيارة « مصطفى كامل » الخطيب الوطنى المصرى الشهير للاستانة قيمة يدركها كل إنسان خصوصا وأنها جاءت فى الزمن الذى يشتغل فيه كل رجال السياسة بمسألة مصر . هذه المسئلة التى لايبعد أن تقوم قيامتها قريبا ويشتغل العالم كله بها .

« ومن المقاصد التى جاء مصطفى كامل هنا لاجلها هو أن ينفي كل الاراجيف التى يشيعها بعض الناس بأن المصريين غير صادقين عمافى ولائهم لجلالة السلطان كما يزعمون مثل ذلك عن الخديوي المعظم لغايات لاتخفى .

« فهو ينادي ويحقق كما يعتقد أنه بالرغم من أقوال الوشاة لايوجد أدنى فتور

فى علائق الخديوية المصرية للعرش العثمانى وإذا كان مصطفى كامل عنوان الشبيبة في مصر وممثل الوطنية الكامنة فى صدور النشء المصرى الذين هم رجال المستقبل فى مصر فقد قابلته وتحادثت معه فى أحوال وطنه وشؤونه وهذا هو الحديث !

ماهي إحساسات المصريين نحو الانكليز ؟؟

« إن جميع المصريين كارهون للاحتلال الانكليزي وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية تملك كل وادي النيل . ولذلك فقدوا الآن ما كان عندهم من الثقة فى وجود الانكليز . وبالاختصار فقد تعلمنا من الاحتلال الانكليزي أن نعتقد بأنه لا شرف ولا ذمة فى السياسة .

ما هى رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطنى فى مصر ؟؟

« إن الحزب الوطنى فى مصر هو عبارة عن الامة بأسرها تجاه الاحتلال فرغائبه هى رغائبها . وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث أي اضطراب أو أى أمر من شأنه تكدير الأمن العام .

« ولهذا الغرض قمنا نلفت أنظار أوربا إلينا بالقلم واللسان ولسنا بغير القلم واللسان نريد أن نخاطب أوربا ونستفزها للنظر فى مصلحة بلادنا . أما الانكليز الذين يدعون أنهم احتلوا مصر لتأييد الامن فيها فانهم يعملون جهد استطاعتهم لأحداث اضطرابات فى البلاد فهم يجتهدون فى إهاجة خواطر المسلمين ضد المسيحيين والمسيحيين ضد المسلمين وينشرون رسائل طعن في الدين الاسلامى ويدعون المسلمين لاعتناق النصرانية ويطعنون في جرائدهم فى خليفة الاسلام الذي له فى مصر سلطة معنوية لا يحدها العقل كل هذا مع احتقارهم لسائر النظامات والقواعد الشرعية .

« ولذا كان عمل كل وطني صادق في مصر موجهاً إلى تسكين خواطر

الامة التي من الجائز أن تثور يوماً بسبب تحريضات شيعة الانكليز .

ولكن قل لي لماذا يرغب المصريون فى الجلاء والانكليز يشيعون أنكم فى أرغد عيش تحت سلطتهم ؟ ؟

« إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولا ، لأننا نشعر بفروضنا وحقوقنا ونعتقد أن من واجباتنا القيام بمثل هذا العمل الشريف وأن فينا من الحياة ما يكفى لتمتعنا بكل حقوقنا .

« أما ما يشيعه الانكليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب تام يدحضه البرهان ، إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزاباً حساً ومعنى .

هل لك أن تقول لى ما هى خطة مصر إزاء الدولة العلية (الجواب عن هذا السؤال وعن الذى بعده هما ولا شك بيت القصيد من هذا الحديث)

« إن سياسة مصر نحو الدولة العلية — وهى السياسية التي يجري عليها الوطنيون المصريون — هى سياسة حسن التقرب منها وتوطيد العلاقة الحسنة على قدر الامكان بين التابع والمتبوع .

« فالتاريخ ينذرنا بألا نتبع سياسة أخرى غير سياسة المحاسنة لانه إذا كان الانكليز فى مصر الآن فالسبب فى ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين جلالة السلطان والخديوى السابق توفيق باشا . ولقد نجح الأنكليز فى التفريق بينهما بالسير على سياسة ذات وجهين . فأفهموا جلالة السلطان وقتئذ أن خديوي مصر عدو له يعمل لاسقاط جلالته عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر (محمد علي) وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ويسعى لعزله عن

كرسي الخديوية ليعد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل العائلة الخديوية.

«فلما قامت مسئلة عرابى رأى الانكليز من تمام المهارة ومن وسائل توسيع خرق الشقاق أن يبرهنوا للخديوى علي كراهة السلطان له فسعوا عند الخليفة سعى الصديق حتي حملوه علي تقليد عرابى الوسام العثمانى الأول!! ومن هو عرابى ؟؟؟ هو الذي كان يدعى يومئذ بانه المدافع عن حقوق السلطان فى مصر. وهذا الأمر أوغر صدر الموحوم توفيق باشا وألقاه فى حضن الانكليز . وها هم الانكليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للشقاق والتفريق بين الجناب الخديوى وجلالة السلطان. ولكن ما نعهده فى أميرنا الحالي من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائما لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة. وهى السياسة التي فى اتباعها سلامة الكرسى الخديوى والوطن المصرى (١)

ثم سألت مصطفي كامل السؤال الآتي :

هل يمكنك أن توضح لى السبب الحقيقى للحملة علي دنقلة ؟؟

فاجابني برأى سياسى جديد في هذه المسألة. وهذا جوابه :

« إن مرمي السياسة الانكليزية من يوم احتل الانكليز مصر هو الاستيلاء على السودان. فهم يرغبون تملك هذ الوادى المملوء بالخيرات والنعيم وقد أدركوا أن من ملك السودان يملك مصر وأنهم إذا اضطروا إجابة لقرار أوربا للجلاء عن مصر يبقى السودان تحت سلطتهم (٢)

---

(١) ليقرأ هذا الذين استؤجروا للطعن فى سياسة مصطفي كامل بعد وفاته بثماني عشرة سنه عساهم يفقهوا أنه ما كان فى مصلحة مصر أن ينادى رحمه الله بالاستقلال التام حتى لا يوغر صدر السلطان والباب العالى !

(٢) ولقد ظهر ذلك الآن من تتبع الحوادث بكل وضوح

« ولا يخفى أن السودان بلاد لا ديون عليها لاوربا كمصر فتملك الانكليز لها يجعلها مستعمرة إنكليزية مطلقة وكل أعمال الانكليز من يوم الاحتلال موجهة إلي هذه الغاية .

« فلما أحس أبناء التاميز فى سنة ١٨٩١ أن فرنسا والروسيا تشتغلان بوضع أساس اتفاق لحل المسألة المصرية وخافوا أن هاتين الدولتين تعضدان النجاشي بالضباط والاسلحة فيسير بجيشه الجرار إلى السودان - وهم يدركون عواقب ذلك - أوقعوا بين إيطاليا والنجاشي ولم يكن ثم غرض لهم إلا أن يمنعوا ملك الحبشة من التقدم فى السودان . وقد نجحت سياستهم نجاحا عظيما وألقت إيطاليا بنفسها بين يدى الاحباش وما عملت شيئا غير كونها خدمت سياسة الانكليز ومشروعاتهم الخفية بمالها ودماء أبنائها !

« ولمهارة الانكليز فى سياستهم انتهزوا فرصة انهزام الايطاليين وقرروا حملة دنقلة بحجة مساعدة إيطاليا المنهزمة لينالوا بهذه الحجة رضا التحالف الثلاثي عن الحملة وموافقته عليها .

« ونرى الانكليز يريدون الآن تمثيل آخر فصل من هذه الرواية بطلبهم ابتياع كسلا من إيطاليا ! ! !

وبمثل هذه الاعمال تسخر انكلترا من أوربا بأسرها حيث لم تعمل هذه عملا ما لاخراج تلك من وطننا العزيز ! »

***

أحدث هذان الحديثان تأثيرا كبيرا فى الدوائر السياسية الكبرى وجاء للمرحوم على أثرهما كتب عديدة من رجال السياسة يهنئونه فيها بهذا الفوز ويؤكدون له أن مسئلة مصر مهما طال عليها الزمان فلابد أن تأخذ حقها العدل من العالم المتمدين

، ومن هؤلاء الذين خاطبوه الدكتور هفمان زنيفر رئيس حزب الشمال بالبرلمان الالماني فقد قال له :

« ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« سيدى

« إنى قرأت أعمالك الاخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعا عن بلدك العزيز فوجدتها لم تصدر إلا من وطنى مخلص زكي نشيط فأهنئك بهذه الدرجة التى تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هى سنك (كانت سن المرحوم وقتئذ ٢٢ عاما)

« وأني أوافقك على وجوب جلاء الانكليز عن مصر لا لأن الالمان يكرهونهم كما يشاع عنا بلاحق ، ولكن لتحقيق مسئلة التوازن الدولى العام ولمصلحة قناة السويس بل ولمصلحة انكلترا نفسها .

« إنا مستعدون لمساعدتكم متى كنتم عقلاء فادأبوا على الدفاع من سبيله الشرعية فكل من سار على الدرب وصل وتقبل ياسيدى خالص احترام

الصادق المخلص

« ﻫ . زنيفر »

***

وكتب اليه كذلك المسيوكانى فورشللا النائب الايطالى المتطرف الشهير كتابا هذا تعريبه :

« ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« أيها المصري المحترم

« إنك بأعمالك تلفت من جديد العالم إلى تاريخ مصر القديم والجديد وتعيد ذكرى الفراعنة الذين لبسوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة ! إنك لاتقل فى نظرى عن أوربي ذى رأس كبير محنك ، وربما فضلت عليه بنشاطك الفائق الذي لايقل عن نشاط البخار ، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفينا والاستانة تذكر بلادك ، حتى خيل لنا أن العالم كله معك . نعم إن العالم كله معك . لان مسئلة مصر هى مسئلة العالم كله وخصوصا مسئلة إيطاليا التى اعتمد ملوككم الحديثون على أبنائها في الرسم والبناء وتنظيم الجند والبوليس

فلاتحرم إيطاليا زيارتك فأن الاحرار يحبون على الدوام رؤية الاحرار من أى جنس كانوا . واعتقد أيها الوطني الغيور أن أبناء إيطاليا الذين درسوا الوطنية على جريبا لدى وكافور ومازيني لفى أتم استعداد لمعاونتكم على حل مسئلة مصر ، إن لم يكن اليوم فغدا ، وليس الغد ببعيد وتقبل عظيم إخلاصي

« ك . فورشللا »

هذه الكتب وأمثالها مما كانت تشجع المرحوم فوق شجاعته، فكان قلبه كله أملا فى حل مسئلة مصر كما أن قلوبنا كذلك لان الحق مهما طال عليه الخفاء فلابد أن يعلو يوما ويعود إلى حقيقته الاولى . . .

المسئلة المصرية

وكتبت جريدة « الاندبندنس بلج » الشهيرة فصلا مطولا فى عددها الصادر بتاريخ ٢٣ نوفمبر بمناسبة زيارة المترجم للاستانة العلية . هذا تعريبه :

« لقد اهتمت الجرائد الاوربية فى الايام الاخيرة بزيارة « مصطفى كامل » للاستانة العلية . ذلك الوطنى المصرى المشهور بخطبه المؤثرة فى مسئلة الاحتلال والجلاء

« وقد أشيع أنه فى مدة وجوده فى الاستانه العلية أبلغ جلالة السلطان آراءه فى مسئلة جلاء انكلترا عن وادى النيل . وأن هذه الاشاعة تكون ذات أهمية لو تحققت خصوصاً وأنها جاءت فى وقت ثبت فيه اتحاد فرنسا والروسيا وعزمهما الاكيد على العمل لتحقيق تنفيذ العهود الصريحة التى تعهدت بها انكلترا في مسئلة مصر . أى تحقيق الجلاء . .

« ويؤكد الثقات من رجال السياسة أن مصطفى كامل شرح رأيه لجلالة السلطان فأنه ينبغى أن يرسل جلالته مذكرة سياسية إلى الدول يذكرها فيها بضرورة حل المسألة قبل كل مسئلة سواها . فأن انكلترا هى أول الدول الساعية اليوم فى تنفيذ التغيرات الجديدة فى الدولة العلية . وبعبارة أخرى هي أكثر الدول عملا فى تأييد حقوق المسيحيين . وهذه الصفة التي انتحلتها انكلترا لنفسها اليوم تسمح لجلالة السلطان أن يجيب عن مطاعنها . بأن يطلب منها الاعتراف أمام أوربا بحقوقه على مصر .

« وأن عملا كهذا من جلالة السلطان يقابل ولاشك بالاستحسان مادام جلالته واثقا من عضد ألمانيا زيادة على ماعنده الآن من الثقة بعضد فرنسا وروسيا . ومعلوم

لدى العامة والخاصة أن جلالة الامبراطور غليوم الثانى يحترم جلالة السلطان عبد الحميد احتراما زائدا بحيث لاينكر أحد مودته لخليفة المسلمين واختصاصه إياه بالمحبة الا كيدة .

« ومما يفيد ذكره الآن هو أن الجرائد الالمانية الشبيهة بالرسمية وبعض الخطباء الرسميين أبدتوا فائدة الاتفاق الثلاثي الذي جرى بين فرنسا وألمانيا والروسيا فى مسئلة الشرق الاقصى . وأن معضلة سياسية من أهم المعضلات قامت اليوم ولها بالمسئلة المصرية ارتباط شديد ألا وهى مسئلة النفوذ الاوربي فى مياه بحر الصين والاوقيانوس الباسيفيكى . فأن اليابان تعمل اليوم عدة تجهيزات ضد الروسيا وقد خصصت قسما عظيما من الغرامة الحربية التى دفعتها لها الصين لانشاء مدرعات حربية وأساطيل خطيرة .

« ومما لامراء فيه أن الروسيا تتم بعد ثلاث أوأربع سنوات سككها الحديدية فى سيبيريا لكي تستطيع إذ ذاك إرسال الجنود بأسرع وقت فى كوريا وسيبيريا الشرقية ولكن هل الجنود وحدها كافية ؟؟؟

« أوليست إنكلترا قادرة على منع السفن الروسية من اجتياز قناة السويس ؟ وإذ كانت اليابان دولة بحرية مؤلفة من جملة جزائر فغير ممكن اخضاعها بغير الاساطيل القوية والسفن الحربية المستعدة بعد طرد جنودها من سيبريا وكوريا (١)

« اذن فكيف تتغلب الروسيا على اليابان اذا لم تكن قادرة على اجتياز قناة السويس التي هى أقرب الطرق للوصول إلى المحيط الهادى ؟؟

« فيستنتج من كل ذلك أن للروسيا بالرغم من إنشاء السكك الحديدية في سيبيريا مصلحة عظمي فى حل المسألة المصرية التى من ضمنها مسئلة قناة السويس . ولذلك تتفق فى مسألة مصر مصلحتها مع مصلحة فرنسا صاحبة الهند الصينية ، وتتفق كذلك مع مصلحة ألمانيا بالنظر إلى مالها من التجارة الواسعة فى الشرق الاقصى إلى مالها من المستعمرات فى أفريقية الشرقية .

« وضف إلى ذلك العداوة الشديدة التى ابتدأ لهيبها بين ألمانيا وانكلترا من

---

(١) لقد ساعدت انجلترا اليابان ضد الروسيا في حربها معها فى سنة ١٩٠٤ مساعدة الراغب فى أضعاف التحالف الثنائى حتي لاتفلت مصر من يدها!

نحو سنتين والتى لايستبعد معها أن نرى الاتفاق الثلاثى بين فرنسا وألمانيا والروسيا يتحقق فى مسألة مصر كما تحقق فى مسئلة الشرق الاقصى .

« ولقد تكلمت الجرائد الاوربية عن إمكان حصول هذا الوفاق الثلاثى . والرأى العام الفرنسى يظهر ارتياحه لحصول الوفاق فى مسئلة مصر ، إذ لا يمكن حصول الموازنة بين فرنسا وانكلترا فى البحر الابيض المتوسط مادامت انكلترا محتلة لمصر . ويرون في ألمانيا أن ليس بالبعيد حصول هذا الوفاق في مسئلة مصر خصوصاً وأن « غليوم الثانى » يجتهد في إسقاط خصمه التجاري الوحيد . أى الانكليز .

« ولقد فهم الوطنيون المصريون كل هذه الامور وعملوا للانتفاع بهذه الظروف السياسية حتى يبلغوا غايتهم المقصودة وهي الخلاص من النير الانكليزي وعلى الجملة فان مصر هى المسألة الدولية الشاغلة لكل الافكار . وهى مسئلة المستقبل القريب .

« ويكفى لمن اطلع على ماجري أخيراً فى مجلس النواب الفرنسى عند ماسئل ناظر الخارجية الفرنسية عن ماهية الاتحاد الفرنسى الروسى ومن نياته فى مسئلة مصر أن يتحقق الاتفاق التام الكائن بين فرنسا والروسيا فى مسئلة مصر . ولم يكن من الممكن أن المسيو هانوتو يصرح زيادة عما صرح به فان الحكومات لاتستطيع مطلقا المجاهرة بنياتها وأسرارها أمام مجالس النواب . ولكن ماقاله المسيو هانوتو يكفى كما أوضحنا لاثبات اتفاق الدولتين الفرنسية والروسية على مسئلة مصر واعتزامها الاكيد العمل لاجبار انكلترا على أن تخرج من مصر .

« ومن كل ماذكرناه يدرك طالب الحقائق مقدار الخطأ الذى وقعت فيه كل دول أوربا لتركها المراقبة الثنائية تنحل طبقا لرغائب الانكليز .

« هذه المراقبة التى كانت أعظم ضمانة لحيدة قناة السويس والناس كافة يحسون فى أوربا هذا الخطأ ولابد من إجبار انكلترا يوما ما على الجلاء من مصر . فان فى تحقيق الجلاء فائدة عظيمة جداً لكل أوربا » . . . اه

***

بعد أن مكث المرحوم فى الاستانة إلى يوم الاربعاء الحادى عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٩٦ استأذن من جلالة الخليفة بالعودة إلى مصر فأذن له جلالته وبرح الاستانة فوصل إلى القاهرة فى يوم الاحد الخامس عشر من ذلك الشهر وقد كتب

المؤيد بمناسبة وصوله مانصه بالحرف الواحد :

« حضر إلى العاصمة مساء أمس حضرة الفاضل الغيور مصطفى أفندى كامل على أثر عودته من الاستانة وقد استقبله الجم الغفير من أصدقائه وخلانه على المحطة مهنئيه بسلامة الوصول.

« ويسرنا أنه لقى من تعطفات الحضرة الشهانية مدة وجوده فى دار السعادة ما هو جدير به من الرعاية والالتفات وقد تفضل جلالة مولانا السلطان الاعظم فأنعم عليه بهدية ملوكانية فاخرة وهي علبة سجاير من الذهب مرصعة بماس وعليها الطرة الشريفة ترصيعا بالجواهر والاحجار الكريمة أيضا وقد وضعت في صندوق صغير فى أحسن حلية من الذهب والفضة . ولاشك أن للتعطف بمثل هذه المنح الخصوصية اعتباراً سياسيا وشأنا عظيما يفوق الانعام بالالقاب والاوسمة أضعافا مضاعفة .

« ومما يذكر هنا أن حضرة الفاضل المومى إليه كان ممتعا فى الاستانة العلية بالحرية التى كان عليها فى عواصم أوربا وكان مكاتبو الجرائد الاوربية الشهيرة يتوافدون عليه للتحدث معه في الشؤون السياسية كما كانوا يتوافدون عليه في باريس وبرلين وفينا بحريه تامة ورخصة شاملة من جلالة مولانا السلطان ونحن الآن نهنيء حضرته بسلامة العودة وبما لقى من آيات النجاح فى كل خطوات سياحته خادما أميناً لوطنه أكثر الله في البلاد المصرية من أمثاله ونجح مقاصد كل خادم أمين لقومه وأمته وبلاده » . . . اهـ

***

وما وصل المرحوم إلى المنزل واستراح حتى كتب إلي تلغرافا هذا نصه :

« مصر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« وصلت إلى العاصمة أفدنى متى تحضر كامل »

وقد بعثت بالرد فى الحال بأنى سأكون بمصر فى أوائل فبراير المقبل

ثم ورد إلي منه كتاب هذا نصه :

« أخي الاعز

« ألف تحية وألف سلام . وصلت البارحة إلى العاصمة فاستقبلني الاخوان أحسن استقبال وقد وجدت جميع أفراد العائلة فى أجود صحة وبعثت إليك توا بتلغراف أنبأتك فيه بوصولى وسألتك متى تحضر لمصر وقد تسلمت التلغراف الذى ورد منك اليوم وسأعد الايام بالدقائق والساعات حتى يجيئنى منك مايبشرنى بقيامك الينا . بلغك الله السلامة وحفظك لاخيك مصطفى كامل »

الاثنين ١٦ نوفمبر سنة ١٨٩٦

***

ما انتشر ما كتبه المؤيد عن وصول المرحوم من دار السعادة وعن وصف هدية جلالة الخليفة حتى قصده الكثيرون من محرري ومندوبى الجرائد الاوربية والمحلية ونظروا إلى الهدية نظرة إعجاب وحادثوه فى شؤون سياسية مختلفة ونشروا عنه ما ارتاحت إليه نفوس جميع الوطنيين .

أما جرائد الاحتلال المأجورة فقد أشبعته سبا وشتما كأنها تريد ألا يكون لمخلوق وطن حيث لا وطن لها . وقد اتهمته بتهم كثيرة أقلها أنه مجنون معتوه إلى غير ذلك من الكلمات التى يخجل فاقد شعوره من التفوه بها .

وقد كتب إلي رحمه الله كتابا جاء فيه :

« ما سمعت فى حياتى من أنواع الشتائم وصنوف السباب مثل ما سمعت بعد عودتى من السياحة فى هذه المرة فقد صادفت أصواتا أجنبية عنا ودخيلة فينا تنادى فى كل مكان بأنى خيال لا حقيقة وأنه لا وجود للوطن المصرى . فاقرأ هذه السطور بين أخوانك الضباط وقل لهم إننا في زمن لا يستحي فيه مأجور ولا ينزوي فيه دخيل . فهم يأتون إلي مصر جياعا

فيذكرونها كل لحظة بالخير وأنها وطن العالم ولها أسخى الأيادى على كل عاجز مقعد . حتى إذا ماشبعوا وصعد بخار غذائها المحيي إلى رؤوسهم ضلت عقولهم وعميت عيونهم فيرون جميل الأمس قبيحا اليوم ويجعلون نهارنا ليلا ويدعون أنهم وطنا وقادتنا .

« قل لهم بالله عليك — إن الوطن المصرى موجود ولكن الوطنيين الصادقين قليلون حتى يكادوا يكونون عدما .

« قل لهم إن الذى ألبسكم سلاحكم وتوجكم بهذا الشرف شرف الدفاع عن حوزة الوطن هو الوطن نفسه . وأن ألذ ساعة تمر على الوطنى فى ساعات حياته هى أن يرى بعينيه دمه يسيل ثمنا وفداء لأخوانه أبناء الوطن وشرف الوطن .

« قل لهم إن في البلاد احتلالين ، انكليزيا ودخيلا ، وبقدر محاربة الأول يجب محاربة الثانى أضعافه لانه الدخيل الذى دخل ليدعى أنه منا . وأما الانكليزى فلا يغير جنسيته ودينه وعاداته لانه يجد المجد فيها والشرف فى ذكرها والتغنى بها .

« قل لهم إن أخاك رأى الامم والاوطان جسمين لا يفترقان لان الاول من الثانى وابن نعمته وغرس فضله وإحسانه ، ولا ينكر الاحسان الا كل لئيم جبان .

« قل لهم إن الرجل الذي يأخذ باليمين حلاوة ليرد بالشمال نارا ليس من البشر بل من حشرات نشأت بين الاقذار فكانت العاطفة البشرية فيها سما زعافا !

« قل لهم إن الانكليز يعرفون عن خبرة أن العلم بيننا لا يزال فى

التسنين فلم يبلغ الحلم بعد . فهم يبثون فينا وسطاء السوء ونذراء الشر وأهل الضلالة ليضلوا من صغر عقله وجبن قلبه ضلالا كبيراً .

« قل لهم إن الضابط الذى يقرأ أقوالهم بعد ما قرأه منها لا يصح أن يكون مدافعاً عن الوطن . لان الوطن يطلب نفوساً تضع الكرامة موضعها وتفرق بين العدو والحبيب . نعم إن الوطن يقول بلسانه المؤثر : « إن أبنائي هم الذين يقفون بيني وبين كل ساع فى إضرارى » وليس هناك شر أعظم من دخيل ينكر على الابناء حب أبيهم كما ينكر هؤلاء الدخلاء حبنا لوطننا .

« قل لهم كل ذلك وسيسمعون يوماً صوت الوطن إن لم يكونوا قد سمعوه من قبل ! إنه لصوت مؤثر محبوب ! ! وأبلغهم عنى تحية الأخ لاخوانه : . . . .

« وأرجوك أن لا تحرمنى كتبك السارة فانى في حاجة كبرى لرؤيتك بعد الذي أصابك ولأقص عليك ما رأيت فى غيابك والله يبقيك ويؤيدك لأخيك المخلص مصطفى كامل »

السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٦

﴿ حيلة المحتلين ﴾

على اقتراع المرحوم للجندية

عمد المحتلون من شدة حنقهم على المرحوم وتغيظهم من عمله كأنه لم يكفهم ظلمهم إياي — ذلك الظلم الذى عرفه القراء من حادث الجيش — إلي طريقة جديدة من اختراع أواخر القرن التاسع عشر . وهي اقتراعه للجندية إبان غيابه فى أوربا وقد استعملوا فى هذه الحيلة طرقاً شتى وإليك البيان . . .

« في السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٦ بدأ مجلس قرعة القاهرة في اجراء عملية القرعة فأوعز الانكليز إليه أن يقترع المرحوم غيابياً ويجنده جندياً . وكان الانكليز يعتقدون أن الصلة بين سمو الخديوى والمرحوم كبيرة وأنهم رأوا أن ما عملوه معى لم يؤثر في المرحوم شيئا بل زاده نشاطا فى خدمة الاوطان . وعمل أضعاف عمله فى العام الفائت . فلم يجدوا غير هذه الحيلة التى يقضون بها عليه القضاء الاخير بواسطة من لا يهمهم منا إلا غرض يقضونه أو مأرب ذاتي يصلون إليه !

جاء دور قسم الخليفة بمدينة القاهرة في الاقتراع وهو القسم الذي ولدنا فيه وقيدت اسماؤنا فى سجلاته . فأوعز رئيس المجلس إلي مأمور القسم بعمل كل ما فى وسعه لتبليغ اعلان اقتراع المرحوم لاحد افراد عائلته حتى إذا مضى ثلاثة أشهر على هذا الاعلان يكون اقتراعه واجبا كما تقضيه القوانين !

سلم مأمور القسم إعلان اقتراع المرحوم ضمن جملة إعلانات لمشايخ الحارات وكان شيخ الحارة التي كنا نسكنها رجلا اسمه الشيخ محمد زايد (رحمه الله) .

جاء شيخ الحارة إلى المنزل وسأل الخادم عن المرحوم فأخبره أنه فى أوربا وأنه سيحضر قريبا فاعتمد على قرب حضوره ليسلمه الاعلان بنفسه .

سأل رئيس مجلس القرعة عن هذا الاعلان خاصة بعد بضعة أيام من المأمور وهذا سأل شيخ الحارة الذى أبلغه أنه جرى مجراه . وعلى ذلك اطمأن بال واسطة المكيدة وأبلغ رؤساءه الانكليز بما كان فهشوا له وبشوا وما دروا أن تدبير الله أعظم وأن الله لا ينصر الظالمين .

عاد المرحوم من سياحته وما جاء السابع من شهر ديسمبر حتى تسلم إعلان من القسم بأن يذهب إلي مجلس القرعة لانه قد حل ميعاد تجنيده حيث لم يبد أقل معارضة بعد الاعلان الذى أرسل إليه .

ماقرأ المرحوم هذا الاعلان حتى فقه أنهم نصبوا له أحبولة جديدة فكلف فى الحال أحد اخوانه أعضاء الحزب ليستحضر له قانون القرعة وذيله وبعد أن قرأها وجد أنه يجب عند عملية الاقتراع بأي قسم إعلان ذلك بالوقائع المصرية وتعليق أسماء المقترعين بلوحة فى القسم التابعين له وارساله إعلانا خاصا لكل مقترع أو لمن لهم به أية علاقة من أهله أو من خدمه :

ماوقف المرحوم على هذه الفقرات من قانون القرعة حتى دعا شيخ الحارة

وسأله أمام اثنين من أصدقائه عنما إذا كان سلم اعلان اقتراعه لاحد من هؤلاء فى غيابه وعنما إذا كانت أسماء المقترعين علقت فى القسم . فقال شيخ الحارة على الفور « ما حصل شيء من هذا » فاستكتبه المرحوم نص ماقال وأشهد عليه الصديقين كتابة وحفظ الشهادة .

قصد رحمه الله فى اليوم الثانى مجلس القرعة وقابل رئيس المجلس فسأله هذا قائلا : « أءنت مصطفى كامل » فجاس المرحوم على كرسى وجده خاليا وقال له « نعم وما ذا تريد ؟ » فاندهش الرئيس وقال : « إنك الآن جندي فيجب أن تقدم الضمانة اللازمة للمجلس حتي نأمن من وجودك يوم التجنيد النهائى . فناقشه المرحوم بشدة وقدم له الشهادات التى تعفيه ومعها نقود البدن العسكرى . ولكن صاحبنا هذ كتفيه وقال هذا لاينفعنا الآن . فقال له المرحوم : « افعل ما شئت » وتركه وانصرف . فكتب رئيس المجلس فى الحال للحربية وهذه كتبت للمحافظة .

كتب المحافظ خطابا لقسم الخليفة يشدد فيه بوجوب القبض على المرحوم وإرساله حالا للمحافظة ولكن مأمور القسم لم يعمل بنص هذا الكتاب غير القانوني . وقصد إلى المرحوم فى الحال فوجده مع الكثيرين فى قاعة الضيافة . فقام المترجم واختلى به فى مكان آخر . وبعد أن عرف مايبتغيه شكره شكراً جزيلا ووعده بالذهاب إلى المحافظة فى اليوم التالى .

في مساء هذا اليوم جاء تاجر من تجار الاسكندرية بصفة خاصة ليقول للمرحوم — وهو لايعرفه — إنه قد سمع من حكمدار بوليس الاسكندرية أن المحتلين مصممون علي تجنيده كلفهم ذلك ما كلفهم وأوصاه أن يأخذ الحيطة فى ذلك . فقصد المرحوم تواً مكتب شركة هافاس فى القاهرة والمسيو كافيو مدير جريدة « الجورنال اجبسيان » الفرنسية وأبلغهما فحوى المسئلة . فأرسل مكاتب هافاس تلغرافا مفصلا لمركز الشركة بباريس هذا تعريبه :

« إن المحتلين يريدون تجنيد «مصطفى كامل » السياسى الشهير مع أن قوانين البلاد تستثنى من القرعة حاملي شهادة الحقوق والقادرين على دفع البدل العسكرى وهو ممتع بالصفتين .

« وأن ما ينتحلونه من أعذار كأعلانه فى غيابه وإتمام الاجراءآت القانونية ليس بصحيح . وأنى أوكد للرأي العام الاوربي أن هذه المسئلة لو تمت على رغبة الانكليز لاثارت فى مصر حركة تكون نتيجتها وبالا على مصالح كل دول أوربا لان هـذا الرجل من أكبر زعمـاء الحزب الوطنى الذين وقفوا انفسهم لتحرير مصر . وإخوانه فى هذا العهد أشداء . وغدا سيلقى محافظ العاصمة الذى شدد فى طلبه ليترافع أمامه في قضيته بل في قضية مصر الوطنية بأسرها » .

وفى صباح اليوم التالي ظهرت جريدة « الجورنال إيجيسان » خلافا لعادتها لانها كانت تظهر عادة بعد الظهر مصدرة بمقالة في هذا الموضوع بلغ فيها كاتبها المسيو كافيو منتهى الشدة وحذر الحكومة والمحتلين من هذا العمل .

قصد المرحوم قبيل ظهر اليوم التالي المحافظة وقابل المحافظ الذى ابتدره بعد أن جلس بقوله : « إن القانون يحتم علينا تجنيدك لان مدة المعارضة التى خولها للمقترعين بعد إعلانهم قد انقضت » . فأجابه المرحـوم ولـكني للاسف لم أعلن ! فقال له إذا كنت لم تعلن فليس فى هذا أسف من قبلك بل بالعكس فيه لك كل فلاح وسرور » فقال له المرحوم: « انى آسف لان المحتلين ورجالهم المنافقين لم يستطيعو أن يصلوا إلى بغيتهم ! »

فقال المحافظ : « وأين برهانك على أنك لم تعلن ? »

فأجابه المرحوم ! « نصوص القانون التى حتمت إعلاني أو اعلان أحد من يلتى وتعليق اسمى بالقسم ونشر اقتراع القسم فى الوقائع المصرية ، وبمـا أنه لم يحصل شىء من ذلك فلا حق لـكم فى استدعائى أولا إلى مجلس القرعة وثانيا إلى المحافظة ! »

فدعا المحافظ عقب هـذا مأمور القسم وشيخ الحارة وسأل الاول عن مسئلتى النشر فى الوقائع وتعليق الاسم بالقسم فأجابه عنهما : « ان هذه القوانين مهملة من زمن بعيد » !

وكذلك أجابه الثاني وهو شيخ الحارة أنه لم يعلن المرحوم لانه كان غائبا ! ماسمع المحافظ هذين القولين حتى تأكد أن اقتراع المرحوم لم يكن صحيحا فأمر بتجديد إعلان اقتراعه على الطريقة القانونية وقد عفت عنه شهادات الدراسة

هذه هي الحادثة باسرها التي ذاعت في كل العالم المتمدين وما علمت الجرائد المحلية وفي مقدمتها جريدة المؤيد حتى زفت هذه البشرى للوطنيين الذين فرحوا فرحا كبيرا .

أما الانكليز وأذنابهم فأنهم قضوا ليلتهم في حزن لانهم رجعوا من الحيلة بخفي حنين ولم يبق لهم إلا سخط العالم باسره عليهم .

« وقد جاءني من المرحوم بعد هذه التفاصيل خطاب قال لي فيه بعد كلام طويل :

« لا تحتقر الناس ولا تنس المثل العربي القائل : « نواة تسند زيرا » والمثل الفرنسي القائل : « يحتاج المرء غالبا إلى من هو أصغر منه » فأن الذي أنجاني من هذا الحادث هو شيخ الحارة . وأن اعفائي من خدمة الجندية الانجليزية ليس من فضل شهادة عالية أو نقود تدفع بدلا ، بل من فضل صدق هذا الشيخ الذي ينظر إليه الناس بعين صغيرة ولكنه في نظري أكبر من قومندان مجلس القرعة ومحافظ العاصمة والكثيرين من ذوي الالقاب الفخمة !

« ولا تنس أيضا أن الله ينصر عباده المخلصين ، وأن الاحابيل التي ينصبها العدو لا بد أن يقع فيها . وأني أسر كثيراً كلما رأيت الاحتلال حانقا علي متألما من عملي لان في ذلك دليلا قويا على نجحي في هذه القضية الكبرى قضية مصر والمصريين . مصطفى كامل »

الاربعاء ٩ ديسمبر سنة ٩٦

* * *

انتعشت كثيراً من هذا الكتاب ورددت على المرحوم ذاكرا له عمل « شرف الدين » أونباشي السجن معي ، وعمل الجندي « أحمد القافلة » في حادث الجيش . فلولاهما لمت جوعا أو تعبا . ألا بارك الله في هذه النفوس العالية التي عشقت الفضيلة فلازمتها والفضيلة زينة الانسان .

ابتدأت سنة ١٨٩٦ بحادثي وانتهت بهذا الحادث فكان مبدؤها حنظلا وختامها مسكا . . .

***

استقبل المترجم رحمه الله عام ١٨٩٧ وهو في فراش المرض من كثرة الاعمال والتنقل من جهة إلى جهة في خدمة مصر . ولم يبل منه إلا فى ١٤ يناير من تلك السنة وقد وصف له الاطباء مدينة حلوان تبديلا للهواء فقضى فيها أسبوعين ولما عادت إليه قواه وشعر بأنه فى صحة تعينه علي استئناف الجهاد فى أعماله الوطنية ، عاد إلى العمل وكتب إلى بعد أن طال الزمن خطابا هذا نصه :

«أخى . . . .

«بعد التحية الاخوية أنبئك أنى شفيت من مرض لازمنى خمسة أسابيع وكان سببا لعدم مكاتبتك ولكن والحمد لله قد عادت إلي قواى وأشعر اليوم بصحة جيدة وأقدر على العمل أكثر من قبل .

« وأملى أن خطابى هذا يصلك حيث تكون قد نلت الاجازة بالحضور إلي مصر ورجائى أن تخبرنى تلغرافيا عند قيامك حتى أسافر لاستقبالك بأسوان . حفظك الله لاخيك

الاثنين أول فبراير سنة ١٨٩٧ مصطفي كامل»

وصل إلي هذا الخطاب في وقت كنت فيه بين الشك واليقين من السفر إلى مصر فقصدت قائد الاورطة الثانية التى كنت بها وقتئذ وسألته عن سفري فقال : « إنه لا يمكن الآن » فأرسلت في الحال تلغرافا إلي المرحوم أعربت له فيه عن حسن صحتي وسروري التام من شفائه وأنه ليس فى الامكان سفري الآن إلى مصر فجاءني منه خطاب هذا نصه :

« أخى . . . .

« بعد التحية . . . . . . إنى كنت أود أن أراك قبل سفرى إلى أوربا لأن أصدقائي فيها الذين يخدمون المسألة المصرية بإخلاص رأوا أن الفرصة

مناسبة لوجودي بها الآن حتى تدخل مسئلة مصر ضمن البرنامج الدولي الذى سيوضع بعد انتهاء الدولة من مشاكلها الحاضرة

« هذا وربما برحت القطر فى يوم السبت ٦ مارس المقبل أو فى ١٣ منه . وعلى كل حال أرجومنك أن تؤخر قدومك إلى أوائل يونيه إذ أكون قد عدت من هذه السياحة التى أؤمل أن تكون مهمة للغاية . . . . دمت لأخيك المخلص

الأربعاء ١٧ فبراير سنة ٩٧ مصطفى كامل »

***

برح المرحوم العاصمة فى يوم الجمعة ١٢ مارس وابحر منها يوم السبت ١٣ منه فودعه الكثيرون من إخوانه الذين قرؤوا الوطنية وعرفوا لذتها وداعا يشف عن الحب القومي ورابطة العهد الاخوى .

ومما يذكر هنا أنه كان بين المودعين فى هذه الآونة رجل غريب أمريكاني أسمه « جولد بنك » قد قدمه للمرحوم أحد كبار رجال الحكومة فى الاسكندرية فانتهز هذا الامريكاني هذه الفرصة وسأل المرحوم ثلاثة أسئلة وهي :

أولا — لك أن تتكرم علي بأجمال السبب الذى دفعك إلى المناداة بحرية مصر ؟

ثانيا — إذا لم تستطع فرنسا خاصة وأوربا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فما تكون خطتك وخطة مواطنيك العاملين ؟

ثالثا — هل لك حاجة في أمريكا لاقوم بها خدمة لهذا البلد الكبير المظلوم ؟

فاجابه المرحوم على الفور :

« أولا — إنى من صغرى مغرم بقراءة التاريخ فكانت سير عظماء الرجال الذين خدموا بلادهم تستوقف حواسي وكنت أجد من نفسي ارتياحا للاستمرار على القراءة كما كنت أحفظ الاناشيد الحماسية لأول مرة حتى أني أذكر نطقت بالشعر قبل الوقوف على علم العروض وقبل أن أحسن ضبط الكلام علي القواعد النحوية .

« وإني عندما كنت صغيرا كان المرحوم أبي يحدثني مع إخوتي الكثير من

قصص الحماسة وأحاديث الصبا والفتوة فكنت أشعر عند ما يصل بنا إلى انتصار رجل على رجل أو آخر في حيلة شريفة أن قوتي أكبر من جسمي وأني على أهبة الوثوب والهجوم من شدة سروري وانتصار حواسي للمنتصر الظافر .

« ولما كنت مصريا صميما رأيت من واجبي أن أقف قلبي ولساني دفاعا عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام . وأني سأبقى ابنها البار الوفي حتى آخر نفس أنفسه في هذا العالم .

« ثانيا — إننا نبني نجحنا في عملنا على أمرين . الاول خارجي وهو فرصة انتهاز الحوادث الدولية . والثاني داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين اخواننا المصريين والتشهير بهفوات الاحتلال الانكليزي لترقي العقول وتبغض القلوب في الغاصبين وبذلك تقترب الامة شيئا فشيئا من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسما واحدا لاقدرة لاية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفصل أجزاءه .

« ثالثا — أشكر لك كثيرا الخدمة التي عرضتها علي بامريكا وأملي أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التي حرمت العالم صوتكم في المسائل الاوربية حتى نسمعكم صوتا في دياركم على نفس النغمة التي أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا ترزحون تحت النير الانجليزي .

« وكذلك أؤمل ألا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجري في سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا وأن يكون الانكليز أبقى على كرامتهم من أن تلوثها بعد تلك الايمان الغليظة أيدي بعض سواسهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلا لعشر معشاره ! !

فقال له الامريكاني بعد هذه الكلمات :

« بارك الله في شعب أنت منه ولترق أمة هذه هي مبادئها وهذا صراطها فاعمل ودع غيرك يعمل معك فان ما أخذ لا يرد التماسا ، ولكن بالصوت العالي والنخوة التي تقلق الظالم في غدوه ورواحه . واعتقد أن الانكليز أسهل الامم في رد الحقوق متى وجدوا من ذويها الاباء والكرامة والشمم المحترم ! »

***

جرت الباخرة إلى الشمال حتى ميناء تريستا ومنها ركب القطار إلى فينا التي وصل

إليها فى ١٩ مارس وفي اليوم التالى لوصوله كتب مكتوبا إلى مدام جوليت آدم هذا تعريبه :

« فيينا فى ٢٠ مارس ١٨٩٧

« سيدتى المديرة المبجلة

«أستميحك الأذن أن أكتب إليك بعدسكوت طويل.

«وصلت إلى هنامن القاهرة وفى عزمى أن أكون فى باريس بعدجولة فى بودا بست وبرلين — فى منتصف شهر أبريل — وليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فى حالة وطنى العزيز التعسة الي آخر درجات التعس . والتى ما كنا نظن أنه واصل إليها . إن الانكليز يعملون فى وادى النيل كل مايريدون. ويرتكبون أفظع الجرائم علي الانسانية والعدل . ويسخرون أكبر سخرية من أوربا وعلى الخصوص ـ وا أسفاه ـ من فرنسا . لأن خطة فرنسا فى هذه الازمان الاخيرة قد دفعت بلاجدال الانكليزي إلى ظلمنا ظلما أشد مما كان . والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلدكم الجميل الكريم .

« وفى الواقع إن سياسة فرنسا تظهر بمظهر من « يريد الكل أولا شيء» . ومع ذلك فأنه كان يجب عليها اتخاذ طريق أخرى . فعوضا عن ألا تعمل شيئا فى مصر وتترك الامر فى وادى النيل ظانة فى نفسها القدرة على العمل فى أوربا ـ كان يجب على مديرى دفة السياسة الفرنسية وذلك رأى كل أصدقائى أن يعملوا ولو بعض الشيء فى مصر نفسها ليجلبوا على الانكليز الخيبة في بلد يعتقدون أنهم فيه مطلقو السلطان . هذا من جهة ومن جهة أخرى لتشجيع الوطنيين المصريين . إن فرنسا كان فى استطاعتها

ولاتزال أستطيع مؤازرة الخديوي وحقوق الخديوية علنا . لانه لوكان خديوينا الغيور المحبوب قدوجد مؤازرة من فرنسا لكان بلا مشاحة فى استطاعته وحده أن يقلب كل ماعمله الانكليز رأسا على عقب . ولكنه لما شعر بعزلته وأنه لا نصير له اضطر إلى التمسك بعروة الصبر فهو يبكي مع الانتظار كل يوم بلاده ! ! . إن فى استطاعة فرنسا أن تزاحم انكلترا بقوة فى ميدان التعليم . ومن المؤكد أن المصريين كانوا يهجرون فى الوقت الحاضر مدارس الحكومة الانكليزية الصبغة ليؤموا المدارس الفرنسية إذا كان لها وجود .

« ماذا أقول غير ذلك ياسيدتي ؟ سأحدثك شفويا فى باريس عما نحن فيه من الآلام . وأن قومى مع هذه الآلام وهذه الأحزان يحبون أيضا بل يحبون إلى الابد فرنسا الأهلية ولاتعتقدى ياسيدتي مما قلته لك أن الهمم قدفترت إزاء عمل فرنسا . كلا . فاننا نعلم جيداً أن خدام المسائل الكبرى كمسئلتنا يجب عليهم مقاومة الصعاب وأن لايدخل اليأس قلوبهم . هذا وسأشرح لك إحساساتي السياسية عن إقامتي فى مدن التحالف الثلاثى »

* * *

مكث فى فينا سبعة أيام قابل فى خلالها الكثيرين من رجال السياسة والصحافة وقد دار بينه وبين المسيو الدكتور ريزنر النائب النمسوى والحكيم الشهير حديث نشرته جرائد فينا وتناقلته شركات البرق إلى أنحاء المعمور وهذا تعريبه :

« سأله المرحوم : ماذا تكون خطتكم إذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث ؟ فقال : إني أعلم أن الكثيرين من إخواني أعضاء البرلمان يميلون إلى طرح مسألتكم على بساط البحث رغما من العلائق الودية التى بين حكومتنا وحكومة جلالة الملكة فكتوريا . ومتى طرحت تكون فى جانب العدل الذى يقضى بحرية مصر ووضعها

تحت ضمان الدول أجمع . لانك تعلم أن أهميتها تنحصر فى قناة السويس التى تربط مصلحتين كبيرتين إحداهما بالاخرى . مصلحة أوربا الصناعية وآسيا المحتاجة لصناعتنا وأنه قبل أن يبحث الصانع عن سوق ليروج فيها صناعته يجب عليه أن يبحث عن أسهل وأسرع طريق يعبره ليوفر النفقات الكثيرة على نفسه وعلى معامليه . وليجد الطالب حاجته من هذه الصناعة فى كل وقت . وليس لاوربا عامة والنمسا خاصة طريق للشرق الذى نروج فيه بضاعتنا أكثر من بضاعة جميع الدول إلا قناة السويس.

« وعدا ذلك فانه لا يصح أبداً أن تملكه دولة بحرية لانها ترعب وقتئذ العالم أجمع وتصبح سيدة عليه تفعل ما تشاء. وخصوصا الدولة الانكليزية فانه فضلا عن كونها أقوى دولة بحرية فانها كذلك من أكبر دول العالم التجارية.

« ثم لا تنس أن مصلحة النمسا دائماً فى جانب مصلحة الدولة العلية التى لها السيادة، على مصر لانه فضلا عن العلائق الودية التى أساسها الجوار والمنافع المتبادلة فانه ليس للنمسا ميدان تجارى فسيح أكبر من بلاد الدولة .

« — ألا تبنون شيئا من المصلحة فى حل المسئلة المصرية على التحالف الثلاثي ؟

« نعم ان التحالف الثلاثي قوي وما تريده إحدى دوله الثلاث تريده الاخريان ولكن ما ذا نعمل وإيطاليا تظن بالانكليز خيراً ولها أمل فى تملك شيء آخر على الشواطيء الافريقية بمساعدة بريطانيا . وكذلك ألمانيا فان مصلحتها فى رأس الدولة العلية فهى لذلك واثقة من امتداد نفوذها إلى الجسم شيئاً فشيئاً !

وهل تظن أن بريطانيا تساعد إيطاليا أو أن المانيا تعمل يوماً من الايام عملا يذكر خدمة للدولة في مصر ؟

« إني لا أظن أن انكلترا تساعد إيطاليا على بغيتها ما دامت من دول التحالف لان كل ميناء يضم إلى دولة من دول التحالف الثلاثي هو فى الحقيقة قوة بحرية جديدة للتحالف نفسه . وإنكلترا لا تبني مستقبلها كما بنت ماضيها إلا على قوة البحر فهي من هذه الوجهة لا تساعد على ظنى إيطاليا وإذا ساعدتها حتى تجذبها قليلا إليها فتأمن نوعاً شرها فى التحالف، فانها تعطيها شيئاً لا يذكر كما أعطتها مدينة مصوع التي يسمونها مصوع الطليان ولكنها فى الحقيقة مصوع الانكليز !

« إذن أنت واثق من أن التحالف الثلاثي لا بد أن يتكاتف فى يوم من الايام

أكثر من تكاتفه الحاضر وعلى الاخص متى تحققت بعض الدول التي لا تزال تحسن الظن بالحكومة الانكليزية أنها حكومة أنانية ومصلحة ذاتية.

« نعم إني واثق من ذلك ولابد أن تكشف ألمانيا سياسة انكلترا يوماً من الايام . وذلك عند ما تلتقي المصلحتان فى الشرق الاقصى أو على الاقرب في الدولة العلية . فأن المانيا دولة ناشئة نشيطة تعمل لتعيش مثل بقية الدول ولما كانت لا تملك أسواقاً تروج فيها بضائعها عمدت إلى الدولة العلية ووجدت من جلالة السلطان ارتياحاً فألقت مرساها هنالك وها هى آخذة فى ترويج أعمالها فى بلاد الدولة بحالة سريعة للغاية ما كانت تخطر قبل وقوعها على بال أي سياسى فى العالم .

« هناك متى دخلت فى قلب الدولة وتمشت إلى المياه الاسيوية تلعب انكلترا دورها مهما كلفرا ذلك من الدم والمال لتقفها في طريقها .

« أتظن أن هذا اليوم قريب الوقوع ؟

« إن قربه وبعده متوقفان على درجة السرعة التى تسير بها ألمانيا فى داخل الممالك العثمانية (١)

« هل تظن يا جناب النائب أن الحرب تقع بين ألمانيا وانكلترا بسبب هذا التزاحم ؟ وماذا يكون مركز النمسا وقتئذ ؟

« إني لا أظن وقوع الحرب قريباً لانها تكون خسارة كبرى على العالم والسواس طرا مجمعون على بذل الجهد في تجنبها مهما كانت خسارة بعض الدول مع السلم ولكني لاشك ابدا فى ان النمسا تنضم الى المانيا بكل قواها متى رأت الخطر محدقا بالتحالف الثلاثي وهو مايحتمه علينا هذا التحالف المتين .

« وهل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين المانيا وانكلترا في يوم من الايام ؟

« إني لا أعرف درجة الامة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها ولكني أؤكد لك أنها إذا استمرت على مانسمعه عنها من السير في طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة كان لها على كل حال نجح مأمول سواء حدثت بين الدول حوادث أولم تحدث .

« فقال له المرحوم : وماقولك فى دولة وقف سواسها تحت رايتهم التي هي عنوان

---

(١) لقد تحقق كل هذا

شرف المملكة واقسموا بها وبتاج بيت الملك على ألا يبقوا في مصر طويلا ثم مالبثوا أن سخروا من إيمانهم ناسين شرف الراية والتاج ؟

« إني من الذين يحترمون القسم ولو كان في البر به خسران كبير. لانه اذا كان الحنث في القسم يتناول اسم الراية والتاج واحترامهما عندنا من احترام الله فلا شرف بعدئذ في الوجود !

« إنك طبعاً تقصد بهذا الدولة البريطانية التي أقسم سواسها أنهم لايمكثون بمصر الاريثما يستتب الامن ويعود النظام . ولكني أؤكد لك أنه مهما طال الزمان على الاحتلال الانكليزي في بلادكم فلا بد ان ينجلي يوما من الايام . فلا تيأسوا ولا يكن لمخالفة الاقسام والعهود تأثير سيء في نفوسكم فأنه قبل أن تكون المسئلة مسئلة دولية فهي مسئلة المصريين . فاعتمدوا على انفسكم ولا تنتظروا من اوربا الاشرارة من شرر الحوادث تستخدمونها في اشعال مايرهب خصومكم .

« إني ما رأيت مصر وربما كانت هذه أول مرة تشرفت فيها بمخاطبة مصرى أعده اليوم من أصدق الوطنيين أصدقائي في العالم، ولكني أحبها مما قرأته عليها قديما وحديثا ولمركزها الجغرافي السياسي . وأؤمل أن أراها قريبا في أبهي حلة من حلل السعادة والاستقلال الابديين » . . اه

وبعد أن انتهى من حديثه هذا دعاه المترجم إلى وليمة كبيرة أعدت له ولاخوانه من أفاضل النواب والصحفيين في مساء يوم الاربعاء ٢٤ مارس « بنزل متروبول » وما جاء وقت تناول الطعام حتى وفد المدعوون وكان عددهم ٨٢ ذاتا والمترجم واقفا لاستقبالهم بكل تكريم وترحاب. وبعدأن تناولوا العشاء وقف المترجم وقال :

« إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتكم دعوة مصري منهم جاء إلى بلادكم العزيزة أكثر من مرة وخالط رجالكم المعدودين الذين أنتم من ثمرتهم سائلا بكل الحاح وحق نصرة مسئلتنا التي تنحصر في كلمتين « احتلال مؤقت لايمكث إلاستة أشهر . لهاليوم ١٥ عاما — أي ٣٠ ستة أشهر »

« إذا كان أيها السادة حبل الكذب طويلا فلا بد أن يكون لهذا

الطول حد !! واذا كان الكذب شعار المتمدينين فماذا يكون شعار المتوحشين المتعصبين مثلنا كما يتهمنا الانجليز ؟!

« إن لى الحق أيها الساده إذا قلت إن العصر الحاضر عصر ظلم وافتيات على الحقوق لاعصر عدل وإنصاف ورد الحقوق إلي أهلها !

« إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة والاعتدال ولهم مآثر علي العالم أجمع إن أنكرها الانكليز فلا ينكرها التاريخ الذى هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التى أقسمت بشرفها، والتاج الذي يجب احترامه. فقدمتهما ضمانا علي صدقها عندما دخلت بلادنا ووعدت بالانجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن!

« فها هو الأمن مستتب والامة بأسرها ملتفة حول أميرها! . .

« إنى لا أطيل شرح عيوب الأحتلال فقد شرحت ذلك مرارا ولكنى أسأل ضمائركم الحرة أن تكونوا أصوات عدل فى المسئلة المصرية فاننا نعترف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا كما تجدون منا إلى أبد الآبدين أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير ويمجدون فيكم تلك الروح الشريفة التى أودعتموها نفس أمير مصر ألا وهي روح الحرية واحترام إرادة الشعب . . .

« وفى الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر علي الود الذى أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين . . . ! » اه

وقد رد عليه المسيو ريزنر بكلمات كلها عطف وود بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن جميع إخوانه ومما قاله :

« إنه مما يسلينا نحن الاحرار أنه لايزال للحق أنصار يعملون لنصرته علي الباطل وليس بين مسائل العالم السياسية الكبري الحاضرة مسئلة حقيقة بالعناية والحل

السريع كمسألة مصر . فأن المصريين برهنوا علي أنهم أهل مدنية عالية وأن الذين يقولون إن سكوتهم ناشيء عن جبن ليسوا إلاها يجبن عواطفهم . والمستقبل كفيل بأن يرد إليهم بضاعتهم ماداموا متمسكين بهذه الصفات الحسنة وما دام للانكليز شرف يحتم عليهم احترام وعودهم !

وقد ختم كلامه بالتأمين على كلمات المترجم وأمل لمصر مستقبلا باهراً وشكر المرحوم شكرا وفيرا . . . .

***

سافر المترجم من فينا إلى بودابست عاصمة المجر في يوم الجمعة ٢٦ مارس بعد أن ودعه علي المحطة جميع أصدقائه النمسويين نصراء المسألة المصرية.

وما وصل رحمه الله إلى بودابست حتى وجد في انتظاره أفراد عائلة كبيرة من كبار عائلات المجر كانت وطدت بينه وبينها العلائق المتينة مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت وهي عائلة الكونت كرونزوت .

وبعد أن قصد الفندق واستراح استضافته هذه العائلة عندها في ضواحي بوادبست وعرفته إلى مئات من كبار عائلات المجر فاختلط رحمه الله برجال السياسة والصحافة في هذه العاصمة الشهيرة اختلاطا كبيرا ومن بين الذين تعرف إليهم رئيس الوزارة المجرية المشهور بحبه الاكيد للعثمانيين وقدوعده ببذل كل مافى وسعه لخدمة المسألة المصرية .

« أما مانشرته الجرائد المجرية عن المرحوم وأعماله والمسألة المصرية وأهميتها فهو مايملأ كتابا ضخما. وإنا نكتفي هنا بنشر مثال مما نشرت، فقد كتبت جريدة « ماجياد نوك لابجا » المجرية الشهيرة مقالة في ٤ أبريل صدرتها بصورة المترجم وهذا هو تعريبها :

« من هو مصطفى كامل ؟

« هو بطل المصريين وعليه يعلقون أملهم فى طرح نير الانكليز عن عواتقهم .

« مصطفى كامل هو ذلك الوطني الكبير الذى أوجد الحركة القومية وهو الذي يريد أن ينقذ بلاده من احتلال الانكليز الذي لامبرر له الآن !

« والمصريون شيخهم وفتاهم رجالهم ونساؤهم وأطفالهم يشرفون اسم هذا الوطني

الكبير ويبجلونه أعظم تبجيل ..

« إنه لمعروف فى فرنسا والمانيا — ولقد نشر مقالات وأحاديث عدة فى جرائد مختلفة بكى فيها حظ وطنه مصر وقد تلفت كلماته قلوبا حساسة وعواطف شاعرة .

« إحتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ عن رضا كل الدول الاوربية . وكانت مهمتهم أن ينشروا الامن وأن يوطدوا عرش الخديوية وأن يحسنوا الحالة المالية التى كان اختلالها عظيما فاضحا ثم ينجلون عن وادى النيل بسلام !

« ولكنهم أثقلوا ظهر الامة المصرية البائسة بالضرائب الفادحة وسلبوا منها كثيرا من حقوقها فى الاستقلال الداخلى ولقد استعاضوا الموظفين الوطنيين بأنجليز أو بوطنيين يوافقونهم على هوى سياستهم وأنهم يجنون على السلطة الشرعية كل يوم جناية خليقة حقا بالسياسة الانجليزية — ويقتلون الصناعة الوطنية خدمة للصناعة الانجليزية . وبالجملة فانهم يقاومون كل الوسائل التى يمكن أن تؤدى بمصر إلى استقلالها الفعلى ! !

« وعلي ذلك فأنه ليس عجيبا أن يصيح المصريون فرحا لخروج ذلك الوطني المصرى الذى يعبر عن ضمائر مواطنيه رغما من احتفاف طريقه بالمكاره . وقد جعل غاية سياسته تحرير وطنه . ثم أنه لم يعرف الملل ولا الكلل فى جهاده لاكتساب أعوان لافكاره من الاوربيين حتى غدا لاينزل بلدا أوربية إلا وجد نفسه بين من يشاركونه فىعواطفه ويعضدونه فى مراميه معاعترافهم بسامىغرضه.

« وهاهو ذا اليوم في مدينتنا هذه الجميلة يبحث عنمنافع سياستنا وسيعود إلينا في يوليه القادم وفي نيته أن يدعو الناس إلى اجتماع حيث يلقى عليهم خطابا طويلا فى المسألة المصرية .

« وقد رأينا من واجبنا أن نعرف قراءنا بهذا الضيف الكريم الذي يجاهد فى سبيل حرية بلاده وأنا نعتقد أن الصحافة المجرية ستذكر كثيرا من أخبار هذا الرجل العظيم القدر الكريم الطباع » إه

كتب المرحوم من بودابست إلي مدام جوليت آدم كتابا هذا تعريبه :

« بوادبست فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٧

« سيدتي المديرة المبجلة

« لقد أصبت ألف مرة فيما كتبته إلي مما هو راسخ فى نفسى من أن الوطنية وحدها قادرة على أن تكسح بتيارها الجارف كل ما تجده أمامها من المخاوف .

« إنى ما اعتقدت فى وقت ما غير ذلك وهو ما لابد أن تكوني قد لاحظته فى كل أعمالي . فأنى ما يئست أبداً من مستقبل وطني ولا من النصر الذى سيكون خاتمة مسئلتنا . لا سيما أن الوطنيين المصريين متحدون الآن ولنا حزب كبير مخلص للغاية وهو على استعداد للتضحية بذاته فى سبيل استقلال الوطن المقدس .

« وأنى مع هذا العمل . مع هذه الوطنية الحادة . مع هذا الزهد إلى آخر ما تعهدينه في مما هو أول واجب علي . لا أشك أصلا فى أنه سيأتى يوم يسمع فيه ندائي إذ تتحقق آمالي . . .

« ولعلك ترين أنى أجمع حول مسئلتنا من العواطف ما يصل إليه جهدى ، فأنى أنشر الحقيقة فى كل مكان . وفى جميع البلاد أجعل أعداء المحتلين أكثر مما كانوا . فان مركزنا يشبه من جميع الوجوه مركز رجل فى داره لص يسرق ويحرق ما يجده فى طريقه ويذبح كل نفس تقاومه فواجب صاحب الدار التعس أن يصيح برجال الشرطة ويستغيث بكل إنسان .

« فنحن كذلك نستغيث بالجميع . ولا نود أبداً أن تشترك أمة حرة من أمم أوربا أو غيرها مع انكلترا ضدنا وتعمل لاستعبادنا وخسارتنا . . .

« رأيت القوم فى النمسا قد ابتدأوا يدركون أن الانكليز كانوا يستغفلونهم زمنا طويلا . وأنه يجب عليهم أن يعملوا ولو قليلا متى وافقت أعمالهم مصالحهم .

«وأما فى المجر فما أجل منظر الوطنية الجميل فأنى ما كنت أظن أنى أرى أبداً فى هذا البلد أمة وطنية إلى هذ الحد ؟ ! . (١)

« أما أراء الساسة المجريين في مسئلة مصر، فقد وجدتهم يجهلون كل الجهل مركز بلادنا الحالى وآلامه وآماله ولكنهم جميعاً على استعداد لمعرفة الحقيقة التى من واجبى الدفاع عنها حتى أقنع النمسا بألا تكون علينا إن لم تستطع العمل لنا .

« إن لنا من عواطف القوم هنا شيئاً كثيراً وسبب ذلك واضح، لأن الامة المجرية فى عنفوان شبابها متشبعة متشيعة للحرية ، مولعة بالعدل . فهي لا ترضى أبداً أن يسمح جلوشوسكى (رئيس وزارتها إذ ذاك) باسمها أن تعدم الامة المصرية عمداً فى رائعة النهار . . .

فلتسقط قرطاجنه : » (٢)

***

سافر بعد ذلك من بودابست إلى برلين في ٥ أبريل سنة ١٨٩٧ وقد قابل توا رجال الصحافة والسياسة الذين عرفهم من قبل ، ودار بينه وبين جريدة البرلينر تاجبلاط الشهيرة حديث نشرته بعنوان « مصطفى كامل فى برلين » في ٧ أبريل

---

(١) لقد نشرت مدام جوليت آدم كتابا ضخما على الوطن المجرى مجدت فيه أعظم تمجيد الوطنية المجرية

(٢) كان هذا نداء النائب الروماني ضد قرطاجة عدوة بلاده، وقد اتخذه جميع الوطنيين من بعده حتى يومنا هذا نداءهم الوطني ضد أعداء بلادهم

سنة ١٨٩٧ وهذا هو تعريبه :

« المكاتب — ماهي الحالة الحقيقية السياسية فى مصر الآن ؟

« المترجم إنها لحالة فوضي عمومية فى إدارة البلاد وقلق شديد فى أفكار الشعب المصرى . فلقد أصبح بين المصريين وحكومتهم — كما يوجد بينهم وبين الانكليز — هاوية عميقة جدا . فان حكومة بلادنا — ورجالها من صنائع الانكليز — تعمل فى مصر كل ماينافى رغبة الأمة فأكثر من مرة طلب مجلس الشورى — وهو الهيئة النيابية عن القطر — إجراء إصلاحات فى الادارة والتعليم ، فالحكومة بدلا من أن تذعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتمدينة كانت تقابل المجلس باللوم بكل خشونة ، وتجرى ضد رغائبه ومطالبه . والعامل المؤثر في ذلك معاضدة الانكليز ا فأصبحت الأمة المصرية اليوم لاتحترم حكومتها .

« ومصر الآن بلاد الصراع المعنوى قائم بها دائما بين الشعب والحكومة . وحكومتها تعتبر نفسها مجرد آلة فى يد الانكليز وسمو الامير يرى بعينه مصائب وطنه ولا يستطيع إلى دفعها سبيلا ، حتى أنه يرى في بعض الاحيان جماعة من مأجورى الانكليز يتجاسرون على الطعن فى مقامه الرفيع .

« أما النزلاء الاوربيون فقلقهم مثل قلقنا ، فهم يرون أنفسهم مهددين من الانكليز الذين بدؤا فى هدم مابنته يد أوربا فى مصر وأعلنوا بعبارات ملؤها الكبرياء أنهم سيقضون على المحكمة المختلطة بعد عامين . وليس بعد هذا تهديد لمصالح أوربا فى مصر .

« فقال المكاتب : وهل تري علاقة بين مسائل تركيا ومسئلة مصر ؟

« فأجاب — لاريب فى ذلك . فان الواقف علي ماجري بين تركيا وانكلترا منذ بدء الحوادث العرابية إلى اليوم يعلم علما يقينا أن غاية انكلترا الوحيدة من حوادث الشرق واضطراباته هي تحويل نظر أوربا عن مصر !

« ثم أفاض فى بيان الشأن الذى كان للانكليز فى ثورة عرابي وعملهم سرا على تأييده وسعيهم فى إشهار عصيانه ومنع السلطان من إرسال جيش عثماني إلى مصر ومابذلوه بعد ذلك من المساعي لوقوع النفرة بين السلطان وبين الخديوي .

فلما تبوأ سموه الاريكة الخديوية تغير فى الحال مجرى الامور إذ أدرك سموه أن الجفاء بين مصر وتركيا عقبة كأداء فى سبيل إنقاذ مصر من مخالب الانكليز — فجرى علي غير تلك الخطة ، فسعى الانكليز فى الاستانة نفسها ضده بجميع الوسائل فلم يفلحوا . ولما رأوا ذلك هاجوا ضد السلطنة والسلطان ليشغلوا أوربا عن مصر ! وفوق ذلك فأنهم يريدون بأعمالهم في الشرق أن يدخلوا فى أذهان المسلمين أن أوربا عدوة لهم متعصبة ضدهم مما يثبط بلا شك همة كل ذى وطنية فى مصر . ولكننا أدركنا قصدهم فلم نيأس من مستقبل بلادنا المرجو . على أنه من المهيجات للخواطر أن أوربا بأسرها تترك انكلترا تخدعها مثل هذا الخداع .

ثم تكلم عن الاكتتاب الجارى فى مصر لمساعدة الحكومة العثمانية فقال :

« إنه وان كان المصرى لايعرف إلا وطنا واحدا وهو مصر ، فمن الامور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش الدولة والخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الانكليز » . اه

وقد أردفت هذه الجريدة الخطيرة الحديث المذكور بكلام جدير بالنظر والامعان فقالت :

« إن مصطفى كامل مصيب فى كلامه على سوء مقاصد السياسة الانكليزية وشدة خبثها ولكننا نؤمل مع ذلك أن المصريين لا يفقدون صبرهم فانهم سينالون مايطلبون عاجلا أو آجلا بواسطة دول أوربا من جهة وبدون قتال أو عراك من جهتهم على شرط أن يكونوا متحدين فيما بينهم .

والمصريون إذا تمسكوا بالصبر لم يتعبوا بسرعة من حالتهم وانتظارهم فتحق لهم

كلمة أحد مشهوري الشعراء : « التاج لمن صبر وانتظر » . . . .

وبعد أن لقى المترجم صدراً رحيبا من رجال السياسة الالمانية واستعدادهم لمساعدة المسألة المصرية بعد أن تقف المشكلة التركية اليونانية التى قامت فى ذلك الاوان والتى خشى منها على السلم فى البلقان، قصد باريس فوجد فى صحافتها حركة غير عادية على أثر مقالة نشرتها جريدة الايجبسيان غازيت ونقلتها عنها جريدة «الليبرتيه» وكلها طعن فى المرحوم بصفة خاصة وحزب مصر الوطني بصفة عامة. وقد عزت إليه والى سائر أعضاء حزبه السعى فى إثارة الخواطر فى مصر والتحريض على إحداث ثورة . فبادر رحمه الله في الحال الى تكذيب هذه التهمة فى نفس جريدة الليبرتيه التى أحلت ما كتبه اليها محل الاعتبار والقبول . وهذا تعريب ما كتبه !

« جناب مدير جريدة الليبرتيه

« قرأت مانقلتموه عن جريدة الايجبسيان غازيت الانكليزية التى تصدر بثغر الاسكندرية واتهمتنا فيه نحن الوطنيين المصريين بالسعى فى إثارة الخواطر والتحريض على إحداث القلاقل والاضطرابات . ولو علم جنابكم أنها جريدة الاحتلال وأن اختلاقها علينا أصبح أشهر من نار على علم مانقلتم عنها شيأ . لأننا إذا كنا ندافع عن حقوقنا المسلوبة فذلك بالاعتدال والسكينة وقوة الوسائل المشروعة . وأننا مافكرنا أبداً فى الاعتداء على النظام ، لأن هذا يضر كثيراً بمسئلتنا الحيوية ولأن نفوسنا الوطنية تدرك مصالح أوربا فى مصر كل الادراك . .

« وأني أرجو أن تسمح لي بأن أصرح جهارا بأننا لم نفكر قط فى الطرق الثورية للوصول إلى تحرير وطننا العزيز . لكن الأنكليز هم الذين يلقون بذور الشقاق فى مصر ويسعون بما لديهم من الوسائل إلي إحداث الأضطرابات فيها فلم يفلح سعيهم لأننا قاومنا حركاتهم بكل جهدنا .

« إن مصر الآن شرعت فى جمع إعانة وطنية للجيش العثماني وليس سبب ذلك البغضاء للمسيحيين مهما كانوا بل أن الذى بعثهم على ذلك واجباتهم لخليفة المسلمين لاسيما الواجب الوطنى .

« نعم إن واجباتهم الوطنية هى التى بعثتهم علي ذلك إذ يهمنا أكثر من غيرنا سلامة المملكة العثمانيـة معتقدين أن فى سلامة متملكاتها الأساس الذي تبنى عليه حقوقنا الشرعية ضد عمل الانكليز فى بلادنا ولا يجب أن ننسى أن كل مانبديه من مساعدة تركيا على سلامتها ننظر ونرائي فيه المسئلة المصرية ضد الانكليز .

« وأنه إذا كان يسوء الحكومة الانكليزية أن نكون وطنيين مخلصين للدولة العلية التى مسئلتنا مسئلتها فنحن لا يهمنا إرضاؤهم لأنهم خصومنا الغاصبون . وسنسير فى طريقنا الذى رسمناه لأنفسنا وجعلنا أساسه المطالبة بالجلاء رضوا أو لم يرضوا !

« إنا نعلم قبل كل شيء أننا فى حاجة إلي مساعدة أوربا فكيف إذاً نحرض على الثورة ضد الاوربيين الذين يعيشون فى مصر . وهل لجريدة الايجيسيان غازت أو غيرها أن تدلنا على شخص قال أو جريدة كتبت بما يؤخذ منه التحريض على الأضطراب ! !

« المسئلة مسئلة شعور نحو الدولة فاذا نحن تظاهرنا اليوم بمساعدتها فى حرب بنيت علي غير أساس الشرف، بل على المطامع، فإنما نمثل ما مثلته الأمم الاخرى من قديم الزمان وهو عطف الأخ على أخيه فى زمن الشدة.

« إن الذين يحرضون هم الانكليز أنفسهم وإلا فكيف ينسبون إلى

المصريين التهييج والاضطراب عند مايتضافرون لامداد الدولة بالمال فى الحرب التركية واليونانية ولاينسون أنهم هم أصل هـذه الحرب وأنهم هم الذين حرضوا اليونان ولا يزالون يمدونها بكل شيء إن لم يكن فى الجهر ففى السر!

« هذا وتقبلوا . . . . . إلخ مصطفى كامل»

١٧ أبريل سنة ١٨٩٧

وقد علقت جريدة الليبرتيه على هذا الكتاب بما تعريبه :

« نشرنا هذا الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التي شوهها الانكليز والتى تنطق بها كلمات هذا الوطني المصرى الكبير الذى نرحب به ونفتح له صحف جريدتنا ولكل غيور على الحق الذي نحن من أكبر نصرائه » . . اه

***

لما رأي المترجم إقبال المصريين على اعانة الدولة في الحرب اليونانية جمع المصريين المقيمين فى باريس وألف لجنة لجمع الاعانة وأرسل لجريدة المؤيد أول دفعة ومعها كتاب نشرته بعنوان : (المصريون فى باريس — والاعانة العسكرية الشاهانية) فى عددها الصادر يوم الجمعة ٣٠ أبريل سنة ١٨٩٧ وهذا هو نصه :

« دعوت إخواننا المصريين هنا إلى حفلة يوم الاثنين الماضى (١٩ أبريل سنة ١٨٩٧) وجري الكلام بيننا فى مشروع الاعانة العسكرية الشاهانية فى مصر ثم اتفق الحاضرون على أن نقدم شيئا للاعانة العسكرية يكون عنوان مشاركتنا لابناء وطننا فى أشرف شعارنا . وقد جمع مبلغ ٣٥٠ فرنكا ها أنا ذا أبعث بها إليكم . نعم إن هذا المبلغ قليل ولكنه دليل اشتراك الشبيبة المصرية فى أوربا مع الامة المصرية فى هذه المظاهرة الوطنية السلمية .

«وقد رأينا مع ذلك أن نرسل تحياتنا وتشجيعاتنا بصفتنا مصريين عثمانيين إلى الجيش العثماني فأرسلنا تلغرافا لدولة ناظر التشريفات الشاهانية ذكرنا فيه أمر اجتماعنا مؤكدين تعلقنا كبقية المصريين بالعرش الشاهاني المجيد. داعين للجيش العثماني بالظفر والنصر.

«وقد أرسلنا أيضا تلغرافا لجناب رئيس تشريفات جلالة الامبراطور غليوم نشرته وتناقلته جرائد ألمانيا كلها وهذا نصه:

« رئيس تشريفات جلالة الامبراطور غليوم الثاني ببرلين،

«إن أبناء وطني المصريين يرجون من جنابكم أن تكونوا الدي جلالة الامبراطور الترجمان المعرب عن عظيم اعترافهم بالجميل وشكرانهم العظيم لجلالته علي الخطة التي تفضل باتباعها نحو الدولة العثمانية.

«وأن هذه الخطة هي دليل الميل والمودة التي تحملنا على الامل بأن مصر (وطننا العزيز) ستنال من جلالة الامبراطور عناية عالية والتفاتا خصوصيا وأن سلام العالم كله يتحقق بأن ترد إلى مصر حريتها واستقلالها .

« وأني أتشرف بأن أرفع إلي جلالة الامبراطور على يدجنابكم هذا الشكران الواجب وأعرب عن هده الاماني الكبيرة

٢٢ أبريل سنة ١٨٩٧ (مصطفى كامل)

***

عرف القراء أن المترجم كان في شوق الى لقاي بعد حادث الجيش وقد تكاتبنا لتحديد يوم عودتي الى القاهرة إذ أعلمته أنه أرجىء إلى شهر يونيه سنة ١٨٩٧ . وعلى ذلك سافر إلى أوربا على أمل العودة إلى الوطن قبل هذا التاريخ ليمتع نفسه برؤية أخ ظلم بسبب الوطنية وذاق من العذاب ألوانا وأصنافا انتقاما من أخيه المطالب بجلاء الاحتلال الغاصب . ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن . ذلك أنه

صدر إلى الامر بغتة بالسفر الي مصر الالتحاق بالاورطة الثامنة عشرة فوصلت إليها في الثاني من شهر أبريل سنة ١٨٩٧ وأنا أكاد أطير لرؤية وطن خرجت منه مكبلا مظلوما وعدت إليه أشدما كنت له اخلاصا واشتياقا.

وصلت إلى العاصمة فعلمت أن المترجم سافر إلي أوربا فنابني من الكدر ماناب به عندما علم بقدومي ولم نتقابل . لان كاينا كان يعد الدقائق لرؤية أخيه و «ما كل مايتمني المرء يدركه »

إعتزم رحمه الله العودة إلى مصر وقبل أن يسافر من باريس كتب إلى مدام چوليت آدم مكتوباً هذا تعريبه :

« باريس فى ٢ مايو سنة ١٨٩٧

« سيدتي المديرة المبجلة

« إشارة برقية من القاهرة تناديني وتدعونى إلى العودة على جناح السرعة وفيها ما يشير إلى هذه الملمة المهمة وهي أن الانكليز يحضون اليونانيين القاطنين فى مصر على أن يثوروا على المسلمين وأن يوجدوا بذلك قلاقل يستفيد منها الاحتلال.

« وطوعا لوطنيتي وتلبية لصوت وجدانى عزمت على العودة يوم الاربعاء المقبل أي أنى أبرح باريس فى غروبه »

عاد فى ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ ليراني وأراه فوجدني قد سافرت إلى السودان قبل وصوله بأربعة أيام .وكنت قد عينت أركان الحرب لقوة كروسكو فأرسل إلي تلغرافاً يسألنى فيه الحصول على أجازة ولو مدة أسبوع . ولكن الاعمال الحربية حالت دون الترخيص لى فيما أريد.

وقد أرسل إلي في تلك الايام الهدايا التى استحضرها معه لاخواني الضباط والجنود الذين ساعدونى على قضاء مشاق حادث الجيش.

وافقت عودته من أوربا يوم عيد الاضحى فأرسل فى الحال تلغرافاً إلى عطوفة باشكاتب المابين الهمايوني هذا نصه :

« أرجو منكم أن ترفعوا إلى جلالة مولانا أمير المؤمنين أجل وأصدق تهانئنا بعيد الأضحى المبارك وانتصار الجنود الشاهانيه الظافرة(١)

« وأن جميع المتعلقين بعرش الخلافة العظمى يؤملون أن يحن السلطان لأنين مصر المسلوبة الحقوق بسلطة الاحتلال الانكليزي فيشترط على دول أوربا جلاء الانكليز عن مصر مقابل جلاء العساكر الشاهانية عن بلاد اليونان ليتم بذلك فوز تركيا وخلاص مصر

مصطفى كامل »

ما نشر هذا التلغراف حتى هاج اليونان القاطنون بمصر فكتبت جريدة الفاردلكسندرى التى صاحبها أحد كبار اليونانين الوطنيين تعليقا على هذا التلغراف اتهمت فيه المترجم بكرهه الشديد لليونان بدليل أنه يطلب من جلالة السلطان بقاء الجنود التركية فى أراضى تساليا ما دام الانكليز فى مصر .

أما المترجم فقد رد على ما كتبته جريدة الفاردلكسندرى بكتاب بعث به إلى جريدة الريفورم الفرنسية التى تطبع بمدينة الاسكندرية، هذا تعريبه :

« الاسكندرية فى ١٦ مايو سنة ١٨٩٧

« حضرة مدير الفاردلكسندرى

« لقد قرأت بكل استغراب فى عدد أمس من جريدة الفار العبارة المختصة بالتلغراف الذى أرسلته إلى باشكاتب جلالة مولانا السلطان ولا شك أن الذى ترجم إليكم من العربية هذا التلغراف أخطأ فهم مرادى

« فأنى ما خطر لي قط على بال الانتقام من محتلى بلادى - أي الانكليز - بأن تسحق الجنود العثمانية اليونانيين فى أراضى تساليا . .

« ولكن مالا ريب فيه هو أن حل المسئلة التركية اليونانية لا يتعلق

---

(١) إنتصارها في حربها ضد اليونان

فقط بالدولتين المتحاربتين بل يتعلق بدول أوربا أيضاً وأني أظن أن فى الظروف الحالية لجلالة مولانا السلطان أعظم فرصة لأقامة المسئلة المصرية دأن الدول الأوربية التي تريد أن تجبر جلالته علي احترام رغبتها وسحب عساكره الشاهانية من تساليا يجب عليها أيضاً — وذلك مالا ينكره أحد — أن تجبر انكلترا على الجلاء من مصر .

« فلماذا تتدخل أوربا فى المشكلة التركية اليونانية ولا تتدخل فى المسئلة المصرية ؟

« لماذا تريد أوربا أن تحمل جلالة السلطان على احترام رغبتها ولا تعمل هي على إجبار انكلترا على احترام حقوق جلالة السلطان فى مصر ؟

«هذا هو رأيي وهذا هو فكرى ولعله لا يرضيك ولعلك يا جناب المدير لا توافق على آرائنا وأفكارنا . ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم إحساساتك وآراءك . فأنت ترى الأشياء من حيث المصلحة اليونانية وأنا أراها من حيث المصلحة المصرية . ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه . لا لغير وطنه .

« وأن اليونان بالرغم من المحبة التى يتظاهر بها عدد منهم لمصر لا يمكنهم أن يطلبوا منا أن نرى كما يرون ونفكر كما يفكرون وعلى الخصوص أن نحنو على بلاد اليونان أكثر مما نحنو على مصرنا ! !

«وبغض النظر عن كل هذه الاعتبارات السياسية وعن إحساسات أمتنا فاننا نعجب حقا بوطنية اليونان إذ أن كل مصري محب لوطنه

لا يمكنه مهما كانت آراؤه السياسية وإحساساته إلا أن يحترم كل المدافعين عن وطنهم من أية جنسية كانوا ويعجب بهم .

« ومما لا شك فيه أن مصلحة المصريين فى الظروف الحالية هي ومصلحة اليونان على طرفى نقيض . ولكن هذه الاعتبارات كلها يجب ألا تخلق أشكالات لا لزوم لها.

« وأنى أول من يشير على أبناء وطنى بمعاملة اليونان الآن — وهم منهزمون — باللطف والرقة . . . إذ خير ما يتمنى لمصر من حيث روابطها بالاوربيين هو أن يعيش أبناؤها فى اتفاق مع النزلاء المخلصين لها منهم

« وأني أرجو منك ياحضرة المدير أن تتفضل بقبول فائق احترامى

مصطفى كامل »

* * *

«ولما رأى رحمه الله أن الجرائد الاوربية المحلية قدشنت غارة شعواء علي الامة المصرية بسبب أعانتها للدولة فى حربها ضد اليونان أعلن اعتزامه إلقاء خطبة بمدينة الاسكندرية وفعلا ألقاها فى ٣ يونيه . وبعد إلقائها كتب إلى مدام جوليت آدم مكتوبا هذا تعريبه :

« الاسكندرية فى ١٢ يونيهسنة ١٨٩٧

« سيدتي المديرة المبجلة

«لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الاهلية الكبرى التى كانت فى يوم الثلاثاء الفائت والتي ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنى لعظيم جلالها ـ ذلك أنه لم تكد تعلن الجرائد عن الخطبة التي ألقيتها حتي جاءت الوفود من أنحاء الاقاليم للاشتراك فى المظاهرة التى حضرها أكثر من ألفي مصري وقد وافقوا جميعا بكل سرور ـ وهم

محقون فى هذه الموافقة على ما عرضته عليهم أخيرا من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء وأن الاوربيين حتى اليونانيين لم رتاحون إلي تلك المظاهرة وهذا القرار .

« إنك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجباً نحوها فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي وقد اعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة الاهلية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا بما أن الانكليز محتلون وطننا العزيز . (١)

وأنى لاأرتاب فى أن حياة الامة المصرية النضرة التى تجلت للعيان ستملؤك حبورا ، ولذلك كتبت اليك هذه الكلمة وأنا أؤمل أن تتفضلي بأفراد مقالة فى المجلة أوفى غيرها للوطنية المصرية . . . »

***

كتب إلي رحمه الله خطابا قال فيه :

إن عودتى من أوربا إلى مصر أفادت كثيرا فقد رددت علي الجرائد التي اتهمتنا لبذلنا الجهد فى مساعدة الدولة العلية ضد اليونان وكذلك القيت خطابا فى مدينة الاسكندرية كان له أحسن وقع . وقد ذكرت فيه كل مارأيته هاما مفيدا .

« أملي ألا أغيب عن مصر زمنا طويلا فانى قد وطدت العزم على السفر إلي الاستانة فأوربا بعد أيام قلائل وسأخبرك بما سيكون .

«وغرضى من السفر إليها مرة أخرى مواصلة الجهاد فى سبيل مسئلتنا

---

(١) ليقرأ هذا الذين لم ترضهم سياسة المرحوم فانتقدوها عن جهل بعد وفاته بثماني عشرة سنة — سامحهم الله

الكبرى ، لان من حسن السياسة تحين الفرص ولا فرصة أحسن من هذه التى توالت فيها انتصارات الدولة العلية المحروسة على اليونان رغم أنف مساعديهم محتلي ديارنا .

«أوصيك أيها العزيز ألا تندفع فى السياسة اندفاعا ، فأنك مقيد بقانون عسكري شديد صارم والذى نجاك من حبائل الاعداء عسي أن يعينك على ترك الخدمة فى هذا الجيش البائس المهان بسلام .

«أرسل اليك مع هذا صورتى التى رسمت أخيرا لترى منها صحتى التي تعجبك والتى كانت تكون أقوي منها لو كنت قد حظيت بلقياك .
ردك الله سالما وحفظك لاخيك المخلص مصطفى كامل »

***

« سافر المترجم مرة أخري فى هذا العام إلى أوربا ليواصل جهاده فبرح العاصمة فى يوم الخميس ٢٤ يونيه وودعه على المحطة أعضاء الحزب الوطنى العديدون وقد أبحر فى يوم السبت إلى الاستانة العلية مودعا من الكثيرين من أهل الثغر الذين تمكن حبه من أفئدتهم ووصل إلى دار السعادة فى صباح يوم الثلاثاء ٢٩ يونيه .

وتوجه إلى المابين الهمايونى ثانى يوم وصوله فقابل تحسين بك باشكاتب المابين ورفع بواسطته فروض الاخلاص وواجبات التهانى بالانتصارات العسكرية إلى جلالة مولانا السلطان الاعظم .

نزل فى الاستانة بفندق سمر بالاس بترابيا وقد كثر زواره من رجال السياسة الاوربيين وفي مقدمتهم مكاتبو الجرائد الانكليزية الكبرى وأخذوا يناقشونه فى عدة مسائل أهمها المسئلة المصرية فكان يجادلهم بالتى هى أحسن .

وبعد أن قضى أسبوعا في دار الخلافة ممتعا بتعطفات جلالة الخليفة الاعظم استأذن وسافر إلى بودابست عاصمة المجر فوصل إليها فى السابع من شهر يوليه وما

عرف صحفيوها الذين تعرف إليهم من قبل نبأ وصوله إليها حتى رحبوا بقدومه أحسن ترحيب .

وكانت باكورة أعماله فى هذه المدينة الزاهية المزهرة ان أنتهز فرصة حلول ذلك اليوم المشؤوم يوم (١١) يوليه وهو التذكار الخامس عشر لضرب مدينة الاسكندرية الذي هو كما نعلم جميعا أحق أيام الحوادث بالحداد الوطنى العام وبعث بتلغرافين أحدهما إلى جلالة السلطان والثاني الى رئيس الوزارة الانكليزية اللورد سالسبرى وهذا تعريبهما :

— ١ —

« من بودابست فى ١١ يوليه إلى الاستانة العلية

« جلالة مولانا السلطان المعظم

« إنى فى هذا اليوم يوم ١١ يوليه الذى هو التذكار الخامس عشر لضرب انجلترا مدينة الاسكندرية بمدافع أسطولها ، أتشرف بأن اتضرع الى جلالتكم الامبراطورية أن تخففوا الآلام الشديدة التى تقاسيها مصر بلادنا العزيزة بأن تطلبوا من أوربا جلاء الجنود الانكليزية عنها .

« وأن بقاء مصر محتلة بالانكليز لخطر عظيم على الخلافة نفسها . فيا أيها الخليفة الاعظم إنقذ بلاد مصر وإلا فموتها موت للاسلام

مصطفى كامل »

« بودابست فى ١١ يوليه

« جناب رئيس الوزارة الانكليزية

« إنى فى هذا اليوم يوم ١١ يوليو الذى هو التذكار الخامس عشر لضرب الاسكندرية أرى من الواجب علي تذكير جنابكم بالوعود التى قدمت باسم التاج الانكليزى والشرف البريطانى للجلاء عن وطننا .

« واذا كانت مصر محتلة ظلما وعدوانا ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهى تعتبر يوم ١١ يوليو هذا تذكار حداد لها وتذكار عار علي انكلترا . ومادام الاحتلال الانكليزي باقيا فهذا العار يحمله كل فرد من الانكليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع مصطفى كامل »

وقد نشرت جرائد بودابست هذين التلغرافين وكتبت فصولا ضافية عن المسئلة المصرية وألحت على أوربا أن تعمل لجلاء جنود انكلترا عن وادى النيل تحقيقا لسعادة أهله وإبقاء على المصالح الدولية المشتركة آمنة من اعتداء الانكليز عليها وهم قد اشتهروا بحب الذات اشتهارهم بالطمع والجشع ، وهذا مثال مما كتبت !

البستر لويد

قالت هذه الجريدة المجرية الكبيرة بعد أن نشرت نص التلغرافين ما تعريبه :

« إنا نحن المجريين الذين توارثنا فى دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية نعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنئهم بوجود رجال بينهم مثل « مصطفى كامل » الذى نسميه بحق « كوسوت مصر » ونسأل ممالك أوربا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية باجبار الانكليز على الخروج من مصر وتركها لاهلها . لانه من العار أن تظهر أوربا المتمدينة مظهر الكاذب فى سياسته أمام أمم الشرق .

« إن مركز مصر ليس كمركز أى بلد شرقى آخر فهى مصدر فوائد كثيرة للعالم ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى »

ماجيار نورك لابجا

وقالت هذه الجريدة ما تعريبه :

« نرحب بعمل مصطفى كامل حبيب المجر ترحيب الوطني بالوطني ونقول للانكليز إنكم تحسنون كثيراً إلى أنفسكم بترك مصر قبل أن توغروا صدور الدول عليكم إذا استرسلتم في البقاء فيها . وأن بلدا مركزه هو مركز مصر لا يصح أن يكون فى

يد دولة واحدة . وأملنا كبير فى أن مصلحة الدول المشتركة فى مصر تجبر الحكومة الانكليزية على الوفاء بوعودها . وانا نعتقد انه مهما طال الزمان على هذا الاحتلال المضر بالعالم أجمع فلا بد من جلائه يوما من الايام . ولذلك لايصح أن ييأس المصريون من نجاة بلادهم مادام فيهم مثل « مصطفى كامل » الوطنى المشتعل وطنية وحبا لبلاد الفراعنة العظيمة » ... اه

وكذلك ضربت الجرائد النمسوية على هذه النغمة وقامت جرائد الانكليز أو المنتمية للانكليز تدعى أنه موعز إلى المترجم بهذا من جلالة السلطان ، وكانت تقيم الدليل على ذلك بما أهداه جلالته إليه فى العام الفائت . ولكن الحقيقة التى تنطق مهما ناوأها نصراء الباطل ردت عليهم ردا مفحما إذ كتب المستر سيمون الفرنسى الشهير بمبادئه الديمقراطية كتابا إلى جريدة « ذى نيويورك هرالد » قال فيه :

« إن العالم المتمدين يسمع في هذه السنين الاخيرة صوتا رنانا وطنيا من الشرق هو صوت ابن الفراعنة « مصطفى كامل » . هـذا الصوت الذى أسمعه بكل تلذذ وأقرؤه بكل إمعان . ومما يدهش أن الصحافة الاوربية عامة والانكليزية خاصة لا تعير هذا النداء الحق مايستحقه من التشجيع ، بل بالعكس نرى أكثرها يتهمه شخصيا بمآرب غير وطنية !!!

« وقد أردت بما أكتبه فى جريدتكم المحترمة أن أكون أحد المشجعين لهذا الوطنى المحبوب وأقدم للعالم مناقشة بسيطة فى المسئلة المصرية :

« نعلم جميعا أن قول مصطفى كامل من حيث هو قول سياسى يتعلق بمسئلة ذات قيمة سياسية تجارية دينية. فليس إذاً من الصواب أن تناقش شخصه ولا تناقش قوله!!

« يقول مصطفى كامل أنه مصرى ونحن لا ننكر عليه ذلك . ويقول إنه يدافع عن بلاده طالبا وفاء الانكليز بوعودهم سائلا أوربا صاحبة الحول والطول والكلمة العليا فى كل ما له مساس بالسياسة العمومية أن تساعده على تحقيق أماني مواطنيه . ونحن إزاء هـذا القول يجب علينا أن نقول : « إنك صادق فى دعواك ولا نسألك إلا انتظارا » لان انكلترا بمهارتها تخلق كل يوم ما يبعد عنها المناقشة فى المسئلة المصرية التى ليست فى الحقيقة إلا مسئلة الهند أولا ومسئلة الشرق ثانيا . فهـذه الطريق أو بعبارة أخرى قناة السويس لم تحفر لتكون وقفا على الانكليز بل لتكون طريق

رحمة تجارية للعالم كله .

« خلقت انكلترا مسئلة الترنسفال لتشغل ألمانيا وخلقت مسئلة الارمن واليونان لتشغل تركيا ، كما تسعى لحفر بئر للروسيا فى الشرق الاقصى ! وكل هذه المسائل تعطل كثيرا عرض مسئلة مصر على بساط البحث وإعطائها حقها بين الامم الحرة التى تتقلب فى نعيم بينما هي تتجرع آلاما جساما .

« إن مصطفى كامل قائد حركة وطنية في مصر فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وبتمثيل حالتى الوطن للناشئين (حالة الشقاء : وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل !

« إنى أسمع الانكليز يقولون بالسنة خدامهم : « إن مصر لم تحكم نفسها فى التاريخ يوما واحدا وأنها دائمة فى اغلال الذل وأطواق الاستعباد محكومة ذليلة . فلم يخالفون اليوم هذه الحقيقة ويطلبون أن يكونوا سادة في بلادهم !!! »

« هذا ما يقوله الانكليز وهو قول يضحك كثيرا إذا لفتنا نظرنا إلى قول (مصطفى كامل) وهو بالحرف الواحد :

« لو فرضنا أن التاريخ سلبنا نعمة السلطة والحكم فلتكن انكلترا آخر من يتمتع بهما وليست الأمة المصرية إلا أمة من الامم التي جاءها الدور لتحكم مصر » .

« نعم قال مصطفى كامل هذا القول وهو غاية فى رقي التعبير وسلامة الذوق ولا عجب فأن الوطنية الحية على على اللسان ما اذا خطه القلم ظهر حقا ناطقا لان الوجدان الشريف لا يعرف الكذب .

« وأنا كذلك أقول إنهم إذا ضحكوا من قول (مصطفى كامل) وسألوه أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على انكلترا وتملك مصر فالجواب عندى عن ذلك أن بواخر مصر نيلها ، وأسلحتها إرادة أبنائها ، وذهبها جمال وضعها ، فليتخذ أبناؤها فوق هذه المواهب من العلم دروعا ولينازلوا الانكليز بثبات الساكن الصابر فان قائد السفينة فى حاجة لعقل سليم وجسم سليم ليقود سفينته وإلا فهى بغيرها غارقة !

« إن الوطن بيننا نحن الاوربيين الراقين عظيم جليل محترم مقدم على الدم

والابن والمال . فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لانفسنا ! ! إذا كنا وهذه أوطاننا من السمو والرقي نشكو دائما من حكوماتنا إعتقادا منا لسبب من الاسباب أو لنظرية من النظريات أنها تسوقنا إلى خطر يحف الوطن ! !

« ألا فلنترك المصريين يذكرون أوطانهم كما نذكر أوطاننا فان أحب شيء إلى رجل راق شريف العواطف أن يرى جميع بنى الانسان مهما تعددت نحلهم وأديانهم وعاداتهم عائلة واحدة تعقد الصلة بينهم أشرف كلمة إليها نسبنا ألا وهى : « الانسانية »

وقد علقت جريدة ذي نيويورك هرالد على هذا الكتاب بما تعريبه .

« إن غرض مصطفى كامل شريف وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته ومن عرف أنه ليس بغني كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهديهم التاريخ من حين الى حين إلى الامم البائسة المظلومة ليهدوها طريق السداد .

« وأنا نؤكد لقرائنا أن ابن وادى النيل إذا لم يدفع عنه سالب خيراته يرتكب أشنع جريمة فى الوجود . لانه واد ذو زرع عين وحاصلاته كثيرة فضلا عن مركزه السياسى ووضعه الجغرافى ! !

« وأنه إذا كان المصريون إلى اليوم فى نظر بعض السواس لا يستحقون ما يبتغونه من سعادة لانحطاط قواهم العلمية فأنا نؤكد من جديد أن (مصطفى كامل) الذى حادثه مراسلنا بالاستانة فى العام الفائت لا يقل علما عن اعظم سياسى من ساسة أمريكا وأوربا . ولكنه لسوء حظ مصر جاء فى الزمن الذي بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغا عظيما فأصبحت المدافع والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق لا لنصرة أمة مظلومة على أمة ظالمة ! !

« ولكننا مع ذلك نقول له ماقاله المستر سيمون وهو : « أن خطوة إلى الامام ولو كل قرن فى سبيل نجاة الوطن لخير من لاشيء » . فليسر مصطفى كامل ومواطنوه الى حيث يجدون بمشيئة الله « مصر رمسيس » سيدة مهيبة ! . » . . أه

***

مكث المترجم فى مدينة بودابست لغاية ٣ يوليه ثم سافر الى فينا وهناك امضى بضعة أيام قابل فى خلالها رجال السياسة والصحافة ليحملهم على خدمة المسئلة المصرية ثم

برحها الى باريس

وقدأرسل إلى من بوادبست كتابا جاء فيه :

« لوتعلم ما أنا فيه من السرور والنصب لشاركتنى فى الأول وودت لو تشاركنى فى الثانى . أما السرور فأنى أشعر بميل الكثيرين من سواس أوربا وعلي الخصوص ساسة التحالف الثلاثى إلى حل المسئلة المصرية ، وأما الثانى فلأني أقضى جل وقتي فى التحبير والتحرير وقد شعرت بضعف فى قواي وأرانى فى حاجة إلي صديق قوي وطني يعمل فى جانبي.

« هذا وقد عرضت أخيرا على إخوانى أعضاء الحزب أن نختار عضوا آخر من ذوى الحمية والعمل ليكون معي فى هذا الجهاد فلم نجد من يقبل السفر لتأديه هذه المهمة الشاقة وإذا وجدناه فغير كفء بالمرة .

« ولذلك فأنى أنتظر بصبر نافد يوم خروجك من الجيش لتكون عضدى فى هذه الخدمة الشريفة .

« فاتنى أن أخبرك أنى تعرفت الى الكثيرين من فضلاء الاتراك وقدوجدت بعد الاختلاط بهم ومحادثتهم أن بين صفوفهم رجالا ملمين تمام الالمام بحالتنا ، واقفين علي كل مايعمله الانكليز معنا . وأعجب من ذلك أن واحداً منهم شرح لى قصتك فى الجيش وما انتابك من الظلم والغدر فى السنة الماضية . فحيا الله هذه الامة المجيدة وأخرجها سالمة من أشراك الأعداء

« وفى الختام أقبل وجنتيك حفظك الله لاخيك المخلص

مصطفى كامل»

* * *

برح المترجم بودابست كما قدمت وما وصل إلى باريس حتى أذاعت الصحافة الفرنسية

نبأ وصوله اليها وساوعت جريدة الاكاير فحادثه حديثا نشرته بعنوان (الاحوال فى مصر وتركيا) وهذا تعريبه :

ليس بين المصريين الذين أخذوا على عهدتهم هذا العبء المحمود وهو إيقاظ غفلة السياسة الاوربية من سباتها العميق تجاه المسئلة المصرية ومنازلة الاحتلال الانكليزي للقطر المصرى بجميع الوسائل الشرعية من أظهر الجد فى العمل والنشاط فى الدأب مثل (مصطفى كامل) . فان هذا الوطنى المصري قد وصل أخيراً الى باريس عائدا من الاستانة العلية وقد تمكن فى خلال هذه الرحلة من محادثة أفاضل الرجال من عثمانيين وغيرهم فى الشؤون المصرية . فقد سألناه أن يعرب لنا عن الحالة الحاضرة بالقطر المصري وتركيا فاجابنا بما يأتي :

« — أما ما يختص بمصر فلم يحدث أي تغيير في حالتها اذ لا يزال الأنكليز يحاربون كل ما كان مصريا أو أوربيا . بمعنى أن أوربا بأسرها أصبحت محتقرة فى نظرهم بالقطر المصرى . ولا شك فى أنها إذا لبثت محافظة على سكوتها هذا تجاه الاحتلال الانكليزى فأن نفوذها يمحى شيأ فشيأ وتعلوه غبرة الانحطاط والتلاشى ويتألم أبناؤها النزلاء كما نتألم نحن وسيحاول الانكليز فى السنتين الآتيتين إلغاء المحكمة المختلطة ولست أدرى إذا كانوا يستطيعون تحقيق هذه البغية . وإنما أقول إنهم إذا توصلوا إلي محو تلك المحاكم فأن أوربا تفقد كل حياة ووجود فى القطر المصري .

« ويذهب الكثيرون فى الدوائر الانكليزية وغيرها إلي القول بأن اليونانيين الكثيرى العدد فى القطر المصرى ولهم معظم القضايا التي تقدم إلي المحاكم المختلطة ربما يساعدون انكلترا على الغائها وتحرير ذلك أنهم بالنظر الى كثرة قضاياهم نرى أن معظم دخل هاته المحاكم منهم فاذا تحولوا عنها نقص الدخل نقصانا فاحشا يتخذه المحتلون حجة لنيل مقصدهم ومن المحتمل لدينا أن تكون هذه الفكرة وعدا من الوعود التي عللت بها

الوزارة اليونانية الحكومة الانكليزية فى مقابل ما نالته من مساعدتها أثناء الحرب .

«ولم أطل الكلام فى هذا الموضوع إلا لكى أطلعكم على مكنونات الدسائس الانكليزية الموجهة إلى المحاكم المختلطة التى هى أكثر المنشآت فى مصر فائدة وموافقة للصبغة الدولية العمومية ولضمانة حقوق أوربا ضد الانكليز فى القطر المصرى . أما نفوذ فرنسا فيما بيننا فلا يزال موضوع حرب متوالية من قبل الانكليز ولذا ترون أن المصريين الذين هم أصدقاء الفرنسيين فى كدر من جراء ذلك . وهم ينتظرون المعونة السياسية من فرنسا ولكن طال الانتظار . ولا بد لى هنا من ملاحظة أن المطاعن الموجهة الى الاسلام من بعض الكتاب الفرنسيين (١) كان لها التأثير المؤلم فى القطر المصرى .

« وأما ما يتعلق بالنفوذ السياسى القنصلى لفرنسا فاني آسف مثل بقية ابناء وطنى لوقوفه عند الحد الذي كان عنده ، وهو مجرد التأمل فى الحوادث وتدوينها . ولست أقصد بهذه الكلمات الطعن فى المسيو كوكردان والتنديد بوقفه إزاء تلك الاحوال ، بل على العكس فان هذا الوزير حائز لميل المصريين وهم يحترمونه كل الاحترام ولكنه لا يستطيع سلوك خطة سياسية شخصية نعم أني لست من الواقفين على أسرار السياسة الفرنسية ، غير أنه يظهر لي كما ظهر للكثيرين أن موقف فرنسا فى مصر يجب أن يكون مؤسسا على مبدأ مؤازرة السلطة الشرعية ، أي الجناب العالي الخديوى .

« فان سموه هو الممثل لحقوق الشعب المصرى وحقوق أوربا أيضا

---

(١) يعنى «هانوتو» وأضرابه .

إذ لا يذهب عن خاطر أحد أن أوربا قبلت وكفلت الخديوية المصرية . فينبغي والحالة هذه أن تقوم أوربا بالذود عن حياضها ووقايتها من كل مساس يكون مصدره أوربا على العموم وفرنسا على الخصوص . ولو كان سمو أمير نا مؤيد الجانب من فرنسا لتمكن من تغيير كل وزير لا يخدم البلاد بصدق ولتحسنت الحالة عما هي عليه ألف مرة !

« الأمر الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن المصريين لا يزالون يحبون سموه . . وكلما أشتدت حملات الانكليز على حقوقه وحاولوا أن ينقصوا من قدره فى أعين الأمة فإنه يكبر فى نظرها ويعلو شأنه دائما : والشعب المصرى لا ينسى أبداً أنه مدين للخديوى عباس باشا لانه أيقظه من سبات الخمول وأن ثباته ونشاطه ووطنيته وجميع فضائله قد بثت فى روح كل مصرى أن الانكليز ليسوا فى القطر المصرى أصدقاء أوداء بل مغيرين . وستبقى الخديوية الممثلة فى ذات صاحب السمو عباس حلمى باشا مرتبطة في مصر بنفس تلك العواطف والميول . . . »

« وقد برحت الأستانة العلية وأنا علي اعتقاد وطيد بأن انتصارات الجيش العثمانى قد أسكرت بخمرة الفرح جميع الشعوب الاسلامية فى أقطار العالم ورفعت فى أعينهم شأن جلالة السلطان ونفوذه . فاذا كان أهالي أوربا يعتبرون جلالة السلطان مسؤلا عن كل مايقع من الحوادث فى ممالكه وبلاده ، فان المسلمين أيضا ينسبون شرف تلك الانتصارات وفخرها إلى ذات جلالة السلطان الاعظم . ولا ريب فى أنه لا يذهب عن خاطر أوربا أن مركز جلالته تجاه العالم الاسلامى أصبح وطيداً جداً .

« ومما زاد فى عجبي ودهشي هو سوء الظن والاعتقاد الذى بنته أوربا

فى قلوب المسلمين نحوها، إذ من المستحيل اليوم إقناعك أحد المسلمين بصدق إخلاص أوربا نحو العالم الاسلامي أو إنها لاتتحيز ضد الاسلام وهذه مسئلة تساليا جاءت مثبتة لذلك الاعتقاد وموطدة له عقب كثير من المسائل غيرها . وهو يعتبر مجاهرة أوربا لجلالة السلطان بأن أوربا المسيحية لاتسمح بإعادة أرض مسيحية إلى حكومة إسلامية إعلانا للعالم الاسلامي بأنها لاتريد سوى الشر والضير للحكومة العثمانية وللاسلام كله . هذا فضلا عن نظر المسلمين وقتئذ إلي كل مشروع يتعلق بالاصلاحات بعين الغضب والازدراء . ولست أود الكلام على النظام فى تركيا أو فى عدل الاصلاحات، وإنما أردت أن أقفكم على ماوصلت إليه حركة الافكار بين الشعوب الاسلامية.

« ويوجد فى الشرق حزبان، يري أحدهما أن أوربا عدوة لدود له ويري الثاني عكس ذلك . أما الاول فيقوى عنصره كل يوم وتزداد شوكته، والسبب فى ذلك سلوك أوربا. وفى الواقع أن المسلمين كثيرا ما يتساءلون عن أسباب انقسام الدول الاوربية وانشقاقها فى شأن اتخاذ الوسائل اللازمة لاكراه اليونان على الجلاء عن كريت وأسباب اتحادها واتفاقها على أخراج العثمانيين من تساليا ؛ وكيف أن أوربا كثيرا ماتفتخر بمحافظتها على مجموع أملاك الدولة العلية ووقايتها من التجزؤ ثم هى تباشر تبديد أجزائها وتمزيق أعضائها مستندة على عين المبدأ

***

« يلومون السلطان لأنه يحض المسلمين على الاتحاد ويسعى فى جمع شتاتهم ووضع زمام الاسلام فى قبضته . أما أنا فأري الدول الاوربية

تحض المسلمين على ذلك أكثر من جلالته وتدعوهم ألي الاتحاد ضدها يدا واحدة . فأن أوربا لم تخاطب المسلمين في أمر ما إلا كان كلامها باسم النصرانية وهي لم تتكلم قط باسم التمدن . ولكي أمثل لكم الحالة التي وصلت إليها خواطر المسلمين أذكر لكم الجملة التي فاه بها جلالة السلطان الاعظم لمكاتب جريدة نيوفرى بريسه النمسوية التى تصدر فى فيينا حيث قال : « إن أوربا تحاربنا حربا صليبيه فى شكل سياسي » . وقد أعرب جلالته بهذه الجملة عما يخالج أفئدة أفراد المسلمين فى العالم باسره.

« وقد نسيت أوربا فى الغالب أن واجبها فى الشرق مراعاة الرأى العام الاسلامي . ولا يخفي أن المقصد الذي تسعى وراءه أوربا إنما هو تحصيل السعادة والهناوة للاقوام المسيحيين العائشين فى الشرق وتوطيد دعائم السلام فى الممالك الاسلامية.

« وعلى ظنى أن هذا المقصد لا يمكن نيله الا بتسكين الخواطر الهائجة وتمكين روابط الاتفاق بين المسلمين والمسيحيين. ولا توجد دولة غير انكلترا تستفيد من سوء ظن المسلمين بأوربا ومن النزاع بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق . وتقضي مصلحتها أيضا أن تمحو ذكر مصر من أذهان أوربا بحادثة من الحوادث فى الاستانة العلية وقد يمكن أن يلحق المصريين القنوط بسبب ماتقدم لأنهم باعتبارهم مسلمين ربما اعتقدوا أنهم فقدوا ميول أوربا وعضدها.

« ومحصل القول إن البحث فى المسائل الشرقية على مبدأ الدين من أكبر الوسائل لتوليد الاحقاد والضغائن وتأجيل توطيد السلام العام في في الشرق إلي زمن مديد . فينبغى أن تكون أوربا والحالة هذه عادلة نحو

جميع الناس بلافرق. وهى إذا أخذت على عهدتها إلزام الغير باحترام الحقوق والعهود، يكون من الواجب عليها أيضا أن تسوى المسئلة المصرية وتبرهن للعالمين الاسلامى والمسيحى على صدقها وإخلاصها وعندئذ لايتسنى لأي مسلم أن يرتاب في ذمتها ونياتها » . . اه

هذا وقد عضد المسيو « إدوار فلدتوفل » الكاتب الفرنسى الطائر الصيت هذا الحديث بمقالة نشرتها جريدة لابيه (السلام) بعنوان : « سياسة الدول الاوربية والسلام » قال فيها ماتعريبه :

« إن من واجبات الكاتب المحرر أن يتمسك دائما بمحبة وطنه والدفاع عن مصلحته ولكن يجب عليه أن يخدمه بحكمة وتعقل لاأن يكون متعصبا لرأي دون رأي فى أعماله .

« ولذلك أرى من واجباتي أن أحكم على حوادث الشرق بمقتضى الآراء السديدة الحكمية التى رواها « مصطفى كامل » في حديثه الاخير مع أحد محرري جريدة (الا كلير) فلقد قال هذا المصرى أن أكبر عائق لنجاح السياسة الاوربية فى الاستانة وفى مصر وأعظم ضرر لمصالح النوع البشرى على العموم، صادر عن الخطة السيئة التى اتبعها الاوربيون نحو الديانة الاسلامية. فانهم بدلا من أن يخاطبوا الدولة العلية باللسان الذي يخاطبون به الدول الاخرى تراهم يخاطبونها باظهار العداء للاسلام.

« والجرى على هذه الخطة يخالف الحق ولامحالة. فبأي حق يصح لنا أن ندعى عند مانطالب أمة من الامم بشىء من الاشياء أن عقيدة هذه الامة فاسدة لانها ليست عقيدتنا التى نظنها صحيحة كاملة ؟ إن هذا الادعاء لباطل كل البطلان . فان كل العقائد أساسها الفضيلة ومهما تغيرت الفضيلة بتغير البلاد والبقاع فهي هي الفضيلة بعينها . ومن المستحيل أن يحكم الانسان على دين بأفضليته علي دين آخر فلقد كان عيسى يهوديا وصار إله المسيحين . وبنى ابراهيم بيده الكعبة ثم صار بيتا مقدساً للمسلمين. وجاهد (لوتر وكلفان) جهادا شديداً ضد المذهب الكاثوليكى ولكن من كانا يعبدان ؟ كانا يعبدان المسيح . . . الخ

« فبدهى إذاً أن (مصطفى كامل) مصيب فى فكره وعار علينا أن نلوم الامم المغايرة

لنا فى الدين بمعبودها وعقائدها . اه

* * *

وما جاء مساء يوم أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ حتى غص الفندق النازلَ به المترجم فى باريس بجماهير المصريين والعثمانيين الذين دعاهم كعادته للاحتفال بعيد جلوس جلالة السلطان وكان بينهم عدد كبير من رجال السياسة والصحافة وبعد أن تناولوا طعام العشاء وقف المترجم وألقى هذه الكلمة :

« إخوانى الاعزاء

هذه الليلة التى تفضلتم بتشريفي فيها هي من الليالي المعدودة في تاريخ العالم الاسلامي فقلوب المسلمين كافة والعثمانيين عموما تخفق الآن بالفرح والسرور وأبناء وطننا فى مصر خاصة يحتفلون اليوم بعيد جلوس جلالة السلطان على أريكة الملك أكبر وأعظم احتفال ويبرهنون بذلك للامم جمعاء على تعلقهم الاكيد بعرش الخلافة المقدسة ولذا كان احتفالنا فى باريس على قلة عددنا ذا شأن خاص فهو جزء من ذلك الاحتفال الكبير بل هو دليل من دلائل اجماع المصريين على محبة جلالة الخليفة الاعظم والتعلق بالدولة العلية .

وهذه هي المرة الرابعة التى صادف فيها وجودى في باريس يوم عيد الجلوس الشاهاني واحتفلنا به كل مرة احتفال الصادقين الاوفياء وكم تحدثنا فى اجتماعاتنا فى شؤون الدولة وأحوالها ومصائب مصر وأحزانها ولكننا ما شعرنا فى عيد من الاعياد بمثل ما شعرنا به هذه المرة من الفرح والسرور. فعيد اليوم فى الحقيقة عيدان عيد جلالة الخليفة وعيد الجيش العثماني . نعم هو عيد الفخار والانتصار عيد احياء القوة العثمانية واعادة جلال مجدها العسكرى . وكلكم تعلمون مقدار تأثير انتصارات الجيوش العثمانية فى العالم الاسلامي عامة والعثماني خاصة . فلقد شرحت صدر كل إحساس صادق وجمعت كلمة العثمانيين حول جلالة السلطان وكلمة المسلمين حول جلالة الخليفة الاعظم .

ومن شاهد حركات الامة المصرية ايام الحرب وسهرها الليالي منتظرة الاخبار بتشوف وشغف لا يدركان — عرف ما للدولة العلية من الحب فى افئدة أبناء النيل وما لجلالة الخليفة الاعظم من المكانة المكينة فى القلوب وعرف أن ما يعمله

الدخلاء باطل ضد اتحاد المسلمين.

« ففرحنا بعيد جلالة خليفتنا الاعظم كبير شديد وتعلقنا بدولته متين أكيد وانا نحيي اليوم من صميم الفؤاد جلالته تحية الابناء المخلصين ونحيي الخلافة المقدسة تحية الحنان والولاء ونبتهج ببقائها قوية متينة بالرغم من مكائد اعدائها العديدين .

« ولا أبالغ إذا قلت إن مسلمي الارض قاطبة انظارهم متجهة إلى الخلافة المقدسة وقلوبهم مجتمعة حول رايتها الشريفة فلقد قامت الاحتفالات بالانتصارات الشهانية في كل بلد وفي كل واد وتردد صدى فرح المسلمين في جميع الاصقاع والانحاء وهو أمر خطير تهتز له اليوم انكلترا على عظمتها وجلالها . وأمر لم يكن له من قبل مثيل ولست ممن يتمنون اجتماع العالم الاسلامي على العالم المسيحي وإهراق الدماء بل أتمنى وأجاهر بهذه الامنية وهي أن يسير العالم الاسلامي باسره في طريق النور والعلم وأن يجتمع كله حول الخلافة العظمى لصد أعدائها ، واعتقد أن كل العقلاء لاينكرون على المسلمين واجباتهم نحو الخلافة ولذا كانت كتابات الذين يبغضون الاسلام وبنيه ضد اتحاد المسلمين كتابات حقد وبغض لايعتد بها .

« واذا اتحد اليوم العالم الاسلامي اتحادا سياسيا فانما اتحاده ضد الانكليز ، وهم يعلمون ذلك علم اليقين فطالما طعنوا في جلالة الخليفة الطعن القبيح وطالما دسوا على الخلافة الدسائس وقاموا ببث الفتن فى انحاء الدولة العلية . بل عرضوا علي دول أوربا اسقاط الخليفة عن عرش خلافته وتقسيم الدولة العلية حماها الله . فهم اليوم الاعداء وفى رأيي أنهم كانوا دائما ألد الاعداء لها . فلا عجب ولا غرابة اذا قام اليوم مسلمو الهند بثورة ينتقمون بها لوطنهم الاسيف ولعقيدتهم التى طعن الانكليز فيها فى شخص جلالة الخليفة الاعظم .

« ولقد ظن الانكليز أن جلالة الخليفة (عبد الحميد) هو المحرك لهذه الثورة والملهب لنارها ولكن باطلا مايعتقدون .

« انا ننزه جلالته عن أن يدس الدسائس على الانكليز ويحاربهم بهذا السلاح الدنئ الذي يحاربونه به . وانا ننزه كذلك ثوار الهند عن أن يكونوا آلات صماء . إن احساسهم الشريف جدير بالاحترام ونفوسهم التى سئمت ماهم فيه هى التي دفعتهم ضد الانكليز وماهم الا من بني البشر يحسون ويشعرون، لان لهم قلوبا ولهم

ارادة فعالة.

« ومن غريب امر السياسة الانكليزية أنها مع تظاهرها بكراهة تركيا وبغضها تعمل فى الاستانة لاستمالة جلالة السلطان وتود لو أصدر جلالته قرارا يأمر فيه ثوار الهند بالسكينة والخضوع للانكليز كما فعل المرحوم السلطان عبدالمجيد عام ١٨٥٦ حين ثار الهنود ثورة (سباه) الشهيرة .

« وقد تحققت أثناء زيارتي الاخيرة للاستانة أن الانكليز لما فشلت سياستهم فى الشرق وانتصرت الدولة العلية انتصارها الباهر ورأوا من أوربا الارتياب فى نياتهم ومن ألمانيا معاضدة تركيا عليهم أخذوا يعملون ويستعملون رجالهم وصنائعهم في الاستانة لتحسين العلائق بين دولتهم والدولة العثمانية . شأنهم مع الظافر المنصور .

« فكلكم تعلمون أن الانكليز كانوا أصدقاء لفرنسا أيام نابليون الثالث قبل حرب السبعين ثم لما انهزمت فرنسا كانوا أصدقاء لالمانيا وأعداء لفرنسا . وتذكرون كذلك أنهم تظاهروا فى بداية الحرب الصينية اليابانية بالميل للصين ثم لما تم الظفر والنصر لليابان كانوا معها على الصين ! هذه سياستهم فى كل وقت وفى كل زمان ! !

« ولكن تيقنوا أيها الاخوان ولتتيقن الامة المصرية كلها أن جلالة السلطان الاعظم لايتفق أبداً مع الانكليز مادامو محتلين لمصر. إذ احتلال مصر مسبة كبيرة من الانكليز للدولة العلية . وكونوا على ثقة من أن جلالة السلطان مهتم بمسئلة بلادنا اهتماما تاما ولا تحسبوا سكوته الظاهرى إهمالا لها بل أن جلالته أول العارفين بمكانة مصر من ملكه الجليل وبأنها روح الاسلام وقلبه وضياعها خراب للدولة والخلافة فهو مفكر فى أمورها واقف على أحوالها يفرح كثيراً بكل نهضة تقوم فيها ويسر حقا بقيام المصريين للدفاع عن حقوقهم والمطالبة بها . واعلموا أيها الاخوان أن ساعة الخلاص آتية لامحالة عاجلا أو آجلا .

« وإذا كنا نحتفل اليوم بعيد جلالة السلطان فانما نحتفل والامل ملء افئدتنا وأنظارنا شاخصة إلى مصر العزيزة وبودي لو اقتصر حديثي معكم اليوم على هذا التذكار السعيد . ولكن هنالك تذكارا آخر أراه قريبا منا وأشخصه أمام عيني مكتوبا بحروف الحداد الا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل ، التذكار الخامس عشر لدخول الانكليز مدينة القاهرة عاصمة مصر التعسة . نعم أرى هذا التذكار وأحس آلاما شديدة لذكراه ، آلاما تخلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور فالبسوا ثياب الحداد ذلك اليوم

كما لبستم اليوم ثياب الفرح والهناوة واندبوا حظ بلادكم التعسة وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفاني فى سبيل خلاصها .

« فمن كان وطنه وداى النيل عار عليه أن يسلمه لسواه ويعيش حقيراً ذليلا غريبا في بلاده أجنبيا فى ربوعه وربوع أبائه وأجداده . ولطالما ردد الفلاسفة أن كلمة الحق تصل إلى آذان الافراد والامم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون. فنادوا إذاً بتحرير الوطن المصرى فأن لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غدا بمشيئة الله

« ولا تظنوا أيها الاخوان أنكم تكونون أبرياء من اثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لاخراج الاجنبى من ديارها . فقد يظن الكثيرون فى مصر ان الذى لايخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه بريء من جريمة مصائبه غير مسؤول عن الاخطار التى تتساقط عليه. كلا . إن الذى يرى النار بعينه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل لاطفائها هو شريك في الاثم لمن أسعرها . فكيف بنا ونحن نرى الاجنبى يعتدي على حياة أمتنا ووطننا ويهتك عرض بلادنا ويسلبنا أموالنا وحقوقنا ويستذلنا ويحسن للحيوان الاعجم أكثر من إحسانه إلينا. ألا إن الحياة الذليلة خير منها الموت والموت فى سبيل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة!

« واذا كنا معشر الشبان لم نجر على بلادنا هذه المصائب الجمة فلا جرم أننا اذا أهملنا الامر كنا الجانين على ابنائنا من بعدنا . فلقد سلمنا أباؤنا مصر وفيها بقية حياة فهل يليق أن نسلمها لابنائنا ميتة لاحراك بها ؟ ان مصر لعليل أنتم تعرفون دواءه فقدموه لها ولو قطعت أيديكم بالسيوف ومزقت أفئدتكم بالخناجر.

« ولو ناجيتم سرائركم وتنزلتم الى أفئدتكم وتساءلتم من المسؤول عن احياء مصر أهم الشيوخ أم الشبان أهم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم أم الذين لهم الشبيبة والقوة والحياة ونشأوا على مبادىء الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة ورأوا غيرهم من ابناء الامم الحية يضحي في سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز؟ لاريب أن ضمائركم تجيبكم انكم انتم وحدكم أى كل رجال الشبيبة المصرية المسؤلون عن احياء مصر وكفا كم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن اعمالكم »

«ولا يرين أحدكم نفسه صغيرا حقيرا فيقول: «ومن أنا حتى أدافع عن بلادى وأطالب بحريتها وأسعى لسعادتها »؟ فذلك فكر خطاء فكل مصرى مسؤل عن حالة مصر ولكل

مصري الحق فى خدمتها بل عليه واجب إنهاضها واعلاء شأنها. وجميع المصريين امام مصر سواء وحنانها الكل فرد من ابنائها لا ينقص عن حنانها للآخر. وقد جاءنا التاريخ بالامثال العديدة على قيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الاعمال وأشرفها. وقد أرانا التاريخ فتاة حررت فرنسا وطنها واخرجت الانكليز من ربوعه. وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيرا حقير المقام له فى بلاده ولا مكانة. ولكن وطنيته الطاهرة وفؤاده المتقد غيرة على وطنه وخلوه عن الغرض الشخصى جعلته فى تاريخ بلاده وفى تاريخ الامم رجلا من عظماء الرجال وقدوة كبيرة فى تحرير الاوطان. والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة الى أسمى المراتب بوطنيتهم الصادقة واحساساتهم السامية.

« فاعملوا اذاً والامل ملء قلوبكم ولا تيأسوا طرفة عين بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر. شأن ذوى النفوس الشريفة والمقاصد العالية.

« وانى لست فى حاجة لان ألفت أنظاركم الى ماترونه فى أوربا من مظاهر الوطنيه الجليلة ومن معالم الحياة الحقيقية. فهذا العمران العظيم ناطق بابدع بيان بأنه من ثمار الوطنية وكل مافى هذه الديار من عدل ونظام وحرية واستقلال ونعيم كبير وملك عظيم، هو لاريب من مبتدعات هذا الاحساس الشريف الذي يسوق أفراد امة بأسرها الى العمل لغرض مشترك ومطلب واحد. ولاريب عندي انكم كلما دخلتم مدافن عظماء الرجال وزرتم قبورهم أعجبتم بهذه الوطنية العالية التى رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الاجيال، ولا ريب أنكم أعجبتم بهم وغبطتموهم. فقد عاشوا كرماء أوفياء لاوطانهم وماتوا مشرفين عالي الاقدار والمقامات وبقيت أعمالهم دروساً ومثلا للابناء والاعقاب. ولا ريب أنكم أملتم أن يظهر في المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان.

« ولا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوربا هو الوقوف علي قوة الاحساس الوطني فى البلاد علي اختلافها. فأهل هذه البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حباً شديداً ويستقبل الفرد منهم الموت فى سبيل خدمة بلاده راضيا مسروراً.

« ومن أجل ما ذكره التاريخ من إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائدا فرنسياً أحس فى عام ١٨١٥ باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الاخيرة واحتلت عساكر الدول الاوربية المتحدة أرض فرنسا . فدعا إليه أحد أصدقائه وقال له : « إن لي عندك أمراً أسألك بحرمة فرنسا أن تؤديه بعد موتي » فقال له صديقه « وما ذاك ؟ » فأجابه القائد: « إذا جلت العساكر الاجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبري وناد بأعلى صوتك : « لقد جلا الاجانب عن بلادنا فنم آمناً مطمئناً . عندئذ تسكن روحي ويتم لي الموت بسلام »

« هذا مثل صغير يكفي وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وعماذا تقوم ؟

« وإذا كانت فخامة ملك الامم المتمدينة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أموراً من شأنها تنشيطنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها هذا المبلغ البعيد فهنالك أمم أخرى تنذرنا بسوء المصير إذا استسلمنا للمحتلين وأهملنا أشرف واجب علينا في الحياة . فالهند وراءكم وإرلندا أمامكم تذكركم حالتها أثناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالمذلة وسلمتم البلاد للمحتلين ؟ فحاسبوا أنفسكم واسألوها أتفضل العار على الشرف ؟ والذل والهوان على العز والرفعة ؟ والموت على الحياة ؟؟

« إن أمتن أساس لخدمة الوطن العزيز هو الوفاق والاتحاد ولكن بين الصادقين الذين يضحون بحياتهم محبة لمصر وعملا لانقاذها !

« فقد عرفنا بعض رجال كانوا يتظاهرون بالوطنية والغيرة على مصالح مصر ثم ظهر أمرهم وكشف الغطاء عما في سرائرهم ولم يبق ريب فى أنهم أضر على مصر من أعدائها الظاهرين .

« والحمد لله أن عدد المنافقين فى مصر ليس بالكثير كما يتوهمه البعض ولكن مهما كان عددهم فلنحذرهم كل الحذر ولنضم صفوفنا بعضها إلى بعض ونلتف جميعا حول الوطن العزيز . . . إلخ

***

وقد نشرت الجرائد الاوربية على اختلاف نزعاتها ملخص هذه الكلمة النفيسة وعلقت عليها ماشاءت سياستها وقد قالت جريدة الجولوا الباريسية :

« إن المصريين أمة على جانب عظيم من النشاط والجد وهم مخلصون لرابطتهم الدينية الاسلامية إخلاصا حقيقيا لاتشوبه شائبة المدنية الكاذبة ولا يكدر معناه الجميل الغايات السياسية الدنيئة وإنا نعتقد أنهم ماداموا على هذا الاخلاص فلن يجد العدو إلى قلوبهم سبيلا » اه

أما شركات البرق فانها كعادتها نشرت فى العالم ملخص هذه الكلمة مما كان له عند المصريين أعظم وقع وقد لاحظ الكثيرون ان الشتائم لم تهطل عليه فيما مضى هطولها فى هذه المرة ولكنه ما كان يكترث بسبابها، بل استمر فى طريقه معتمدا على قوة الحق وقلوب الامة التى متى عرفت الحقيقة واتحدت لخدمتها كانت قوة لاقدرة لقوة مهما كانت أن تقف فى طريقها .

***

وبعد أن نشر المترجم بعض المقالات فى الصحف سافر بعدئذ إلى برلين وقد كتبت الجرائد عنه شيئا كثيرا يحتاج نشره إلى مجلدات ضخمة. وبمناسبة هذه الحركة نشرت شركة هافاس ما يأتى :

« كاد يتفق جميع ساسة أوربا على حل مسئلة مصر وقد انضم إليهم بقوة ساسة ألمانيا »

ولقد عاد من برلين إلى باريس وكتب إلى مدام آدم في مصيفها مكتوبا هذا تعريبه:

« باريس فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٧

« سيدتي المديرة المبجلة

« تشرفت أمس بلقاء مسيو روشفور (١) والتحدث معه نحو ساعة

---

(١) كان الماركيز روشفور من أكبر كتاب فرنسا ومديرا لجريدة الانترانسيجان وله مقام معدود بين ساسة العالم وكانت انجلترا تخشى قلمه لانه كان عدوها الذى لا يشترى وخصمها الدائم النزال.

ونصف ساعة. وقد أحسن لقائي وما أخفى عنى عواطفه نحو وطنى العزيز وكتب اليوم بعض كلمات فى مصلحتنا.

« أشكر لك مرة أخرى تقديمك إياى إلى مسيو روشفور الذى أعجبت به إعجابا عظيما . . . »

— دسيسة احتلالية —

بعث فى هذه الاثناء أحد الاحتلاليين إلى المسيو شيونفرت الكاتب الالمانى الشهير بكتاب يقول له فيه إن الذين يدافعون عن مصر وفى مقدمتهم « مصطفى كامل» ليسوا من جنس مصرى ! إلى غير ذلك من الاقاويل التى لا غرض منها إلا التهويش على دفاع المخلصين ودفع الكاتب الالمانى إلى كتابة ما يعرقل مساعى حماة مصر . وكان جناب الكاتب قد كتب كتابا بهذا المعنى ونشره فى جريدة فوسيشه زيتنغ فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧

وما قرأ المرحوم كتابه هذا حتى رد عليه لساعته بما تعريبه :

« فينا فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

« ياجناب المدير

« إسمح لي أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) فى جريدتكم ونشرتموه فى عدد ٣٠ سبتمبر الجارى فى شأن الوطنية المصرية

« يدعي المسيو شيونفرت أن المصريين القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبى وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة . وقد تكرم حضرته بأن عدنى من رجال الفئة المترفعة عن الأمة، البعيدة الأصل منها، أى ممن لا يجرى في عروقهم الدم المصري الحقيقي.

« وهى دعوة باطلة كل البطلان لأن كل المصريين القائمين بالدعوة الوطنية العاملين ضد الاحتلال الانكليزى الساعين فى سبيل تحرير وطنهم

مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين وأغلبهم أبناء الفلاحين .

« أما أنا فأفخر وأتشرف بأنى بن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون .

« يظهر إذاً جلياً أننا لسنا من تلك الفئة الغنية الغريبة الأصل عن الفلاحين ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين فى الماضى لأنهم إما أخوتنا وإما آباؤنا !

« أما اكتتابنا للجيش العثمانى فما هو الا ثمرة وطنية يانعة صادقة . نعم هو ثمرة الوطنية الحقيقية لأننا نعلم علم اليقين أن انكلترا لا ترمى بكل دسائسها ضد تركيا إلا الى مصر .

« وأننا بسرورنا وباحتفالنا بالانتصارات التركية نسر ونحفل بهزيمة السياسة الانكليزية أى بأجمل وأبهى شيء يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام

« وأنى أختتم كتابى للدكتور (شيونفرت) بأنى أجله أعظم إجلال غير أنى مندهش جداً من أن رجلا مثله يقول عن الفلاح المصرى إنه لا يعنى بشؤون بلاده !

« فاذا كان الدكتور (شيونفرت) يقضى علينا بأننا أجانب عن الفلاح لا ندرك ما بفؤاده فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك ما به ويتكلم عن عدم عنايته بشؤون الوطن ؟

هذا وتفضل بقبول احترامى مصطفى كامل »

وقد علقت عليه تلك الجريدة بما تعريبه :

« إن على هـذا الكتاب مسحة الحق والاخلاص ونحن لا نشك أن المسيو شيونفرت قد اقتنع بما فيه ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا ما علق بأذهانهم من كتابه فأن هذا الرد صادر من صاحب الدار وهو أدري بما فيها وعلى الاخص ما يخصه منها »

عاد المترجم من سفره فوصل إلى العاصمة فى ١٠ أكتوبر وقد استقبله الكثيرون بكل ترحيب وتعظيم

ولم يمض يومان حتى وقع فى مرض أنهك قواه وأقلق بال مصر وكان الفضل في شفائه لمدينة حلوان التى أشار عليه الاطباء أن يقضى الشتاء فيها وما أبل من مرضه فى أواخر شهر نوفمبر حتى عاد إلى عمله السياسى وكتب إلي بعـد طول الانتظار وقلق البال كتاباً يقول فيه :

« الجمعة ٣ ديسبر سنة ١٨٩٧

« أخى . . . .

« لاشك أنك قلقت كثيرا حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعـد عدة خطابات لتقف على صحتى لأ نى منذ ثلاثة أشهر لم أكتب إليك كلمة .

« إنى كنت فى مرض شديد ، يئست معه من حياتى وقد أصابنى بعد وصولى إلي العاصمة بيومين. وهو مسبب عن كثرة الأتعاب التى صادفتها فى هذا العام والتى أؤمل أن تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة باخلاص ولاأمل لى فى شيء من ورائها سوي عودة مصر الى زهوها ورجوع السيادة فيهالابنائها المخلصين.

« سأبتدىء بمشيئة الله بعد أيام فيوضع كتاب فى « المسئلة الشرقية » ليكون فيه نفع للمشتغلين بمسألة الدولة ومسئلة مصر . ولى وطيد الامل أن يأتى كتاباً مفيداً والله الموفق .

« لا تتأخر عن مكاتبتي كثيراً ولا تنس أن ترسل الي تلغرافا عند قيامك لمصر حتى أسافر للقياك بالأقصر.

« إن الدسائس التي يدبرها الاعداء ضدنا كثيرة ولكن الله سينصرنا عليهم نصرا عزيزا ...»

***

كان رحمه الله بينما يحدث الصحفيين ويناقش الداخلين والخارجين ويقنع اليائسين ويبعث بمقالاته المؤثرة المفعمة إخلاصا وحماسة ووطنية وحقا إلي الجرائد الاوربية الكبيرة. وعدا ذلك فأنه بدأ عقب شفائه بتأليف كتاب المسئلة الشرقية الذي هو أول كتاب فى بابه وضع باللغة العربية . . .

وكان قد كتب إلي مسيو جاستون كات السياسى الفرنسى الكبير فورد منه كتاب هذا هو تعريبه:

« باريس في ٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧

صديقي العزيز — ورد إلي كتابك الأخير فتلوته بكل إمعان . وأني أشكرك شكرا جزيلا على تفضلك بمراسلتي بين حين وحين . فقد كنت متشوقا إلى ورود هذا الكتاب لأقف منه على حقيقة الاحوال في مصر فأن الانكليز قد ملأوا أوربا أخباراً غريبة جداً عن مصر وسمو أميرها .

« أشاعوا أن فى مصر حزبا كبيرا عظيم النفوذ قوى الكلمة ينتقد جهارا أعمال الخديوى ويعاديه علناً ويود لو انتقل ملك مصر من يده ! ونسبوا واضع القصيدة الهجائية (١) في سموه إلى هذا الحزب ممثلين اياه لاوربا رجلا كبيرا وشاعرا طائر الشهرة . وقد أراد الانكليز بذلك التغرير بساسة أوربا وافهامهم أن الامة المصرية ميالة إلى الاحتلال الانكليزي معادية لأميرها .

---

(١) وهى القصيدة التي كان ذم بها بعضهم سمو الامير ونسب مصدرها إلى السيد توفيق البكرى وعزل الانجليز النائب العمومى حمدالله باشا أمين إذ أمر بتفتيش منزل السيد المذكور الذي كان صديقا للورد كرومر عميد الاحتلال ! !

« ولا يفوتك أن انتشار مثل هذه الاشاعات والاساطير يضر كثيرا بمسألة مصر في أوربا ويكون كالضربة القاضية على حقوقكم الشرعية ومطالبكم الوطنية الشريفة ولست أنكر عليك أن هذه الاشاعات السافلة قد أثرت تأثيرا سيئا فى أفكار الكثيرين من أصدقائي أنفسهم مع أنهم يعلمون من عهد بعيد أن الامة المصرية شديدة التعلق بأميرها وأنه يمثل بينكم الوطنية الحقيقية . تطابق آمالكم وميولكم آماله وميوله .

ولما جاءنى كتابك أطلعت عليه كثيرين من المشتغلين بمسألة مصر فأدركوا سر الاشاعات الانكليزية وفطنوا إلى أن الانكليز عاملون في أوربا على اضعاف ميل السياسيين والكتاب لبلادكم كما أنهم يعملون في مصر لاضعاف سلطة الخديوى الشرعية !

« ولقد فرحت كثيرا بما قلته لي عن محبة الاهالي لسموه وشدة تعلقهم به وسرني ما وصفته لي من الاستقبال الذى استقبل به فى سياحته الاخيرة فى الوجه البحرى مما يدل بلا ريب على فساد مزاعم الانكليز .

« ولكنى مندهش كل الاندهاش من أنكم معشر المصريين لا تعرفون أن تنتفعوا من مثل هذه المظاهرات الشريفة، فانها مرت ولم يدربها أحد من المشتغلين بمسائل مصر أنفسهم ! مع أننا نرى الانكليز يجسمون كل أمر ضدكم وهم لم يخجلوا من أن يمثلوا لنا مصريا لا شأن له ولا اعتبار كرجل رفيع الشأن قوى الكلمة وكشاعر طائر الصيت . ألم لا يهتم فضلاء المصريين بالتعرف برجال الاقلام والسياسة فى أوربا ويكاتبونهم في كل فرصة ويعرفونهم الحقائق ؟ ؟ إن ذلك أكبر خدمة يستطيع المصرى أن يؤديها لوطنه فى هذا العصر عصر القلم واللسان . بل وفى كل عصر ، إذ يجب نشر الحقيقة فى كل مكان .

« نعم إنى أعرف أنك أنت وأصدقاؤك تقومون بهذا الامر خير قيام ولكن أمة عددها عشرة ملايين يجب أن يدافع عنها وينشر الحقيقة عن شؤونها عدد أكثر بكثير منكم وأضعاف أضعافكم !

« ولعلك تقول لي إنكم اشتغلتم بنشر الحقيقة فى هذه السنين الاخيرة لكنكم لم تروا لهذا العمل نتيجة . فأجيبك عن ذلك بأن هذا الرأي فاسد كل الفساد . فان أمة مثل أمتكم تود نيل حريتها واستقلالها لا يصح لها أبدا أن تمل العمل خمس أو

عشر سنين بل يجب عليها أن تعمل بثبات واستمرار على الدوام لقيت من الصعاب ما لقيت وقام فى طريقها من العقبات ما قام! بل أقول يجب عليها أن تزيد العالم مجاهرة بآرائها ورغائبها كلما احدقت الاخطار بالوطن!.

« وأني أذكرك أيها الصديق بقول الشاعر الالماني جوتا وهو: « إن الصخرة تفتت بنزول الامطار عليها شيأ شيأ »

« فقطرة الماء وحدها لا تحلل الصخرة ولكن نزول القطرة بعد القطرة يحللها كلها إلى أجزاء رملية صغيرة . . . . . فكذلك العمل ضد الانكليز فى مسألة مصر ، فأن كل عمل بانفراد كقطرة ماء تنزل على صخرة الاحتلال!

« ولا أريد أن أطيل الكلام معك فى هذا الموضوع لانك بعد السياحات الطويلة والمقابلات العديدة قد أدركت ذلك بل عرفت ما فوقه .

« وقبل الختام أذكر لك ما أجمع عليه السياسيون هنا بشأن مصر وهو أن مسألة بلادكم حية قائمة وذات الشأن الاول فى المسائل السياسية ، ولكن على المصريين واجبات إذا قاموا بها بلغوا لا محالة بغيتهم وهى واجبات ثلاثة :

« أولها — اتحادهم كل الاتحاد حول أريكتهم ، وإعلان العدوان لكل طاعن فى أميرهم ، فأن فى القضاء على السلطة الشرعية القضاء الابدى على حقوق الامة المصرية . وأميركم أجدر أمراء مصر بالحب والاجلال لا سيما وأنه مبغض من الانكليز وهم لا يبغضونه إلا لانه متفق معكم!

« ثانيها — تعزيز مركزه فى الاستانة فأن جلالة السلطان صاحب الصوت الاول بين دول أوروبا فى مسألة مصر ولا بد له من أن يأخذ بالثأر فى مسألة بلادكم التى خدعه الانكليز فيها أكبر خداع . فيجب عليكم أن تكونوا على تمام الصفاء والوفاء فى علاقاتكم مع جلالة السلطان . وأني أعلم ان هنا لك دسائس عديدة تدس عليكم وعلى أميركم ولكني أعتقد أنه يسهل عليكم أن تبددوا هذه الدسائس وتحافظوا على ميل الخليفة إليكم!

« ثالثها — جعل الرأي العام الاوربي واقفا على الدوام على أحوالكم . فان ممالك أوروبا اليوم مسيرة بحركة الرأي العام وطالما رأينا الحكومات تكون مشتغلة بمسائل مهمة فتتركها برغم منها لتشتغل بمسائل أخرى تثيرها الصحف والرأي العام وتناقش فيها المجالس النيابية . فأن كانت مسألة مصر فى الصحف والمنتديات وكنتم دائما على مسرح السياسة الاوربية قائمين بدحض الاشاعات والاراجيف الانكليزية فانكم

تقيمون لمسألتكم أهمية كبيرة وينمو عدد نصرائها كل يوم وتتوالى الضربات عندئذ على هذه الصخرة الاحتلالية الضخمة فتزول من سبيل حريتكم واستقلالكم !

« تلك هي الاراء التي يراها كل سياسي خبير وقد قضى علي الوفاء لشخصك بذكرها والاطالة فى بيانها وعساها أن تقع لديك ولدى أصدقائك ومن يرى رأيك من المصريين موقع الاعتبار .

« هذا وتفضل أيها الصديق بقبول سلام من يدعو معك بحرية مصر وخلاصها القريب . . اه ج . كالمت »

* * *

« ما حل عام ١٨٩٨ إلا كان المرحوم فى أحسن صحة وأتم عافية يبتسم له الدهر وتذلل امامه المصاعب وحوله أخوانه الراسخة قدمهم فى الوطنية لايعرفون ولايذكرون غير مصر ولاهناوة لهم إلا بخلاصها وقدارتسمت صورتها على سويداء قلوبهم وفي كل قطرة من دمائهم . . .

دخل هذا العام والمترجم كله أمل فى أن جهوده التى بذلها كونت من النابتة قلوبا أوفى لمصر منها لحامليها . وقد تحقق أمله فى هذه الغصون المباركة المثمرة من الامة حيث اجتمع تلاميذ المدارس الاميرية وفى مقدمتهم طلاب المدارس العالية والثانوية (١) وعقدوا الخناصر على اقامة وليمة كبرى بحديقة الازبكية يوم تذكار جلوس سمو الخديوى السابق. وقد لبى الدعوة جميع الطلبة بلا استثناء واتخذوا مكان « سنتى » الشهير بالحديقة للاحتفاء بالعيد .

وقد شرف دارنا وفد من هؤلاء الطلبه الكرام لدعوة المرحوم لرئاسة الوليمة إذ أن كل طالب يعتبره أستاذه فى الوطنية وتاجه الذي يفخر به على مر الزمان وقد لبى المترجم نداءهم بكل ارتياح واشترك معهم بكل جوارحه .

---

(١) نذكر منهم مع حفظ ألقابهم محمد حلمى عيسى (أحد وزراء مصر الآن) وعبد القادر حمزه (مدير جريدة البلاغ) وأحمد حافظ عوض (مدير جريدة كوكب الشرق) وحماد اسماعيل (أحد كبار وجهاء مديرية الغربية)

« وما جاء مساء يوم السبت ٨ يناير سنة ١٨٩٨ حتى كانت حديقة الازبكية عروسا تجلي بديع بهائها ، وقد بدد ضوء جمالها ظلام مسائها ، وكانت حفلة رجال الغد عقدها وبيت قصيدها . فقد بلغت من جمال التنسيق وحسن الوضع حدا فائقا .

« وبعد أن تنوول الطعام وقف أحد أعضاء الحفلة وهو حضرة احمد حافظ عوض (بك) ودعا لسمو الامير وأثنى على المرحوم وسأل اخوانه الاتحاد فى خدمة هذا الوطن العزيز . وما انتهى من كلامه بين التصفيق والاستحسان حتى وقف المرحوم وقفته المخلصة المؤثرة فأخذ أبناء الوطن يحيونه تحية الحب المتبادل فشكرهم شكرا جزيلا ثم قال :

« إخواني الاعزاء

« لقد شكرني حضرة زميلكم الفاضل على حضوري بينكم الليلة وإجابتي دعوة الذين تفضلوا بها إلى هذه الحفلة الشائقة . على أن الشكر يجب أن يقدم مني إليكم لاني أرى في حضوري بينكم شرفا عظيما لى وأقدر عنايتكم بدعوتي حق قدرها ولطالما تمنيت أن أقضى بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية وأناجي اولئك الذين خرجت من صفوفهم وما نسيت عهودهم . وأتحدث معكم يامستقبل مصر ورجاءها فى المستقبل المنتظر وفى ذلك الواجب المظيم الذى يجب علينا جميعا أن نقوم به حق القيام وأعني به واجب خدمة الوطن العزيز .

« فكان احتفالكم الليلة باعثا للسرور والارتياح فى نفسى لانه احتفال بعيد جلوس مولانا وأميرنا المحبوب (عباس حلمى باشا الثاني) أدام الله أيامه ولانه جمع نخبة من أفضل شبان مصر على الوفاء والولاء لسموه .

« وأني أعترف لكم بانى لاأستطيع شكركم حق الشكر على هذه العواطف الشريفة التى دفعتكم إلى الاجتماع والاحتفال بهذا العيد السعيد والتذكار المجيد . ويعجبني من كلام زميلكم الفاضل قوله « إن اجتماعكم الليلة لايعد مظاهرة خارجة عن حدود واجباتكم بل أهم هذه الواجبات وأقدسها »

« فحقا حقا إن اظهار الاخلاص لامير مصر وإعلان المحبة لذاته الشريفة لواجب مقدس على كل مصرى صادق الاحساس شريف المبادىء فان سمو العزيز

حفظه الله جعل أول مبادئه خدمة أمته والعمل لاعلاء شأنها . ولم يعتبر نفسه ككثيرين من الملوك والامراء طبقة فوق طبقة الامة ورئيسا للهيئة الحاكمة فقط ، بل جاء عارفا للهمة العالية الشريفة الواجب عليه القيام بها فعرف أنه رئيس الامة وروحها كما أنه رئيس الهيئة المنفذة ، فاخلص لمصر باعتباره رئيسا لحكومتها ورئيسا لامتها وكان أول أمير معلن بأن عليه لمصر واجبين ، واجب الخديوية الجليلة وواجب الوطنية السليمة . لان سموه يعتبر نفسه قبل كل شيء مصريا يحتم عليه الوطنية خدمة مصر وبقاءها حرة سعيدة رفيعة القدر والمقام . وأنها لصفات رفعت مكانة العباس فى الوجود وجعلت أمته مخلصة له أشد الاخلاص بل حملت الاجانب واعداءه أنفسهم على الاعتراف بعلو ذكائه وشرف فؤاده . وكلكم تعلمون أن أكبر أمنية لسمو العباس هى أن يري شعب مصر متقدما فى سبيل المدنية ، غنيا عن الاجنبى ، قويا بنفسه ، قادرا على الدفاع عن وطنه . وان يعيد إلى بلاد مصر مجدها السالف ومكانها القديم ، فلذلك وجه سموه حفظه الله كل رعاية إلى المدارس وأبنائها وبذل أقصى الجهد فى نشر التعليم بكل الوسائل وجاهد حفظه الله ويجاهد كل يوم في سبيل صيانة مصالح أمته وإصلاح شؤونها ولا أنكر أن آمال سمو العزيز الشريفة نحو مركز البلاد لم يتحقق إلى اليوم ولكن الروح الجديدة التى دبت فى الامة والعزم الشديد الذى اتصف به سمو العباس حفظه الله يملآن الانسان أملا فى المستقبل ويؤكدان أن آمال سموه الشريفة ستتحقق كلها لامحالة يوما من الايام .

« وإذ كنتم جميعا من نخبة شبان مصر ومن أصدق الصادقين لسمو العزيز فواجب عليكم أن تتصفوا بصفاته العالية وتجعلوا مبادئه الشريفة فى الحياة مبادىء لكم فسمو العباس حفظه الله من أكبر أمراء العالم ، وعرف بحب التواضع ، وملاطفة الصغير والكبير . فاجعلوا التواضع من الصفات الاساسية لكم فى الحياة فهو دليل شرف النفس ورفعتها وبرهان على أن صاحبه عظيم القدر ذكي الفؤاد . ومن صفات أميرنا المحبوب أنه يكره السكر والسكارى والميسر وأهله فاجتنبوا هذين الدائين العظيمين ، بل هذين الوباءين الفتاكين . ولا أرانى فى حاجة إلى تبيان مضار هذين الدائين فقد شاهدتم جميعا شبانا من أبناء الاغنياء انتقلوا من درجة الانسانية إلى درجة البهيمية ومن مصاف العقلاء إلى مصاف المعتوهين ومن القصور العالية الفخمة

إلى المنازل الحقيرة ومن الثروة الطائلة إلى الفقر المدقع بعلة السكر أو الميسر أو كليهما معا

« ومن صفات سمو العزيز حفظه الله أنه يعمل بدينه الشريف ويحترم أوامره ونواهيه وهى صفة فوق كل الصفات ونضيلة تعد أم الفضائل . فالدين هو عماد الوجود وروح النشاط والشجاعة وعلو الهمة ، بل هو روح كل الشعائر الطيبة ، فقوموا به واعملوا بأوامره ولا تنسوا أن « حب الوطن من الايمان » .

« أجل أيها الاخوان الاعزاء إن الوطنية يأمر بها الدين الشريف وتأمر بها النفس الناطقة ويأمر بها الضمير الطاهر وقد قلت لكم إن سمو العباس رعاه الله اشتهر فى بلاده وفي الأمم الاخرى بالوطنية الشديدة والغيرة على مصالح بلاده . فان كنتم صادقين فى تعلقكم بسمو العزيز عاملين بدينكم الشريف فأول صفة يجب عليكم أن تجاهروا بها أمام الملأ كله هى الوطنية وأسمى رائد لكل أعمالكم الآتية يجب أن تكون الوطنية .

« فالوطنية هى أشرف الروابط للافراد والاساس المتين الذى تبني عليه الدول القوية والممالك الشامخة . وكل ما ترونه فى أوربا من آثار العمران والمدنية فما هو إلا ثمار الوطنية . وقد مضى على مصر زمن طويل كان فيه أهلها غافلين عن حقوق وطنهم ناسين أنهم أبناء مصر وأنه يجب عليهم أن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحد للدفاع عنها والذود عن حقوقها . ولكنها اليوم قد قامت من رقدتها وانتبهت من نومها بفضل سمو العباس حفظه الله .

« وأصبح اليوم الوطن المصرى ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلا وإنصافاً . أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال وأن تردوا إليها حقوقاً وهبها إياها الخالق عز وجل ولا ريب أنكم أنتم معشر المتعلمين ، معشر النابغين فى المعارف والآداب أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية فانكم قرأتم فى التاريخ الامثال الكثيرة للوطنية وعرفتم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم وإخلاصاً لاوطانهم فحيوا بموتهم ، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لاعلاء شأن الوطن وبنيه .

« ولا بدع إذا كانت حياة الامم الواقعة تحت نير الاستعباد تعد أرذل الحياة ، حياة يفضل الموت عليها . فان لذة الحياة الانسانية فى الحرية . وإذا بقي شعب طويلا محكوماً بغير أبنائه فقد شيئاً فشيئاً احترام الامم وإجلالها لشأنه . أي فقد كل فرد من أفراده احترامه فى الوجود وشرفه وهما أعز شيء على النفوس ذوات الاحساس .

« وقد يرى الانسان الاستقلال بعكس العبودية يبعث فى النفوس رفعة وشهامة ويجعل الفقير متلذذاً بالحياة كالغني . ومن الامثال العديدة التى تدلكم على ذلك وعلى أن أسفل الناس درجة في الامم الحرة يعتبر نفسه سعيداً عالي القدر لا يحمل على رأسه غير الشرف والفخار

ركب مرة أحد المصريين بباريس عربة وكان سائقها يعرف أنه مصرى فلما سارت العربة أخذ صاحبنا المصرى يستعمل شيئاً من الغلظة مع سائق العربه فالتفت إليه هذا الاخير وقال له :

« لا تعامل بالغلظة رجلا حراً ينسب لامة حرة . بل اذهب إلى بلدك وعامل من يظلمون فيه من غير أبنائه هذه المعاملة »

وهى جملة صدرت عن رجل من آخر طبقات الامة الفرنسية ولكنها مملوءة بالمعانى التى لا يعسر عليكم إدراكها .

« ولقد عرف الوطنية كل إنسان فى الوجود ولم ينكرها إلا العدد القليل بل شوهد أن بعض المجرمين السافكين للدماء أجل الوطنية واحترمها وما نكث لوطنه بعهد ، ومن ذلك ماسمعته في المجر من أن رجلا مجريا قتل زوجه وحكم عليه بالاعدام فلما اقتربت ساعة الموت جاؤوه وسألوه : « هل من بغية لك قبل الموت ؟ » فقال لهم له « أريد أن أسألكم سؤالا واحدا وأقسم عليكم أن تجيبوني جوابا صادقا : » فقالوا : « سل ماشئت » فقال ! « هل فى الخبز الذى أكلته فى سجنى ، أو فى الملابس التى وضعتموها علي جسدي ، أو فى الأشياء التي استعملتها فى هذا السجن ، شيء صنع فى غير بلاد المجر ؟ » فاجابوه كلا. كل شيء أكلته أو لبسته أو استعملته فى هذا السجن صنع في بلاد المجر ولكن لم سألت هذا السؤال ؟ فقال لهم « لاني كنت أخاف أن أموت مخالفا العادة التي جريت عليها طول حياتي وهى الحياة بكل شيء مجري ، وبكل شيء مجري وحده دون غيره » فقالوا له : وكيف تكون بهذه الوطنية قاتلا مجرما ؟ فأجابهم وياله من جواب : « إن نفسى إذا كانت تلوثت بجريمة

القتل ، فهي لم تلوث بخيانة الوطن ، بل بقيت بالرغم من ذلك نفسا وطنية صادقة .. » ! !

« فاذا كان المجرمون السفاكون للدماء ، القاتلون للابرياء المرملون للنساء ، يحتمون للاطفال يعتقدون أن الوطنية هي هذا الاحساس الشريف الذي يجب احترامه فوق كل شيء ، ويجب إجلاله حتى إذا تلوثت النفس باقبح الجرائم البشرية فكيف إذا بكم وأنتم نخبة المتعلمين ونخبة الشبيبة المصرية الطاهرة — أي موضع الآمال فى حسن المستقبل ؟

« وأنكم إذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال وشرع أحدكم فى في عمل من الاعمال سمع لامحالة من قوم غايتهم تثبيط الهمم وإقعاد العزائم : « من أنت حتى تعمل هذا العمل ؟ وإذا كان الاغنياء والكبراء لم يقدموا عليه فكيف تقدم أنت عليه ؟ » ؛ وهو قول فاسد وفكر سافل لان الوطنية لا تميز فيها بين الصغير والكبير والغنى والفقير بل كلنا سواء أمام مصر وكل واحد منا مسؤول عن مصائبها مطالب بخدمتها واعلاء قدرها .

« لقد دلنا التاريخ بالامثال الجمة علي أن افراداً فقراء من آخر طبقات الهيئة الاجتماعية أتوا فى بلادهم باكبر الاعمال وأشرفها . فهل كانت « جان دارك » أميرة فرنسا أو كبيرة أغنيائها وهل كان الشعب قد اجتمع وانتخبها حتى قامت محررة لوطنها ؟ وهل كان (كوشوت) أكثر المجريين مالا وأكبرهم شأنا حتى قام بما قام وانقذ بلاده ورفع قدرها ؟

« كلا . لم تكن « جان دارك » إلا فتاة فقيرة رأت أن الوطنية تحتم عليها نصرة وطنها فقامت وأتت من تلقاء نفسها بما أتت من جلائل الاعمال ولم يكن « كوشوت » فى بادىء أمره إلا محاميا صغيراً فقيراً ، ولكن وطنيته رفعته إلى الصف الاول فى أمته ! وهكذا الوطنية الحقيقية تجعل صاحبها فقيراً كان أو غنيا فى الصف الاول من الامة ؛ فقد نكون فقراء أيها السادة فى المال ولكن شرف عواطفنا وصدق وطنيتنا وإخلاصنا لمصر يجعلنا فى الطبقة العالية من الامة .

« قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيرا في المال ولكنه يعيش ويبقى فى التاريخ من أكبر سراة الوطنية !

« فتعلقوا بوطنكم كل التعلق ، ودافعوا عنه أشد الدفاع ، وطالبوا بحريته واستقلاله ، وإن متم قبل أن تحقق آمالكم وأمانيكم فاتركوه لابنائكم من بعدكم أقدس ميراث يجب عليهم صيانته والمحافظة عليه !

« وأن خير وسيلة تخدمون بها وطنكم هى أن تنشروا أنوار المعارف والآداب فيه . فنور العرفان هو روح الاستقلال وأن أمة انتشر الجهل بين أبنائها لاتحكم إلا بالظلم والعدوان . فنور المعارف طارد للذل والمظالم ، موطد لاركان العدل والعمران . ولقد حصلنا جميعا بعد عناية طويلة من آبائنا وأتعاب كثيرة وسهر طويل ، على التربية والتعليم — أى حزنا هذه الشجرة الطيبة التى من ثمرها الحرية والاستقلال !

« وإننا من أول يوم حصلنا فيه على قواعد التربية والتعليم صرنا مدينين لمصر بدين عظيم إذا قصرنا فى الوفاء به كنا ناكثين بعهود معنوية عظيمة ، منكرين لجميل كبير قام به فى الوجود وجودنا ويقوم به احترامنا وكنا في آن واحد أكبر خصوم أولئك الذين سهروا الليالى الطوال فى تعليمنا وضحوا في سبيل تربيتنا بكل نفس ونفيس ولعلكم تتساءلون عن هذا الدين العظيم الواجب علينا جميعاً ؟

« فأقول لكم إنه دين خدمة الوطن بنشر نور التربية والعرفان بين أبنائه . فان سنة التضامن الاهلى بين أفراد أمة تقضى على كل فرد أن يعمل لتعميم السعادة والخير بين سائر الافراد حتى تزداد رابطة هذا التضامن — أى رابطة الوطنية قوة ومتانة .

« وغني عن البيان أننا ممتعون اليوم بسعادة كبيرة هى نور المعارف والآداب ، فيجب علينا تعميمها بين أبناء البلاد حتى يعرف كل منهم فائدة التضامن الاهلي ويقدر عندئذ كل مصرى الوطنية حق قدرها . فان نور العرفان هو خير هبة وهبها الله الامم وأعظم نعمة على العالمين .

« وإني أذكركم بما قلته من قبل من أن الاستقلال نور من أنوار العرفان ، وأنه كما أن الافراد لايعتدى اللصوص على أمتعتهم إلا فى ظلام الليل كذلك الامم لاتفقد حياتها المعنوية ووجودها وأقدس حقوقها الشرعية الا اذا كانت عائشة في ظلام الجهالة الحالك . ولاشك أنه لايمكنكم القيام بأنارة الامة وإرشادها حق الارشاد إلا إذا كنتم عائشين فى الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم فى سبيل الحياة لاعمالا فى إدارة أوديوان تتقدون فى آخر الشهر مرتبا معلوما يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس فى نفوسكم الحرية الشخصية والميل لعظام الاعمال !

« فالحياة الحرة هى أصل كل خير وهى التى تؤهلكم لخدمة أمتكم أكبر الخدم وأشرفها ، وهي التى تساعدكم علي نشر فضائلكم ومبادئكم الوطنية بين سائر الافراد

شرقا وغربا . وقد يعتقد الكثير من المصريين أن الحكومة مسؤلة عن عمل كل شيء للبلاد ، فأن قلت لهم اسسوا المدارس لتربية أبنائكم أجابوك هذا واجب الحكومة وإن عرضت عليهم أي مشروع مفيد للوطن وبنيه قالوا لك هـذا من خصائص الحكومة ! !

« فكأن الامة آلة لا وظيفة لها إلا ان تنقلها الحكومة حيث تشاء وتسيرها كيف تريد ! مع أن الامة يجب أن تكون لها إرادة خاصة وأعمال ظاهرة .

« وها هي الدول العظيمة القوية السلطان الواسعة المدنية ترى الامة فيها قائمة باكبر الاعمال . فشركات السكك الحديدية أغلبها فى أيدي جماعات من الافراد . بل نرى أن بعض الشركات المكونة من أفراد من الامة القائمة بالمشروعات الفردية استعمرت بلادا من أفريقية وحكمتها . فمشروعات الافراد هى التى تبعث الحياة والنشاط فى الشعوب وهى التى تكسب المدنية بهاءها ورونقها الحقيقى

« ولولا الحياة الحرة والاشتغال بالتجارة والصناعة واعتبار الاشغال بهما شرفا عظيما ماقامت المدنية الغربية وما رأينا من أمم أوربا هذا التقدم الغريب . ولقد رأيت فى كل البلاد التى زرتها فى أوربا جماعات أهلية عديدة للتعليم . فالامم هنالك مع عناية الحكومات كل العناية بامور التعليم لاتركن علي الحكومات وحدها بل تبرهن علي قدرتها علي العمل بانشائها المدارس المختلفة لتعليم أبنائها ومعاونة واجب الحكومة فى هذه السبيل ،

« وأن احتياج الامة للحكومة علامة تقدمها وتأخرها فكلما كانت الامة عاجزة عن العمل ضعيفة عن خدمة نفسها وتدبير شؤونها كانت أشد حاجة للحكومة من غيرها . وكلما كانت قادرة علي كبار الاعمال وعلى تدبير شؤونها وأمورها كانت قليلة الاحتياج للحكومة — أي عزيزة بنفسها قوية بمداركها لاتخالف لها الحكومة رغبة ولا إرادة . والامة التي تحس دائما من نفسها أنها لاتستطيع أن تعمل شيئا وحدها بغير مساعدة الحكومة ومعونتها هي كالطفل المحتاج إلي وصى يدبر له شؤونه . أما الامة التي تدبر شؤونها بنفسها ولاتكلف الحكومة إلا المحافظة علي الامن العام وعلى شرف الدولة في الداخل والخارج فهي كالرجل الرشيد التام الادراك الغنى عن الوصى .

« فاعملوا أيها الاعزاء لجعل وطنكم رشيدا قويا غير محتاج لوصى من أبنائه ولا

من الاجانب .

« وأن لكم في العمل لخدمة الوطن العزيز عدوين عظيمين يجب عليكم مكافحتهما اشد الكفاح وهما الغرور والحسد . فلقد يظن بعض الناس انهم متى أتموا دراستهم صاروا فلاسفة هذا العصر وأكبر علماء مصر ! فيتركون الكتب وينسون العلوم ولا يراجعون شيئا مما تعلموا وإذا ألقيت عليهم نصيحة نبذوها ، وإن كتب لهم كاتب ينصح لهم بشيء اعتبروا نصيحته موجهة إلى غيرهم لا إلى أنفسهم . فقد شوهد كثيرا أن أحد الناس إذا قرأ فى الجرائد نصيحة صادقة واستحسنها قال : « إنه لكلام حق ولكن الامة ميتة » ! !

« فهو يعتبر أن الكاتب لم يقصده بنصحه بل قصد غيره ! والغرور يحمله على اعتبار نفسه من شعب آخر غير الشعب الذي تلقى عليه النصائح . فاذا كان كل شخص يعتبر نصيحة الناصح لغيره لا لنفسه فمن يعمل إذاً بالنصيحة ? ? ?

« إن التواضع أشرف الصفات والغرور من أكبر النقائص وقد قال الخالق جل وعلا : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » فلا يأخذنكم الغرور ، فهو أصل الشقاق وسبب كل فساد ولا تفرقوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

« وكذلك الحسد فانه أقبح الصفات ويهب النفوس المتصفة به آلاما مستمرة فالحسود يعذب من نفسه كل وقت وآن . وبالغرور والحسد يستحيل الوصول إلى الاتحاد بين جماعة من الناس . فاجتنبوا هاتين الصفتين ، واجعلوا الاتحاد رائدكم فيه تبلغون كل آمالكم وتحققون كل رغبة شريفة تختلج في نفوسكم .

« وإنكم إن كنتم قد أخذتم على أنفسكم خدمة الوطن والامير وعزمتم على إعلاء شأن البلاد بما ستأتونه من شريف الاعمال فاجعلوا الاتحاد فيما بينكم أساس آمالكم وأعمالكم . وأن أثمن نصيحة تلقيتها فى صغرى وألقيها اليوم على أبناء بلادى المحبوبة وأختم بها كلامي معكم الليلة هى : العمل بالاتحاد على خدمة الوطن العزيز . . اه

ما جاء المترجم على آخر كلمه هذه حتى دوت القاعة دويا مؤثرا بزفرات أصوات الشبان العاملين الذين برغم دروس الانكليز المملوءة كرها للدولة وسخطا لمصر قد نمي في أفئدتهم الشعور الوطني فقادهم إلى هذا الاجتماع الوطني . . . . .

« ولقد بلغت محبة المترجم من نفوس الطلبة مبلغا كبيرا وأخذوا من تلك الساعة يزورونه في منزله كلما مكنتهم الفرصة واتخذوه إمامهم المفدي !

***

تاقت نفس المرحوم بعد أن رأى دروس الحياة تكاد تنطق من بين شفاه أبطال النابتة إلي تأسيس مدرسة يربى فيها أبناء الامة على مبادئه فكتب إلي كتابا قال فيه:

« . . . . إنى أيها الأخ العزيز أتمنى أن يسعدني الزمان فأقيم تحت سماء بلادنا الغالية دار علم يؤمها بائسو العقول لنصقلها وبائسو القلوب لنحييها ، حتي يتم الجند عدتهم ويكون لمصر منهم نعم المدافع ونعم النصير .

« ولكني مع هذا الشعور لست غنياً إلى حد أن أقوم وحدى بعمل كبير كهذا يحتاج للمال الوفير الذى منه الكثير فى جيوب لا تعلوها قلوب فسبحان القادر العليم !

فاسأل الله معي أن يوفقنا لهذا العمل العظيم النافع . . .

١٣ يناير سنة ١٨٩٨ مصطفى كامل »

حركت عقارب الاحتلال أذنابها إذ بثوا الارصاد والعيون حول سكنتنا وأحاطوا حركات المرحوم بجيش من الجواسيس ، لان الدخلاء فينا أفهموا المحتلين أن مؤامرة ثورية تعد فى السر وأن محرك الشبان فيها هو « مصطفى كامل » .

جاء رجل كريم من ذوات الاسكندرية إليه يوماً (هو السيد محمد الخضرى) وقال له : « إني سمعت من سورى أنهم ينصبون لك أشراكا ليوقعوك فيها وليكون لهم منك نصر على غيرك فاحترس فانهم غادرون . . . »

فأجاب المترجم هذا الصديق فى تؤدة: « إننا وإياهم من خلق الله والله حتم على كل مخلوق كريم الصفات عالي الشيم أن يحب بلاده . لأن الاعتراف بالجميل فضيلة وليس هناك جميل أكبر مما فعلته مصر معنا فهي قد كستنا

جميعاً من عري وأشبعتنا من جوع ، وأوجدتنا من عدم ، فنحن لسنا ملكا لأنفسنا بل ملك حـلال لها . وأني أعتقـد أيها الأخ أن الانكليز الحاضرين ليسوا من أهل القرون الوسطى الذين كانت بغيتهم إسالة الدماء وراء غاية ذميمة أو طمع ممقوت ، بل أعتقـد أنهم مع حبهم للاستعمار ورغبتهم في عدم وجود وطنيين صادقين. يشعرون بحب لمن ظهر بينهم مظهر الرجال وناقشهم الحساب وذكرهم بالعهود والايمان .

« إنهم طبعاً يودون أن نمحي من الوجود ولكنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلا وليس عنـدهم من حيلة سوى التهديد والوعيد على ألسنة مأجوريهم الخائنين لبلد يحملهم وسماء تظلهم ونعيم فيه يرتعون .

« إني أوصيك وصية وطني مصري لأخيه أن تقول لهم إذا لقيتهم « ألا يجهدوا أنفسهم في قتل الشعور الوطني فانه سرى وسيسرى إلى أبد الآبدين » ، واعلم أيها الصديق أن درسـاً من دروس الوطنية يلقى على الناشئين أفعل في نفوسهم من ألف ألعوبة يستحضرها الانكليز من معمل مكايدهم ودسائسهم ليضلوا بها عقولهم أو ليصرفوا أوقاتهم بها عن العمـل النافع والعلم الرافع .

« إننا أيها الصديق لا نعمل شيئاً الآن ضـد الانكليز سوى كتابة صك وطني أساسه « مصر للمصريين » ليمضيه أبناء الوطن جميعا فمنهم من ينقش اسمه عليه بمداد المحابر ومنهم من يكتبه بماء القلوب ومنهم من يكتبه بدماء الشرايين والله ولي التوفيق .... »

فقال له هذا الصديق وهو يحاوره إني أعتقد أنا أيضا أن واضع خطة الاحتلال الجائرة لو تمثل أمامك وحادثك وجها لوجه لاثرت فيه وأنسيته انكليزيته وحولته مصريا . بارك الله فيك وأمدك بروح من عنده.



مصطفى كامل

فى الثالثة والعشرين من عمره

قامت صحف الاحتلال تكتب الجمل الشديدة المؤلمة وقد تسربت عدواها إلى جرائد أوربية فاتهمت جريدة لوريان المرحوم بالدعوة إلى ثورة مما أخاف الاوربيين كثيراً فاضطر رحمه الله أن يكذب هذه الدعوى وعزم على السفر لولا أنه كان يشتغل بكتاب المسئلة الشرقية ويباشر طبعه بنفسه لينشره كما أعلن للملأ من قبل ، ففضل أن يرد على تلك الجريدة وكتب إليها كتابا هذا تعريبه :

الخميس ٣ فبراير سنة ١٨٩٨

« جناب مدير جريدة لوريان

« قرأت فى أحد الاعداد الاخيرة من جريدتك حملة على الوطنيين المصريين كتبت بتحيز كبير للاحتلال الانكليزى وأشياعه وليست عليها مسحة من الحق. ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة وأنكم تستظلون براية الحرية والاخاء والمساواة رأيت أن أرسل اليكم كتابى هذا خدمة للحقيقة راجيا نشره فى المكان الذى نشرتم فيه مقالتكم التي نسبتم إلي فيها أمورا أنا أبعد الناس عنها وكذلك أبناء وطنى جميعا .

« يقول مراسلكم المصرى : « إن المصريين عمي لايفقهون ولئام لايعترفون بجميل ! ويدعى فى مقالته أن الاحتلال الانكليزي أحسن إلينا فنظم ماليتنا ورد السودان ونشر المعارف بيننا وأحيا فينا «مصطفى كامل » . . . إلي غير ذلك مما عده نعما وجهها الانكليز لمصر واتهمنا بنكرانها والعمل على إشعال نار الثورة فى بلادنا ! !

« ولذلك هو يسأل أوربا أن تعطى الانكليز الحرية التامة فى تأديبنا حتى لاتعرض عمالها ومصالحها الجمة فى مصر للضياع . . . إلي آخر مافترى »

« ويعلم الله إنه مأجور من الانكليز لان يدا تتصل بقلب طاهر يشعر ، وبعين ترى ، لاتكتب على نفسها إثما كما كتبت يد هذا المراسل

« إن الجنود الانكليزيه دخلت مصر بعد أن قضي فيها الفرنسيون العلماء (وهم بنو وطنك) ٦٥ عاما بين أطباء ومهندسين ومعلمين وماليين فأقاموا معالم الدوارس وأوجدوا من مصر فرنسا الشرقية . . .

« إنى ياجناب المدير لو أردت أن أشرح لك ماسبق أن شرحته فى أغلب عواصم أوربا بالقلم واللسان لحملت نفسي فوق طاقتها ولذلك أرسل إليكم خطبة باريس التى ألقيتها فى أواخر سنة ١٨٩٥ بقاعة الجمعية الجغرافية ورسالة « أخطار الاحتلال على مصر » . لعلكم متى قرأتموهما تعرفون كيف بدد الانكليز أموالنا وحملوا الامة ديونا عمومية وخصوصية ونسفوا الفضيلة والعلم واختاروا قشوره وهجروا البابه . وأنهم لم يضموا السودان إلينا بعد أن استبذلوا دماءنا فى فتحه ! ومن يعرف ماذا تكون النتيجة ..... (١)

« أما مصطفى كامل الذى قال عنه مكاتبكم إنه من عمل الانكليز الصالح فهو قول مردود لأن الانكليز لا يؤهلون المصريين ليقفوا فى طريقهم ويذكروهم بشرف تاجهم وكرامة أقسامهم ! !

« نعم إن المراسل بنى عملنا على اللؤم ونكران الجميل ولكن اسمح لمصري مثلي أن يسألك سؤالا بسيطا :

« أيعد الدفاع عن الاوطان فى نظركم لؤما . ولاتعدون السكوت

---

(١) لقد عرفها جميع المصريين بعد أن قتل أعداء مصر السردار ، وبعد أن انسحبت وزارة سعد زغلول باشا من الحكم وبعد أن حل مجلس النواب الذى لم يجتمع حتي اليوم إلا يوما واحدا ! ! !

عنه جبنا وخيانة »

« إذا كنتم أنتم أبناء الامة الفرنسية قدقمتم فى وجه حكومتكم الاهلية الرؤف بكم عدة مرات وهى منكم لانكم شعرتم بظلمها فكيف تجدون من اللؤم قيام أمة جاءتها المظالم من سلطة أجنبية عنها طامعة فيها !!!

« ألم نكن بشرا مثلكم نشعر بما تشعرون ونألم كما تألمون ؟ أنسيتم مركزنا السياسى ؟ أنسيتم مصالحكم عندنا ؟ إن كنتم نسيتم أو تناسيتم كل ذلك فانكم لاشك ذاكرون وطنيتكم التى ليست إلا دروسا نقشت علي كل قلب يقول فرنسا !!

« إننا كلما وتقنا خروق سياسة حكومتكم ووطدنا العلائق بين أمتنا العزيزة وأمتكم الكريمة قام منكم من يجد الحياة فى وحدة فرنسا وعزلتها فيعمل على توسيع الخرق !

« إنك ياجناب المدير لو كنت تقرأ العربية لكنت بعثت إليك بنتف من سباب أذناب الانكليز ومأجوريهم ضد الوطنية والوطنيين لترى إلى أي حد تهان كرامة الوطن والوطنية فى بلادنا وإلى أي حد يغرى الاحتلال الدخلاء والمنافقين بهجو أمير البلاد ورئيسها الشرعى ؟ !

« ولو سألتنى ماذنب الامير وماعمله . لقلت لك إن ذنبه الوحيد فى نظر الانكليز أنه صديق جلالة السلطان ، المخلص له ، المطيع لاوامره ، المحترم لتبعيته ، بينما يريد الدهاء الانكليزى ضمه إليه حتى تضيع مصر (لاقدر الله)!

« هذا ما أكتبه لجنابكم اليوم وأرجو منكم أن تثقوا بصداقة المصريين ووطنيتهم الصادقة التي مبدؤها . « أحرار فى بلادنا كرماء

لضيوفنا » وأن تتفضلوا بقبول أجل اعتبارى واسمى احترامي

« مصطفى كامل »

نشرت جريدة لوريان هذا الكتاب وعلقت عليه بما تعريبه :

« نؤكد لمصطفى كامل ولكل مصرى أن مراسلنا لم يكن مأجورا ولم يكن إنكليزيا بل ربما كان عائشا فى وسط انكليزي وأننا ماقصدنا بنشر رسالته الحط من كرامة المصريين ولكننا رأيناهم لم يعترفوا للمحتلى بلادهم بعمل واحد نافع بل هم يهجونهم صباح مساء بكل قوة وشدة مع أن الضعيف المظلوم لايجد عادة حيلة لنجاحه في رفع الظلم عنه إلا بذكر العدل !

« نعم أننا عملنا عملا جليلا في مصر قبل الاحتلال الانكليزي ولكن خطأ السياسة كثير الوقوع ولا يطلب من أية حكومة مهما كان علو كعب أبنائها فى العلم وأساليب السياسة أن تتنزه عن السقوط فى الهفوات من أي نوع كانت .

« إننا نحب المصريين كثيرا ونميل إلي خلاصهم وعودتهم إلي التحلى بتاج الملك وجواهر العلم، ولكن لنصل إلى تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة

« إنا لاننكر أن أعمال « مصطفى كامل » كلها رزينة حكيمة لاتقل عن أعمال أي كبير ذكره التاريخ فى سبيل تحرير بلاده . وأن له فى بلاده عصبية تذكر بالاعجاب والاعظام وأنه من أبناء فرنسا فى العلم ، ولكن تنكر على غيره الشدة فى القول والحماقة فى الرأي ! !

ونرجو من مصطفى كامل واخوانه ألا يعتبروا جريدة لوريان كل الامة الفرنسية حتى لاتؤثر كلماتها فى العلاقة المتينة التى بين الامتين .. ! » اه

***

ماجاء أول مارس سنة ١٨٩٨ حتى ظهرت مقدمة كتاب المسئلة الشرقية باللغة التركية مترجمة أحسن ترجمة مفرغة فى أحسن قالب . وقد جاء للمترجم كتاب من من محمد بك حكمت أحد شعراء الأتراك واحرارهم قال فيه بمناسبة هذا العمل الجليل ماتعريبه :

«إن هذه اول مرة قرأت فيها مقدمة سياسية فى المسئلة الشرقية بقلم مصرى . وانه لولم يكن اسمك عليها لحكمت من فوري بأنها من قلم سياسى مسن محنك . ولكن لاعجب فأنت عظيم الشرق وطود سياسته .

«وقد كنت أود من صميم فؤادى أن اكون بجانبك لاقوم بترجمة كتابك برمته لان التواريخ التى عندنا قديمة وغير مباح لنا أن نقرأ أو نقرىء في مدارسنا شيئاً منها .

«ولقد حملت حملة منكرة على انكلترا ولك الحق فى ذلك لانها دولة المكر والخداع بالرغم من اعتقاد بعض إخواننا حسناً فيها .

«إنى أؤمل لمصر السعادة التى طالما سعي التاريخ لانالتها اياها ولكن سعيه كان يذهب أدراج الرياح .

«إذا كنت قدعزمت على أن تشرف فى هذا الصيف الاستانة فانبئني حتى أقدم لك شعرا تركيا تحية لهذه المقدمة البليغة العالية .

« ومع هذا أرسل لك كشفا باسماء الذين يجب أن ترسل اليهم هذه المقدمة الجميلة ليقفوا على الحقيقة التى طالما طواها غدر الزمان ولكن عدل الله لأعظم .

والسلام من أخيك محمد حكمت »

***

نشرت جريدة لاكوريرى الايطالية الشهيرة بعددها الصادر فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ حديثا للمترجم هذا نصه :

« قابل مكاتبنا الخصوصى « مصطفى كامل » الوطني المصرى المشهور بعدائه لانكلترا والذى يبذل جميع قواه سائلا لوادي النيل استقلالا وللمصريين أبناء الفراعنة حرية وعدلا . وقد تحادث معه فى شؤون جمة عن الحالة فى مصر . ولما كان حديث كهذا يفيد كثيرا أحرار الايطاليين الذين لهم بمصر أكبر علاقة رأينا أن ننشره برمته وهذا تعريب الحديث :

« ما هي آخر أمنية تريد أن تصل مصر إليها ؟

« — إن غاية أمانينا أن نرى مصر مصر العلم ، مصر الحرية ، مصر النعيم مرة أخري . . . لانها إذا كانت قد بلغت فى زمن من الازمان من سمو الحضارة والعلم

ما لم تبلغه أمة فى الوجود فقد كان ذلك من عمل أبنائها الاولين . ولما كنا نعتقد أننا من سلالة أولئك الذين نخر بهم التاريخ وعدوا فى زمنهم أساتذة العالم بذلنا كل ما فى وسعنا للتشبه بهم والنسج على منوالهم .

« ولما كانت العقبة الكأداء فى طريق رقينا هي احتلال انكلترا لبلدنا وإشرافها على إدارة مرافقنا اغتصابا، رأينا أن أول واجب علينا العمل صباح مساء لنشر الحقيقة فى العالمين حتى يتحول الذين ظنوا فينا السوء إلى أصدقاء يعطفون إلينا عطف العادل على المظلوم .

« إن الانكليز عقبة أمامنا أى عقبة ، لانهم طامعون والطامع لا يرتاح له بال ولا يكل له عزم إلا إذا استعمل كل الوسائل لتخدير اعصاب المطموع فيه حتى يسلبه علمه متى أراد ويغتصب منه داره ومتاعه متى شاء .

« فقد جاؤا إلى بلادنا مقسمين أغلظ الايمان قاطعين على أنفسهم المواثيق بألا يمكثوا فيه إلا ريثما يتممون العمل الذي دخلوا من أجله وهو توطيد العرش بنشر الامن ليأمن الدائنون علي ديونهم !

« ولكن ماذا عملوا ؟ انهم سلبوا العرش سلطته الشرعية وأخلوا بالامن في البلاد والقري بما نشروه من حرية كاذبة وخمور قتالة . وهؤلاء الدائنون لم يسدد من أصل ديونهم قرش واحد بعد ستة عشر عاما على الاحتلال وبعد أن كثرت الضرائب ونما إيراد الخزينة ! !

« إن الاوربيين المقيمين منهم فى مصر والبعيدين عنها يجهلون عام الجهل حالتنا السياسية الاقتصادية فهم لايقرؤن شيئا عنها وإذا قرؤوا فما يغشهم ويغير معالم الحقيقة أمام أبصارهم كتقرير اللورد كرومر . وعندي أن أحسن طريقة لسير الممالك الكبيرة سيراً عادلا مع الحكومات الصغيرة أن تنشر تقارير كافة الوكلاء السياسيين حتى يقف الرأى العام على الحقيقة بحذافيرها لانه لو كان الوكلاء السياسيون فى مصر ينشرون عنها تقارير سنوية سياسية اقتصادية لكان اللورد كرومر يتأدب في تقاريره ولا يصف الاحتلال بالملك الكريم والامة المصرية بالشيطان الرجيم . . .

« إن علة خذلان الامم الصغيرة التنافر القائم بين أفرادها وتخييم الجهل علي

ربوعها . وقد أدركنا هاتين النقطتين الاساسيتين فى رقى الامم والتففنا حول أميرناوها نحن أولاء مجدون فى نشر المدارس الاهلية لنبلغ بها مانريد من حضارة وعمران . . .

« نعم إنه لو كانت حكومتنا أهلية لجعلنا كل المنازل مدارس ولارسلنا الارسالات إلى أنحاء المعمورة ولعنينا بالاحوال الصحية لزداد عددنا ولوضعنا حدا لهذه الفوضى المالية التى يسمونها رقيا ويسرا ووفرنا نحو ثلث الخرج الذي يذهب سدى في موارد غالية أو فى تجربة يظهر بطلانها بعد أن تتكبد الخزانة العامة بسببها الآلاف من الجنيهات . . .

« إن الله لم يخلق أمة بليدة فى أرض طيبة لانه جل شأنه لم يكافىء البلداء والخاملين بل هو يحسن على الدوام إلى العاملين النابهين . فبلادنا من أخصب بلاد العالم تربة ومن أعدلها جوا وأحكمها موضعا وأيسرها طريقا ، والامة المصرية من أذكى أمم الارض عقلا ، وأحسنها معاملة ، وأقربها إلى الخير سبيلا ، ولذلك كانت حقيقة بأن تملك أرضها وتستمتع بخيراتها . . . .

« إن التاريخ قد سجل على الانكليز جنايات كثيرة ولم يسجل علينا إلى اليوم جناية واحدة . إنهم أقسموا وحنثوا ووعدوا وما أنجزوا وأخذوا وما أعطوا . كل ذلك علي مسمع من العالم وهم لا يخجلون .

« أما نحن فقد عاملنا الغريب معاملة القريب وأحسنا إلى من أساؤوا الينا وفتحنا ديارنا للنازلين بيننا وتمسكنا علي الدوام بمبدئنا « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » فقل لي بالله عليك أتوجد أمة كهذه الامة التى أعانت الفنيقيين ورحمت الاتيوبيين وكانت مقبرة الطاغين حتى جاءت جماعة تظلمها من الاوربيين ؟ ؟

« إننا لم نعول إلى الآن على الدم فى تحرير بلادنا بل عولنا وسنعول مادام فى الوجود إنصاف على القلم واللسان لنكون خدام الحقيقة واقفين أمام عهود الانكليز وقفة الساهر على مصلحته الراغب فى إصلاح حاله . واليوم الذى نرى فيه — ولعله لا يكون — آذان أوربا المتمدينة قد صمت عن سماع شكوانا وتلبية ندائنا نكون مضطرين إلى تغيير خطتنا والترقى فى اتخاذ وسائل أخرى فعالة أساسها الاعتماد على عقلنا ومالنا وساعدنا . .

« هناك تخرج الامة المصرية للعالم عملا من أعمال الامم المستميتة في التمسك بحقوقها في العالمين .

« هناك تندم أوربا وتقول ليتني سمعت ! ليتني فعلت ليتني أمددت أمة مظلومة سألتني نصرتها ورد حقوقها إليها.

« هناك تكتب الدماء البريئة « إننا لم نظلم أنفسنا ولكن الانسانية ظلمتنا فحاربناها لخلاص أمتنا من جورها وقدمنا أرواحنا فداء لها » .

« ليشهد العالم ذلك اليوم إذا دامت أوربا فى صمم وانكلترا فى تعد وافتيات ومصر فى عذاب أليم !

« فسأله المكاتب إن الانجليز يقولون إنك مهيج وإنك أفسدت على الطلبة أمرهم وقلبت حالهم من سكينة إلى ثوران ؟ »

« ـ ليقولوا ماشاؤوا فانهم أعداء ظاهرون ونحن أمة في ديارنا مهاجمون مسلوبون ! نعم أنا مهيج لانى أذكر الوطن ! بل مجرم لاني أقول بلادي ! بل سفاك لانى أشهر بالغاصبين ! بل أفاك لانى خاطب الحق ! ! ألا إننا فى زمن لا يستحي فيه معتد أثيم !

« كان الاجدر بهؤلاء الانسانيين أن يقولوا إني هائج لضياع الاستقلال ! لسرقة الاموال ! لقتل ذكاء الاطفال ! لتعس الحال ! للاخلاف فى العهود والاقوال !

« أمهيج أنا لان الطلاب اجتمعوا فى عيد سمو الامير ودعوني لحفلتهم فأجبت بكل ارتياح ؟ كيف يدعون أنهم مادخلوا مصر إلا لتوطيد عرش الخديوية حتى إذا ماالتفت الامة حوله قاموا يدعون أنا مهيجون ؟ ألم يكن فى هذا الادعاء مايثبت دعوانا من أنهم يكرهون كل متقرب من العرش وأنهم كاذبون فيما ادعوه عند احتلالهم هذه البلاد ؟ أيريدون أن نلتف حول الوكالة البريطانية والراية الانكليزية تاركين عرشنا ورايتنا ؟ أيريدون أن نتخذ الخصم حبيبا والسالب شريفا ؟ أننا لم نكن معتوهين الى هذا الحد حتى لانميز بين العدو والصديق والغريب والقريب ! !

« أمهيج أنا لاني أنشر فى الملأ تصرفات الانجليز السيئة فى بلادنا بينما كل منهم يحاسب حكومته بحق وبصوت عال على تصرفاتها الحسنة ويريد لها أن تبلغ حد الكمال ؟

« أمهيج أنا لاني مصري أحب وطني وعلى يميني وشمالي بيوت خربها الظلم ونفوس كادت تباع فى الاسواق ضحية الاهواء والغايات ؟

« أمهيج أنا لاني أعتقد أن الدولة العلية عضد مصر ومصر قلبها وأنه لاسلامة لكلتيهما مالم ترتبط بالاخرى وعلى الاخص مادام الاحتلال الانجليزى قائما فى مصر ؟

« أمهيج لاني أبكي نور العلم الذى كاد يرحل من ديارنا وحل محله الجهل الممقوت والظلام الحالك ؟

« أمهيج لاني وقفت على ماوصلت إليه الامم من الحضارة والعمران بهمة حكومتها الاهلية وأريد لبلاد أنسب إليها وأمة أنا أحد أبنائها تلك الحضارة وذلك العمران ؟

« أللهم ان كان المهيج فى نظركم من يوصى بالقريب خيرا ، ويحض على العلم واخراج العدو من دياره ، ونقل أمته من حضيض الذل والفاقة إلي أوج الشمم والسعادة ، فأنى أول المهيجين !

«دعهم يقولوا عنا ماشاؤوا فانهم أعداؤنا والعدو لايكون خصما وحكما ! !

— إنى أرى أنك محق فى كل ماقلته ولكن ألم يعمل الانكليز حسنة واحدة فى مصر يستحقون عليها ثناءكم ؟

— « إن مايسمونه حسنة أو حسنات لم يكن الغرض منه تقديم الثمرات إلينا بل إليهم وحدهم. فظاهرها لنا لانها تعمل باسم الحكومة الخديوية ولكنها فى الحقيقة لهم لانها لابنائهم ولادواتهم ولمصالحهم ؟

« إن المسئلة الوحيدة التي يمنون علينا بها هى مسئلة المالية وإنها لمسئلة واضحة ظاهرة . فالمالية المصرية ماكانت فى فوضى إلا فى آخر أيام الخديوى إسماعيل باشا ولكنها كانت فيما قبل ذلك حسنة سليمة . حتى كان الاقتصاديون يعدون حكومة مصر أول حكومة مالية لبعدها عن الدين والاستدانة . فهل ماطرأ على مصر من الارتباك المالى يدل على أنها لاتحسن التصرف فى ماليتها إلى الابد ؟وهل حكومات أوربا خلقت على هذا الرقي المالى وحافظت على محاسنه إلى اليوم؟ أما كانت انكلترا نفسها فى أكبر فوضى مالية فى القرن الثامن عشر ! ؟

« وإذا قال قائل أن زيادة الدخل فى ميزانية الحكومة يدل بصراحة على

تحسين النظام المالي نقول له مجاهرين بهذه الحقيقة ولو آلمت الكاذبين : إن زيادة الدخل لاتذكر عند الماليين إذا كانت تصرف كلها لانه على قدر الدخل كان الخرج ولكن يقال إن المالية المصرية تحسنت وانتقلت من أدوارها السيئة إلى النظام الكافل للبلاد سعادتها متى زاد الدخل على الخرج زيادة محسوسة يسد منها الدين شيئاً فشيأً ! ولكن هل هذه الزيادة التي تستنزفها النفقات العائدة إلى مصادر انكليزية مع بقاء الدين على ما هو عليه تعد عملا نافعاً وتحسيناً ماليا ؟

« ومع ذلك فان زيادة الدخل لاتعد من عمل الانكليز إلا فى أمر واحد وهو زيادة الضرائب على الاطيان والعقارات وأما بقية الزيادة فراجع الى زيادة عدد الامة الذى يستلزم زيادة التجارة والصناعة والمرافق وهومايزيد دخل مصالح الكمارك والبريد والتلغرافات والسكك الحديدية كما يزيد دخل المحاكم من كثرة احتكاك الناس فى معاملة بعضهم بعضا وكذلك نمو عدد الامة يقضى بأزدياد كمية الاراضى المزرعة وهذه الكمية الزائدة تطلب مجاري ترويها مما يضاعف عمل مصلحة الري . . !!

« هذه ياجناب المكاتب هى تعليلات تحسين ماليتنا من حيث زيادة الدخل! ولكن قل لى لماذا يزيد الخرج إذا كان عدد الموظفين المصريين فى وفرمستمر ؟ أليس لان نفقات المبانى الضخمة التى تستنزف جزأ كبيرا من الخرج يدخل جيوب أبناء التأميز ؟ وكذلك مرتبات الرؤساء الانكليز التى بلغت اليوم ٩٢٣ ألف جنيه في العام بعد أن كانت قبيل الاحتلال ٧٢٦٠ فقط . اليست هذه وغيرها هى التي ابتلعت الميزانية أصلا وفصلا . ؟؟؟

« هذا وأرجومنك أن تبلغ العالم الايطالى مصائبنا وتذكرهم بأن المعتدى الطامع الظالم لا يكون أبدا عادلا أومصلحا رحيما . » اه

بعد أن نشرت الجريدة الحديث قالت : « إن مكاتبنا متأثر للغاية من هذا الحديث وهو يقول إن « مصطفى كامل » يكاد يكون شعلة من الوطنية النضرة الطاهرة . وأن أمة هو أحد أبنائها لابد أن يكون فيها قلوب لو اتحدت لهزت العالم وأدركت — مهما طال الزمان — بغيتها »

ماجاء يوم الجمعة ٨ أبريل سنة ١٨٩٨ حتى ذاع فى الملأ نبأ انتصار الجنود

المصرية على الامير محمود بطل الدراويش في السودان وأكبر قادتهم وقد بعثت فى اليوم التالى (السبت ٩ منه) بتلغراف للمرحوم أعلمته فيه بالانتصار وبجودة صحتى فجاءنى منه كتاب قال فيه :

« إن أملي كبير في قرب لقائك لاقف منك على تفصيل مالقيته من المتاعب في جيش يخدم غيرنا .

« كتاب المسئلة الشرقية على وشك الانتهاء من الطبع وقد جاء كتابا لا أشك فى أنه سيسرك .

« طلبت منى المجلة الزراعية الايطالية أن أكتب اليها مقالة عن أحوال الفلاح المصرى فكتبتها وأرسلتها إليها منذ بضعة أيام وكل شيء سائر إلى الامام ولا ينقصنا غير وجودك . . . . . »

***

ورد على المرحوم كتاب من المسيو ريزر الجرى الشهير مدير جريدة البستر لويد قال له فيه :

« لم أكتب إليك من زمن لكثرة أشغالي ولوقوفي على انبائك واعمالك. فأرجو منك الصفح عني وأن تتفضل بشرح هذه المسائل السبع التى أنا فى حاجة إلى معرفتها وهي :

أولا — عدد المدارس التى زادتها الحكومة المصرية فى مدة الاحتلال

ثانيا — عدد طلاب الارسالية المصرية الاوربية فى كل عام

ثالثا — عدد الموظفين الاوربين فى الحكومة المصرية قبل الاحتلال واليوم

رابعا — ماهي ثروة البلاد الحقيقية وكم تبلغ ديون الاهالي

خامسا — ماهي حالة الصناعة الاهلية ؟

سادسا — ماهي قوة التجارة الوطنية ؟

سابعا كيف كان استعدد الامة المصرية فى الحكم النيابى البرلماني الذى حصلت عليه في سنة ١٨٨١ ؟

هذا وأملي أن أراك في صيف هذا العام ببودابست فانى فى شوق عظيم إليك

« وتفضل بقبول فائق احترام المخلص ه. ريزر »

بودابست فى ٧ أبريل سنة ١٨٩٨

فاجابه المترجم بما تعريبه :

«القاهرة فى ١٧ أبريل سنة ١٨٩٨

« صديقي العزيز

تلقيت بيد السرور والارتياح كتابك الكريم وقد سررت جدا للاسئلة التى تفضلت واخترتنى للاجابة عنها

أولا — إن حكومة الأحتلال لم تزد مدرسة واحدة على المدارس التى كانت موجودة فى البلاد قبل عام ١٨٨٢ . فأنه كان فى مصر مدارس للحكومة وأخرى لاوقاف المسلمين فأصبحت اليوم كلها تحت كنف الحكومة وأنك ربما تدهش عند ما أقول لك إن الاحتلال ألغى مدارس كانت قبله فى مصر زاهية مزهرة فقد الغى مدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة الآثار المصرية ومدرسة الخرس والعمي ولا يبعد أن يلغى غدا مدرسة الطب بحجة وجود أطباء كثيرين من اليونانيين والأرمن والسوريين وغيرهم أو بحجة أن جو مصر معتدل جميل لا يحتاج إلى صناعة الطب !!

« إني أذكر من بين المعاهد العلمية هذا المعهد لأنه من آثار السلف الصالح سواء أكان وطنيا أم فرنسيا ولان على أبوابه كتبت آيات الفخار العلمى من زمن بعيد ! إنى أذكره والدمع يجول فى عيني فبعد أن كانت غرف التدريس فيه ملأى بابناء البلاد أصبح محط رحال عشرة أو عشرين طالبا لشدة مضايقة رجال الانكليز لطلابه وللأوامر التى لا تطاق

والنظام الذى هو جدير بتلاميذ الـكتاتيب !!.

« ثانيا — إنه يكاد يجمد المداد عند محاولتى شرح حالة البعثة المصرية تلك البعثة التى كانت زهرة مصر وعنوان ذكاء أبنائها ومحط آمالها وواسطة التعارف بيننا وبين العلم العصري ، والتى كانت تذكر فى مقدمة بعثات العالم الراقي والحكومات الأهلية البارة بابنائها .

« كان في مصر إرسالية لاتقل عن ٤٠ طالبا سنويا يرجع تاريخها إلى عهد « محمد على الكبير » مؤسس البيت الحاكم واستمرت من راق الي أرقى حتى نهاية حكم الخديوى اسماعيل باشا وأوائل حكم الخديوي توفيق باشا حتى دخل الاحتلال الانكليزى مصر وحاول المرة بعد المرة أن يلغيها فلم يستطع لان المراقبة كانت عليه شديدة من جميع الممالك ولكن المستشار الانكليزى المالي ألغاها فى سنة ١٨٩٥ بحجة أن الحكومة لاتريد من مدارسها الا موظفين والتعليم فى مصر كاف لحاجة هؤلاء الموظفين من العلم ومن أراد أن يتفقه فيه فليبذل فى سبيله من ماله .

« هذه هى الارسالية وهذا تاريخها الذى انتهى بألا يتعلم مصري اليوم في أوربا على نفقة حكومته أوبعبارة أخرى على نفقة أمته !

« ثالثا — إن عدد الموظفين الاوربيين قد كان قبل الاحتلال لايذكر بجانب عدده اليوم فقدكان على ماعلمت من الواقفين على هذه المسائل مائة وسبعة وثمانين موظفا منهم ثلاثة وثمانون فرنسيا وأربعة وخمسون إيطاليا وثلاثة عشر انكليزيا والباقون من أجناس مختلفة ولكنهم اليوم ٩٧٣ أوربيا منهم ٨٩٣ إنكليزيا أما مرتباتهم فقد كانت قبل الاحتلال نحو ٨٠٠٠ جنيه فأصبحت نحو ٩٠٠٠٠٠ جنيه !!

« رابعا — إن البلاد غنية جدا ومايصلح من أرضها للزارعة يقدر بنحو ثلاثة ملايين هكتار مربع (أى نحو سبعة ملايين من الفدن). المزروع منه الآن نحو مليونى هكتار مربع تقدر قيمتها بنصف مليار من الجنيهات الانكليزية وكذلك العقارات فأنها تقدر بخمسين مليون من الجنيهات .

« أما ديون الاهالي فأنها تبلغ ٢٥ مليون جنيه

« ولمناسبة ذكر هذه الديون اؤكد لك أن ديون الاهالى ما كانت تتجاوز سبعة ملايين من الجنيهات عند احتلال الانكليز مصر وسبب زيادة هذه الديون راجع إلى المضاربات التى روجت انكلترا سوقها بمصر وإلى نشر الرذائل فى البلاد وغيرها من أمراض المدنية الاوربية !!

« خامسا . ان الصناعة الاهلية كادت تكون اليوم معدومة بعد أن كانت سوقها فى الماضى رائجة . فأنه عند ما ارتقى « محمد على » عرش مصر أخذ يحيي موات الصناعة فأنشأ المصانع والمعامل وجاء فى عصره يوم علي مصر صنعت فيه الجوخ والصوف والكتان وخيوط الغزل والسكر والصابون وغيرها كثير . . . وكان جيش الصناع عزيز اللغاية . ولكن الانكليز رأوا أن من مصلحتهم قتل كل صناعة داخل مصر حتى لا يكون فى وجودها مزاحمة للصناعة الانكليزية ! فهم مثلا لا يشجعون بيننا صناعة الغزل ولا صناعة الجلود ولا غيرها لأنها إن شجعت نافست صناعتها وبالجملة فان حياة انكلترا فى مصر تقوم على استقلالنا وحياتنا كذلك لا تقوم الا علي انجلائها والحكم العدل بيننا وبينها أوربا إن عدلت وأنفسنا إن اتحدت!

سادسا — ان التجارة الوطنية لا تقوم قائمتها ولا يتسع نطاقها إلا إذا كانت المصانع الاهلية فى رواج . ولما كانت الصناعة المصرية اليوم أشد

بؤسا من شقاء مصر أمام الاحتلال فكذلك التجارة الوطنية لا تذكر في جانب هذا الاعدام المستمر !

« أما اذا كان غرضك مما سألت عنه حالة التجار الوطنيين فأنى أبشرك بأنهم أخذوا ينافسون التجار الأجانب بكل الوسائل وأن المصريين جميعا قد أدركوا ضرورة معاملة إخوانهم التجار الوطنيين حتى يتسع نطاق محالهم التجارية مما يؤهلهم لانشاء مصانع كبيرة داخل البلاد فى المستقبل !

« سابقا – عند ما انشىء مجلس النواب فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ كانت الأمة غير مستعدة استعدادها الحاضر ولكنها كانت مدركة بما كان لديها من كبار الرجال الوطنيين مركزها ولولا خطأ رجال العسكرية الشائن لكانت مصر اليوم فى بحبوحة من الرفاهية والسعادة وكان أهلها أحرارا وضيوفها مكرومين ! وأني أؤكد لك أن الامة المصرية اليوم أرقي من الصرب ورومانيا والجبل الاسود ولا ينقصها إلا حكومة أهلية تسير معها كتفا لكتف فى طريق الرقى والفلاح على الاساليب النيابية الحديثة

« هذه هي أجوبتى عن أسئلتك ولو كان عندي متسع من الوقت لأفضت فى الشرح ، ولكنى أسألك العذر فانى أباشر طبع كتاب وضعته فى المسئلة الشرقية وأملى أن ينتهي بعد أسبوع

« وفى الختام أرجو منك أن تتفضل بقبول أجل احترام واسمى اعتبار

المخلص

« مصطفى كامل »

وقد نشرت هذه الجريدة رد المرحوم بعد أن كتبت من عنديا تها ماتعريبه « قدمنا للقراء فى العام الفائت شيئا مما كتبه إلينا الوطني المصرى « مصطفى كامل »

وقد رأينا بمناسبة المناقشات الحاضرة أن نسأله رأيه فى عدة مسائل تنحصر فى الحالة العلمية الاقتصادية النيابية في مصر فتفضل علينا بالرد الذى ننشره هنا بكل سرور مثنين على همة هذا الوطنى العظيم وأننا نستميح قراءنا الاذن فى أن نفرد لكل موضوع من هذه المواضيع التى كشف مصطفى كامل عن حقيقتها الغطاء فصلا خاصا خدمة لامة رفعها التاريخ وأسقطتها حكومة جلالة الملكة بمراوغة رجالها واخلافهم عهود الشرف والتاج »

⁂

كتب الي رحمه الله خطابا في ٢٣ ابريل سنة ١٨٩٨ قال فيه :

« أخي الاعز حرسه الله

بعد التحية والتسليم والاعراب عن شوق عظيم أبشرك بأن كتاب المسألة الشرقية قد انتهى طبعه اليوم وسيوزع على المشتركين فيه غدا وأملي أن يكون الاقبال عليه عظيما كمجموعة أعمالى فى عام ، لأنه جاء والحمد لله وافيا بالغرض . ولا أخفى عليك أني ما كنت أظن مع ضعف صحتي عند البدء بالعمل فيه أن أصل إلى هذه النتيجة من وضعه ومن حسن صحتي التي تسرك .

« وكنت أود أن أرسل إليك أول نسخه تصدر ولكنى آمل أن تحضر قريبا كما وعدت لتقرأه فى مصر .

« إن الدسائس بين مصر والاستانة كثيرة والانكليز يعملون ليل نهار ليقطعوا صلة الود التى بين الخديوى والسلطان ولكنهم لايفلحون .

« إنه يسرنى كثيرا اطلاع إخواننا الضباط على كتاب المسئلة الشرقية ليعرفوا كيف يستفيد الانكليز من الحوادث التى تروج فى الغالب أطماعهم بين الامم الطاهرة المستقيمة المخلصة .

« متى قمت إلى مصر فأرسل تلغرافا بعنوان خالنا العزيز فأنى سأقصده لاقضي عنده فى ذلك الجو الزراعى الجميل أياما أستريح فيها من عناء العمل حتي أعود إلى مصر للقائك

حفظك الله لاخيك المخلص « مصطفى كامل »

* * *

ما انتهى المترجم من إتمام كتاب المسألة الشرقية وطبعه حتى استأنف جهاده فى خدمة البلاد والامة بحمية أشد من حميته الاولى وعزم لاتزعزعه الحوادث ولا ترده عوادى الدهر .

ولقد نلت أجازة فى أواسط شهر أبريل سنة ١٨٩٨ بعد واقعة عطبرة (واقعة الجيش المصرى مع الامير محمود) وما وصلت إلى القاهرة حتي كاد المرحوم يطير فرحا للقياي اذ كان أول لقاء لنا بعد حادث الجيش الذى أتيت على تفصيله وقد قضينا نحو شهر فى سرور وصفاء ثم عدت إلى السودان وبودى ألا أفارقه لاساعده فى عمله الوطني الكبير .

أما هو فقد برح الثغر الاسكندرى فى يوم الجمعة ٢٤ يونيه علي إحدى باخرات الشركة الفرنسية إلى أوربا ليواصل الجهاد السياسى .

وما وصل إلى باريس حتي وقف علي خطبة القاها اللورد سالسبري رئيس الوزارة الانكليزية بسبب فشله في سياسته بالصين إذ قال فيها تعريضا بالهند ومصر « إن انكلترا لم تعمل السيف فى الصين كما أعملته فى الهند ومصر » . فقام رحمه الله من فوره ورد علي اللورد سالسبرى بكتاب هذا تعريبه .

« باريس فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٨

« الي جناب اللورد سالسبري

« إطلعت فى الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن انكلترا قد فتحت مصر بالسيف . والوجدان الابي يتجافى عن زعم كهذا والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد مالديهم من الحزم و العزم

فأن بلادكم لم تفتح بلادنا واني أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الأدعاء.
إن انكلترا لم تكن في حرب لمصر في عام ١٨٨٢ بل هي تدخلت في حوادثها تدخلا وديا لتأييد عرش الخديويه! فهل يليق بها وهي على ماتدعي أمة متمدينة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها في مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف! وإلا كان معنى هذه الكلمات « شرف وتمدين وانسانية » في عرفك ياجناب اللورد استعباد الامم الواثقة بالتمدين. ألست القائل في عام ١٨٨٦ « لنحترم وعودنا المقدسة ولنجلى عن مصر »؟ ألست القائل في شهر نوفمبر من عام ١٨٨٦ للمسيو وادنجتون « أن بني قومكم يكونون في ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث في مصر إلى ماشاء الله. فنحن لانبحث إلا عن الوسائل التي نخرج بها من مصر بشرف وكرامة »؟ أم لستم أنتم الذين لفظتم في البرلمان يوم ١٠ يونيو سنة ١٨٨٧ هذه العبارة: « لايسوغ لنا أن نأخذ على عاتقنا حماية مصر... حتى على فرض أن عملا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية ومصالح بلادنا »؟ أم لستم أنتم الذين قلتم وكررتم القول في شهر أغسطس سنة ١٨٨٩: « إن التصريح باقامة انكلترا على الدوام في مصر دليل على قلة احترام العهود المقدمة التي ارتبطت بها حكومة الملكة والتي يجب علينا الأذعان لها »؟

« فاذا كنتم ياجناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة فأنه ينبغي لكم أن تذكروا بأنكم قلتم في إحدى خطبكم الاخيرة « إن انحطاط الأمم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها

وشراهتها » !!

« ولا يغيبن عن البال أن مصر التى كانت فى جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية فأنها لامحالة ستكون كذلك فى المستقبل ولا يمكن أن تنجو انكلترا من هذا المصير اذا أصرت على احتلال بلادنا . لانكم اذا كنتم تعتبرون أن أرادة انكلترا فوق أرادة أوربا فانه لا بد أن يأتي يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انكلترا العظيمة القادرة . . . وربما هززتم كتفيكم ياحضرة اللورد حين قراءة هذا الكتاب ، ولكن كل انكليزي يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحي بعد قراءته « مصطفى كامل »

وبعد أن نشرت هذا الكتاب جريدة الانترانسيجان الفرنسية علق عليه مديرها المسيو رشفور بقلمه فقال :

« إن الذى يغلب على الظن أن هذا الكتاب المفعم بسالة وشهامة لايمكن أن يؤثر فى نفس اللورد سالسبري فلا يعبأ به . وما مثل انجلترا إزاء مصر إلا مثل مدين سيء النية ينكر إمضاءه ويجحد توقيعه ، ومع ذلك فان عميد وزارة خارجية انكلترا لديه الآن عبرة وعظة يجمله يعتبر ويفطن إلي عدم ثبات الاملاك التي تؤخذ بالقوة والقسر وهذه مسئلة كوبا فكما أن الكوبيين ساعون الآن إلى خلاص بلادهم من عبودية اسبانيا وظلمها الذى لايحتمل ولا يطاق ، فكذلك نعتقد يقينا أنه يأتى يوم تصبح فيه انكلترا بالرغم من كل قوتها وجبروتها غير قادرة على اطفاء جذوة الوطنية المصرية وإخماد أنفاسها وفي ذلك اليوم يأسف رجال انكلترا لكونهم مع اصغائهم لكلام « مصطفى كامل » وحملاته الشديدة عليهم لم يدفعوا عن بلادهم عار هزيمة يصفق لها طربا دون شك جميع أولئك الذين يدافعون فى سبيل استقلال الشعوب المظلومة والامم المهضومة الحقوق »

* * *

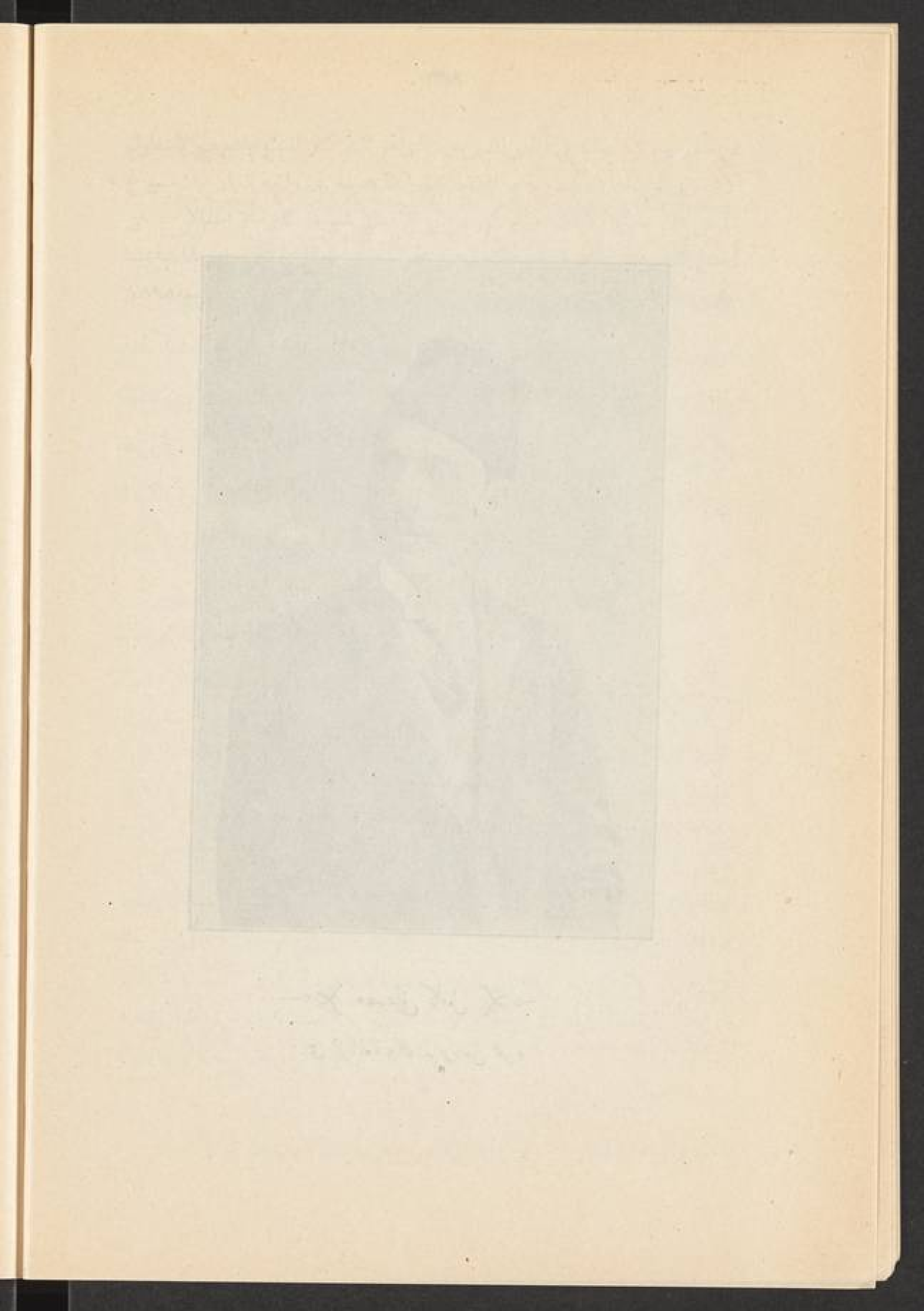
وبعد أن كتب عدة مقالات في الصحف الاوربية وحادث جريدة لكلير الفرنسية

عن تأثير يوم ١١ يوليه في أنفس المصريين الذي هو التذكار المشئوم لضرب الاسطول الانجليزي لمدينة الاسكندرية واعتداء انجلترا المتمدينة في رائعة النهار بلا مسوغ شرعي على حياة الأناث والذكور من بني الانسان شيوخا كانوا أو أطفالا — من أنفس المصريين... ألقى في اليوم الاول من شهر سبتمبر خطابة بمدينة باريس لمناسبة عيد جلوس خليفة المسلمين... ثم عاد إلى مصر فوصل إليها في يوم الاحد ١٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨



مصطفى كامل

فى الرابعة والعشرين من عمره



وقد تولى رحمه الله إدارة تحرير جريدة المؤيد إذ سافر صاحبها المرحوم الشيخ على يوسف إلى الاستانة قياما بواجب الصداقة التى كانت بينهما إذ ذاك وتأدية لخدمة وطنية . فكتب فيها عدة مقالات فى التعليم وفى السياسة الخارجية وفى التربية الوطنية وفي الادواء الخلقية المنتشرة فى البلاد إلى غيرها مما سننشره فى مكانه من هذه السيرة . .

وكتب إلي فى هذه الاثناء خطابا قال فيه :

« .... إن الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسئلة فاشودة وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلاداً أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم . ولكنى ثابت علي خطتى حتي الممات لان اعتقادي أن ثمر الدفاع إن لم يجنه المدافع الاول أو الثاني فلسوف يجنيه مصرى علي مدى الايام وأننا إذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فأننا علي الاقل نضع الحجر الاول لمن يبنى بعدنا . . .

«قلقت كثيراً لعدم ورود أنباء من جهتك فأرجو منك أن تطمئننى بمجرد وصول هذا اليك ولو تلغرافيا ودمت لاخيك . . . . . »

وقد كان سبب عدم مواصلته بالجوابات المطمئنة اصابتى بمرض التيفود الذى نزلت بسببه إلى مصر وقضيت نحو شهر بالمستشفي الحربى بالعباسية واستقلت بعد الشفاء من خدمة الجيش علي ماتقدم ذكره

وفى مساء يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨ ألقى خطبة وطنية بالتياترو الطلياني بالقاهرة وقد كان الزحام شديدا للغاية . وهذه الخطبة كانت أولي خطبه السياسية الكبيرة فى عاصمة البلاد ...

هلت سنة ١٨٩٩ والمترجم فى أجمل ثوب من الصحة والعافية تبتسم له الآمال كبيرة وينتظر من الزمان تحقيقها وقد كان أكثر همه فى ذلك الوقت مصروفا إلى حض الأمة على نشر العلوم والمعارف فى ارجاء البلاد

وكنا نسكن بيتاً بشارع محمد على فى جوار منزل المرحوم حسين قره جوللى بك

أحد كبار وجهاء البلاد الذى كان أسس وقتئذ مدرسة فى قطعة كبيرة من منزله وقد أقام لافتتاحها احتفالا فخما فى سراى الحلمية فى يوم عيد الجلوس الخديوي فأم هذا الاحتفال كثير من الامراء والعظماء وكبار الموظفين وأساتذة المدارس حتى ضاق بهم المكان على اتساعه وما أذنت ساعة الافتتاح حتى وقف صاحب المشروع وشكر للحاضرين تلبيتهم دعوته إلى حضور الاحتفال وشرح مادفعه إلي تأسيس هذا المعهد الجليل ثم دعا المرحوم للخطابة فوقف رحمه الله وألقى كلمة هذا نصها :

« أيها السادة :

« إنى مهما شكرت لصديقى الهمام حسين بك قره جوللى عمله هذا فلن أستطيع توفيته حقه من الشكران لانه أول من استجاب دعوتي إلى النهضة العلمية وأول من لبى فى هذه البلاد نداء وجدانه الطاهر الشريف . ولئن قصرنا في مديحه والثناء عليه فلسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل مادام هذا العمل المبارك قائما يبعث النور إلى العقول وغذاء التربية السليمة إلي النفوس .

« أجل . أيها السادة : إن لكل محسن فى هذه السبيل أجراً لاقدرة لخطيب مهما كان قوي البيان شريف الوجدان أن يصفه . لانه محيي النفوس ، مضيء الطريق باعث الرشاد ، وليس عند الله أبر من رجل يبحث عن دفائن الذكاء فيخرجها للناس زاهية زاهرة تنصر الحق وترفع للبلاد لواءها وتأخذ بيد الامة فى الطريق السوى طريق الفلاح والسداد .

« إننا أيها السادة بشر كـكل البشر لنا تاريخ يجب أن نقف على أسراره ومجد قديم من العار أن ننسل منه وهو تاجنا وعلم شرفنا ومحط آمالنا . إن الفرق بين هذه الامة وكل الامم هو فرق معنوي لايزول إلا بنشر العلم . وأن كل حجر يوضع فى هذه السبيل البرة يساوى كنوز الارض من ذهب وفضة . فانهجوا منهج المؤسس ليكون بيننا آلاف من المدارس لامدرسة واحدة فنعيد دارس مجدنا ونأخذ المكان اللائق بمصرنا بين الامصار والبلدان .

« إن احتفالنا اليوم فى دار عباس الاول وفى عصر عباس الثانى بتشييد دور للعلم يعيد إلي الذاكرة تاريخنا القديم ذلك التاريخ الآهل بالعظمة وقوة السلطان . الحافل بأساطيل البحر وجيوش البر ودور العلم ومعامل الصناعة وكل مظاهر القوة

والجلال . يذكرنا بأن الحكومة الاهلية وإن أساءت لخير من ألف حكومة أجنبية وإن أحسنت. يذكرنا بأن الامة المصرية أمة اكتشف فيها التاريخ معدنا من أثمن المعادن قدراً وأسماها منزلة ألا وهو معدن الذكاء . ألم يحكم « محمدعلي العظيم » هذه الامة وهي لاتعرف من العلوم العصرية أسماءها فأخرج منها أطواداً فى كل علم وفن كما اتخذ من أذرع أبنائها دروعا أعجب بها العالم بأسره .

« نعم كان هذا شأن « محمد على » وفى ذلك برهان أن الامة المصرية لاينقصها إلا قادة خير حتى تذكر بين الامم الراقية بالتجلة والاحترام .

« لقد رأينا أمم الغرب تطلب المزيد من العلم كلما قطعت من أدواره الشيء الكثير لان العلم لاحدله ومن الظلم البين أن تقف الحكومة بينه وبين الامة حباً في جهلها والتلاعب بمصالحها . رأينا القراءة والكتابة بين أمم الغرب تكاد تكون عامة لانها عندهم من لوازم الانسان ولكنها عندنا فى نظر هذه الحكومة الاحتلالية عيب شائن وإثم كبير . رأينا الجرائد فى الغرب إذا نادت الامة إلى عمل نافع أسرعت هذه إلي تلبيته وما ذلك إلا لانها تدرك العمل بما كسبته من علم وما أضاء بصائر أبنائها من نور .

« فعليكم بالعلم فانه متى انتشر لايطفأ وفى سنائه يختفي كل ظل للاستبداد لان الاستبداد ليس إلا لصاً يعتدي على حقوق الامم في ظلام الجهل الحالك فيسلبها اموالها ويغلبها على أمرها ويتركها مستذلة حائرة لاتعرف لها حالا تسير عليه بين الامم المستقلة !

« إن الرجل الذى يسرق فرداً يعرف كلنا عقابه ، ولكن الرجل الذي لم يبق على أمة بأسرها يلتمس له المنافقون والخائنون والذين دخلوا بين الامم كما يدخل السم في الدسم عذراً بل ويبررون عمله ! وقد دخل الاحتلال بيننا ليسلبنا متاعنا ومعه أبواق تصيح فينا : « ان متاعكم بال وليس غرض الاحتلال إلا أن يعيده إليكم أنضر وأعظم مما كان » !

هذه صيحتهم وهذا بهتانهم ونحن أمام هذا الاستقلال المسلوب لانريد إلا أسلحة معنوية ندافع بها عن أنفسنا حتي نسترده وليس ثم سلاح أمضى وأحد من سلاح العلم ! فالعلم وحده خير سلاح للامم التى غدر بها الزمان فساق الاجنبى إلى احتلال المكان واستخدام السكان !

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

« فالانجليز متعامون وأكثرنا جاهلون وحكومتنا مستسلمة جامدة فليس أمامنا إلا أعيان الامة ووجهاؤها وخيرة أبنائها ليقيموا للعلم مناره فتتبدد دولة الجهل ويقف المغتال عند حده .

« إنى أيها السادة وأنا واحد منكم لا أستطيع أن أكيف لكم مبلغ سروري من هذا العمل الكبير الذي أراه حلقة ستتبعها بمشيئة الله حلقات كلها يسر وبر بالفقير والبائس . وأنى لا أقصد بالفقير معدم المال وباليتيم المحروم من أبويه وبالبائس ذا الخصاصة . كلا فان هؤلاء جميعاً تجمعهم كلمة « جاهل » ، هذه الكلمة التى لا يصح أن تكون في هذا الزمان وصفاً لبني الانسان . هذا الزمان الذى بلغت فيه الاختراعات مبلغاً كبيراً ، وأخذ فيه العلم مكاناً رفيعاً ، عند أقوام كانوا فى سالف الايام إذا ذكروا في جانب المصريين ذكر الجهل فى جوار العلم ، والضعف فى جانب القوة ، والسقوط أمام السمو والرفعة وكبر الجاه وعزة السلطان !

« نعم إن أملنا كاد يتحقق . فان صديقي حسين بك لم يكن إلا رجلا من أولئك الرجال الذين شعروا بأن عليهم واجباً نحو أمتهم فبروا بها بما وهبهم الله من نعمته . وأن بلاداً كبلادنا فيها الكثير من أمثاله لابد أن تقوم فيها هذه النهضة المباركة وأول الغيث قطر ثم ينهمر .

« وكأني أسمع صوتاً ينادينى « ألا قف أيها الخطيب قليلا فان أغنياء البلاد يعدون أنفسهم غرباء عن مصر وأنهم لا يجدون السعادة إلا فى تعس الفقراء وفى التزلف للكبراء . فلا يخدعنك ما فعله قره جولى بك ولا تؤمل منهم خيراً فان الامل فيهم ضائع »

« ألا إنه صوت اليائس القانط ! ونحن لا نعرف اليأس ولا القنوط فان الاغنياء ليسوا فى سعة من العيش وراحة من البال إلا بالفقراء فصاحب المزرعة لا يأخذ من أرضه ذهباً إلا بفأس الفقير وقوة ساعده . وما لنا نذهب بعيداً وهذه السراى العالية البنيان المشيدة الاركان لم تقم إلا بالفقراء .

« فالفقراء هم قوة الامة وساعدها العامل وهم الذين يحملون الاغنياء على أكتافهم فان أخلوا بهم يوماً أسقطوهم إلى أسفل سافلين .

« فواجب الاغنياء أن ينشروا المصابيح بين الفقراء لتنكشف أمامهم الحقيقة

ويسيروا وأيامهم في طريق السلامة والسلام . وكل من سار على الدرب وصل .

« لاينقصنا أيها السادة إلا قوة الارادة ، فهي السلاح الماضي الذي يقطع كل عقبة في طريق رقينا . فهذه الارادة الوطنية القوية هي التي أخرجت وستخرج أمثال هذا العمل النافع . وبهذه الوطنية وحدها التي أساسها قوة الشعور وبناؤها الاعتماد على الخالق قطعت أمم الغرب طريقاً طويلا من العلم والعرفان . بهذه الوطنية التي لاتسكن قلبا الا اضاءته ولا بيتا إلاأعلته ولا بلداً إلا أسعدته ولا نفسا إلا دفعت بصاحبها إلى جلائل الاعمال عرف الغربيون كيف يتآزرون وعلى عمل البر يتعاونون . فقد أسسوا المدارس على أساس هذه الوطنية فأخرجت مدارك شيدت المستشفيات وبيوت العجزة ودور الصناعة فبلغوا بها مجدا نحسدهم اليوم عليه وننظر إلي قوتهم باهتين .

« لاتعجبوا أيها السادة من أن الله لم يتح لهذة الحقيقة حقيقة الرقي من طريق نشر العلم من ينصرها في مواطنينا فى هذا العصر غير هذا الشهم الكريم ولكن الذي تعجبون منه أنه مع ضغط الزمان علينا وانتشار الدخلاء بيننا ابتدأنا نشيد مدارس ونقيم للعلم صروحاً عالية .

« فاغنم أيها المحتفل العظيم والمؤسس الكبير هذا المجد الذي سيذكره لك التاريخ مادام عملك قائما . وإن حييناك فانما نحيي فيك الشهامة النادرة والذكر العطر لتكون مثلا حسناً يقتدي بك كل ساع فى نشر العلم والله نصير العاملين » اه

ما انتهى المترجم من كلماته حتى دوى المكان بالتصفيق الحاد وأصوات الاستحسان وأخذ كل حاضر يهنئه ببلاغته وقوة بيانه ومتانة أسلوبه وسرعة خاطره .

وقد استمر الاحتفال إلي منتصف الليل. إذ القى كلمة أخرى صغيرة إجابة لطلب الحاضرين وقد حض فيها على نشر العلم والاقتداء بالامم الراقية والسلف الصالح مع ضرب الامثال المؤثرة مما كان له أحسن وقع فى النفوس .

اتفاقية السودان

ماجاء يوم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الذى هو من أشأم الايام فى تاريخ الوزارة المصرية حتى انتشر نبأ عقد الشركة المصرية الانكليزية فى السودان فقضى الوطنيون ليلة من أسوأ الليالى وندبوا حظ بلادهم وأموالهم ودماء آبائهم وأبنائهم .

أمضى هذه الاتفاقية بطرس غالي باشا بالنيابة عن الحكومة المصرية باعتباره ناظر خارجيتها واللورد كرومر بالنيابة عن حكومة بريطانيا ولما كانت نصوص هذه الاتفاقية تهم كل مصرى رأيت أن أثبتها هنا وهذا نصها :

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الانكليز

(وحكومة الجناب العالي خديوى مصر)

بشأن ادارة السودان فى المستقبل

« حيث إن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالى الخديوى .

« وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليه الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن وماتستلزمه حالة كل جهة من الاحتياطات المتنوعة .

« وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانوني الآنف ذكره وفى اجراء وتنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل .

« وحيث تراآي من جملة وجوه أولوية الحاق وادى خلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لها .

« فكذلك قدصار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بمالهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على مايأتى وهو :

المادة الأولى

« تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق علي جميع الاراضى الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

أولا — الاراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية من سنة ١٨٨٢ ؛ أو

ثانياً — الاراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد ، أو

ثالثاً — الاراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً .

المادة الثانية

يستعمل العلم البريطاني والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع انحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط

المادة الثالثة

تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضا الحكومة البريطانية

المادة الرابعة

القانون وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز أن يسري مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة . وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوي

المادة الخامسة

لا يسري على السودان أو على جزء منه شيء من القوانين أو الاوامر العالية

او القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا إلا مايصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

المادة السادسة

المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوربيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

المادة السابعة

لاتدفع رسوم الواردات الآتية من الاراضى المصرية حين دخولها إلى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة علي البضائع القادمة من غير الاراضى المصرية إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية مينة أخرى من مواني ساحل البحر الاحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

المادة الثامنة

فيما عدا مدن سواكن لاتمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولايعترف بها فيه بوجه من الوجوه

المادة التاسعة

يعتبر السودان باجمعه ماعدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

المادة العاشرة

لايجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أومأمورى قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

المادة الحادية عشرة

ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراآت اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

— المادة الثانية عشرة —

قدحصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والزخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها

تحريراً بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضاآت (كرومر) (بطرس غالى)

***

وقد كتب المترجم على أثر نشر هذا الاتفاق الباطل إلى جريدة الجولوا الفرنسية خطابا نشرته فى ٦ فبراير هذا تعريبه :

« جناب المدير المحترم

« إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على عدم مراعاة أوربا للعهود والمؤتمرات الشيء الذى يعتبره المصريون جميعاً باطلا لانه مخالف للنظامات الاوربية والقوانين الدولية . فانه أولا ليس لحكومة مصر أى حق في عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية لانها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة إلى خديوى مصر . وإذا قال قائل إن السودان سلخ من مصر بقرار وزارى أو بأمر عال فى سنة ١٨٨٤ وأصبح السودان خارجاً عن أملاك مصر ولا يصح أن تطبق عليه نصوص الفرمانات السلطانية فأننا وكل المقنين نعتبر هذا السلخ غير قانونى لان نصوص الفرمانات صريحة بأن ليس لمصر الحق فى التنزل أو إبعاد أي جزء من

أجزائها عنها بارادتها . إذا فالسلخ غير جائز وعقد الشركة عمل باطل وفيه اعتداء صريح من انسكلترا المحتلة البلاد .

« ثم ألم تصرح اتفاقية « ترابيا » التي كانت إنجلترا فى مقدمة الدول الست التي وقعت عليها بأنهن يتكاتفن فى المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لاحداهن مبرة علي الاخرى وأن لايجوز لاية واحدة منهن أن تبيح لنفسها امتلاك شبر من الاراضى المصرية

« عارضت الحكومة الفرنسية فى قرض تجريدة السودان وقد كان حكم المحاكم المختلطة وهى الممثلة لجميع الدول موافقاً لرأيها فجاءت انجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت اليه من المال (١) ثم ماذا جرى بعد ذلك ؟ أدخل الانجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا فى العير ولا فى النفير ليبرروا هذه النتيجة السيئة التي ليست فى نظرنا إلا اغتيالا للحقوق القومية فى رائعة النهار وسرقة على مشهد من الامم جمعاء .

« إن العساكر الانجليزية اشتركت إسما فى حملة دنقلة ليبرر الانجليز هذا العمل بعد أن صرح سواسهم أمام العالم كله بانهم لا يقصدون بارسال جنودهم إلي السودان صحبة الجنود المصرية إلا ليردوه إلى مصر تنفيذا للخطة التي رسموها من احتلالهم مصر وإجابة لصوت شرفهم . ألم يقل اللورد سالسبرى بأعلى صوته « إننا نعمل لرد السودان إلى مصر »

« إنتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد فكانت فظاعة

---

(١) أقرضتها سبعمائة الف جنيه ثم تنزلت عنها هدية منها لمصر ولقدردت مصر على هديتها بهدية أكبر منها إذ أقرضتها فى الحرب الانجليزية الاخيرة ثلاثة ملايين جنيه ثم تنزلت عنها :

انجليزية متناهية إذ نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموتى وخالفوا فى ذلك تاريخ المتقدمين والمتأخرين من المتحضرين ثم قامت معضلة فاشوده بين كتشنر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية وانتهت بتقهقر فرنسا فطمع الانجليز طمعا كبيرا ورفعوا رايتهم على الخرطوم بجوار الراية العثمانية وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد علي غردون وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية!

«أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك حتي إذا خلالهم الجو ونضج الطعام بين كراسي الوزراء المصريين أكلوا أكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشؤومة.

« هذا ماجري وأنا نتنظر أن تعضد أوربا الحكومة العثمانية التي لابد أن تحتج احتجاجا شديدا على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة.

« نعم إن أوربا إذا لم تعمل ماتحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها وأتت من المنكرات في وادى النيل مالا يكون السودان بجانبه شيئاً مذكورا . فان المسئلة لم تكن مسئلة السودان فقط بل هى مسئلة مصر نفسها ، بل مسئلة أفريقيا أيضا . فان مصر لاتكون بلدا غنيا قادرا علي القيام بدفع ديونه إلا اذا كان مالكا لينابيع النيل التي هى فى صميم السودان وان مشاركة انجلترا لمصر فى تملكه وهى الشرهة الطامعة التي لا يكفيها نصيب أو نصيبان مما يهدد المصالح الأوربية ويجعل المستقبل مظلما وتصبح الدول التى تظن بها اليوم خيراً فى مقدمة الساخطين على جشعها .

« كذلك فان لكثير من الدول الاوربيه أملاكا فى أفريقيا وهذه

الاملاك تصبح لامحالة تحت رحمة الدولة الانجليزية التى لا تريد الا أن تضع يدها على كل أفريقيا ليكون لها منها هند ثانية . وأن الحملات العديدة التى حملتها بواسطة رجالها السياسيين علي حكومة الترنسفال والاورنج ليست إلا دليلا قويا علي حقيقة مطامعها الافريقية.

«أما فرنسا فانها بسبب هذه السياسية أساءت إلى نفسها كثيراً فبعد أن كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان سمو الخديوي يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العلية للمدافعة عن حقوقه وحقوق أمته أصبحوا اليوم وهى أمامهم من حيث التاثير فى المسئلة المصرية أقل من أضعف دولة أوربية (١)

«نعم انى أصرح بذلك جهاراً لان السياسة القائمة علي الجبن والخوف ليست الا سياسة مضيعة للحقوق مبددة للنفوذ محطة بكل كرامة . وأنى لاأقصد بذلك انه كان يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن فاشودة . كلا . ولكني كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فاشودة بشرط أن يعود كل شيء إلي مصر حتي إذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر إلي قوتها وفى يدها كل أملاكها . ولكن الحال كانت على الضد من ذلك إذ تظاهرت فرنسا بالرغبة فى الدفاع عن عمل رجلها الكبير مرشان وشرف رايتها ثم فى لحظة واحدة تنزلت عن هذا الدفاع بلاثمن فأخجلتنا بالحط من كرامتها وبعثت باليأس من جهتها الي قلوب كثيرة كانت تراها من قبل

(١) من ذلك التاريخ دخل اليأس بصفة خاصة قلب الخديوي السابق وأكثر الرجال المحيطين به إلا مصطفى كامل فأنه بقي شديد الرجاء فى خلاص مصر إلى آخر حياته ؛

دولة الهمة والكرامة (١)

« أمامن جهتي فاني لا أياس أبداً من مستقبل بلادي بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها في شدتها أوجب علي منه في رخائها . وانه اذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فانها لا تستطيع أبداً ان تلعب بقلوبنا التي تنمى فيها بعملها الجائر الحنق عليها كل يوم . واننا اذا كنا نحمل لها اليوم شيئاً كثيراً من الكره والحنق فاننا في مقتبل الايام نكون ألد أعدائها العاملين على نكالها اذا هي بقيت مصرة على مخالفة وعودها وعهودها معنا ومضيها في هذه الشركة الباطلة .

« وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا ولكن وهو ما نأسف له لم يبق في قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم بعد أن أعلنت الايام فشل سياستهم في وادي النيل

« مصطفى كامل »

---

(١) السبب في تقهقر فرنسا راجع الى عدم تقدم حليفتها الروسيا لشد أزرها في هذه المسألة الهامة ! وربما كان ثمة سبب آخر من الاسباب السرية ولعب فيه خيال سان جورج الذهبي دوره الخفائي والله أعلم

مدرسة مصطفى كامل

كان من أماني المرحوم علي ماسبقت الاشارة اليه أن يكون له مدرسة يعلم فيها الناشئين محبة الاوطان والتمسك بأصول الدين الخالية من الشوائب والتى إذا تأصلت معانيها الطاهرة في النفوس كان للوطن خدام يستهينون بالموت فى سبيل نصرته والعمل لاعلاء رايته . وقد حقق الله أمنيته وأخرج مدرسة مصطفى كامل من عالم الامل إلى عالم الحقيقة إذ جاء اليه فى يوم الجمعة ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ مصريان وطنيان هما حضرتا الفاضلين محمد سعيد تومى أفندي وأحمد صادق أفندي وأخبراه انهما أسسا مدرسة في جهة باب الشعرية بسراى العزبى وأظهرا له حباً فى جهاده الوطنى وعمله الذي خلد له فى نفوس أبناء وطنه أسمى منزلة رغبتهما في تسمية المدرسة باسمه . فقبل منهما ذلك بكل ارتياح وقد كتب هذان الفاضلان جملة في المؤيد بهذه المناسبة هذا نصها :

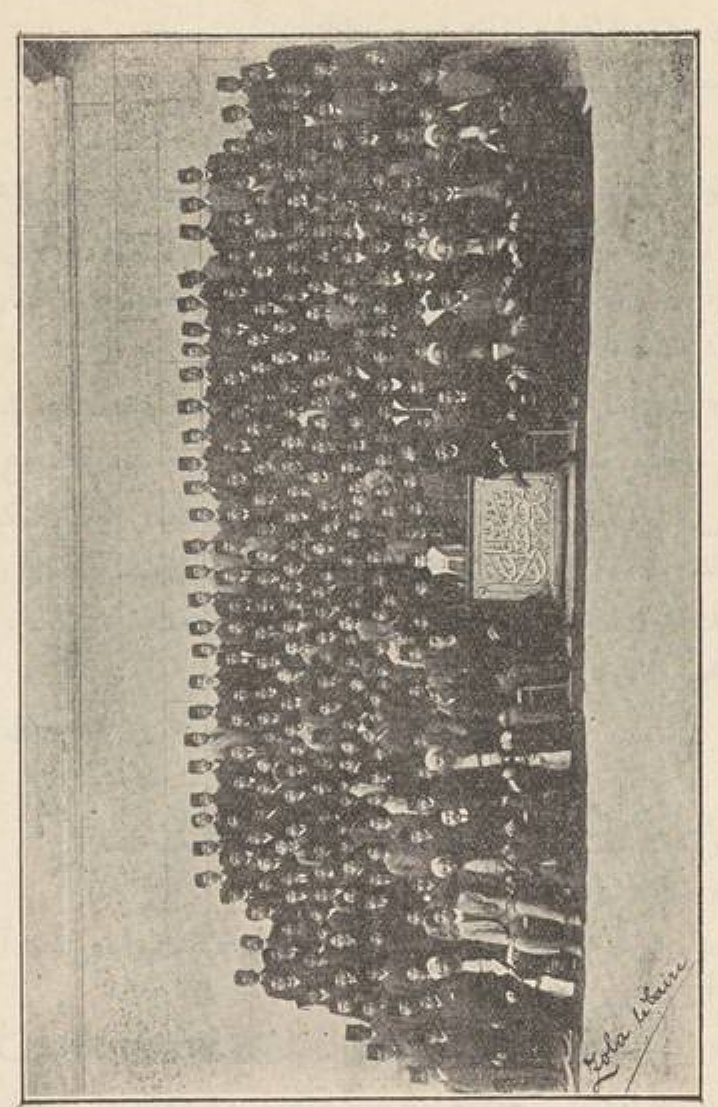
« نتشرف بأن نخبر قراء جريدتكم الغراء بأننا أسسنا فى جهة باب الشعرية مدرسة أهلية لتعليم أبناء الوطن العزيز استأجرنا لها سراى العزبي الشهيرة . وسننشىء فيها قسما لتعليم البنات حتى تكون الفائدة أتم وأعم متى سارت المدرسة في طريق التقدم والارتقاء .

ولما كانت الامم الحية تخلد أسماء رجالها العظماء وأبنائها الامناء باقامة التماثيل لهم وتأسيس المدارس والمستشفيات والآثار النافعة بأسمائهم فقد أردنا أن نجري على سنن هذه الامم ونسمى مدرستنا باسم رجل مصري اتفق المصريون بل اتفق الناس كافة على أنه جمع بين الوطنية النادرة والشهامة الفائقة ورفعة الافكار فضلا عن اجتماع قلوب بنى الوطن علي محبته فلذلك سمينا مدرستنا (مدرسة مصطفى كامل)

« وإذا كان الانكليز يؤسسون مدرسة لغردون والفرنسيون لمرشان (١)

---

(١) لقد كان الجنرال مرشان يعتبر نفسه فيما بعد أخا لمصطفى كامل لانه هو كذلك ابن مدام جوليت آدم الفكري . . .



صورة أساتذة وتلاميذ مدرسة مصطفى كامل في سنة ١٩٠١ م

فهم في الحقيقة يبجلون في هذين الرجلين الوطنية الصحيحة والاقدام الباهر . فنحن نعتقد أن وطنينا الذي سمينا المدرسة باسمه سيبلغ لامحالة مراتب عظماء الرجال بفضل وطنيته وإقدامه وثباته » ...... الخ

مصر في أول يناير سنة ١٨٩٨

محمد سعيد التومى   أحمد صادق

وبعد أن سارت مدرسة مصطفى كامل وهى فى يد حضرتي مؤسسيها نحو ثلاثة أشهر رأيا أن تكون ملكا للمرحوم فداولاه فى الامر ووكل إلى شخصى الضعيف أمر إدارتها وقد كتب المؤسسان بهذه المناسبة كتابا للمؤيد نشر فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٩ هذا نصه :

« سبق أننا أعلنا عن المدرسة التى أسسناها بباب الشعرية وسميناها باسم وطنينا الشهير وخطيب مصر (مصطفى كامل) وقد كنا نود القيام بهذا المشروع الجليل باحسن حال ولكن ظروفا عديدة منعتنا من ذلك . وقد تفضل الوطني الكبير المسماة باسمه المدرسة وقبل بناء على التماسنا ورجائنا أن يتسلم زمامها ويقوم باعبائها ونفقاتها . ولاشك أن ذلك يجعلها محلا لثقة القوم ويرفعها إلى أعلي مقام . . . . الخ »

تحريراً فى ٢٥ مارس سنة ١٨٩٩

أحمد صادق »   « محمد سعيد التومى

***

وكذلك كتب المترجم كتابا للمؤيد نشره فى حينه وهذا نصه :

« حضرة مدير جريدة المؤيد

علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماة باسمى بباب الشعرية قد آل أمرها إلي وأصبح شقيقي هو المدير لها .

« وأني أعلم أن حمل المدرسة ثقيل واتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ولكني قبلتها بكل ارتياح أملا مني في خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين . وأنى أتشرف اليوم باعلان الجمهور أن التعليم في هذه المدرسة مقرون بالتربية لاني أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة ، بل ربما كان كثير الاضرار وأقصد بالتربية التربية الاسلامية المحضة لان أساس التربية الدين وكل أمة يتربي أبناؤها على غير قواعد

الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط .

« وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوربا اهتماماً فائقاً بتعليم الدين المسيحى للناشئين . لذلك عولت علي جعل الغرض الاول من المدرسة ترقية الملكة الاسلامية عند التلاميذ وتمكين مبادىء محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم وتقديم اللغة العربية على كل لغة مع ترك الحرية لآبائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية . ورغبة مني فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم مجاناً (١)

وأنى أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذى أرى السعادة الكبرى فى التفانى لاجل سعادته .

هذا وأرجو منكم أن تتفضلوا بنشر هذه الكلمات فى محليات جريدتكم وأن تقبلوا الخ

مصر فى ٢٨ مارس ١٨٩٩ — المخلص

مصطفى كامل »

***

عنى رحمه الله بهذه المدرسة عناية فائقة ولم يدخر وسعا فى رقيها وبذل كل نفيس وغال في تشجيع الطلبة وتشويقهم إلى العلم فوضع لها نظاماً بني على أساس متين من التقوى والصلاح وكلف أحد أساتذة المدرسة وضع كتب دينية للناشئين وبعد وضعها عرضها على الاستاذ الاكبر المرحوم المبرور الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر لاقرارها وبعد أن نالت موافقة فضيلته والكثيرين من كبار علماء الازهر طبعت ووزعت على الطلاب مجاناً .

وكذلك قرر الاحتفال سنوياً بالنابغين الذين ينالون قصب السبق على إخوانهم فى كل عام إذ توزع عليهم الجوائز المختلفة فى وسط جمع حافل بالامراء والكبراء وقد قال لى رحمه الله يوماً :

إنه كان من أكبر أماني أن تكون بجانبى وأن يكون لي مدرسة وجريدة فها قد وهبنى الله ثلثى ماأتمنى وأملى أن أنشىء الجريدة قريباً »

---

(١) لقد بلغ عدد المجانيين الآن فى هذا المعهد العلمى ستين فى المائة من تلاميذه بفضل المعاونة السخيه التى يقدمها أبناء مصر البررة لأثر مصطفى كامل ..

وبعد أن مضى على المدرسة نحو عام فى سراي المرحوم العزبى اختار لها المترجم مكاناً آخر هو سراى السلحدار ثم انتقلت الى سراى المرحوم السيد القصبى بشارع أمير الجيوش البراني بقسم الجمالية ولاتزال فيه حتى اليوم .

***

عند ماأسست هذه المدرسة خاف الناس أن يلحقوا أبناءهم بها لوجود اسم المرحوم عليها . ولكنهم أقبلوا عليها شيئا فشيئا عند ماعلموا أن للدين الحظ الاوفر فيها مع توافر العلوم العصرية وأن من يدخلها يكون له حظ نيل الشهادات الاميرية أسوة بجميع مدارس مصر .

« قصد المرحوم الدار الجديدة بنفسه ورتب غرفها ووضع نظامها وقد أشار علينا أن نكتب على حوائطها التى يصادفها التلميذ فى رواحه إلى غرفة الدرس وغدوه منها أمثال هذه النصائح :

الاتحاد قوة

اعتمد على نفسك

الحلم سيد الاخلاق

العلم نور

أساس النجاح التقوى

لاتغتر بالظواهر

مصر سيدة الجميع

الشورى شريعة المسلمين

العدل مقصود

الاقتصاد غني

الظلم مردود

لاتجتمع الوقاحة والادب

النجاة فى الصدق

الاقربون أولي بالمعروف

اشتك متى ظلمت

لاتقرأ أثناء الطريق . . . . .

الى غير ذلك مما يجده الزائر منقوشاً الى اليوم على حوائطها وهى نصائح أفادت كثيراً وانطبعت على أفئدة التلاميذ وعملوا بها جميعاً .

« وكان يزور رحمه الله المدرسة من وقت الى آخر ويمتحن التلاميذ بنفسه ويرتاح إلى أجوبتهم وكانت نصيحته دائماً موجهة إلى وجوب الاعتناء بتلقين التاريخ واستنباط عظاته النافعة لتكون دواء لداء الخمول الذى كاد يودى بحياة الامة.

« وكان التلاميذ صغاراً وكباراً يحبونه ويتمنون أن لو قام بينهم طول يومهم لانه كان أباهم البار وأخاهم الصالح ووطنيهم المحبوب .

قال له فى يوم زار فيه المدرسة أحد صغار التلاميذ : « لم لاتكون مدرساً فى هذه المدرسة التى هى مدرستك » فقال له المرحوم وهو مبتسم : إني يا أخى وكلت أمر تعليمكم لمن أثق بهم بينما أجاهد أنا مع من هم أكبر منكم سناً » . . . .

***

ألا إن ذكرى هذه المدرسة تبعث فى فؤادي أثراً من آثار الرحمة والعطف علي الفقير كما تذكرني كيف يكون الرجل باراً بأبناء وطنه فقد كان المرحوم لايرد سائلا يسأله المعونة فى إدخال ابنه المدرسة لوجه الله الكريم حتى بلغ عدد الذين كانوا يتعلمون علي نفقته بها ولايزالون حتي الساعة ١٦٥ طالبا . وقد كان يبذل فى سبيل تثقيفهم من عرق جبينه ومن مجهوداته ٦٠٠ جنيه على الاقل فى كل عام . وكانت أمنيته الكبري أن يوفقه الله يوما ما الي حبس ماتسد غلته نفقاتها والصرف عليها وأن تكون مغرسا لعقول ألف طالب وغير ذلك من الامانى التى ان لم يحققها فى حياته فأملنا وطيد فى تحقيقها فان الامة بأسرها أصبحت مسئولة عن حفظ آثاره والسير على نمطه فى كل أعماله. وفقها الله الى مافيه الخير والسداد .

برح رحمه الله الثغر الاسكندرى فى الرابع من شهر أبريل سنة ١٨٩٩ قاصداً إلى أوربا ليستأنف جهاده حباً فى البلاد والامة . وما وصل إلى فينا حتى كتب الي كتابا جاء فيه :

« أخي الأعز حرسه الله

« بعد التحية وتقبيل وجنتيك وصل الي هذا الصباح عند وصولى الي فينا كتابك العزيز فقبلته وشكرتك إذ كان أول مستقبل لى فى الغربة

« صحتي جيدة جداً وارتياحى تام والبرد هنا قارص ولكني أخذت الاحتياطات اللازمة حتى أستطيع بصيانة صحتى خدمة مصرنا العزيزة ...

« سأقيم بفيينا أربعة أيام أقابل أثناءها من يهمهم أمر مصر من السياسيين ثم أبرحها الى باريس حيث أقيم بها ثلاثة أسابيع ومنها أذهب الي برلين فاكتب إلي بعنوان باريس وسيكون عندك عنوانى دائماً

« لاتنس أن ترسل الي أهم اخبار الجرائد المحلية عربية وافرنكية وطنية كانت أو احتلالية وأرجو منك أن لاتهيج اذا قرأت فى صحف الخصوم شيئاً ضدى فقد كان خدام الحقيقة من قديم الزمان وماز الوا قذي فى أعين خدام البهتان والباطل وكن كما أعهد فيك صالحاً رزينا فأنك ستعيننى كثيراً فى هذه الخدمة التى لاأجد أشهى الي منها . . . .

. . . .

« كما ألفت نظرك الى وجوب الاقتصاد التام ووضع كل شيء فى محله فان الاقتصاد غنى والتبذير فقر . ولا أخفى عنك أني مثال الاقتصاد أعمل كل شيء بحساب . لاأركب فى السكة الحديدية الا فى الدرجة الثانية مع أن جسمي ليس مستعداً لها وصحتى لاتقوى على الاتعاب الهائلة التي يجدها المسافر فى أوربا بالنظر الى طول المسافات .

« تجدنى أقرأ وأكتب الآن أكثر من أي وقت فى حياتى فقد قرأت أربعة كتب أثناء سياحتي الاول فى حسنات الحكومة الاهلية والثانى فى الحياة الاجتماعية والثالث فى الوطن المجرى والرابع فى قوة الارادة وضعفها

وما ينتج عنهما وهى كتب نفيسة ليتها تترجم الى العربية وليتني كنت قويا لأؤدى فى آن واحد الواجبين الواجب السياسى وواجب التعريب نسأل الله أن يبعث فى الامة روح العمل وأن يهب المفكرين منها قوة الارادة

« أرجو منك أيها الاخ المحبوب أن تدعو لى فى صلواتك بالنجاح فأنى بما أعمل لاأريد إلا أن أرد لمصر ما على أجدادنا وآبائنا وعلينا من الدين لها .

« لاأرتاب فى أنك مهتم كثيراً بأمر المدرسة التي كانت أمنية من أماني بل حلما من أحلامي ولى كبير الامل فى أن تكون المثال الاكمل والاخ البار والحر الأبى مع إخواننا أساتذتها فان مالا يدرك بالعنف يؤخذ بالعرف والله يحفظك لاخيك المخلص كامل »

كتب إلى من باريس في ٥ مايو سنة ١٨٩٩ كتاباً جاء فيه :

« أخي الأعز حرسه الله

بعد التحية والتسليم وتقبيل وجنتيك وصل إلي خطاباك المؤرخان ٢٧ و ٢٩ الشهر الماضى كما جاءنى المؤيد المشتمل على المحادثة . وقد أسفت كثيراً لعدم وجود جريدة عربية فى يدي حتى أنشر فيها كل أعمالي . (١) لأني ما كنت أظن أن عملا كهذا أنهك فيه قواي وشبابى يقابل من أدعياء الوطنية بمثل هذا الفتور . ولو كنت أجد وسيلة لتبليغ الناس الحقيقة وسبل الدفاع عن مصر الأسيفة بدون أن يذاع إسمى لفعلت بلا تردد . ولكن ما الحيلة والاعمال العامة مقرونة بأسماء من يأتونها وبتحسين

(١) بدأ المؤيد من ذلك التاريخ يتراخى فى نشر أعمال مصطفى كامل إذ تقهقرت فرنسا وتقهقرت سياسة السراي ويئست بعد حادثة فاشوده !

سمعتهم إذا أحسنوا صنيعها أو بتسويئها إذا أساؤا. فهؤلاء الذين يحجمون عن نشر أعمالي فى الوقت الحاضر بعد أن استفادوا منها كثيراً فى ماضى الأيام لا يسيئون إلي ولكنهم فى الحقيقة يسيئون كثيراً إلى المبادىء السامية التى تصدوا لخدمتها ألا وهى مبادىء إدخال العقيدة الوطنية فى قلوب المصريين . ومع ذلك فقد عزمت عزماً أكيداً على إصدار جريدة وسأكتب إليك طويلا فى هذا الشأن بيد أنى أرجو منك أن تعود إلى نشر أعمالي فى جريدة الاهرام فانى بدأت بها ولا أنتهى بها .

سأءنى جداً ما علمته من أمر مرضك وأنى أرجو منك كل الرجاء أن تعتنى بصحتك وأن تتريض كثيراً فان البلاد في حاجة إلينا وعلى الاخص في الوقت الحاضر .

« لم أعهد صحتى أحسن مما هى عليه الآن وسرورى عظيم باشتغال الكثيرين من فحول الساسة بالمسئلة المصرية وأملى وطيد جداً فى النجاح .

« بلغنى اليوم أن المسيو إميل ريزنر الكاتب المجرى الشهير يؤلف كتاباً عن مصر السياسية لذلك عزمت على السفر إلى بوادبست للقائه وقد استعنت بأصدقائى هنا للتعرف إليه حتى يكون فيما يكتبه عادلا إن لم يكن كذلك . وسفري اليها يكون طبعاً بعد سياحتى فى برلين كما أخبرتك . . . . كامل »

***

وجاءني منه فى ١٠ مايو سنة ١٨٩٩ كتاب جاء فيه :

« وصل إلي اليوم خطاباك المؤرخان ٢ و ٣ مايو الجارى . .

« جددت طبع رسالتى « خطر الاحتلال الانكليزى فى مصر » بالفرنسية بعد أن أضفت إليها ما يجب إضافته وقد أرسلت اليك منها مائة نسخة لتهديها إلى الأصدقاء الذين يهمهم أمر الوطن .

« وقد نشرت مقالة فى جريدة « برلينر تاجبلاط » الشهيرة التى تطبع بمدينة برلين والتى تعادل أكبر جرائد انجلترا . أما موضوعها فهو علاقة ألمانيا بالدولة العلية خاصة والاسلام عامة . وجعلت عنوانها « ألمانيا والاسلام » وما نشرتها هذه الجريدة حتى تناقلت ملخصها على لسان البرق الصحف الكبرى بأوربا وقد علمت من أقرب الناس للامبراطور غليوم الثانى أنه قرأها بنفسه وانشرح كثيراً .

« أما تعريب هذه المقالة فسأرسله بعد غد لاخينا فريد بك لينشره فى الاهرام »

« إذا قابلت المطران (يقصد حضرة خليل بك مطران الصديق الوفي والكاتب البليغ والشاعر الطائر الصيت) فاشكره كثيراً وبلغه مزيد إعجابي بقصيدته التى نشرتها (الموسوعات) عن مقتل وزير العجم . لله دره من شاعر نادر بليغ .

« سرنى ما ذكرته عن المدرسة وأقبال الناس عليها بعد أن أحجموا عنها هذا الزمن وأنى لا أرتاب فى معونة الله سبحانه وتعالى لنا فأنه يعلم نياتنا التى كلها خيرية شريفة . وقد استأت لسير أحد الأساتذة وارتحت لرفته فاننا مسؤولون عن مستقبل التلاميذ ولسنا بمسؤولين عن مستقبل معلم لم يهتم بواجبه ومستقبله .

« أكرر عليك الرجاء أن تعمل حسابك بالدقة فاننا غير معتمدين

إلا على الله وعلى أنفسنا واعمل بالمثل الالمانى : « من يعدو كثيراً يصاب بالسل » .

....

« علمت من فريد بك أن عثمان ماهر باشا مريض جداً والامل ضعيف فى شفائه فأرجوك أن تنوب عنى فى زيارته مع فريد بك وأن تبلغه من قبلى سلاماً وتحية ودعاء لله خالصاً أن يشفيه ويبقيه فأكرم به رجلا مسلماً ! شهما غيوراً . إنك لو علمت حقيقة هذا الصديق الكبير وهذا القلب الممتلىء ايمانا واسلاما وحباً لمصر واعترافا بجميلها ووطنية لامثيل لها لخدمته فى مرضه كما يخدم الأخ أخاه أو كما يواسي الابن أباه أسأله جل وعلا أن يشفيه (١) .

« إنى فى حاجة إلي دعاء الوالدة فأن فى رضاها رضا الله والله يحفظك لاخيك المخلص كامل »

***

أسأل القاريء العفو اذا أطلت هنا من ذكر كتب المترجم إلي فأن فى كل جملة منها معنى يشير إلي فضيلة ولان فى ذلك التاريخ بدأت حياته القصيرة ، دنيا الطويلة ذكرى ، تفيض مكارم وعملا . فقد كتب إلي فى ١٥ مايو من برلين مانصه :

« شقيقي

« أخبرك أنى وصلت إلى برلين مساء الأمس فى أحسن صحة وأتم

(١) هو المرحوم عثمان ماهر باشا عضو مصلحة الدومين المؤسس للجمعية الخيرية الاسلامية بالعاصمة وقد أنشأ المدرسة المسماة باسمه ووهب عليها الاربعمائة الفدان التى يملكها . رحمه الله رحمة واسعة وأكثر من أمثاله الصالحين المتقين .

سرور وقد قابلت اليوم الكثيرين من رجال الصحف والسياسة وعلى الاخص المسيو لافيزون مدير جريدة برلينر تاجبلاط الذائعة الصيت وتحدثنا فى مسائل مصر فرأيت من القوم عطفاً كبيراً علينا ووجدتهم على علم تام بكل مايجرى فى بلادنا وقد طلبوا منى بعض تفاصيل عن السودان المصرى . . . .

فأرجوك أن تهتم بأرسالها إلي بأقرب فرصة . . . .

« كذلك زرت سفير الدولة العلية قبل الظهر وقد رد إلي الزيارة قبيل المساء وأبلغنى ارتياحه وارتياح كل حر غيور لنهضة الامة المصرية ودفاعها عن أقدس شيء فى الوجود ألا وهو سلامة الوطن . وأبلغنى رضا جلالة السلطان عن أعمالى وأن سفير باريس أبلغه أن جلالته يدعوني إلي زيارة الاستانة . لذلك لبيت الدعوة ولولم أكن من قبل علي نية السفر إليها فى هذا العام . وساسافر غدا إلى بودابست لأقابل ذلك الكاتب الكبير الذى أخبرتك عنه فى أحد خطاباتى الماضية ومنها أقصد الاستانة فأصل اليها بمشيئة الله فى ٢٣ أو ٢٤ الشهر الجاري . . . . . »

***

وتسلمت منه كتاباً أرسله من بودابست (عاصمة المجر) في ١٨ مايو سنة ١٨٩٩ هذا نصه :

أخى . . . . .

« قد ورد الى خطاباك المؤرخان ١٠ و ١١ الشهر الجارى وأنى مسرور مرتاح للقاء المسيو إميل ريزنر الكاتب المجرى الشهير فانه فحل من فحول السياسيين الذين كلهم عطف علي المسألة الشرقية عامة والمسألة المصرية

خاصة فقد قرأ علي فصلا من كتابه « مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » كله دفاع عن وطننا بأدلة قوية وحجج بالغة مما لا يطمع وطنى مثلي فى أكثر من مثله وقد شكرته شكراً جزيلا . وسأزوره بمشيئة الله عند عودتي من الاستانة التي أقصدها غدا . . . »

* * *

وما وصل إلي الاستانة العلية حتى كتب إلي هذا الكتاب ؟

« الاستانة فى ٢٣ مايو سنة ١٨٦٩

« أخى الاعز حرسه الله

« بعد التحية وتقبيل وجنتيك . أخبرك أني وصلت عاصمة الاسلام والخلافة يوم السبت الماضي عشرين الشهر الجارى وذهبت تواعقب وصولي كما يقتضيه الواجب الى السراي السلطانية فقابلت باشكاتب المابين الذى أبلغنى عظيم ممنونية الحضرة السلطانية من خدماتى السياسية والملية وسامي رضاها عنى واستعدادها لقبول رغائبى ومطالبى فشكرته شكراً جزيلا ورجوته أن يرفع الى جلالة أمير المؤمنين اخلاصي التام ورغبتي الوحيدة فى أن أري الدولة فى حرز حريز ومصر فى نعيم مقيم ، وألا أمل لي فى الدنيا مطلقا وقد أبلغنى عطوفة الباشكاتب أمس أن جلالة الخليفة معجب بهذه الصفات وهو يرغب منى شرح نيات المصريين وآمالهم ومايعتقده ساسة أوربا فيهم ومبلغ رقيهم الحاضر . فلبيت النداء وشرحت لجلالته حالة مصر وعلاقتها بالدولة من جهة وبأوربا من جهة أخرى وماتأمله من جلالته فى سبيل خلاصها ونجاتها

« إن من أماني التي لم أحطك بها علما الى اليوم أن يكون بين الاستانة

والقاهرة صلة أدبيه تتقرب بهما الامتان التركية والمصرية كلتاهما من الاخرى. وقد رأيت ان أحسن صلة أن يصدر جلالة السلطان ارادة علية بقبول النابغين سنويا من مدرستنا مجانا بمدارس الاستانة ليكونوا حكماء أوضباطا فى هذا الجيش الباسل الذى هو فخار الاسلام والمسلمين وأن أملي لكبير فى أن تتحقق هذه الامنية يوما ما. (١)

« وجدت الجواسيس هنا كالذباب وهم ألزم الي من ظلى فاينما سرت ساروا وهي حال مؤلمة للغاية ولولا ان أمر الخليفة مطاع لتركت هذا البلد حالا . وسأبلغ عطوفة الباشكاتب عظيم استيائي من هذه المعاملة التي لاتليق بمن هو ضعيف أمير المؤمنين

« إن البشاشة الفائقة التي قابلني بها الباشكاتب تدل على احترام القوم للمصريين ولو أنهم لايزالون فى شك منا على ما أعتقد.

« سألنى الكثيرون من مكاتبي الصحف الكبرى الاوربية والامريكية أن أحادثهم فى شأن مصر فأجبتهم الى ماطلبوا وسأبدأ الحديث مع جريدة وستمنستر غازيت الانجليزية غداً وهى من أكبر جرائد انجلترا. . . . »

وجاءني منه كتاب فى ٢٠ مايو هذا نصه :

أخى . . . .

جاءنى صباح اليوم خطاب من عطوفة الباشكاتب أبلغنى فيه ان جلالة الخليفه الاعظم أمره بدعوتى الى يلدز فسرت اليها تواً وما لقيت

---

(١) لم تتحقق أمنيته لان بعض الاتراك يكرهون المصريين من يوم حارب محمد على باشا والى مصر الدولة العلية . لذلك عاكسوا المرحوم فى سعيه !

عطوفته حتي سألنى أسئلة فهمت منها أن بعض الناقين على الوطنية المصرية وشي بى لدى جلالة السلطان وأدركت في الحال أنها دسيسة دبرها رجل جاءني فى النزل ببرلين بعد أن رد سفير الدولة الزيارة الى فقلت لعطوفته إني ماجئت إلي الأستانة إلا تلبية لدعوة جلالة أمير المؤمنين وإنى أؤكد لجلالته أن بلادي فى حاجة إلى الانتفاع بالوقت الذى أضيعه هنا وأنى أستأذن فى السفر مع تقديم إخلاصى التام واحترامي الأكيد لعرش الخلافة الاسلامية . فذهب الباشكاتب وعاد الي باشا مرحبا وأبلغنى ثقة جلالته باخلاصى وكرر لى شكره العالى وقد انصرفت وبودى أن أبرح هذا البلد الذى بلغت فيه الدسائس مبلغاً لا يوصف .

« لا تتكدر من قراءة هذا فان سبب انحطاطنا وسقوط ممالك الاسلام الاصغاء الي وشايات الواشين وقضاء الوقت الثمين فى الهذيان والنفاق والوقيعة والله ينصرنا ويثبت أقدامنا رغم الدخلاء والمنافقين . . . . . .

دمت لاخيك المخلص مصطفى كامل »

وجاءنى منه خطاب فى ٢ يونيه قال فيه :

« جاءنى خطاب من عطوفة الباشكاتب يسألنى ألا أبرح الاستانة كرغبة جلالة الخليفة »

وجاءنى منه بعد ذلك تلغراف فى ٦ يونيه سنة ١٨٩٩ هذا نصه :

من بك أوغلي فى ٤ مارس سنه ١٣١٥ (روميه)

« إلى مصر

« فهمى بشارع المبتديان نمرة ١١٩ بمصر

« أنعم علي جلالة السلطان برتبة المتمايز وأبلغنى مرار رضاه العالى . أعود

إلي أوربا خاطبني بعنوان باريس   كامل »

***

ما ذاع نبأ هـذا الانعام حتى ارتاحت له نفوس الوطنيين إذ أدركوا أن فى عطف السلطان على خدام المسألة المصرية عطفاً على المسألة نفسها . أما المرحوم فقد استاء كثيراً لهـذا الانعام لاعتقاده أنه يضعف من دعوته إذ يظن أبناء وطنه فيه أنه لا يسعى إلا ليلقب بألقاب الشرف مما يجد الدخيل فيه مجالا للقول والمنافق باباً للدخول ولذلك كتب إلي ما نصه :

« فينا فى ١٠ يونيه سنة ١٨٩٩

« أخى الاعز حرسه الله

بعد التحية والتسليم وتقبيل وجنتيك وصلت إلى هذه العاصمة الفيحاء التي لاجاسوس ولا دخيل فيها فشعرت أنى خلقت خلقاً جديدا بعد تلك الايام التي قضيتها في الاستانة التى لاحلو فيها الا أنها قلعة المسلمين ودار خليفة المؤمنين.

« إنى أود بكل شغف أن أستطلع تأثير إنعام جلالة السلطان على برتبة المتمايز فى نفوس إخواني الوطنيين فانى أخاف أن يكون سيئاً كما أعتقد ولاأخفى عليك أن هذا الانعام قد آلمني أكثر مما سرنى لاني كنت أود أن أعيش باسمى الذى وهبنى إياه أبي مجردا من الاضافة حتي لا يتسرب الشك فى عملى واخلاصي لمبادئى إلى نفس واحدة من نفوس بنى قومي وأهل عشيرتى . نعم إن فى عطف الخليفة مايؤيد المثل المشهور « من أحب قولك أكثر من مخالطتك » ولكنى كنت أتمني أن يعطف جلالته على أصدقائى المخلصين قبل أن يعطف علي لتكون المظاهرة موجهة كسهم فى قلوب محتلى

مصر وأذنابهم عباد الشيطان وخدام الضلال ولكن إرادة الله فوق كل إرادة

« أسافر بعد غد إلى باريس لا مكث بها ليلتين ثم أذهب إلى فيشى لمداواة معدتى وسأقضي بها أربعة أسابيع ثم أعود توا بمشيئة الله الى الوطن العزيز .

« لاتنس أن ترسل الي كل ما يكتب فى الصحف بسبب هذا الانعام الذي سيتخذه الاعداء سبيلا لدسائس كثيرة نسأل الله أن ينصرنا نصراً عزيزاً . . . .

كامل »

***

وبعث الي بكتاب من باريس فى ١٩ يونيه قال فيه :

« ألقيت أمس خطابا فى مرسح قصر مدام جوليت آدم بناء على دعوتها وقد سمعه الكثيرون من كبار الكتاب والسياسيين الذين يؤمنون دارهذه السيدة العظيمة ما بين آن وآن وسأرسل تعريبه غدا اليك لتنشره فى الاهرام أو حيث تشاء . . . . »

***

وجاءني منه رحمه الله كتاب في ٣١ يوليه سنة ١٨٩٩ جاء فيه

. . . .

« كنت وطدت العزم أن أبرح مرسليا لاعود إلى الوطن فى يوم الجمعة المقبل ولكن سفير الدولة هنا استدعانى قبيل ظهر اليوم وأبلغنى أنه تلقى رغبة جلالة السلطان فى عودتى إلى مصر عن طريق الاستانة فدهشت

كثيرا من هذه الرغبة. ولكنني عزمت على إجابة هذا النداء العالى بالرغم من مضايقات الاستانة التي شرحت لك بعضها.

« لذلك أرجو أن ترسل إلى بعنوان فيينا على لسان البرق نقودا من باب الاحتياط فأني أود أن أقضي بضواحيها بضعة أيام لمقابلة بعض كبار النواب ورجال الحكومة والصحافة وربما عرجت كذلك على المجر لأعمال سياسية هامة

. . . .

دمت لاخيك كامل »

***

وبعث إلي من فيينا بكتاب جاء فيه :

« فيينا في ٢ أغسطس سنة ١٨٩٩

« وصل إلي اليوم خطابك المؤرخ ٢٣ الشهر الماضي وقرأته بمزيد السرور والارتياح وجوابا عنه أفيدك أني وصلت إلي فينا هذا الصباح وقد لاحت لي أمور غيرت معها خطة سفرى إذ أبرحها بمشيئة الله غدا مساء إلى الاستانة العلية التي سأبذل الجهد في العودة منها الى مصر في ١٦ الشهر الجارى.

« نصائحك الحكيمة سرتني جداً فلا تخف على صحتي وتيقن أني لا أعمل الا ما يمليه علي وجداني والله الذي أنجاك من يد الانكليز ووهبنى الصبر الجميل وشد أزرى بعدئذ بك لا أتحول عن هذه السبيل السياسية وكن عند ظنك بى بارك الله فيك . . . . .

« واعلم أنه بالرغم من شبيبتى وغيرتي واتقادي وإخلاصى متبصر لا أقول إلا ما أريد لا ما يريد غيري كما يفعل البعض ممن ادعوا الوطنية . . . . .

وأول دليل عندى على رضا الخالق جل شأنه عنى هو أنه خلصك من الجندية لتكون لي اليد اليمنى والأخ المعين والمساعد الأول فى خدمة الأوطان ومع الصبر والثبات نبلغ المراد

لأستسهلن الصعب أو أدرك المني فما انقادت الآمال الا لصابر

«وانى أري للصحافة فى مصر وسائر بلاد المسلمين مستقبلا عظيما جداً خصوصاً إذا كان المحررون ممن عرفتهم الامم الاسلامية وعرفت فيهم الاستقامة والاخلاص

«أوافق كل الموافقة على وضع المطبعة بالدور الاسفل من سراى العزبى وأرجو منك تبليغ عطر سلامي لاخوانى فريد وجلال وعلى فهمى وحسين قره جوللى ومحرم رستم. ولا تنس مصطفى بك سرى فانى شاكر له كل الشكر ان عارف له فضله وكماله

«كتبت اليوم لعبد العزيز فريد حسب أمرك ولا أشك لحظة واحدة فى أنه الوفاء بعينه ودمت لأخيك المخلص

مصطفى كامل

وتسلمت منه كتاباً جاء فيه :

« الاستانة العلية فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٩

«أخي الاعز حرسه الله

«بعد التحية والاستفسار عن صحتك أخبرك أنى وصلت إلى الاستانة العلية بمزيد الصحة والسلامة أول الامس وذهبت تواً الى يلدز فقوبلت بمزيد البشاشة والاحترام وقد أظهر لي الباشكاتب رغبة جلالة السلطان

فى معرفة حركة الخواطر الاوربية نحو الاسلام والمسلمين وما يؤدى الى خدمة المسلمين ورفعة شأن الاسلام ومالقيته أثناء رحلتى الاخيرة وقد أجبته إلى طلبه وسأكتب كل مافى نفسى خدمة لمصر خاصة وللعالم الاسلامي عامة وأملي أن أطبع ما أكتبه في رسالة إذا سمح جلالته بذلك

« أقيم أثناء وجودي بالاستانة بفندق سومربالاس بترابيا وقد قابلت هنا شوقي بك وعبد الله أباظه بك وكلما ذكر صاحبنا بمصر (يقصد سمو الخديوى) أذكره بأحسن لسان وأشتكى من خدامه الادنياء ! !

قبل لي وجنات فريد بك وأفدنى عن صحة والده . . . »

***

وبعث إلي باشارة برقية فى ٢٠ أغسطس هذا نصها :

« أنعم علي جلالة السلطان بالرتبة الاولى من الصنف الثانى (وهى مقدمة على رتبة ميرميران)

« ومانشرت الجرائد نبأ هذا الانعام حتى قامت قيامة صحف الاحتلاليين وأخذت تطعن عليه بفاحش القول وبذيء الكلام ، أما الوطنيون المخلصون فانهم فرحوا فرحا كبيرا وقد جاءنى عن طريق البريد والتلغراف رسائل شتى كلها تبريك وعطف

« وأما المترجم فانه أرسل الي بعد هذا النبأ كتابا قال فيه :

« كما أنى لم أخف عليك استيائي من الانعام الاول فانى كذلك مستاء أشد الاستياء من هذا الانعام لانه ماوقع في تاريخ ألقاب الدولة مثل هذا فينعم على امرىء برتبتين فى شهرين ولكنى اعتقد أن السلطان أراد أن يطعن الاحتلال بسهم صائب لان فى عطف جلالته على خصوم هذا الاحتلال

دليلا قاطعاً على كرهه له ورغبته فى جلائه .

« إنى لا أشك فى أن خصوم البلاد وأعدائها والمنافقين الذين يدعون أنهم من الامة سيتخذون هذا الانعام سبباً آخر لتسوىء سمعتى وبذر بذور الدسائس بيني وبين العاملين معنا في السر والعلانية . ولكنى أؤكد لك أنهم لا ينجحون فان الناس لا يحبون خدام المبادىء لاشخاصهم ولكن حباً فى المبادىء نفسها وإنى والحمدلله معروف بمبادئى التي شرفت الكثيرين من رجال التاريخ قبل أن أعرف بلقب أو وسام . فليقل العدو ماشاء فانه عدو على كل حال

«أما السياسة العمومية بين يلدز وعابدين فقد أخذت تتحسن عن ذى قبل، وأما الدسائس والوشايات التى استخدمها الانكليز فى الاستانة والقاهرة لتوسيع حلقة الخلاف بين التابع والمتبوع لم تنجح مطلقاً وهذا ما يجعل الوطنى فى ارتياح وانشراح . نعم انه يوجد كما قلت لك طويلا قبل سفرى من لا يهمهم إلا ملء جيوبهم بالنضار الزائل ولو كان فيه خراب العالم بأسره ولكن على ما رأيت —مما سأحدثك به ملياً عند عودتى— قد حدث هنا انقلاب رئيسى فى الاعتقاد فى الخديوية المصرية وجميع المصريين ، فان السلطان رأى أن يضرب بهذه الوشايات عرض الحائط حتى لا تتجزأ الاجسام بانشقاق الرؤوس على بعضها . . . . .

لا بد أن يكون أولئك الذين تظاهروا بالوطنية زمناً طويلا حاسدين ناقمين فاذا رأيت منهم مرارة فى اللفظ وظلمة فى الضمير فلا تتألم بل ألمهم بشاشتك وتجاهلك وكن عند قول «شوقي» :

قد أتعب الاعداء من داراهمو　　　فأقم عدوك باللبان وأقعد

إن الاراقم لا يطاق لقاؤها وتنال من خلف بأطراف اليد

هذا وأملي في وجه الله أن أبرح الاستانة فى ٣٠ الشهر الجاري . . .

مصطفى كامل »

* * *

وجاءني منه كتاب فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٩ قال فيه :

. . . .

« دعيت إلى يلدز مرتين وقد قابلت جلالة السلطان بعد ظهر الامس وأظهر لي جلالته عظيم ارتياحه من جهادى وأكد لي أنه مهتم بمصر ومسألتها وأنه يتحين الفرصة لعرض مسئلتها على بساط البحث .

« سألني الباشكاتب أن أكتب أسماء ثلاثة من المخلصين لعرضهم على جلالة السلطان حتى يبرهن من جديد بالانعام عليهم على أن المصريين هم كذلك أبناؤه وموضع رعايته فكتبت معك حضرتي الأخوين الفاضلين الشيخ محمود أبى النصر وعلي أفندى فهمي المحامي وقد رأيت أن أضيف على اسمك كلمة «كامل» حتي لايتشا كل الامر بينكما وربما تصدر الارادة قريباً غير أني لا أعرف نوع الانعام وكذلك طلبت لأخينا شوقي بك (الشاعر الجليل) ميدالية الحرب العثمانية اليونانية وأملى فى وجه الله أن يهبنا من لدنه فوزاً مبينا ودمت لأخيك المخلص مصطفى كامل»

* * *

وماجاء يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٩٩ حتى تسلمت إشارة برقية هذا نصها :

فهمي بشارع المبتديان نمرة ١١٩ بمصر

أنعمت عليكم الحضرة السلطانية ومحمود أبي النصر (بك) وعلي فهمي (باشا) المحامي بالرتبة الثانية واحمد شوقي (بك) بمدالية الحرب فأهنئكم

كاتبني كامل»

وما ذاع النبأ حتى أخذ الناس يتحدثون بنفوذه رحمه الله فابيضت وجوه واصفرت وجوه شأن الناس فى أمر مثل هذا وهم بين صديق متين وعدو مبين.

وقبل أن يعود إلى مصر أنعم عليه السلطان بالنشان المجيد الثاني الامر الذي كادت معه تنفجر صدور الذين كانوا يسيرون معنا فى طريق الوطنية على دخل حتى أن صحفياً منهم قال لي: «ألا يكون هذا الانعام المكرر بلا مناسبة على أخيك وعلى بعض أصحابه وعليك سبباً فى مصادرة المحتلين لكل لقب يأتي الينا من طريق الاستانة» ؟ بلغ بالقوم الحسد هذا الحد المخزي فأخذوا يهرفون بمثل هذا. ولوشئت أن أذكر الاسماء والالقاب والاقوال التى صادفتها بعد هذا الانعام لاحتجت إلى مجلد ضخم ولكن المنافقين المضلين معروفون!

***

عاد رحمه الله إلى مصر مع لفيف من المصريين الذين كانوا فى الاستانة على «القاهرة» إحدى باخرات الشركة الخديوية فاستقبله الكثيرون من إخوانه وأصدقائه والمؤمنين بمبادئه أعضاء الحزب الوطنى واحتفلوا به احتفالا عظيماً.

حادثني فى أمر الجريدة التى يريد إصدارها وقد كانت المطبعة التى أوصى عليها لتكون شركة بينه وبين حضرتي محمد بك فريد والسيد رضوان جلال قد وردت إلى العاصمة فرأينا أن نترك هذه المطبعة للشريكين ونستقل بعملنا. وعلى ذلك أخذ فى تخير زملائه فى العمل فاختار المرحوم المبرور محمود افندي عزت لادارة المطبعة وأعمال الجريدة، وحضرة الكاتب البليغ محمود افندي سلامة محرراً وحضرة الزميل الصادق مصطفى عزت بك (المحامي الشهير) مترجماً، والمرحوم المبرور مأمون بيومى مخبراً وترك لهم الحرية التامة فى تأسيس الجريدة وتحضير أدواتها فأخذوا فى العمل بهمة عالية وكان أكبر الفضل فى تحضير آساسها لحضرتي سلامه افندى وعزت افندى

ثم ألقى رحمه الله خطبة رنانة بالتياترو الايطالي فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وقد كان لها فى جميع الدوائر السياسية دوياً كبيراً.



إن في هذا الجزء الذى يقرأ فيه مصطفي كامل وليدا وطفلا وفتى وشابا إلي أن صار رجلا سياسيا يقطع البحار ويجوب الامصار ويتعرف بجميع الوسائل إلى كبار الرجال، من حملة الاقلام والقادة الاعلام ومرشدي الامم وأطواد السياسة وفحول العلماء لخدمة قضية بلاده — لدروساً بليغة للناشئين ونبراس هدى للوطنيين المخلصين . .

قرأنا فى الصحف التى مررنا بها من هذا الجزء كيف تكون محبة الاوطان وكيف أن فردا قليل المال نحيل الجسم يقوى علي ماقوى عليه مصطفي كامل . ذلك لان الميل والحب من شأنهما تقوية الارادة التى تدفع بالمرء إلي تحمل المشاق وابتداع الحيل لادراك بغيته وبلوغ أمنيته . . .

إنه كانت لمصطفي كامل علاقتان لاثالثة لهما ، علاقته العامة بمصر وطنه المحبوب وغرامه الدائم ، وعلاقته الخاصة بأسرته . . .

أما علاقته بوطنه فقد دفعته للتعرف إلى الاشخاص الذين يستطيعون أن ينقذوه إذا اتحدت نفوسهم كشخص جلالة الخليفة الاعظم وكشخص خديوى مصر السابق وما بينهما من كبار الرجال ومهرة الصحفيين . .

فكانت علاقته بعابدين ويلدز فى بدء اشتغاله بالسياسية علاقة متينة قوية ثم طرأ عليها الفتور تارة بفعل اليأس فى النفوس وتارة أخري بوشاية الواشين أو دسائس الدساسين. . .

ولكن المترجم استطاع ابان الفتور الذي اعتور تلك العلاقات ما استطاعه إبان الود من خدمة بلاده والسفر من آن إلي آن إلى عواصم الدول الاوربية الكبرى لخدمة المسألة المصرية بشجاعة نادرة واستمرار عجيب .

بل إنه فوق ذلك قد استطاع أن يؤسس مدرسة لتعليم فقراء المال والوطنية

ويعد لمصر رجالا يتفانون في حبها ويخدمونها بصدق وإخلاص.

لقد كتبت مدام آدم عن مصطفى كامل في كتابها « إنجلترا في مصر » الذى عربناه للناطقين بالضاد ماترى مفيدا أن نذكره بنصه هنا :

كتبت حفظها الله ماتعريبه :

« إن محيي الوطنية في مصر هو بلاريب « مصطفى كامل » ذلك الذى وقف حياته منذ بلغ السادسة عشرة من عمره على حرية وطنه.

« بعد أن حصل على إجازة العلوم الثانوية في عام ١٨٩١ بدأ بنشر مقالاته المؤثرة في الصحف ، وبتأسيس الجماعات الادبية ، وبأصدار مجلة شهرية لطلاب المدارس ! ولقد ارتبط وهو طالب بالخديوى السابق عباس الثانى في سنة ١٨٩٢ ثم تعرف شيأ فشيأ إلي كبار الرجال الذين يستطيعون خدمة مصر .

وكان من مزاياه الخاصة أنه بعد أن نال البكالوريا ما كان يميل بفطرته إلى الاختلاط بزملائه الطلاب الا قليلا . وكان يسعى للتعرف إلى أعضاء مجلس الشوري وكبار موظفي بلاده وبالاخص رجال القضاء منهم . . . وللتعرف كذلك إلى مكاتبي الصحف الاوربية.

« صار محامياً بعد أن حصل على إجازة الحقوق من كلية طولوز في سنة ١٨٩٤ ، لاليدافع عن قضايا الافراد ، بل ليدافع عن قضية أمته برمتها ووطنه مصر ! ومن ذلك التاريخ حارب بالقلم وباللسان وبالوطنية الحارة الاحتلال البريطانى ومظالمه !

« ولقد أسس مع الكثيرين من كبار المصريين الحزب الوطنى وانتخب لسان حاله في أوربا ، وسافر إلى فرنسا في أواخر شهر أبريل سنة ١٨٩٥ . وكان أول عمل من أعماله في الدعاية ضد انجلترا (بروبا جندا) أن قدم عريضة باسم الامة المصرية لرئيس مجلس النواب الفرنسى ومعها لوحة تصور حالة مصر ، مثل فيها فرنسا محررة الشعوب المهضومة الحقوق ، وبالقرب منها أمريكا وبلجيكا وإيطاليا وسربيا التى حررتها ، وفى أسفلها مصر مكبلة بأغلال الانجليزى الغشوم المحتل نهر النيل ! كما مثل النيل في صورة شيخ هرم يبكى بكاء مرا !!

« من ذلك التاريخ بدأ « مصطفى كامل » عمله لتحرير وطنه : ثم سافر إلى طولوز ، وألقى فيها أول خطبة من خطبه السياسية في ٤ يوليو سنة ١٨٩٥.

« إن فشل الجيوش العرابية الذى كان سببه عدم كفاءة رئيسهم الحربي قد عوضت منه مصر رئيساً مدنياً ، تعلم على النمط الاوربي ، واحتك بعناصر السياسة المصرية ، مدفوعاً بشعوره تجاه بلاده ، للنضال عن حقها بالوسائل السلمية ، وبقوة الاصابة القائمة على العدل والحق !

« ما كان يخطر ببال « مصطفى كامل » شيء وهمي بل إن امتلاءه بالحقائق كان يقيناً مدهشاً ، لانه يشوبها بالكشف عن المستقبل كشفا جليا .

« إن الخطيب الشاب الذي لعب أكبر الادوار السياسية فى قضية بلاده فصار بعد عظيماً بوطنيته ، بقى فى باريس بشوربي وألقى خطابا شائقاً فى قاعة الجمعية الجغرافية ، نشرته في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥ فى لانوفل ريفو وعنوانه « شره إنكلترا » !

« لقد عرفت مشروعات « مصطفى كامل » واحداً واحداً ، وكاشفنى بجميع مراحل تنظيم حزبه ، وقد أدهشني فى كل الامور كشفه عما فى النفس المصرية ، وأنها لكرامة قد تحققت بعد بضع سنين !

« ما كف (مصطفى كامل) عن الغرام بعمله فقد جاب كل انحاء أوربا موطدا العلائق مع جميع المعروفين بالنفوذ في السياسة الكونية أو في الوطنية الصادقة ، وأن حميته واعتقاداته كانت جذابة ومفيدة وداعية للتفكير ! . . .

«كان يعرض مسألة الاحتلال الانجليزى في أحاديثه الجلية بوضوح تام ، بل وبمهارة لاتلبث أن تقنع سامعيه وقراءه وكان يبين لهم على الدوام الفائدة التي تعود عليهم وعلى بلادهم من دفاعهم عن المرافق المصرية !

« لم ينل مصرى ما ناله (مصطفى كامل) من الشهرة السياسية ، ولا من النجاح الخطابى ، وكذلك لم يكن لاحد حساد كما كان له ! . . .

« إنه كان يطلب بأعلى صوته حرية أمته واستقلال بلاده ، وكان من مبادئه المطلقة الاتفاق بين مصر وتركيا علي الاحتلال الانجليزى . وكان يبنا أن تركيا إذا قبلت فى الزمن الماضى مرامى إنجلترا فى مصر ، فأن هذه كانت تحرم لامحالة كل نصير دولى !

« ورغماً من غض شبابه ، قد نال فى كل الشرق وفى جميع بلاد الاسلام الشهرة الفائقة ، والمركز الشريف الاسمى . ويمكن القول بأن بنى قومه ما كانوا يعجبون

بقوته فى علم الكلام فحسب ، تلك القوة التى تفتن الشرقيين عادة افتتاناً كبيراً ، ولكنهم كانوا يعجبون فوق ذلك بتلك الشعلة الوطنية التي كانت تجذبهم إليها بكلمة واحدة يلقيها على مسامعهم (مصطفى) . والتى كانت ممزجة بدمه إمتزاجاً لم يؤثر فيه ماأصاب شقيقه عليا . ذلك الذى حكم عليه الانجليز بالتجريد من رتبه وأوسمته العسكرية لحوادث وطنية ، ولم تؤثر فيه كذلك حادثة فاشودة ، ولا خيانة بعض أصدقائه وحلفائه القدماء ، ولا الاتفاق الفرنسى الانجليزى ، ولاشىء من الحوادث والغوائل التى تفتر معها همم الآخرين ، استطاع أن يطفئ حميته أو يغير عقيدته فى المستقبل وقوة رجائه فى حرية أمته واستقلال بلاده ! !

« بينما كان « مصطفى كامل » يناضل بالقلم واللسان عن حقوق بلاده ضد الاحتلال الانجليزى ! أسس مدرسة بالقاهرة فى سنة ١٨٩٨ وأسماها باسمه «مدرسة مصطفى كامل » . وما كان غرضه من تأسيسها إلا أن يقدم للنشء المصري تربية وتعليما وطنيين ، وأن يضرب بها مثلا لبنى وطنه الاغنياء الذين ماعتموا أن قلدوه وأنشأوا المدارس العديدة المزهرة !

« إن لهـذه المدرسة مزية ، فبيناهي تقدم تعليماسليما لابناء القادرين تقدم فى الوقت نفسه هـذا التعليم عينه لأبناء الفقراء مجاناً وهم نصف طلابها (وذلك بهمة الغيورين من المصريين الصادقى الوطنية لمعاونتهم فى كل عام قسمها المجاني على النهوض حباً فى رجـل ذهب ضحية تفانيه فى حب وطنه وأمته)

« إن بعث مدارك عالية من الاوساط المنحطة ، وتوثيق عرا الاخاء الذى دعا إليه النبى الامين ، ومؤازرة الصغار على أن يفتحوا لهم فى كبرهم سبيلا إجتماعية ، تلك التى سدها الانجليز فى وجوههم وفتحوها للموسرين فحسب ، كل هذه أغراض «مصطفى كامل »الشريفة وآماله النبيلة تجاه أمته ووطنه !

« لقـد حضرت في سنة ١٩٠٤ بالقاهرة حفلة توزيع الجوائز في «مدرسة مصطفى كامل » وسمعته يخطب فى أبنائها الفقراء والاغنياء وفى جمع يقدر عدده بأربعة آلاف نسمة فى يوم من أضوأ أيام مصر البهية ! وأعجبت كل الاعجاب بهذه النهضة الوطنية !

« كان « مصطفى كامل » يحارب بجميع الوسائل ، تثبيط الهمم والتفرقة ،

ونقص الوطنية ! وأنها ثلاثة معاول هددت مصر ولاتزال تهددها وكانت ولاتزال أشد خطراً عليها من المغير نفسه !

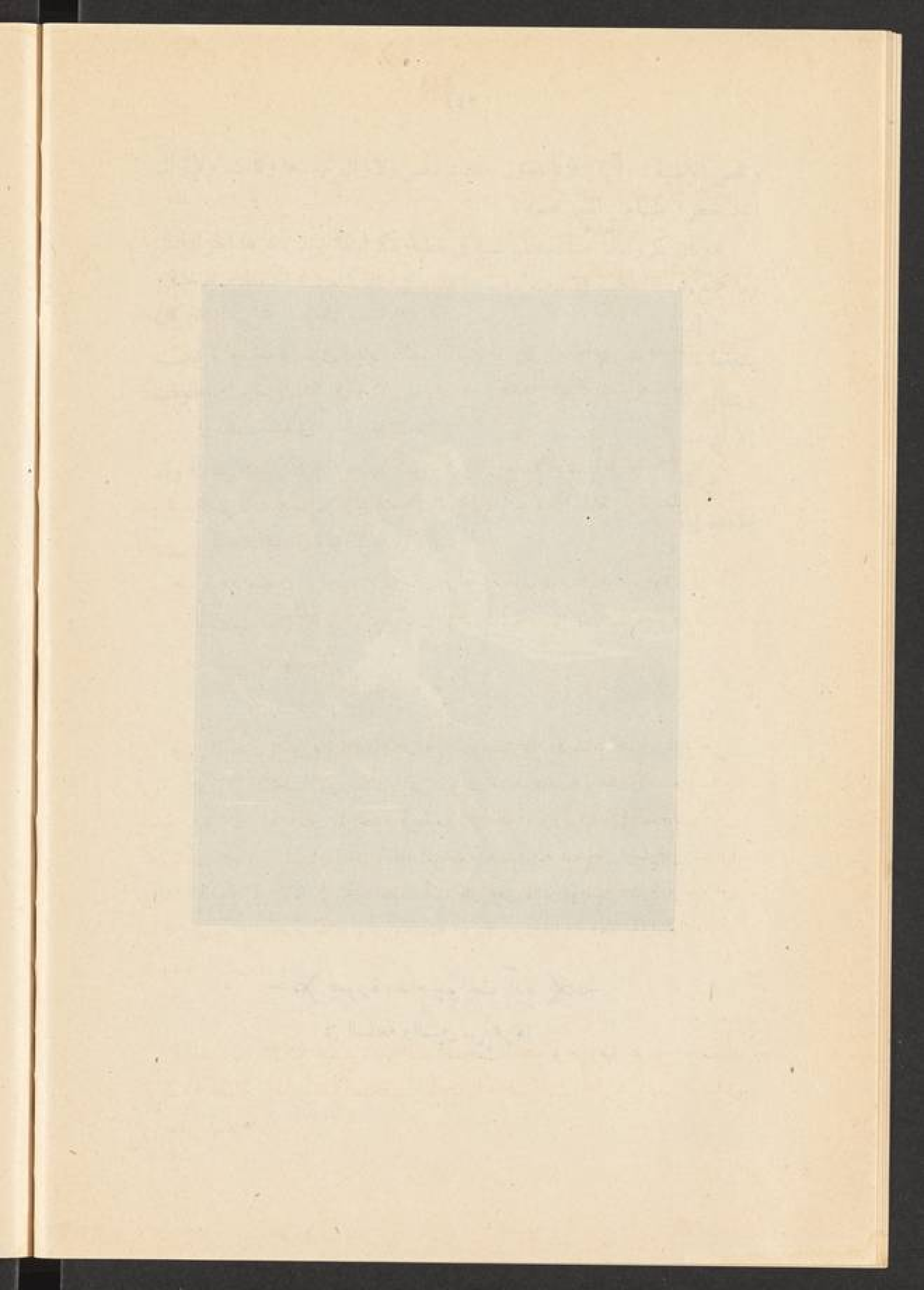
«وكان يكرر غالباً نصائحه لمواطنيه فى خطبه وتكرارها يزيد تأثيرها اطرادا... وما جميع نغمات الوطنية إلا ذات صوت واحد ، كانا نذكره : « لتسقط قرطاجنة»

« إن أعظم ما كان في أعمال « مصطفى كامل » إزاء مصر الحديثة ، أنه كان يشفعها بالتقاليد القديمة القائمة على أصول العلم العربى الذى ساد العالم عدة قرون وبتقاليد العلم الحديث ، حتى بذلك يرضى شمم عنصره الذى لايقبل فى هذا الوقت إلا أن يسترد ما أعاره أوربا فى تلك العصور !

« كافح (مصطفى كامل) فى داخل بلاده وفى خارجها كفاحاً كبيراً وقد ساعده إباؤه على تبوء أكبر مقعد وطنى بين أبناء وطنه . . . . » اهـ



صورة مدام چوليت آدم
في السابعة والستين من عمرها



***

هذا ولقد توطدت العلاقة بينه وبين المرحوم الامير محمد ابراهيم بن الامير ابراهيم باشا بن بطل مصر العظيم إبراهيم باشا في أواخر سنة ١٨٩٩ م

وقد كان لهذا الامير المبرور شغف كبير بالسياسة والجيش حتى التحق بمعية الخديوى السابق ياورا برتبة البكباشى ..

أنفق رحمه الله فى سبيل إنقاذ بلاده المال الوفير وفى استطاعتى أن أقدر ما انفقه على الصحفيين وشركات البرق وكبار ساسة أوربا لخدمة المسألة المصرية بما لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه فى أربع سنوات ...

وكان من صفات ذلك الامير المذكور فى التاريخ بالاعجاب أنه ما كان يذكر عن نفسه حتى مماته مايشير إلى عمله أو إلى فضله ! بيد أننا نذكره عظيما كبيرا وسيبقى ذكره خالدا إلى أبد الآبدين ...

هذا ولقد سمعت المرحوم الامير محمد ابراهيم يقول للمترجم مرة وهو في زيارتنا!

« لو يتطلب جلاء الجنود الانجليزية عن بلادنا مالي وحياتى لقدمتهما بلا تردد » ....

رحمه الله رحمة واسعة ..

***

ومن الرجال الذين عاونوا المترجم وأحبهم حبا جما الاستاذ الجليل عبدالعزيز فريد بك (مدير التعليم الآن بمديرية بني سويف) ... فقد كان هذا الاستاذ الكبير ينسخ بيده الكريمة خطب المرحوم ويطبعها على الغراء ويرسلها إلى الصحف ، بل كان يقف على باب المكان المعد لالقاء المرحوم خطبه فيه ليصحب العارفين لسماعها من علية القوم إلى الاماكن التى أعدت لهم. كان يفعل ذلك بوطنية نادرة واخلاص تام غير خاش أن يفصله المحتلون من وظيفته التي كان يشغلها إذ ذاك بوزارة المعارف العمومية !

***

ولقد كانت علاقته بجميع أصحاب الصحف المحلية ومحرريها عربية كانت أو افرنكية حسنة جدا ماعدا الصحف الاحتلالية فقد كانت تحاربه بأدنأ الوسائل وبأحقر السفاهات ...

ومن بين العلاقات الودية الكبيرة علاقته بالمرحوم المبرور الاستاذ العظيم بشاره تقلا باشا . ذلك الذى تعرف إليه كما ذكرنا بواسطة صديقه الحميم الاستاذ الجليل والشاعر النادر المثال كريم المحتد خليل بك مطران ....

كان المرحوم تقلا باشا يكرم فى مصطفى القلم والفكر المنبعثين عن شعلة الوطنية المتأججة في نفسه حبا لوطنه وسعيا لتخليصه من ربقة الذل والاستعباد . . . وكان مصطفى يكرم فيه مكارم الاخلاق وحبه لمصر وفتح أبواب الاهرام لجميع الوطنيين المخلصين . . . وكان المترجم يحترم فوق هذا الاحترام المرحومة قرينة تقلا باشا تلك السيدة التى كانت قدوة صالحة للسيدات فضلا عن ذكائها النادر وحبها للوفاق والوئام بين الرجال العاملين لتخليص مصر . . ولقد أودعت مع المرحوم زوجها — المذكور فى تاريخ هذا البلد بالاجلال والاعظام — صفاتهما الكريمة فى نفس نجلهما العزيز جبرائيل تقلا بك صاحب الاهرام الآن ، اذ يقوم لوطنه مصر بأجل الخدم . حرسه الله ووفقه لخدمة الكنانة فى مستقبل الايام كما خدمها في الماضى بصدق وإخلاص

ومن الصحفيين الذين أحبهم حبا كبيراً واحترمهم احتراما عظيما الكاتب البليغ داود بك بركات....

وكذلك كانت علاقة المترجم فى بدء حركته السياسية بالمرحوم الاستاذ الشيخ على يوسف صاحب المؤيد من أصدق العلاقات وأمتنها .

ومن بين الصحفيين الذين أجلهم وأخلص لهم الحب صديقنا الجليل الكاتب القدير الاستاذ محمد مسعود بك ...

هؤلاء واؤلئك كانوا معه على وفاق تام وكانوا عصبة واحدة على الاحتلال وأذنابه وسماسرته من كل وغد زنيم أو مشاء هماز بنميم . . . حتى إذا ماشعر بأن السياسة تقضى عليه بانشاء صحيفة وطنية خاصة اتفق معى على إصدار جريدة يومية باسم اللواء . . . وسنبدأ بذكره في الجزء الثانى بمشيئة الله وسيكون شاملا لاقوم صحف المترجم فى حياته فأن حياته السياسية العظيمة ابتدأت من ظهور «اللواء» والله ولي التوفيق . . .

مشتملات الكتاب

الجزء الأول

صفحة	موضوع
١٣٩	تقييد اسمه فى المحاماه
١٤١	المحكمة المخصوصة
١٤١	قدوم مسيو ديلونكل إلي مصر
١٤٤	بدء سفره لخدمة القضية المصرية
١٤٦	عريضة لمجلس النواب الفرنسى
١٤٨	تعليقات الصحف على العريضة
١٥٥	خطاب من ضباط الجيش لمصطفى كامل
١٥٧	مصر والسياسة الفرنسية
١٦٠	وليمة فى طولوز
١٦٢	أول مكاتباته مع مدام جوليت آدم
١٦٨	ماوراء السياسة الانجليزيه الحاضره
١٧١	فى فينا
١٧٥	أخطار الاحتلال الانجليزى
١٨٢	تعليق مدام جوليت آدم
١٨٥	إلغاء الارسالية المصريه وحديث المترجم
١٨٩	بدء اضطهاد الضباط الانجليز لشقيق مصطفي كامل
١٩١	حديث مع جريدة الجولوا
١٩٤	رد المترجم على خطاب اللورد سالسبري
٢٠٦	خطاب المترجم لمستر غلادستون
٢٠٨	رد المستر غلادستون
٢١٠	تعليقات الصحف على خطاب غلادستون
٢١٩	الجرائد الانجليزية وخطاب غلادستون
٢٢٣	خطاب ثان من المترجم لمستر غلادستون

صفحة	موضوع
٣١١	حيلة المحتلين لاقتراع المترجم للجندية
٣١٥	نواة تسند زيرا
٣١٧	اسئله رجل امريكاني
٣١٨	سفره إلى فينا
٣٢٠	حديث مع الدكتور ريزر
٣٢٥	فى بودابست
٣٢٥	ماجياد نود لا بكا
٣٢٨	فى برلين — وحديثه مع ذى برلينرتا جبلاط
٣٣١	خطاب المترجم لمدير الليبرتيه
٣٣٦	تلغراف سياسى من المترجم إلى السلطان عبد الحميد الثاني
٣٣٦	خطابه للفاردلكسندري بسبب هياج اليونان
٣٣٨	خطاب إلى مدام آدم بشأن الحرب التركية اليونانية
٣٤٠	سفره إلى أوربا مرة أخرى وتلغرافه للسلطان ورئيس
٣٤١	الوزارة الانجليزية
٣٤٢	البستر لويد
٣٤٧	حديثه مع لكلير
٣٥٣	كلة المترجم فى عيد الجلوس السلطاني
٣٦٠	دسيسة احتلالية
٣٦٣	خطاب من مسيو جاستون كالمت
٣٦٧	كلة المترجم فى حفلة الطلبة المصريين
٣٧٩	خطاب المترجم لجريدة لوريان
٣٨٣	حديثه مع لا كوريري ديطاليا
٣٨٩	خطاب من ريزر للمترجم ورده عليه

الصور

الأسماء على حروف الهجاء

— ا —

ب

ج

— م —

خ

غ

تصحيح

خطأ	صفحه	سطر	صواب
التيل	٣١	١٦	النيل
نحيل	٣٨	١٥	نخيل
عمرة	٤٢	٢٤	عمره
طرقا	٤٣	٠١	طرفا
ولدي	٤٧	١٤	والدى
أ أساتذتها	٤٨	٠٧	أساتذتها
أحد	٥٦	١٦	حد
ضاحبه	٦٦	١٣	صاحبه
عزيرا	٧٦	٢٠	غزيرا
عار	٩٥	٠٢	وعار
أخوابه	٩٥	١١	إخوانه
كتاب	١٠٤	٢٦	كناب
طلب	١١٧	١٦	طالب
الذري	١٣٨	١١	الذرا
واد	١٣٩	٠٧	وادى
هاجو	١٣٩	١٩	هاجوا
الثلاث	١٥١	٠٥	....
في بلادهم	١٥٢	١٩	فى مرافق بلادهم
لانعرف	١٦٧	١١	لاتعرف
آخر	١٧٥	١٢	أخر
عظيمة	١٧٨	٢٠	عظيم
كتابا	١٩٤	١٥	...

خطأ	صفحة	سطر	صواب
شفاتنا	١٩٩	١٦	شفاهنا
بشده	٢٠٠	٠٨	لشدة
حرب	٢٠٦	٢٢	حزب
لانكليز	٢١٧	١١	الانكليز
الانكليز	٢١٨	٠٧	الانكليزية
لوجه	٢٢٥	٢٦	الوجه
الضباط	٢٣٠	١٥	الضابط
كانو	٢٣٢	٥	كانوا
شفيق	٢٣٥	١٣	القائمقام شفيق
الذين هم	٢٣٨	٢٣	الذين
) فيمابعد	٢٥٢	١٩	فيما بعد)
رحمة	٢٥٧	٧	رحمه
كال	٢٧٥	٢١	كل
صادقون	٢٧٦	١٠	صادقين
ملاء	٢٩١	١٩	ملأ
نخباء	٢٩٧	١٣	نجباء
فأن مصر	٣٠٧	١٠	فأن مسئلة مصر
كأنة	٣١١	١٨	كأنه
تقضيه	٣١٢	١٠	تقتضيه
علاعة	٣١٢	٢٥	علاقة
هذ	٣١٣	١٠	هز
أنى أذكر	٣١٧	٢٢	أذكر أني
أوربية	٣٢٦	١٧	أوربيا
المختلطه	٣٢٩	١٩	المختلطة
وتقنا	٣٨١	٩	رتقنا

انجلترا في مصر

ألفت مدام جوليت آدم الفرنسية الطائرة الصيت هذا الكتاب القيم
لتخدم به المسئلة المصرية وقد عربه سعادة على فهمى كامل بك وثمنه أربعون
قرشا بما فيها أجرة البريد . ويطلب من مطبعة الدفاع الوطنى بشارع
الكرداسى (الهدارة) رقم ٩ قسم عابدين بالقاهرة . ومن جميع المكاتب
وفى الاسكندرية يطلب من إدارة جريدة وادى النيل

